إحسان نراغي





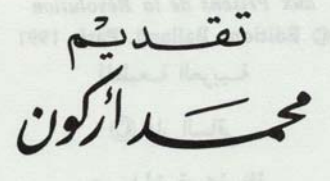
من بلاط الشاه إلى سجون الثورة

تقديم
محمد أركون



إحسان نراغي

من بلاط الشاه إلى سجون الثورة





ترجمة

ماري طوق



إهداء للأخت الفاضلة
أسماء

إحسان نراغي

من بلاط الشاه إلى سجون الثورة

تقديم
محمد أركون

ترجمة
ماري طوق



اهداء للأخت فاطمة
نجلاء
مع تحياتي
Ketab_n

إحسان نراغي

من بلاط الشاه إلى سجون الثورة

تقديم
محمد أركون

ترجمة
ماري طوق



مكتوب على زرقة السماء بأحرف من ذهب:
على هذه البسيطة، لا يبقى من الناس إلا مآثرها

حافظ
(١٣٢٠ - ١٣٨٩)

الطبعة الثانية ١٩٩٩

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع معهد العالم العربي في باريس

ISBN 1 85516 755 7

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

لذكرى أمي،

لزوجتي وعبرها لكل زوجات المعتقلين وأمهاتهم أينما كنَّ

مقدمة للطبعة العربية

هل من الممكن اليوم وجود مثقف مسلم؟

بقلم محمد أركون

هذا السؤال سيواجه حتماً كل قارىء لكتاب إحسان نراغي، كما سبق أن واجهني خلال مسيرتي كجامعي وباحث ومحلّل ناقد للفكر الإسلامي. فمن المعروف أن مفهوم المثقف كما ترسَّخ في أوروبا، منذ أبيلار أو مونتاني أو إيراسموس، أو حتى خلال القرن الثامن عشر الفرنسي، ليس له مثيله الصحيح عند العرب.

كان الأديب في المرحلة الكلاسيكية يضطلع طبعاً ببعض وظائف المثقف الأوروبي، ولكنه كان أشد استناداً إلى الثقافة العامة والمعارف الضرورية التي تخوّله الانتساب إلى الحلقات المدينية، حيث يتم تبادل العلوم كلها تبعاً لآداب سلوك وتقاليد وخطط تتصل بالارتقاء الذاتي وتحدّ من ممارسة الوظيفة النقدية، كما يشهد على ذلك النموذج الفريد لأبي حيان التوحيدي (المتوفى ١٠٢٣).

وليس ذكر أبي حيّان عرضيّاً، لما كانت تتحلّى به شخصيته من روح يقظة وناشطة وصارمة وحريصة على التماسك الأخلاقي والسياسي في مجتمع إيراني ـ عراقي يحكمه أمراء ديلميون (إيرانيون). فقد أراد أبو حيّان، كما إحسان نراغي فيما بعد، أن يكون الناقد المؤثّر والصريح والحازم لحكام عصره في الري ـ طهران القديمة ـ وفي بغداد وشيراز. وقد كتب هجائية جريئة مرهفة فكرياً ولافتة، ضد وزيرين كبيرين من وزراء عصره، وهي بعنوان: «مثالب الوزيرين».

لا شك بأن نراغي مطلع على تراث إيراني قديم يجسّده أدب «مرايا الملوك» المرتقي

إلى عهد الساسانيين، والذي أعاد إحياءه، على مراحل، أدباء مثل ابن المقفع وسليل بن هارون ومسكويه ونظام الملك وناسي الخبروف... الخ.

وأثناء مقابلاته مع الشاه، يلتحق نراغي ضمنياً بممارسة تجيز للمثقف ـ الأديب، بفضل علمه ورصانته وتجرده الأخلاقي وتفانيه لخير الحاضرة («المصلحة» الشهيرة التي يلتمسها المشترعون الفقهاء المسلمون)، تبيان الحقائق للأمير والانتقادات والتحذيرات التي كان يجهلها تماماً.

المثقف ـ الأديب، في ما لو عيّن قاضياً عند الاقتضاء، لا يتماثل مع العالِم الأكثر اختصاصاً في الإعداد والإيضاح وتطبيق الأحكام التي يؤلّف مجموعها الشريعة. والعالم، مبدئياً يسهم في تحديد الشرع والسهر عليه. أما المثقف ـ الأديب، فلا يمكنه الانخراط في هذا المجال، ولكن بإمكانه أن يقيم مع الحاكم علاقة تواطؤ تنهض على تبادل حر ومستديم للمسائل الأخطر في الحياة السياسية والاجتماعية، كما في الأخبار النافلة للحياة اليومية.

نقع على هذا كله في أحاديث نراغي مع الشاه التي لا تفتأ تزداد جسارة وانفتاحاً وانتقاداً من دون أن تتخلى عن رصانتها. ولئن كان الشاه فريسة للقلق المتعاظم الذي أثارته في نفسه الضغوط الاجتماعية وتجاوزات «السافاك» وشيوع الأفكار السياسية ـ الدينية وتحفظ الأصدقاء الغربيين أو تنصّلهم، فقد اتخذت أقوال المثقف ـ المستشار، أهمية لم تكن مألوفة في سياق إسلامي ينتفي فيه مفهوم دولة القانون، أي حماية الفرد المواطن.

في هذا المناخ، مناخ ما قبل الثورة، يستطيع المثقف أن يجيز لنفسه جرأة أكبر، ويمكن للأمير الاعتراف ببعض الصدقية السياسية لأقوال لم تحمل في العادة على محمل الجد، أو كانت غير موجودة، ببساطة.

لا يهم كثيراً، وقد فات الأوان، أن نقيّم صدقية المعلومات والتحذيرات والآراء والتحاليل الجزيلة التي يقدمها المثقف ـ المستشار. ولن نتوقف كثيراً عند هذا الجانب، ولا سيما أننا نعرف جيداً الردود المأسوية والقاطعة للتاريخ. حيال ذلك، لعلّ تقفي مصير نراغي في سجون الثورة يُلقي المزيد من الضوء.

إن مثقفاً استطاع أن يكون له باب إلى قصور الشاه الباذخة، وإن كان الأمر يتعلق بانتقاد سياسته ودفعه إلى احترام أكبر لقيم الشعب والإسلام، لا يمكنه أن ينجو من

صرامة الثوريين. نتذكر هنا نموذجاً آخر شهيراً هو ابن المقفع (المتوفى حوالى عام ٧٥٧)، كاتب الرسالة الشهيرة للخليفة المنصور[1] الذي اغتيل أثناء ما يسميه المؤرخون الثورة العباسية. وعلى رغم أن عصوراً تفصلنا عن ذلك، إلّا أنه يمكننا التحقق من استمرارية نموذج ما لالتزام المثقف وهشاشة عمله ونبذ كتاباته أو مقالاته والارتياب من حضوره ضمن السياق الاسلامي.

هذا علاوة على الشجاعة والصبر وحس التواصل وإرادة الكشف والتيقظ النقدي وصرامة الرأي والأمل بالإقناع، للحدّ من التجاوزات واستباق ما يتعذّر إصلاحه وفتح آفاق للتقدم. كل ذلك يجب أن يمتحنه المثقف أمام المؤيدين في المطلق للنظام الغربي، ثم حيال المسؤولين المتعجرفين عن «كلام الله».

إحسان نراغي الذي وُلد وترعرع في ظل عائلة متجذرة في التراث الإسلامي ومنفتحة في الوقت نفسه على حداثة منضبطة، لا بد أنه أفاد من هذه الصفات كلها والمهارات لكي ينقذ حياته ويستعيد حريته بعد ثلاثين شهراً من السجن في ظل نظام الخميني.

تفاجئنا الرصانة والتفهّم الودود اللذان يتقبل من خلالهما اعتقاله مقيماً علاقات حسنة مع جميع الأشخاص الذين صادفهم في السجن الذي رأى فيه «عالماً سوسيولوجياً مصغّراً يعكس بأمانة حقائق الثورة». لا شيء من التمرد العقيم أو الحقد، بل انصهار تلقائي غير مفتعل في كل الأشكال التي يعبّر المجتمع من خلالها عن نفسه. لا شك بأن السجن منذ الخمسينات، وهذه ليست حالة استثناء، كان بالنسبة لشخصيات عدة من مجتمع العالم الثالث، الممر الذي لا غنى عنه للوصول إلى مناصب الوزير والسفير ورئيس الجمهورية[2]. لكن نراغي يبقى مع ذلك مثقفاً متنبهاً لمصير مواطنيه والعالم الاسلامي أيضاً. وعندما أطلق سراحه فضل الرجوع إلى منصبه في الأونيسكو حيث عيّنه رينيه ماهو في عام ١٩٦٩ مديراً لنشاطات الشباب.

وهكذا، أفاد نراغي من تجربته الثمينة في مهمته المتعثرة أكثر من أي وقت مضى كوسيط ثقافي بين مجتمعات اسلامية فريسة للانحرافات الايديولوجية وإخفاقات معظم الأنظمة في المجالات السياسية والاقتصادية، وغرب لا يتخلى عن استراتيجياته الهادفة إلى الهيمنة والاستغلال. وقد أنجز نراغي لتوه شهادته عن نهاية الشاه وبدايات الثورة من خلال مقاربة أخرى تلقي ضوءاً على تطور تاريخ ايران في كتاب «التعليم

والتغيرات الاجتماعية في ايران من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين» الصادر عن دار العلوم الانسانية، باريس ١٩٩٢.

وهكذا، فإن مسيرة نراغي تظهر إمكان قيام المثقف، في المجتمعات الاسلامية، ببعض مهمات المثقف المعاصر: الالتزام بأسبقية حقوق الفكر في قول الحقيقة مهما تكن خطورة الظروف، حماية الكرامة الإنسانية حين تضاعف الأهواء الثورية الابتزازات والإعدامات السريعة والأحكام الاعتباطية، اللجوء إلى جميع وسائل الانفعال والتأثر والعقل السليم والرموز الأخلاقية الدينية التقليدية في سبيل إنقاذ حياة بشرية، التخفيف من ظلم، نجدة بريء، إيقاف آلية عشوائية، هزّ الضمير، إرشاد مسؤول، التحلي بالمروءة لمتابعة صراع غير عادل حين تكون حياة المرء في خطر... هوذا مفهوم ونموذج معاش لدور المثقف المسلم، نموذج شائع ولكن أسيء اعتباره منذ أن حطّمت الايديولوجيات الداعية للتحرر والبناء الوطني كل أشكال التضامن وممارساته التقليدية.

من البديهي أن حضور المثقف المسلم هذا في مجتمعات مبلبلة وممزقة ومشتتة ومهدّدة من الداخل والخارج، ضروري، ولكنه ليس كافياً.

لا يمكن أن نتوقع من فرد وحده تخفيف المآسي المباشرة، والمبادرة في الوقت نفسه إلى القيام بعمل جذري لإعادة تأسيس وبلورة نظام القيم ومبادىء التشريع والإطار الفكري للتحليل والتقييم بهدف إدراج المجتمعات الاسلامية المعاصرة في مسيرة التاريخ. وهكذا يتخذ السؤال المطروح في البداية ـ عن دور المثقف المسلم، من خلال ارتباطه بهذه المهمة التي ينتظرها ويلتمسها ملايين الرجال والنساء اليوم، كلٍّ بعده الحقيقي.

إن مهمة إعادة التأسيس تتطلب في الواقع، إعادة نظر تاريخية وإناسية (انثروبولوجية) وفلسفية وفقهية لأصول الشرع الإسلامي كما أعدّها المفكرون القروسطيون السنّة والشيعة وصاغوها وطبّقوها. فـ «الثورة الاسلامية» التي قادها وفرضها الخميني تستند تحديداً إلى المسلّمة التاريخية الفقهية الهائلة التي تقول إن الفكر الشيعي الإمامي في القرون الوسطى (٧٥٠ ـ ١٠٥٠) يحتفظ بكل صلاحيته الفكرية والروحية والقضائية بالنسبة إلى مجتمعات اليوم. ويبدو الخميني كمصلح للشريعة الاسلامية المتجسّدة في الأئمة الاثني عشر الأوائل، والتي حالت دونها سلسلة طويلة من الأنظمة غير الشرعية «الطاغوت» وصولاً إلى الشاه رضا. والإصلاح يبدأ من

خلال إحياء لغة قرآنية محمّلة بثورية أثقل وأفعل نظراً لاستيعابها، منذ الثورة الاشتراكية في روسيا، لكل النضالات والقوة الايديولوجية للخطابات الماركسية ـ اللينينية. وكما تواجه البروليتاريا والبورجوازيون الرأسماليون، يتواجه المستضعفون والمستكبرون. حيال الكفر والاستكبار، وتنتصب، العدالة الثابتة والنهائية التي سيقيمها المستضعفون بعد أن وضع الخميني المبادرة التاريخية بين أيديهم، وذلك في «يوم الله» في ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩، وخلال الأيام العشرة الممتدة بين ٢ شباط (فبراير) و١١ منه والتي دعيت بالفجر.

وهكذا يؤلف المستضعفون حزب الله حين تكتمل الهجرة، هجرة الخميني من النجف إلى باريس، على غرار النبي حين هجر مدينة الكفار والمشركين والمنافقين، ليشيّد بمعونة الأنصار والمهاجرين المدينة المتلائمة مع إرادة الله، مؤكداً بذلك انتصار الرسالة التاريخية والأخروية على نحو لا انفصام فيه.

لدى ذكر الاستشهادات التي غذّت الإعلام المكتوب والمحكي والخطب الرسمية والأحاديث اليومية في إيران منذ «يوم الله»، تطالعنا بوضوح قوة مفردات ذات دينامية تاريخية جسّدها بحدة تاريخ الاسلام الأول (٦١٠ ـ ٦٦١)، ومن ثم المقاومة الشيعية للغاصبين الأمويين والعباسيين، وصولاً إلى الذروة مع مصرع الإمام علي وولده الحسين. ولكن، من المهم أن نفهم أن هذا النموذج يتكرر في الأوضاع الثورية كلها سواء في المسيحية خلال عصر الأنوار في أوروبا، أو أثناء النضال للتحرر من الاستعمار، أو مع الانفجارات القومية المعاصرة.

يمكن وصف هذا النموذج بالإسلامي ما دامت المسيرة التاريخية لظهور الجماعة المسلمة الأولى في الحجاز، وما دام التعبير المؤسطر الرفيع جداً الذي منحها إياها القرآن، يشكلان أول توضيح سياسي واجتماعي ومؤسساتي وقضائي وديني احتفظ حتى أيامنا هذه بقدرته على التكرر والانتشار والصدقية التاريخية التي لا نجد لها مثيلاً (خصوصاً حين نستعرض النهاية المأسوية الشاملة والحتمية للماركسية ـ اللينينية).

إن هذه القدرة على الانتشار والصدقية هي التي تفسّر التصدير السهل للثورة الاسلامية إلى بلدان سنيّة مثل مصر والجزائر، أو الدعوة إلى شرعية اسلامية في الأنظمة على اختلاف أنواعها كالباكستان والمغرب والسودان والعربية السعودية. . .

نتحقق إذاً لماذا لا يستطيع المثقف الموثّق بمثل هذه القيود التاريخية والسياسية والايديولوجية أن يبادر علانية وطوعاً وبثقة إلى عملية إعادة تأسيس لمبادىء الشرع

الإسلامي ومسلّماته. فمفهوم الشرع الاسلامي هذا شكّل محوراً لمناقشات نظرية خصبة ولصراعات سياسية - اجتماعية حادة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بين السنة والشيعة. وقد أعطاه التيار الإسماعيلي صيغة فقهية - فلسفية وتجسيداً سياسياً مع الفاطميين من سنة ٩٠٩ إلى ١١٧١ .والصراعات من أجل الشرعية كانت تعود دائماً في المناخ الاسلامي إلى خلفية نموذج المدينة، كما بنته وأعادت تشكيله المخيلات الاجتماعية المحلية المتنافسة فيما بينها، ولكن التي تحرّكها بانتظام مزايدة احتذائية لإحياء النموذج الحق. (الاقتياد بتصرفات النبي في المدينة وتعاليم علي وخلفائه الشرعيين، من أجل خلق أرثوذكسية أكثر «أصولية» من أرثوذكسية السلطة القائمة التي تجب إطاحتها).

لقد عمل الخميني ومؤيدوه على إثارة هذه النوابض القديمة، لكن الناشطة أبداً، لاستبدال الطاغوت، أي النظام الجائر واللاشرعي، بالشرعية الاسلامية. والحركات الاسلامية تعاود المزايدة الاحتذائية نفسها من أجل دحر الأنظمة المرتبطة بالطاغوت الغربي. . . تلك الأنظمة، كحزب التحرر الوطني في الجزائر، التي استندت إلى النموذج الاسلامي، إنما بهدف توطيد شرعية بعيدة عنه في الواقع - كنظام الشاه - وإلى إجراءات ديمقراطية سارية الاجراء في أوروبا، أي أنها استندت إلى مبادىء الشرعية الاسلامية المذكورة كشعار تعبوي لا كممارسة فكرية وقضائية وثقافية.

إن الميزة المشتركة بين جميع أشكال اللجوء إلى الشرعية الاسلامية بهدف الاستيلاء على السلطة، منذ نهاية الفاطميين، هي اختفاء المناقشات النظرية التي جسّدتها خلال الحقبة الكلاسيكية، السور المتعلقة بالإمامة في الدراسات الفقهية الرئيسية (أصول الدر). واليوم، الفقه غير كافٍ لإعداد شرعية تبحثها مجدداً فلسفة القانون والإناسة القضائية وتاريخ المؤسسات وتارخ أنظمة الفكر اللاهوتي والفلسفي وعلم الاجتماع وإناسة الحداثة. . . الخ. لقد بقيت كل أشكال السلطة وجميع الأجهزة المختصة بالدولة التي ظهرت في نطاق العالم الاسلامي، منعزلة عن الأبحاث والمناقشات النظرية التي جرت حصراً في الغرب الليبرالي بين ١٩١٧ و١٩٨٩.

وأزمة العقل السياسي[٣] إنما تفاقمت ليس فقط منذ إسقاط دكتاتورية البروليتاريا، بل أيضاً منذ إسقاط الأسس الفلسفية والعلمية للاشتراكية ضمن مناخ الفكر النقدي والأبحاث والتجدّد الذي تصفه العبارة الشهيرة «نهاية التاريخ»[٤]، ويستمر الفكر الاسلامي في انقطاعه عن أصوله، وفي الوقت نفسه عن المغامرات المعاصرة للعقل

بحثاً عن أسس علومية جديدة وعن أشكال لمعقولية تسمح بتخطي المعارف المغلوطة أو التي بطل زمانها[٥].

لا شك أن المعارف المغلوطة المتوارثة من الماضي، من ماض أسيئت دراسته ومعرفته، تستمر في كونها أكثر تكيفاً مع الوضع الراهن للمجتمعات الاسلامية من الانتقادات السبّاقة للفكر المعاصر، مما يفسّر مقاومتها المتعاظمة لما تدعوه باحتقار العلم الغربي، مصادرة في الوقت نفسه على علم اسلامي متطور لكونه متجذّراً انطولوجياً في كلام الله. هذه المعارضة الايديولوجية لا ترتكز على أساس فكري. ويُفترض أن يتم تجاوزها من خلال إناسة نقدية للحداثة وإعادة تحليل لكل الموروثات الدينية وليس فقط، بطبيعة الحال، للتدريس الإسلامي. هذا هو الشرط اللازم لاندراج جميع المجتمعات الحديثة والتقليدية، المتطورة، والتي في طور التطور، في المرحلة المستجدة لتاريخ تضامني. التضامن في البحث العلمي وتطبيق نتائج هذا البحث على كل المجتمعات يشكّلان ضرورتين جديدتين بالنسبة إلى العلماء والقيّمين على القرارات السياسية والاقتصادية. وعلى الشرعيات الفكرية أن تتقدم الشرعيات السياسية والاقتصادية وأن تؤسسها. في حين أنه لغاية الآن، لم تساهم الانجازات العلمية المتقدمة في عدد محدود من المجتمعات، سوى في تعزيز الهيمنة التكنولوجية والسياسية للمناطق التي تتمتع بامتيازات تاريخية وجغرافية واقتصادية.

يُفترض بالمجتمعات الكولونيالية سابقاً أن تتحرر من هذه الهيمنات المتكررة لكي تتمكن من مواجهة التغيرات الملحة التي تفرضها الحداثة العلمية والتكنولوجية. أما الحركات الأصولية والمطالب المتصلّبة فتشكل ردات فعل معينة على الضغوطات الخارجية ونتيجة لعنف بنيوي معمَّم، وليس - كما يُصرّ كثيرون - تفجّراً لقوى ولمواقف لصيقة بالديانات «المتخلفة» وتحديداً الإسلام.

وتنسب المجتمعات إلى الأديان مهمات تتغير تبعاً لمتطلبات كل ظرف تاريخي. فالراديكالية الثورية المنسوبة إلى الإسلام منذ الثمانينات مرتبطة بضغوطات الديموغرافيا والدول - الأمم المتجاهلة لحقوق الانسان والأنظمة الاقتصادية والمالية الدولية والمخيّلة الشعبية، المتلاعب بها، أكثر مما هي مرتبطة بالنصوص المؤسسة للإسلام. وهذه المعطيات يجب أن تدرج في إطار عملية إعادة تشييد شرعية يفترض بها تبرير صفة الاسلامي باتباع مناهج أخرى وأدوات للتفسير مختلفة عن تلك التي اتبعها المفكرون القروسطيون.

هذه هي التطورات الحتمية، والمُحرِّرة، في رأيي، للفكر المعاصر، التي تستدعيها تجربة إحسان نراغي من خلال معالجتها لشكلين غير متلاحمين للشرعية في سياق اسلامي، وهما: شرعية الشاه التي تتوسل حداثة وهمية لا ركائز لها في المجتمع الايراني. شرعية تتنكر بعكس ذلك لوعود بالتطور الايجابي في بعض القطاعات التي تشدّد عليها اعتراضات نراغي وانتقاداته والحلول التي يقترحها، وتبتكر أيضاً كمؤثرات أخرى من التاريخ المعاصر. وشرعية الثورة الاسلامية التي تعانق رؤية أسطورية للماضي مع رفض دوغمائي لانتصارات الحداثة الايجابية (أعني تحديداً التحرر الملحّ للمرأة واحترام حقوق الانسان وإقامة بنية علمانية للسلطة الشرعانية وتثبيت دولة القانون وظهور مجتمع مدني قادر على تفشيل الانحرافات الايديولوجية للدولة والإعلاء من شأن الفرد ـ المواطن ـ الشخص...).

آمل أن تساعد الشهادة الحية التي قام بها نراغي، انطلاقاً من الوضع النموذجي لإيران، جميع العاملين في التاريخ المعاصر ـ في الغرب وفي العالم الاسلامي تحديداً ـ على التفكير في شروط تدفع الانسانية خارج الأنانيات القومية المقدسة والجماعات الطائفية أو الاثنية ـ الوحدوية المرتدة إلى مطالبات سلفية، وخارج الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات التي تشجّع في كل مكان استراتيجيات للإفادة والهيمنة المادية على حساب الرقي الروحي والأخلاقي والثقافي لجميع الرجال والنساء المدعوين إلى تأسيس حضارة جديدة، حضارة القرن الحادي والعشرين. لقد حاولت منذ حرب الجزائر وبإصرار، كما نراغي، أن ألتقط، في عبارات مناسبة، وأحيط بالآمال الكبيرة التي حرّكت تاريخ المجتمعات المتأثرة بالواقع الاسلامي والمنجذبة إلى النماذج اللغوية «الرسالة» النبوية[1] والمأخوذة بـ «الصور الرمزية المثالية» التي أسيء إدراجها في الفكر النقدي والعمل التاريخي التحرري. هذه الآمال تبعث في شكل احتجاجات واستنكارات وأحقاد ونبذ قابل للتفسير على رغم كونه خطراً. ومن واجب العقول النيّرة في زماننا إعادة توجيه هذه الآمال نحو أهداف العدالة والتضامن والرقي والكرامة، وهل أتجرأ وأضيف: الحب، التي تشكل دائماً هاجس كل ضمير بشري.

باريس، ٣٠ نيسان/ ابريل ١٩٩٣.

الهوامش

(١) «رسالة الصحابة».

(٢) أقصد بكلامي بورقيبة وبن بلّه وأحمد طالب الابراهيمي ونيلسون مانديلا... إنه لمن العجب الاستنتاج بأن أي فكر سياسي لم يتخلص من هذه الظاهرة القديمة والمتواترة دوماً، مبدأ للعمل، وكأن على العنف والقمع أن يبقيا شرطاً أولياً لاحترام حقوق الانسان والشعوب.

(٣) انظر رجيس دوبريه في:

Critique de la raison politique, Gallimard, Paris, 1988.

(٤) انظر ف. فوكاياما:

The End of History and the last Man, Free Press, New York, 1922.

(٥) انظر محمد أركون في كتاب «من فيصل التفرقة إلى فصل المقال، أين هو الفكر الاسلامي المعاصر»، دار الساقي، ١٩٩٣.

(٦) راجع رافاييل درايي:

cf. Raphaël Draï, La Communication. Prophétique, II. La Conscience des Prophètes, Fayard, Paris, 1913.

تقديم

بقلم فردريك مايور

لا شيء أبعد من تجربة نراغي التي أنجزها باتقان في كتابه «من بلاط الشاه إلى سجون الثورة» - تجربة تجمع بين الحقيقة التاريخية المتباينة والمقاربة المرهفة للنفوس - عن المانوية. ومع ذلك، فمن الأرض نفسها، من بلاد فارس القديمة، انطلقت تعاليم ماني وتلاميذه المانويين، برؤيتهم القصوى للطبيعة البشرية المتمثلة في صراع لا يرحم بين الخير والشر.

ينشر نراغي كتابه بعد أعوام عديدة على انقضاء المأساة الشخصية للشاه محمد رضا بهلوي الذي أنهى حكمه وأيامه متسكعاً تعيساً من فندق إلى فندق، يحل ضيفاً مزعجاً على البلدان التي كانت تدعوه منذ وقت ليس ببعيد، صديقها.

ظهر الكتاب في وقت كشفت فيه الثورة الخمينية عن قوتها وضعفها في آن، ملطّفة جانبها الدوغمائي من خلال تجارب قاسية وتعديلات، ومقيمة الدليل قبل كل شيء على الطابع المغلوط للتحاليل السياسية التي تصرّ على تقرير مصير الشعوب المتجذرة في ثقافات ومعتقدات مختلفة، استناداً إلى تصورات تدعي زوراً الكونية.

إن رسالة نراغي، بعيداً عن أن تكون متأخرة، تحدث وقعاً أكثر حالية مما لو تمّ نشرها قبل عشر سنوات، حين كانت لغة الحرب الباردة تحجب دائماً، ولو بشكل سيء جداً، الواقع العالمي المعقّد. حالما بدأت الايديولوجية الثنائية المشوّهة الرأسمالية والشيوعية بالانهيار مع سقوط جدار برلين، لاح من بين الأنقاض هيكل عالم منقسم أكثر من أي وقت مضى بين الأغنياء والفقراء. وهكذا ظهرت البنية الحقيقية لحياة

الشعـوب، بما هي أجسـام حية تغتـذي من نسغ اختـيارها الثقـافي وتغتني من تنوعهـا المتبـادل. وحدهـا مشـاريـع المستقبـل، مستقبـل مختلف جـذريـاً، لا تقيم عـامـة في المساحات الصاخبة التي تثيرها الأحداث التاريخية الكبرى.

من المأساة التي يرويها نراغي في أحاديثه، يتصاعـد انطبـاع بالحكمـة الظاهـرة أكثر منها حقيقة. في بادىء الأمر، نرى الشاه الجبـار، ملك الملوك، في إضاءة حميمـة تجعله مؤثراً تقريباً. وتظهـر فجأة لعـين الرجـل الذي استغـل سلطته بحـزم أعمى، المبهور بالعصرنة والمسحور بحليفه الأميركي الكلي القدرة، الأخطاء التي جعلته يحكم كطاغية الشعب الايراني، ولكن بعد فوات الأوان.

استـطاع نـراغي، أثنـاء الأحاديث المتسمـة بـرصـانـة غـير معهـودة، إقنـاع الشـاه بالاعتراف بالنقائص والعيوب وفساد هؤلاء الذين أحاطوا به لما كان مطلق السلطة، في حين تخلوا عنه ما إن شعروا بحلول الكارثة؛ وبالاعتراف أيضاً بانعدام حس المسؤولية عند أفراد عائلته الـذين أساؤوا إدارة الشؤون العـامة. وقـد عرف نـراغي، من خلال فن خاص به إظهار الملك عاريـاً، في ظرفـه الانساني المتـواضع وفي ارتبـاكه. فبـدا في تجرده من زخارفه الباذخة، أكثر عظمة.

بفضل الحوار المحمول إلى أقصى تبعاته، يظهر بحدة البعـد الأساسي لهـذه المأسـاة المتعددة، لهذه المأساة التي لم تتوضح معالمها تماماً إلّا في الوقت الحاضر: إن نظاماً يجهد لاحتلال دور الصدارة في المجتمع الدولي، ولا يرى الأخطار المهدّدة لامبراطـوريته إلّا آتيـة من الشيوعيـة، لم يكن قادراً عـلى أن يتنبه إلى أن الخـطر يأتي من الـداخل، من شعبه. كما أنه لم يتبين قـدرة الافتداء الجـماعي التي ينطوي عليهـا المذهب الشيعي ولم يفطن إلى امكانية انبثاق القيم المختبئـة في التقليد الاسـلامي مجدداً ولم يفهم أيضـاً أن للتفجـر الثوري صلة ضئيلة بـالمؤامرات الهـدامة التي يحيكهـا المنـاضلون المـاركسيـون ووثيقة بقوة الثقافة. الشاه نفسه يبدو أسير الايـديولـوجياتِ أكـثر مما هـو أسير الحـرب الباردة.

في الواقع، محاورو الشاه الايرانيون والأجانب، كما يحلّل الكـاتب برصـانة، حـالوا بينه وبين سماع حجج الشعب في الوقت المناسب، الـذي كان يـطالب باحـترام هويـة صهرها تاريخه السحيق. عندما توصّل الشاه إلى استيعاب فداحة جراح الشعب، كان الأوان قد فات. برز إذ ذاك عالمان ولغتان وأكثر وضوحـاً من ذلك كله، أمثـولة: ثمن رفض النظر في القوى الدينية الداخلية للإسلام.

الأحداث التي طرأت في هذه السنوات الأخيرة تظهر بوضوح أن ايران لم تكن إلّا الفصل الأول في مسار حيث بدأت تختفي الظروف التي كانت تقنّع القوة الحقيقية المحركة للشعوب. القمع ـ التحرير ـ الراديكالية ـ الرجوع إلى القمع. ربما هذه حلقة مفرغة مشؤومة حيث لا تتغير إلّا صورة الحاكم. إن البذور الخفية لا تنضج في مهب التأثر؛ كما يبقى حازماً وجافاً في الانعزال والانكفاء.

من يعرف السيد نراغي، يدرك إلى أي حد سمحت له رهافته الفكرية شجاعة النقد دون تجريح وتبيان الخطأ دون إظهاره بمظهر الإهانة ووصف الوقائع دون السقوط في الإغواءات الايديولوجية التي تفقر من غنى النفس البشرية والمهارة السياسية.

لقد صعب عليه دون شك الدفاع عن أفكاره أثناء وجوده في سجون الثورة. لأنه، إذا كان قد انتقد النموذج الليبرالي الأميركي، فقد كان عنيفاً أيضاً في انتقاده النموذج الشيوعي: «في الواقع، كتب نراغي، كان المثقفون الماركسيون يجدونني مزعجاً، والاسلاميون، رغم إفادتهم من تحاليلي، كانوا يأخذون عليّ ميولي الإصلاحية وعدم مشاركتي لتطرفهم». تطالعنا في قراءتنا للصفحات الرائعة حيث وصف أسره، هذه الميزة بالذات، أي هذا الإصرار على تفهم الجميع الذي جنّبه أن يكون كبش محرقة عن الجميع وهو الذي أعطى صدقية شهادته.

الجزء الثاني من الكتاب عرض أدبي وسوسيولوجي رائع للحياة داخل السجن، مختبر حقيقي حيث تتم مراقبة الأفراد بانتباه متعاطفة حيث تحلّل أعمالهم السياسية من خلال حوافز بسيكولوجية، مما يجعل أكثرية المواقف والتصرفات قابلة لأن تفهم.

في الغرب، امتحن العالم الإيبيري بالشكل الأكثر حدة وخلال فترة زمنية طويلة التعايش مع الإسلام، أرضاً وجسداً. رغم القطيعة العنيفة، لا تزال ترجيعات هذا المتبادل الخصب تختلج اليوم في حياة الاسبانيين والبرتغاليين. إن كتاب نراغي يخترق الأعماق الدفينة لهذه النفس، لأن الصدمة لم يتم الشفاء منها رغم مرور عصور كثيرة، لأن مفتاح الأزمة كان ولا يزال موجوداً في التفهم الكامل المتبادل للقيم الثقافية عند الشعوب كافة. ويبدو التأمل أساسياً في هذا العالم الممزّق حيث البحث الدؤوب عن الاتحاد الذي يحثنا عليه هذا الكتاب، لا يزال ممكناً بين الناس... إنها الرسالة المطمئنة والموفّقة.

توطئة

في ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، غادر الشاه ايران. كان هذا بعد يومين من الحديث الأخير الذي أجريته معه. وفي ١١ شباط (فبراير)، أي خلال أقل من شهر، حلّ النظام الاسلامي محلّ النظام الملكي.

بدا واجباً عليّ تجاه بلدي وتاريخه، أن أكشف الخصوصيات النفسية لرجل ظلّ يُعتبر لعدة عقود، وذلك قبل أن يشهد انهيار حكمه بنفسه، أحد القادة الأكثر نفوذاً في العالم. فباشرت على وجه السرعة بكتابة مذكراتي لتأتي شهادةً أمينة وصادقة قدر الامكان.

بالطبع اعتمدت أولاً، كمرجع، الملاحظات التي كنت قد هيأتها قبل كل مقابلة أجريتها مع الشاه، والتي كانت تشكّل الركيزة لحواراتنا. كما أنني وجدت تحت تصرفي أيضاً الملاحظات التي سجّلها مستشارا الشاه (انتظام وصديقي) اللذان كانا قريبين إليه خلال الأيام المئة الأخيرة من حكمه ودوّنا بكثير من الدقة فحوى هذه الأحاديث. إلى ذلك، جمّعت أثناء سفري إلى الخارج مرات عدة، اعترافات علي أميني رئيس الوزراء السابق الذي كان يرى الشاه بانتظام، وأسلان أشرف رئيس البروتوكول الذي كان يرافق الملك إلى مصر والمغرب. وقد قدّم لي هذا الأخير بمحبة جميع الملاحظات التي دوّنها في هذا الخصوص.

كما أمدّني مانوتشهرسانيئي، وهو صديق الدراسة وآخر من بقي في ايران من الحجّاب، بمعلومات هامة عن حياة الشاه اليومية.

وأخيراً ميشال بونياتوفسكي، المبعوث الذي أرسله الرئيس جيسكار ديستان خصيصاً إلى طهران ليسبر النوايا الخفية للشاه عشية المؤتمر الذي أقامه رؤساء الدول الغربية الأربع في الغوادلوب في ٥ و٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩. لقد استقبلني بونياتوفسكي بمودة كبيرة في باريس وأعطاني جميع التفاصيل المتعلقة بالحديث الطويل الذي أجراه مع الشاه في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ في قصر نيافاران.

فلتتفضل كل هذه الشخصيات بقبول امتناني العميق لها.

خلافاً لما كنت أتمنى، وكما سأوضح في هذا الكتاب، لم أستطع أن أنشر أحاديثي مع الشاه في مطلع عام ١٩٨٠، أي في الفترة التي كان الطلاب الاسلاميون يحتلون السفارة الأميركية احتجاجاً على قرار الولايات المتحدة القاضي باستقبال الشاه على أراضيها. ففيما كنت أستعد لأن أستقل الطائرة إلى باريس، أُوقفتُ في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ في مطار طهران، ولم يُطلق سراحي إلّا بعد أربعة أشهر من هذا التاريخ. بعد ذلك تابعتُ تدوين ملاحظاتي مضيفاً إليها تلك التي سجّلتها في السجن، عازماً على نشرها في فترة لاحقة.

وقد بررت الأحداث اللاحقة هذا القرار، إذ تمَّ توقيفي من جديد واعتقلت حتى أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣. في هذه الأثناء كان الشاه قد توفي في القاهرة في ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٨٠، ورأيت أن نشري للكتاب قد فقد راهنيته في جميع الأحوال. لهذا السبب اخترت التريّث وقتاً اضافياً لأكون على مسافة من الأحداث، وجمّعت، في كتاب واحد، أحاديثي مع الشاه وذكرياتي في السجن.

في القسمين اللذين يحتويهما الكتاب (القصر والسجن) ثابرت «كمشتغل في التاريخ» على نقل الأحداث بأمانة بعيداً عن أي حكم تقويمي وبعيداً، كما أرجو، عن أية روح انحيازية.

سعيت لأن أُظهر في جميع الظروف حقيقة الناس، سواء تعلّق الأمر بالشاه، أو بالمناضل الثوري الذي كان على وشك أن يعدم، أو بالسجّان. لقد أردت أن أفهم الناس كما هم، كما يجيئون إلى العالم كي يحبوا ويتعذبوا ويموتوا. إذا لم أستطع بلوغ هذا الهدف بشكل كامل، فليسامحني القارىء لأن لكل امرىء حدوده ونقائصه.

إحسان نراغي، باريس، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١

القسم الأول
في قصور الشاه...

أحلام اليقظة
(الحديث الأول مع الشاه)

الاثنين ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨، الساعة الثالثة والنصف

استقبلني الشاه لأول مرة في قصره الصيفي بسعدآباد في أعالي طهران. المصاعب والأخطار التي أثارتها الثورة، وكانت قد بدأت في مطلع العام، دفعته إلى أن يقابل على انفراد أشخاصاً لم يسبق له أن رآهم من قبل.

الموعد حُدّد في آذار (مارس)، وقد أُجِّل عدة مرات لأن الشاه كان يبدي تحفظات على استقبالي. تقارير رئيس البوليس السري (السافاك) عن معهد الدراسات والأبحاث الاجتماعية الذي كنت أديره خلال الستينات، كانت دون شك السبب في هذه التحفظات. أضف إلى هذه أن بعض الباحثين الشبان، وهم من المعارضين المشهورين الذين كنت أرعاهم، قد جعلوني مشبوهاً في نظر العاهل.

لكن الشاه، حين اقتادني الحاجب إلى مكتبه، استقبلني بود ظاهر. وهو، الذي كان يتقن بامتياز كتم أحاسيسه. شدَّ على يدي بحرارة ثم أجلسني على كرسي قبالته. فهمت على الفور أن الأزمة قد غيّرته. لأن الملك[1]، في الأوقات العادية، كان يستقبل المواطنين المدنيين أو العسكريين واقفاً. وحين كان الحديث يطول، يبدأ التمشّي في الغرفة فيما يبقى الزائرون في أماكنهم موجهين أنظارهم إليه.

رأيت أمامي رجلاً هزّته الأحداث الأخيرة من أعماقه. أخذ يفقد الثقة التي كان يبديها من قبل في اجتماعات العمل التي تسنّى لي أحياناً حضورها. قال لي بطريقة مهذّبة وكأنه يعتذر:

«مشاغلي الكثيرة لم تسمح لي بمقابلتك قبل الآن. ماذا تفعل وكيف ترى الوضع؟».

أوجزت مسْرعاً بعضاً مما قمت به خلال السنوات العشرين الأخيرة، مشدّداً على أني أرغمت على مغادرة البلاد في عام ١٩٦٩[٢]. من خلال كتبي التي نشرتها ومقالاتي ومقابلاتي مع وسائل الاعلام، حاولت أن أشرح لتكنوقراطيي السلطة بأن الطريق التي يسيرون فيها لن تقودنا إلى «التحضر العظيم» الذي يبتغيه الشاه، بل ستقودنا بالأحرى إلى اضطرابات فوضوية ـ وبشكل أدق إلى انشقاق وطني. هذه السياسة كانت تقسم الأمة في الواقع إلى شطرين: من جهة هناك أقلية تطالب بالعصرنة، وهناك من جهة أخرى أكثرية تقليدية ـ الأمر الذي كان يضعف مشاعر الوحدة الوطنية ويعرّضنا لصراع ثقافي جديد كلياً في ايران. ولكي أدعم أفكاري، أهديتُ رئيس الدولة كتابي، وهو بعنوان «الجشع الفظ»، الذي سعيت لأن أظهر فيه بأن الطريقة التي يُعالَج بها التطور ستقودنا إلى الكارثة.

بعد هذه التوطئة، قال الشاه:

«أود سماع تحليلك للوضع الراهن في ايران. من أين يأتي هذا العصيان وهذا الاضطراب الآخذان في الانتشار؟ من هو المحرّض عليهما؟ من يدير هذه المعارضة؟ من أطلق هذه الحركة الدينية؟».

أجبته: «أنت نفسك يا جلالة الملك».

نظر إليّ بهيئة مندهشة ومذعورة في آن، واحتجَّ قائلاً: «لماذا أنا؟».

كان يتوقّع مني عند هذا المستوى من الحوار أن أسمّي أي كبش محرقة: الفلسطينيين، الشيوعيين، القذافي، الخميني، الأميركيين، ما أدراني مَن أيضاً؟ ثم ردَّد بكثير من الإصرار: «لماذا أنا؟».

أجبته: «منذ خمس عشرة سنة قمت بزيارة المقام الديني في «قم» برفقة أرسنجاني[٣]، حيث هاجمت علانية الزعماء الدينيين ورفضت انتقاداتهم بخصوص الإصلاح الزراعي وحق المرأة في الانتخاب، ووصفت موقفهم بالرجعي. لقد كنت عنيفاً جداً، حتى أنك استعملت ألفاظاً مهينة، مما اضطر مُعينيان، المسؤول عن الراديو والتلفزيون في تلك الفترة، لأن يحذف من كلامك، كما قال لي...

في اليوم الذي تلا هذه الخطبة، علقتُ عليها أمام أحد محدثيَّ قائلاً: «سنذكر هذا اليوم التاريخي الذي أثار فيه جلالته حركة إسلامية عارمة في البلاد». وحين سألني زملائي أن أوضح، قلت: «من الآن فصاعداً، سيجد رجال الدين أنفسهم مرغمين، ليبعدوا عنهم تهمة المحافظة، على الدخول في معركة من أجل إثبات أن موقفهم من الإصلاح الزراعي لا يصدر عن تشبثهم بنظام اجتماعي قديم. وسيحاولون الظهور، راجعين إلى المصادر الشيعية الغزيرة، بأنهم أكثر ثورية من ثورة جلالته البيضاء[4].

إن احتدام هذا الصراع كان يدفع رجال الدين إلى الانكباب على الماضي الشيعي لاستخلاص العناصر الثورية منه. وقد بلغ بهم الأمر حد التساؤل حول الحضارات الأخرى. والشاهد على ذلك، اهتمامهم المفاجىء باللغات الأجنبية. ذكّرتُ الشاه بأنه كان من السهل على رجال الدين الشيعة محاربة كل أنواع الحكم - التي تبقى غير شرعية حتى رجوع الإمام المنتظر[5]. منذ اغتيال الإمام علي الذي لم يدم حكمه أكثر من خمس سنوات، والشيعة يعتبرون كل الخلفاء مغتصبين للسلطة. إن قوة الرموز قد وُجدت على الدوام لدى الشيعة: كنتُ أحضر منذ فترة قريبة جنازةً، فبدأ الواعظ يستشهد بخلفاء سنّة غاصبين، مشدّداً على فجور عاداتهم. ثم توقف عند هارون الرشيد متحدّثاً بالتفصيل عن انحلال عائلته والرجال المحيطين به. الحاضرون جميعهم، وهم حوالي الألفي شخص، فهموا أن الواعظ يلمّح إلى بلاط جلالتك. لكن التلميح كان يستند إلى رموز هي من القوة والتأصّل في نفوس الجميع بحيث أن أحداً لم يستطع الاعتراض على كلام الواعظ، ولا حتى مخبر السافاك المتنبّه جداً. وهذا صادر عن قوة المذهب الشيعي: إنه عقيدة قتال لا هدنة فيه، قتال يعود إلى أربعة عشر قرناً، وهو متجذّر عميقاً في نفوس المؤمنين. هناك خصوصية أخرى للشيعة تعطي حركتهم دينامية استثنائية وهي اعتقادهم بظهور الامام المنتظر من جديد. هذا المفهوم الخاص يعطي الإمام الثاني عشر حضوراً احتمالياً يُبقي الشيعة في حالة رجاء مستمر. على أية حال، لاحظتُ أن مجالس العزاء قد اتسعت حلقاتها اتساعاً لافتاً في الأيام الأخيرة».

كان الشاه يجهل ظاهرياً معنى هذه التقاليد: يبدو أنه لم يسبق له أن اهتم بالتفسير السياسي الذي أمكن لرعاياه أن يعطوه للدين، سألني:

«عن أية مجالس تتكلم بالضبط؟».

- إنها صلاة طويلة بعض الشيء تُتلى نهار الجمعة بعد صلاة الصُبح. هي في

الوقت نفسه شكوى ضد مظالم هذا العالم واسترحام إلى الله علّه يظهر الإمام المنتظر من جديد.

في هذه اللحظة قلت للشاه على سبيل المزاح:

- كما ترى، مولاي، أنت محاصرٌ: من ورائك شخصية علي كنموذج للحاكم العادل الذي هو فوق الشبهات، ومن أمامك الإمام الثاني عشر الذي يعتبر المؤمنون رجوعه وشيك الوقوع.

أجابني الشاه وعلامات الحيرة على وجهه:

«إذاً، هل يجب اعادة النظر في كل شيء؟ ماذا يمكن أن نفعل؟ إن ما لا أفهمه هو السبب الذي يدفع الشباب إلى اعتناق هذه الأفكار الدينية والتقليدية التي لم تُثر حتى الآن إلا اهتمام الأشخاص المسنّين».

- لقد فهم القادة الروحيون أنه يجب المراهنة على الشباب. فأخذوا يضاعفون المنشورات سهلة المنال في الجمعيات وفي المساجد، مستخدمين عبارات سهلة لاجتذاب الشبان. وقد لعب علي شريعتي[٦] دوراً بالغ الأهمية في هذا المضمار: فمن جهة ركّز على الطابع النضالي الدائم للمذهب الشيعي، ومن جهة أخرى استعمل لغة غنائية كان لها تأثيرها البالغ على الشبان.

- استناداً لما أعرفه، قال الشاه بفظاظة، الزعماء الدينيون غير موافقين على الطريقة التي يفسر فيها شريعتي المبادىء الدينية. لقد علمت أنهم وصفوه في وقت ما بالوهابيّ. حتى أن بعضهم، إن لم تخنّي الذاكرة، اعتبروه مهرطقاً.

- إن ذاكرة جلالتك جيدة فعلاً. صحيح أن الزعماء الدينيين لم يكونوا موافقين تماماً على طريقته في تفسير القرآن والأحاديث النبوية، لكن هؤلاء المرشدين أنفسهم، ما إن وعوا أن حركته آخذة بالاتساع حتى توقفوا عن انتقاده. لقد تحققوا من أن شريعتي ماضٍ في تجديد قاموس الاسلام الشيعي مستنداً إلى الحركات الاسلامية المناهضة للكولونيالية في مختلف أنحاء العالم، وخصوصاً إلى نضال الشعبين الجزائري والفلسطيني. وهكذا نجح شريعتي في إضفاء صورة على الإسلام أكثر جاذبية، مستلهماً الكثير من أفكار فرانز فانون[٧]. ثم إن سحر لغته الشعرية وأسلوبه اللاذع في مناهضة المذهب الصفوي ومدح المذهب العلويّ[٨] كان مؤثراً للغاية. الدين الذي

بدت لغته قديمة حتى حينه، صار بالنسبة للشبان مصدر إلهام وحماسة. لقد أخذ الدين يعد بأهداف مثل تحقيق العدالة والمساواة. وهكذا أخذ رجال الدين ينجرفون شيئاً فشيئاً في هذه الحركة، حتى وجدوا أنفسهم أخيراً في موقف مناوىء لك تماماً».

حينئذ مدَّ الشاه يديه بعفوية نحوي، ثم أسرّ لي:

«يجب أن تعرف أنني في أعماقي متدين جداً. ليس لديَّ أي مأخذ على الدين. لكن ما نعرفه عن رجال الدين عندنا يثبت أنهم قد مزجوا الدين دائماً بالخرافات وبجهل الجماهير الأميّة. لقد حاولوا تحريض الجماهير المتزمتة ليصلوا إلى غايات سياسية، وأرادوا دائماً أن يتدخلوا في كل شيء، باسم الدين، ليرسّخوا هيمنتهم ويعيدوا البلاد إلى ركب التخلف. إن تقدم البلد وتطورها لا يهمانهم في شيء».

- مولاي، إن الدستور الايراني يرتكز على ثلاثة أعمدة: رجال الدين والملكية والإرادة الوطنية التي تعبّر عن نفسها من خلال انتخابات حرّة فعلاً. الآن، وبما أن البرلمان موضوع نزاع، عليك أن تعتمد أكثر على رجال الدين.

- هذا التفاهم بين رجال الدين والملكية ظل قائماً حتى موت آية الله بورودجردي[٩] لقد أُجّل القيام بالإصلاح الزراعي طيلة بقائه على قيد الحياة لأنه كان يشجب مثل هذا الإصلاح.

- لكن بشجبه ذاك لم يهدف إلى حماية مصالح المالكين الكبار. كل ما في الأمر أن رجال الدين كانوا يرون أن الاصلاح يتعارض مع بعض مبادىء الشريعة. هنا يكمن الخلاف الأساسي بين الشيوعية والاسلام الذي يكنّ للملكية الخاصة بعض الاحترام.

- إننا نرى رجال الدين حالياً يسيرون جنباً إلى جنب مع الشيوعيين في معارضة النظام، وليس بالإمكان الجزم من منهما يحرض الآخر. إن ما يجمعهم برأيي هو مشروعهم المشترك الهادف إلى تدمير كل المكتسبات الوطنية وخصوصاً منجزات البلاد الاقتصادية.

- ربما يجدون أن تحالفهم مفيد لكل منهم، ولكن الاختلاف في وجهات نظرهم عميق. في أي حال، وفيما يخص الإصلاح الزراعي، أسمح لنفسي بأن أستشهد بكلام سمعته بنفسي من أحد آيات الله الكبار وهو آية الله ميلاني الذي التقيته في طهران سنة ١٩٦٢، ومما قاله لي: «كل هذه الشائعات التي تتهم رجال الدين بمعارضة الإصلاح الزراعي ومساواة النساء بالرجال في الانتخابات، لا أساس لها من الصحة.

إن النظام الحالي يظهرنا بمظهر الرجعيين والمتخلفين، فيما نحن مستعدون لإيجاد مبررات دينية لكل الإصلاحات التي يقوم بها جلالته، لكن شرط أن يعرف الملك حدود امتيازاته. عليه أن يقيم حساباً لحقوقنا والتزاماتنا وواجباتنا تجاه الجماهير. يجب ألا يفرض علينا مشاريعه الإصلاحية فرضاً.

- لكن ما الذي فرضته عليهم؟ أجاب الشاه. كنا نريد، كما كان يجري في كل البلدان، أن نحصل على إصلاحنا الزراعي. كنا نريد ألّا يكون لدى مالك واحد تسعون قرية، وأن يصير الفلاحون أسياد الأرض. أنت عالم اجتماع، وإني لمتأكد من أنك زرت القرى ورأيت كيف أن الإصلاح أعاد للفلاحين كراماتهم.

- إن هدف جلالتك، في نظر رجال الدين، المراهنة، مثلهم، على الطبقة الفلاحية - لأن أهل المدن قد خيّبوا أملك على الصعيد السياسي. يدّعي رجال الدين أنهم يستطيعون، لو أخذت آراءهم في الاعتبار، أن يجدوا حلولاً تنصف الفلاحين ولا تتعارض في الوقت نفسه مع المبادىء الدينية. في الختام، أقول لك: إذا كنت تريد ممارسة امتيازات الملكية يجب أن تحترم امتيازات رجال الدين.

بدا الشاه وكأنه يستفيق من حلم:

«قبل ١٩٦٢، لم نكن نسمعهم يتحدثون عن الخميني. لم نسمع باسمه إلّا مؤخراً. أين كان؟ وكيف وجد فجأة هذا العدد الكبير من المؤيدين؟ من أين خرجوا؟ وبمَ يختلف عن رجال الدين الآخرين؟

- لسنين عديدة، درّس آية الله الخميني الفلسفة والعلوم الفقهية في قم. لقد ثقّف الكثير من طلاب العلم وعرف كيف ينشىء معهم صلات وثيقة. قوّته عائدة إلى أنه بقي على مسافة من كبار آيات الله متهماً إياهم بالمحافظة وبالخضوع لجلالتك. اجتذب إلى ناحيته، إذن، مجموعة من رجال الدين الشبان الذين كانوا يشعرون أصلاً بالحرمان ويفتشون عن طريق جديد. وأخيراً، تذرّع بالقانون الذي يحمي الأميركيين - الامتيازات - والذي كان سيناقش في البرلمان، لكي يتصدى للحكم. وهكذا انطلقت الحركة.

- لم يكن الأمر يتعلق بامتيازات بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. لقد وقّعنا معاهدة مع واشنطن تتيح للأميركيين في إيران، أن يتمتعوا بدرجة معيّنة من الحصانة الدبلوماسية. هذه المعاهدة موجودة أيضاً بين الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية مثل ألمانيا.

وهي لا تعنى إلّا بالتجاوزات الطفيفة كمخالفة قوانين السير مثلاً، لكن هذا الموضوع جرى تضخيمه من قبل رجال الدين.

- مولاي، إن الحقد على أميركا متأصل في النفوس منذ سقوط مصدق[10] عام ١٩٥٣. لقد كان سهلاً على الخميني إثارة حركة مناهضة لأمريكا بسبب قانون الامتيازات هذا. فبعد سقوط مصدق ومطالبته الوطنية اتجهت الأنظار نحو المعارضة الدينية. رجال الدين الشبان، أدركوا أن الظروف مؤاتية فالتفوا حول الخميني معلين شأنه من بين آيات الله الآخرين. ما صنع قوة الخميني، جهره بصوت عال بما كان الآخرون يتداولون به في الخفاء. زدْ على ذلك أن بُعد الخميني عن إيران منذ عام ١٩٦٤[11]، أتاح له حرية تصرّف أكبر من آيات الله الآخرين الذين لم يغادروا إيران.

بدا الشاه منزعجاً.

«هل أفهم من كلامك أن الخميني لم يعد قائداً دينياً بل صار رجلاً سياسياً ومحرّضاً يدفع برجال الدين الشبّان والمتزمتين إلى اعلان العصيان ضد الغرب والحضارة المعاصرة؟ إنه يريد أن يعيد البلاد مئات السنين إلى الوراء، وأن يزعزع الدولة والحكم باسم الدين».

- مولاي، الشيعة دين سياسي مائة في المائة، ورجال الدين الشيعة يعتقدون بحقهم في التدخل في شؤون الدولة.

ضحك هازئاً:

«كيف يمكن لرجال الدين الصمود من دون الملكيّة؟ إذا سقطت الملكية، فإن الشيوعيين سيقصونهم».

- على كل حال، لا يعتقد رجال الدين حالياً بأنهم يحتاجون إلى الملكية لبقائهم. وهم يعتبرون أنفسهم أقوياء بما فيه الكفاية لإقصاء الشيوعيين عندما تسنح الفرصة.

- الخميني هو الوحيد بين آيات الله المعارض للنظام الملكي. لقد تحقّقنا من ذلك، وقد أَعْلَمنا آياتُ الله الآخرون سرّاً، الموجودون داخل البلاد، أنهم لا يشاركونه الرأي.

- كما قلت جلالتك، أعلموك سرّاً. لأنهم لن يجوؤوا على معارضة الخميني علانية. هم مرغمون على اخفاء أفكارهم وعلى الظهور بمظهر المؤيدين له خوفاً من

الانعزال عن الجماهير التي يستمدون قوتهم منها.

- والمحرّضون الأجانب، ألا تعتقد أنهم لعبوا دوراً في ذلك؟ لقد وصلتنا تقارير تفيد بأن منتقدي النظام يتلقون مساعدات مالية من الخارج [كان يلمّح دون شك إلى العقيد معمر القذافي في ليبيا].

- لسوء الحظ، هذا النوع من الحجج يستخدمه كل أولئك المحيطين بك الذين يرفضون مواجهة الواقع. الاسلاميون الذين يحاربونك لا يحتاجون إلى مالٍ من الخارج: لأن إحدى ميزات المذهب الشيعي هي أنه لا يصعب عليه ايجاد المصادر التي يحتاجها. إن تجار البازار[١٢] قادرون على تلبية حاجات المؤمنين المالية، لأنه يُفترَض بكل شيعي متديّن، كما تعلم، أن يهب خُمس عائداته، وهذه تذهب تبعاً لتوصية المرجع الديني الذي يقلده.

- لكن، ما الذي دفع تجار البازار، الذين نالوا في جميع الأحوال حصة كبيرة من الأرباح الناتجة عن الحركة الاقتصادية التي كنا نحن مشجعيها، إلى تأييد هذه الحركة؟ ممَّ يشكون؟ ولماذا يشاركون في حركة تؤدي إلى اللااستقرار؟

- أولاً، لأنك أقصيتهم عن محور قراراتك. لقد عطفت فقط على فريق ضئيل منهم جعلته يسيطر، بمساندة الدولة، على الصناعة في البلاد. وهكذا فإن تجار البازار الذين كانوا يتلقون الفضلات، حتى ولو كانت ضخمة، لم يكونوا مسرورين. والسبب أن نظامك لم يُقِمْ لهم اعتباراً. ثم أن نظام حياتهم كتجار بازار يجعلهم مرتبطين كلياً برجال المقامات الدينية، لأن دعم هؤلاء ورضاهم يزيد من مدخول التجار ويشجّع أعمالهم. أما رجال الدين الشيعة فهم بخلاف السنّة، غير مرتبطين بالدولة ويعيشون على الزكاة التي يدفعها المؤمنون لهم. إن سياستك في السنوات الأخيرة قرّبت بين هاتين الجماعتين أي التجار ورجال الدين الذين باتوا يتكاملون الآن ويتعاضدون. من هنا يبدو لي الدعم الآتي من الخارج، ولو كان موجوداً، غير جدير بالأهمية نسبة إلى ما يتلقاه المناضلون من الداخل. إن حجة المناضلين بسيطة على أية حال: بما أن النظام يفيد من كل أنواع المساعدات الخارجية، فلمَ لا نحذو حذوه؟ ويجب أن أقول لك أيضاً إن علاقة حكمك باسرائيل التي تزداد أواصرها قوة دفعت الحركات الدينية للتقرّب من المناضلين الفلسطينيين والدعوة إلى أممية إسلامية.

- هل الدول الاسلامية الأخرى، وخصوصاً الدول العربية، على وفاق مع

مناضلينا الأصوليين؟ أفادتنا بعض المعلومات أن أنظار بعض الدول متجهة إلى إحدى مقاطعاتنا الأكثر غنى وهي خوزستان[١٣]. [كان الشاه يقصد، دون أن يسمّي، العراق].

- أجل، ولكن احساسك القومي يا صاحب الجلالة لم يكن قوياً بما فيه الكفاية لاجتذاب هؤلاء المناضلين. ثم إن علاقتك الوثيقة باسرائيل زرعت الشك في صفوفهم. باختصار، القوميون الإيرانيون لا يعتقدون أنك تستطيع أن تكون مدافعاً عن مصالح الغرب وحليفاً غير مشروط للولايات المتحدة وصديقاً لاسرائيل وتمثّل، في الوقت نفسه، رمزاً وطنياً حقيقياً.

- إنّ ما حقّقناه على الصعيد الاقتصادي والعسكري في الخليج الفارسي يشكّل سدّاً في وجه القوى العظمى. لقد تمكّنا من بسط نفوذنا حتى المحيط الهندي[١٤]. كنا مصمّمين على أن نصير قوة هائلة في المنطقة. كانت خطتنا ترمي إلى بسط حزام أماننا حتى الدائرة العاشرة الموازية لخط الاستواء بين جنوبي الهند وشمالي سيلان. كيف بإمكان المواطنين ألا ينتبهوا إلى هذا الأمر؟

- يعتبرونك دركي الخليج الفارسي.

- كلمة «دركي» استخدمتها في بادىء الأمر الدول الكبرى وخصوصاً الإنكليز لأنهم لم يكونوا يتسامحون بأن يحلّ بلد ما في المنطقة مكانهم. أنا اقترحت على جميع البلدان المتاخمة للمحيط الهندي اجراء اتفاقية لتحييده، أي لإبعاد القوى العسكرية السوفياتية والأميركية.

ثم نظر مباشرة في عيني رافعاً صوته:

«هؤلاء الذين يدعوننا دركيي الخليج ألا «يجرّون الماء إلى طاحونة» الدول الغربية التي تعارض تحديداً كل نفوذ سياسي وعسكري محلّي في المنطقة؟ هل أنت على علم بما تقوم به العراق والعربية السعودية في الخليج الفارسي؟ هل تعلم أن نفقاتهم العسكرية تتخطى بكثير نفقاتنا؟».

- مولاي، مهما تكن رغبتك في الاستقلال ومشاعرك الوطنية عميقة، فإن علاقاتك الوثيقة باسرائيل وبالولايات المتحدة تؤذي المشاعر القومية والدينية للإيرانيين. وهذا يشكّل نقطة ضعف في سياستك لم يحجم أخصامك عن استغلالها ضدك. ولكن،

بعيداً عن السياسة، هناك ثلاثة عوامل تضافرت لتدعم موقف خصومك. أولاً، تفاوت الأوضاع المعيشية في هذا البلد، والإثراء السريع لطبقة برزت في السنوات الأخيرة وأخذت تستفيد من عائدات البترول لكنها مجرّدة من الشرف النسبي الذي كانت تتحلى به الطبقة الاقطاعية السابقة التي عملت على إضعافها. ثانياً، الامتيازات الاقتصادية والمالية التي أحطت بها المقربين إليك، وخصوصاً... عائلتك. وأخيراً، وحشية السافاك الذي كان يمنع أقل تعبير عن الاحتجاج. نتج عن كل هذا سيلٌ عارم أخذت تغذّيه الجداول الصغيرة المتعاطفة مع المعارضة، ليصبَّ هذا كله أخيراً في محيط من القهر.

- لكن كيف أن أحداً من المسؤولين لم يفطن إلى وجود هذا السيل؟ من البديهي أن هذه الأزمة ليست ابنة البارحة؟

- الطبقة السياسية لم تلاحظ تصاعد المدّ. الحكم التكنوقراطي الذي أقمته لم تكن لديه الوسائل لسماع صرخة الحقيقة.

- لكننا اخترنا كادراتنا من بين أفضل المتخصصين في الجامعات الأوروبية والأميركية. كيف لم يتمكن هؤلاء المهندسون والدكاترة المتخرجون من المعاهد الغربية الأكثر اعتباراً من إعلامي بهذا الأمر؟

- هذا راجع خصوصاً إلى النظام، النظام الهرمي حيث رئيس الوزراء لا يهتم إلّا بما يأتيه من فوق. لا أحد يشعر بأنه مسؤول على الصعيد السياسي لأن كل القرارات المهمة تصدر عنك وحدك. بما أنك انفردت بتحديد الأهداف، فإن النخبة اعتبرت أن دورها ينحصر بتزويدك بالمعلومات التي تتفق مع خطك السياسي. هذه النخبة استعملت ذكاءها وعلمها لتتبعك، أي، بدافع من قوة الأشياء ذاتها، لتمنع عنك الرؤية. أردت أن تضع تكنوقراطيين في كل مكان. والتكنوقراطي آلة لا تجيب إلّا على الأسئلة التي تُطرح عليها، وهي لا تطرح الأسئلة من جهتها.

- أفهم من قولك إنه يجب تغيير كل شيء؟ تغيير كل المسؤولين؟ اشرح لي.

- أعتقد أنه من الواجب تغييرهم، وهذا لسببين: أولاً، لأنهم غير قادرين على مواجهة الأحداث الراهنة، ويعطون الانطباع بأنهم لم يعودوا نافعين. وثانياً، لأن المجتمع نفسه ينتظر شيئاً آخر. حين يخترق الدين الحياة السياسية من أقصاها إلى أقصاها، يتجه المجتمع عندئذ إلى التزمُّت ويصير المواطنون صارمين جداً حيال

قادتهم. يريدون أن يروا فيهم نموذج المنافحين عن الدين وأئمته. وللاستجابة لهذه المتطلبات، ينبغي على الطبقة السياسية أن تغيّر نمط عيشها وتتجنب مظاهر الترف والأبهة، فأعمالها وتصرفاتها تمر في غربال الانتقاد الشعبي. وعندنا يستحيل فصل الحياة الخاصة عن الحياة العامة، كما على الطريقة الغربية. إذا أراد القادة أن يحظوا بتأثير معنوي عليهم، على سبيل المثال، أن يكشفوا علانية عن ثرواتهم، كأن تقرر جلالتك التخلي عن قصرَيْك وتحوّلهما مقرين للأعمال الخيرية، وأن تعيش مع الشاهبانو وأولادك في منزل متواضع كما فعل جمال عبد الناصر في مصر.

- هل تريدني أن أمثّل أنا وعائلتي دور الفقراء. لكن، ألن يتهمونا عند ذلك بالخبث والتملّق؟

- لا، إطلاقاً. قد يكون مناسباً إعطاء المثال للطبقة الحاكمة التي أصبحت متعجرفة ومسرفة ومحتقرة للشعب. يجب أن تثبت للجميع أنك قادر على أن تحكم بلداً كبيراً وأن تعيش ببساطة في الوقت نفسه. آمل أن تدرك يا صاحب الجلالة أن بلادنا تتجه إلى ما يشبه الانفجار الثوري. التفاوت الاقتصادي والثقافي الهائل بين سكان المناطق الشمالية وبين جماهير أحياء جنوبي طهران الفقيرة يصب الزيت فوق نار الثورة. لقد أمكننا، خلال التظاهرات التي جرت في رمضان[١٥]، أن نرى للمرة الأولى جمهوراً من المناضلين بين صفوفهم نساء يرتدين الشادور الأسود، يعبرون الأحياء الشمالية من طهران. حين سألني الصحافيون الأجانب عما يجري، قلت لهم: «إنها المرة الأولى التي يحتل فيها الجنوب الشمال». أعتقد يا صاحب الجلالة أن هذا الاحتلال سيستمر. سأعطيك مثلاً: سائقي، وهو موظف في وزارة التعليم العالي، قال لي حين كنا في الطريق إلى هذا القصر: «أتعتقد أن جلالته يعلم أني لا أتقاضى بعد عشرين سنة من الخدمة أكثر من ١٥٠٠ تومان»[١٦]. وتوسلَ إليّ كي أريك بطاقة الراتب.

نهضت عن مقعدي وناولته بطاقة الراتب التي نحن بصددها. لكن لم يبدُ عليه أنه كان راغباً في إمساكها بيده. أرغمته عملياً على أخذها ثم جلست أراقب بانتباه الطريقة التي كان يتفحصها بها. بدا لي في هذه اللحظة مثيراً للشفقة بشكل خاص. كان واضحاً أنه لم يرَ في حياته بطاقة راتب من قبل. بالإضافة إلى ذلك لم يكن قادراً على تصور ما يعنيه مبلغ ١٥٠٠ تومان. قلت له لأنقذه من حرجه:

«بهذا المبلغ، يعجز المرء حتى عن استئجار شقة بغرفتين في الحي الجنوبي. صحيح أني أفعل كل ما في وسعي لأعطي السائق ضعف هذا المبلغ في ساعات العمل الاضافية، ولكني أخالف بذلك التعليمات وأخدع البيروقراطية. أقول لك هذا كله لأثبت لك أن مئات الآلاف من الموظفين يعيشون حياة شاقة للغاية».

ألقى الشاه بطاقة الراتب على الطاولة متهالكاً نفسه من جديد:

- «أيعتقد الناس بأن أوضاعهم المعيشية ستكون أفضل لو تسلّم الخميني الحكم؟ ما هي الخطة الاقتصادية التي سيتمكن الخميني بفضلها من تحسين معيشتهم؟ أنا متأكد من أنهم سيخسرون كل ما أمكنهم تحصيله. هل تجد في تصريحاته أدنى اهتمام بالحياة الاقتصادية للشعب؟ على أية حال، أنا لا أفهم هذا الشعب. يمكن القول إنه فقد عقله تماماً وإن الخميني جعله يهذي. الخميني يقود الشعب إلى الهلاك ولا يرى أين هي مصلحته. هذا أمر مؤسف...

فجأة عاد إلى الوجوم، أخفض عينيه وجعل ينظر حائراً في نقش السجادة الإيرانية الضخمة التي كانت تغطي الأرض.

في محاولة مني للخروج من هذا الصمت الثقيل، وكما لو كان عليّ أن أواجه أحد المراهقين لأشرح له، وأنا أمسك بطاقة علاماته في يدي، أسباب فشله الدراسي، أردت أن أشرح للشاه (مكتشفاً حينئذ أني كنت راغباً في الاشفاق) سبب هذا التذمر الذي كان يتعاظم كل يوم:

- أنت محقّ تماماً من وجهة النظر الاقتصادية، يا صاحب الجلالة. هؤلاء الناس لن يكسبوا شيئاً. ولكن، كما يقول المثل: «ظلم بالسوية عدلٌ بالرعية». يعتقدون أنهم بتأييدهم للخميني، سيسيرون إلى مجتمع أكثر عدلاً لن يكون فيه تفاوت بين مستويات العيش. إنهم يراقبون الطريقة التي يعيش بها الزعماء الدينيون مقارنين بساطة حياتهم وتقشفهم بالحياة الباذخة للطبقة المتغربة. الصحافيون الأجانب الذين يقومون حالياً بزيارة المدينة المقدسة يصابون بالدهشة العميقة أمام الزهد الذي يعيش فيه هؤلاء الرجال. وقد سألوني، في يوم ليس ببعيد، عن رأيي بهذا، فأجبتهم: «نشهد الآن مواجهة بين قم المتواضعة وطهران الباذخة». من أجل هذا، وكما كنت أقول لك منذ قليل، ستكون مهمة الحكام صعبة لأن حياتهم الخاصة كما حياتهم العامة ستُراقب بشكل دقيق. الحفلة انتهت، يجب أن يدركوا ذلك.

إلّا أن الشاه بقي مشكّكاً:

«قل لي أين هم هؤلاء الملائكة الذين تصفهم؟ ستؤدي خدمة عظيمة للبلاد إن أنت عرّفتني بهم. عندها سأدعوهم فوراً لإقامة حكم جديد».

ثم ردّد بإصرار ساذج:

- لكن أين بإمكاني إيجادهم؟ أعطني بعض الأسماء. سأكون حقاً مسروراً لذلك.

مع أني حدست موقفه السلبي، أجبته:

- «أصدقاء مصدق وكل الوطنيين على سبيل المثال».

وإذ أغضبه هذا الجواب، هتف قائلاً:

«أتعتبر مصدقاً وأصدقاءه محبين لوطنهم ومناضلين قوميين؟

- دون شك. في أي حال، اسم مصدق يمثل للشعب الايراني ارادة الاستقلال المنتصبة في وجه انكلترا المخيفة. ولكي أكون نزيهاً معك يجب أن أقول لك إنه من بين الأسباب التي أدّت إلى استياء الايرانيين منذ سقوط مصدق، (أي منذ خمس وعشرين سنة) هي تلميحاتك المجافية له».

- ما إن لفظت اسم مصدق حتى بدا الشاه غاضباً بشكل واضح. كان يهمّ بإلقاء خطبة ضد وزير الحكومة السابق. لكني اعتقدت أن من واجبي تهدئته فقلت له:

- أريد أن أقصّ عليك هذه الحكاية. قبل أيام قليلة من موت مصدق في سنة ١٩٦٧، أتى اثنان من الشبان الوطنيين كانا يعملان في معهدي، لينقلا إليّ رسالة من قبل هدايت متين دفتري، حفيد مصدق. جاء في الرسالة إن عائلة مصدق تكلفني مهمة الذهاب إلى هويدا[١٧] لأعلمه بأن مصدقاً يحتضر ولأتوسل إليه بأن يطلب منك السماح لوزارة البلاط بالإعلان عن مأتم لتكريمه، وفقط كرد اعتبار لجميله خلال السنة الأولى التي تولّى فيها الحكم وحاول أن يؤمم النفط. ثم أنك كنت قد أبديت دائماً، في الظاهر على الأقل، تضامناً مع مصدق بهذا الخصوص»[١٨].

بدا على الملك اهتمام مفاجىء، فسألني بإلحاح:

- «وماذا فعلت عندها؟».

- بالطبع، ذهبت إلى هويدا لأقول له ذلك.

- وبِمَ أجابك؟

- بالرغم من ادراكي لنفاد صبره، أخذت وقتي مع ذلك لكي أزن كلامي جيداً:

- أذكر ذلك تماماً. كنت جالساً قبالة هويدا الذي كان يدخّن غليونه. بعد أن استمع إليَّ، أخذ نفساً، ثم حدّق بي قائلاً: «إنها فكرة ممتازة، لكن ستكون مخبولاً لو اعتقدت بأن جلالته سيوافق على اقتراح كهذا». فتابعت قائلاً: «يا عزيزي أمير عبّاس، إذا كنت تعتقد بأن تصرفاً مماثلاً من جانب جلالته سيكون ايجابياً وقادراً على تهدئة الخواطر وبلسمة جراح قديمة، فلم لا تذهب، كما طلب مني هذان الشابان، وترتمي على قدمي الملك جاملاً إياه على الموافقة، مثلما كان يفعل كبار الوزراء في السابق؟» فأجابني هويدا: «لا شك في أنك تفكّر، حين نوّهت بكبار الوزراء التاريخيين، بقائمقام وبأمير كبير»[١٩] فأضفتُ مبتسماً: «أعتقد أنه، نظراً للنهاية التي لقيها هذان الرجلان، لا يفترض بي أن ألح أكثر»[٢٠].

وإذ أحس الشاه أنه مذنب لأنه فوّت على نفسه فرصة كادت تؤدي إلى مصالحة وطنية، حاول الدفاع عن نفسه مبرّراً عداءه لرئيس الوزراء السابق:

«أعتقد أن مصدق وصل في البداية إلى الحكم بموافقة الانكليز. لكنه سرعان ما أخذ، بسبب ديماغوجيته وعناده، يسير من فشل إلى فشل، ثم انه اتخذ لنفسه برنامجاً سياسياً جديداً وحدّد هدفه الأول وهو الوقوف في وجهي ومعارضتي. لكني كنت أكنّ له، منذ بداية حكمي [سنة ١٩٤١] مودّة كبيرة، وقد دافعت عنه دائماً. لكن لو تركناه في الحقيقة يقوم بما يريد لقضى على البلد نهائياً».

- لكن هذا العناد الذي تتحدث عنه بالذات، أو ما وصفته بالعناد، هو الذي أجبر الانكليز على الرحيل. الجميع يعرفون بأن البريطانيين وأصدقاءهم، في داخل البلاد كما في خارجها، فعلوا كل ما في وسعهم لعرقلة مشروع مصدق، وأن عملاء لندن هم الذين أجّجوا نار الخلاف بينكما .

أردف الشاه:

- لا يمكنك أن تتصور رجلاً أكثر حماقة وعناداً منه. لم يكن لديه ما يعمله سوى اغاظتي بشكل دائم.

- لكن يا صاحب الجلالة، كيف كان بالإمكان زحزحة بريطانيا، وهي إحدى القوى الأكثر نفوذاً في العالم آنذاك، لولا عناد مصدق؟ أرى أنه بفضله نجح النضال ضد الانكليز.

لأول مرة، منذ أكثر من ساعتين، أوشك محدّثي، الذي بدا بارد الأعصاب طيلة فترة المقابلة، أن يفقد رباطة جأشه. لو لم يكن البلد في حال أزمة لكان صرفني بكل تأكيد. لكن، نظراً للظرف الخاص، تمالك نفسه ليحاول إقناعي:

«اسمع، إذا كنت قد عزلت مصدقاً وإذا كنت قد وقفت في وجهه بحزم، فهذا لأن اقتصادنا في نهاية حكمه كان مشلولاً. مصفاة عَبَدان كانت قد توقفت منذ ما يقارب السنتين. وكان علينا أن ندفع أجر خمسين ألف عامل في شركات النفط دون أن يكون لديهم ما يفعلونه. أخذت الديون تتراكم علينا، ثم إن الشيوعيين كانوا يندسّون في كل مكان، حتى في صفوف جيشنا الذي يشكّل العمود الفقري لأمننا واستقلالنا. ان هناك أكثر من ستمائة ضابط منتسبين إلى منظمة شيوعية، وهذا يعني أنهم كانوا يتلقون الأوامر من موسكو. أرأيت إلى أين كان يريد مصدق أن يوصلنا بسبب عنجهيته ولا مسؤوليته! على أية حال، من أجل هذه الأسباب مجتمعة، اتفق حينئذ كبار آيات الله معي ضده».

سمحت لنفسي عندئذ بأن أردّ عليه:

«ألا يتوجب عليك يا صاحب الجلالة أن تنظر إلى عمل مصدق من زاوية مختلفة!».

بدا الشاه منزعجاً. ثم قال هازئاً:

- «لكن أي زاوية تقصد؟ تكلّم. عن أي وجهة نظر تتحدث؟ هل تقصد من زاوية الاضطراب والفوضى؟».

- بل من زاوية الكرامة الوطنية. من هم أبطال الشعب في رأيك هنا أو في أي مكان آخر؟ ليسوا دائماً هؤلاء الذين يبنون السدود والمصانع، خذ غاندي أو نهرو أو ديغول، ما الذي قدمه هؤلاء لبلادهم؟ لقد عرفوا أن يحققوا، في فترة مصيرية من تاريخ بلادهم، حلماً وطنياً كبيراً: طرد البريطانيين من الهند أو طرد الالمان من فرنسا. مذ كنت صغيراً وأنا أسمعهم يتكلمون دائماً عن أنانية الانكليز. كان الناس يردّدون

دائماً أمامي بمرارة كيف عرقل الانكليز ولأجيال عدة تطوّر إيران وازدهارها. حسناً، استطاع مصدق أن يحقق هذا الحلم الكبير الذي يقضي بطرد الانكليز من بلادنا وبالتخلص من نفوذهم! هذا هو السبب في شعبيته. من المؤسف يا صاحب الجلالة ألّا تكون قد نجحت في إدخال ملحمة مصدق ضمن الإطار الوطني الذي تنادي به منذ بداية حديثنا.

كان الشاه يريد، بالرغم من احتدادي أن يتظاهر بالتودّد إليّ، خصوصاً أنه كان يريد أن يرى نتيجة تحليلي للوضع الحالي. لذا تابع كلامه:

«لنفرض أن ما تقوله صحيح! مع أن أتباع مصدق لا يملكون عملياً أية قوة الآن. ليس التيار القومي هو ما يجذب الجماهير. كما أن قيادييه ليسوا بقادرين على تحريك المتظاهرين. على العكس، إنهم يتبعون المتظاهرين بدل أن يقودوهم».

ـ أنت على حق يا صاحب الجلالة. أسياد الشارع هم رجال الدين ومؤيّدو الخميني بشكل غير مشروط. لكن الخطاب السياسي للمصْدَقيّين كان أساسياً في نجاح الحركة الأصولية. السجن والإقامة الجبرية اللذان فرضتهما على مصدق في السابق جعلا منه شهيداً ـ من هنا، صار أحد مصادر الإلهام للحركة الحالية، لكن أصدقاءه يستمرون حتى الآن بلعب دور هام، وإذا كنت تريد أن تظهر بعضاً من حسن النية، يمكنهم أن يشكّلوا بديلاً ويلعبوا دور الوسيط بينك وبين الاسلاميين.

بدا الشاه مأخوذاً بهذه الفكرة:

«كيف؟ وضمن أي إطار؟ وما الذي ينبغي فعله من أجلهم؟».

ـ البارحة مساءً، حين علم صديقي القديم داريوش فوروهار[٢١]، الناطق بلسان الجبهة الوطنية، بأنك ستستقبلني، أتى لزيارتي وطلب مني أن أنقل إليك، بسريّة تامة الرسالة التالية: «مع أننا قطعنا شوطاً لا يُستهان به مع الثوريين، اسلاميين كانوا أم علمانيين، فإن قسماً كبيراً من الجبهة الوطنية مستعدّ، بالرغم من كل شيء، لدعم نظامك ونظام ابنك من بعدك، شرط أن تعترف علانية بحقوق الشعب كما وردت في دستورنا». وبما أنك ستفتتح خلال عشرة أيام الجلسة الجديدة للبرلمان، فإن الفرصة ستكون مناسبة عندئذ لتقول بصفتك حامي هذا الدستور: «أعترف بأنه قد تمّ التعدي على الدستور، خصوصاً بما يتعلق بحقوق الشعب، مما سبب الأزمة التي يغرق فيها مجتمعنا. ألتزم اليوم بتركيز كل جهودي لإصلاح هذا التعدّي ولإعادة المجرى

العادي للدستور». ردَّد لي صديقي بأنه في حال وافقت على اعلان رأيك على هذا الشكل، ستتمكن من إمساك آخر خيط للمصالحة معهم، وإلاّ فسوف يبتعدون عنك نهائياً وسيجدون أنفسهم مرغمين على محاربة الملكية .

هذه الرسالة أغرقت الشاه في حيرة عميقة. حين كنت أهمّ بالخروج من مكتبه، كنت أتوقع أن يطلب مني، على سبيل المثال، نقل ملاحظة ما إلى سكرتيره أو أن يقول كلمة ما في جميع الأحوال، نظراً للأهمية التي ترتديها رسالة فوروهار. ولكني لم ألق منه على سبيل الجواب إلا : «حسناً، سوف نرى»! فأدركت حينئذ أنه لم يكن مدركاً إدراكاً كافياً لأهمية المخاطر المحدقة به[٢٢].

قبل أن أنصرف، رأيت ضرورياً أن أشير إلى التدخّل المفرط لعائلته في الشؤون الاقتصادية. بدا مندهشاً:

«ماذا تقصد بقولك هذا؟ ألا يحق لعائلتي الانصراف إلى نشاطات تجارية كغيرها من المواطنين؟ هل من العدل مضايقة أفرادها لمجرّد أن علاقة قربى تربطهم بي؟».

- إنهم ليسوا كالآخرين يا صاحب الجلالة. إنهم يتمتعون بامتيازات لا تُحصى، بحيث أن الثمن الذي يتوجب عليهم دفعه هو حرمانهم من بعض الحقوق.

- لكن سائر أفراد العائلات المالكة في العالم أجمع - حتى في أوروبا - ليسوا محرومين، على حد علمي، من هذه الحقوق. أسمح لنفسي بالقول إن ملكة بريطانيا هي أغنى شخص في بلدها.

- أجل، ولكن في ذاك البلد بالذات، وبفضل الدور الذي يلعبه البرلمان والنظام القضائي ووسائل الاعلام، من الصعب ممارسة المحسوبية وارتكاب الهفوات، الأمور هناك تختلف عن الحال عندنا. لقد رأيت حديثاً قضية الأمير برنار، زوج ملكة البلدان الواطئة جوليانا، الذي جُرِّد من كل حقوقه لأنه تورط في قضية رشوة مع شركة لوكهيد. بما أننا لا نستطيع تطبيق مثل هذه الوسائل، فإنه من الأفضل أن تبقى العائلة المالكة خارج الصفقات تماماً.

ومن دون أن أصرّ، غيّرت الموضوع:

«أود أن أقترح عليك استقبال نحو عشرة مثقفين متعمقين في كل المواضيع التي عالجتها معك اليوم.

- ضمن السياق الحالي للأمور، لا أرى مناسباً استقبال هؤلاء الأشخاص. عندها قد تتسرب شائعات عن التغيير، مما يؤدي إلى اضعاف موقف الحكم. منذ تعيين شريف - إمامي رئيساً للوزراء، قررت تطبيق القانون حرفياً (كان يقصد القانون الذي يقضي بألّا يتعاطى الملك في شؤون الدولة قبل مشاورة رئيس الوزراء). لهذا السبب أنصحك بالإبقاء على اتصال بهؤلاء الأشخاص وبأن تنقل لي اقتراحاتهم. آمل أيضاً أن تذهب لزيارة رئيس الوزراء لتصف له كل ما يجري بطريقة مماثلة.

- لسوء الحظ، شريف إمامي ليس رجل الساعة، إنه ليس قادراً على اخراج البلاد من هذه الأزمة. بما أنه رئيس قديم لمجلس الشيوخ ورئيس متخرج من «مؤسسة بهلوي»، فإنه يشكل أحد أهداف المعارضة. إذا سمحت، سأذهب فقط لرؤيته لأكلّمه بشأن السجناء السياسيين في محاولة لإطلاق سراح هؤلاء الذين لم يقوموا بارتكاب جرائم خطيرة».

أجابني الشاه بنبرة شبه مستسلمة:

«حسناً، حسناً».

أعلمته أيضاً أنه قبل الذهاب لحضور المؤتمر العام للأونيسكو الذي يجري في باريس، سأتوجه إلى السنغال للمشاركة في الاجتماع الذي دعاني إليه الرئيس سنغور. أي أن عليّ التغيّب لبضعة أسابيع.

- «ممتاز، عند عودتك تعالَ حالاً لزيارتي»، ختم الشاه.

قبل أن أغادر الصالة، التفتُّ:

«صاحبَ الجلالة، ماذا عليّ أن أفعل بالكتب التي أحضرتها لك؟

- أعطها إلى مدير المكتبة. لكنه عاد فاستدرك قائلاً: آه، تقصد الكتاب الذي تتكلم فيه عن الجشع. أعطني إياه!».

قال لي «إلى اللقاء» بحرارة، متمنياً لي سفراً ميموناً.

عند خروجي، توجهت إلى الحاجب الذي لفت انتباهي إلى أن الحديث دام ساعتين وخمساً وأربعين دقيقة.

من برسيبوليس إلى جان بول سارتر
(الحديث الثاني مع الشاه)

الثلاثاء، ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨، الساعة العاشرة صباحاً

استقبلني الشاه هذه المرة في مكتبه في قصر نياراڤان الذي يُشرف على المدينة. عليَّ أن أذكّر بأن حكومة شريف إمامي[1] كانت قد استبدلت منذ أسبوع بحكومة عسكرية، على أثر المظاهرات التي تحوّلت إلى عمليات حرق لدور السينما والبنوك. عندها وجّه الشاه نداء إلى الشعب مؤكداً: «لقد فهمت ثورتكم!». عشية هذا التغيير في الحكومة، وقد صادف وجودي في باريس، حاورني جان ـ بيار ألكاباش على القناة الثانية، وشرحت بصراحة معنى هذه الثورة متحدثاً عن أخطاء الشاه والطبقة الحاكمة التي أوصلت البلد إلى الوضع الذي وصل إليه.

جريدة الموند أيضاً طلبت مني تحليلاً للأحداث، وقد شدّدت على أن الخلاص الوحيد لإيران هو في الرجوع إلى دستور ١٩٠٦.

قبل الدخول إلى المكتب الامبراطوري، قال لي رئيس البروتوكول إن الشاه اطّلع على حديثي المتلفز وعلى مقالي في جريدة الموند.

«لا بأس. هكذا يمكنني التعبير عن رأيي بحرية أكبر لأنه يعرف الآن حقيقة أفكاري».

حين دخلت إلى مكتبه، استقبلني بحرارة وأجلسني قبالته ثم سألني بنبرة مفعمة بالاطمئنان:

«أين كنت؟ هل من جديد؟».

- ذهبت أولاً إلى داكار من أجل ندوة موضوعها الحوار بين الحضارات وينظّمها ليوبولد سيدار سنغور، بعدها ذهبت إلى باريس لحضور مؤتمر عام لمنظمة الأونيسكو.

- هل التقيت سنغور شخصياً؟

- أجل، ذهبت لزيارته في قصره قرب داكار، ذات يوم سبت بعد الظهر.

- أتصوّر أنكما تحدثتما بشأن ما يجري حالياً في إيران. يهمني أن أعرف رأيه.

- نظراً لتطوّر العلاقات بين إيران والسنغال حديثاً، بدا الرئيس سنغور قلقاً بشأن صلابة النظام إزاء معارضة تتعاظم كل يوم[٢]. يجدر بي القول إنه لم يُخفِ همومه المتعلقة بمستقبل إيران ومستقبل جلالتك. ثم إنه انتقد من جهة أخرى موقف الفرنسيين، وخصوصاً موقف الرئيس جيسكار ديستان الذي استقبل آية الله الخميني وأمّن له تغطية اعلامية أسهمت دون شك في إضعاف النظام. على أية حال، وجدته متأثراً جداً: لم يكن يفهم كيف أن حركة سياسية بهذا الاتساع يمكنها أن تستلهم الدين في أيامنا هذه.

من غير أن يكون الشاه راغباً في ابداء تلميح عدواني حيالي، وكأن الأمر لا يعنيه شخصياً، قال لي بنبرة تشوبها السخرية:

- «وبالطبع، أعطيته كل الشروحات اللازمة».

فأجبته باللهجة ذاتها قائلاً إن الرئيس سنغور يجهل كل شيء عن الثورية التي ينطوي عليها الإسلام الشيعي. ثم قلت للشاه إنني التقيت أيضاً في الندوة الأمير هيوغ دو بوربون ـ بارم[٣].

- تتكلم عن هذا الأمير الأحمر. أعرفه جيداً. لقد استقبلناه مرات عديدة. بغض النظر عن أفكاره الثورية، إنه انسان مثقف جداً، ما رأيه بالوضع؟

- بدا لي قلقاً جداً. كان يعتقد وزوجته أنه ليس هناك خلاص للنظام وأن الثورة ستنتصر.

- تقصد أنهما لا يريان حلاً للأزمة الحالية؟

- يظنان أن الأزمة قد بدأت منذ زمن بعيد لكنهما لم يفكرا قط أنها ستأخذ منحى دينياً. بحسب رأيهما، كل شيء بدأ مع الاحتفالات التي جرت في برسيبوليس بذكرى

مرور ألفين وخمسمائة سنة على تأسيس البلاد.

ـ لا أفهم. حتى الأشخاص الذي ينتمون إلى أصل ملكي، يوجهون هم أيضاً انتقادات للاحتفالات التي أقيمت إحياء لذكرى إحدى أكبر امبراطوريات العالم! مع أننا نجحنا في جمع حشد من رؤساء الدول لم يسبق له مثيل من قبل، ومن بينهم زعماء البلدان الشيوعية[٤].

ـ بالضبط، فقد حوت انتقادات أميرة دوبوربون ـ بارم بعض المآخذ من قبل العائلات المالكة في أوروبا، لم يسبق لي أن سمعتها من قبل والتي يمكن أن تتلخص على النحو الآتي: الثورة الفرنسية التي قطعت رأس لويس السادس عشر، والثورة الاشتراكية التي ترافقت مع اغتيال نقولا الثاني، هزّتا عميقاً الأنظمة الملكية في أوروبا. ثم إن سقوط الملكية في عدد من البلدان الأوروبية الشرقية والغربية (في ايطاليا واليونان حديثاً) جعل الملكيات الباقية هشّة ومهدّدة. من أجل هذا بدأت الأنظمة الملكية تتخلى تدريجياً عن أمجاد الماضي وتعيش حالياً في جو من الكتمان. تظن الأسر المالكة في أوروبا أن الشائعات التي تثيرها أحداث مثل احتفالات برسيبوليس، تحيي نار العداء القديم للملوك. هذا هو السبب في أنه لم يكن هناك بين مدعويكم ملكة بريطانيا أو ملكة هولندا كما كنتم تتوقعون، بالرغم من «الحملات المركّزة» التي قامت بها سفاراتكم. أما فيما يخص حضور الزعماء الخمسة للبلدان الشيوعية، فإن ديموقراطيي العالم اليوم، لا يرون فيه معنى سياسياً بل يردونه إلى الأهداف الاقتصادية والدبلوماسية المكيافيلية البحتة التي باتت تصبو إليها هذه الأنظمة.

ـ لا تنس أننا عُنينا بالتشديد على الناحية الليبرالية لقورش[٥]. لقد احتفلنا بإعلانه لحقوق الشعب الذي يُعد في الواقع أول إعلان عرفته البشرية لحقوق الانسان.

ـ بالطبع، يا صاحب الجلالة، لكن كان هناك في الاحتفالات عيبان اثنان أفسدا السحر كله: عيب في الشكل وآخر في المضمون. لنتكلم أولاً عن الشكل: «نموذج قورش الكبير كمحرّر للشعب هو غير معروف نسبياً، في تاريخنا، بالمقارنة مع الملوك الذين بنوا المآذن على رؤوس المواطنين الذين تجرأوا على مقاومة الغزاة، أو بالمقارنة مع الملوك الذين كانوا يفقأون عيون الصبيان أولياء العهد ويخصونهم ليمنعوهم من المطالبة بالعرش. أما بالنسبة لعيب المضمون، فكيف بالإمكان تبرير النفقات الهائلة التي هُدرت بينما الشعب غارق في البؤس».

أولاً، يعتبر المؤرخون الايرانيون أن أصل الملكية يعود إلى ما قبل الأخمينيين، هذا إذا أخذنا الميديين بعين الاعتبار. بالإضافة إلى ذلك، لم يسبق للإيرانيين أن اتحدوا للتغني بحسنات الملكية، إذا كانت بعض الشخصيات الملكية تتمتع بحظوة كبيرة لدى الشعب، فإن هذه الحظوة تعود حتماً إلى حكمتهم في ادارة البلاد، وخصوصاً إلى وقفتهم البطولية في وجه المحتل الأجنبي.

بالمقابل، الشعب الايراني لا يكن إلاّ الاحتقار والكراهية لعدد كبير من الملوك المعروفين بجشعهم ووحشيتهم. بكلام آخر، إن مدافن الرجال العظماء الذين كرّمهم الشعب خلال التاريخ الايراني لا تحتوي اطلاقاً الموكب المتتابع للملوك، إذا تمعنّا في هذه المسألة عن كثب، نرى أن عدد المستشارين ورجال الدولة الذين قُتلوا أو طُردوا من الحكم بسبب المؤمرات التي حاكها البلاط، والذين يحظون بعطف الشعب، هو أكبر بكثير من مجموع الملوك الأكثر إجلالاً[٦].

كل هذا يؤكّد أن الاحتفال بذكرى الألفين وخمسمائة سنة على تأسيس المملكة لا يتوافق مع أي أمنية وطنية. لا بل ان الشعب الإيراني اعتبره تجسيداً لجنون العظمة ولنزوات رجل لم يكن يهتم حقاً بتاريخ بلاده.

في سنة ١٩٦١، قرر الاسرائيليون إقامة مؤتمر للمؤرخين احتفالاً بذكرى تحرير الشعب اليهودي من أسره في بابل. من المعروف أن نبوخذ نصر الثاني قام باحتلال القدس وأرسل الاسرائيليين إلى المنفى، وأن أسرهم في بلادِ ما بين النهرين دام أكثر من أربعين سنة، إلى أن استولى قورش الكبير، ملك الفرس، على بابل في سنة ٥٣٩ ق.م.، أي في السنة نفسها التي أعاد فيها الشعب اليهودي إلى القدس وأمر بإعادة بناء معبدها.

كان مؤرخون ومستشرقون إيرانيون قد دُعوا إلى هذا الاحتفال الاسرائيلي. استغل هذه المناسبة المستشار الثقافي للبلاط، الذي كان يعرف جنون العظمة عند الشاه فطلب مقابلته، مصطحباً معه مؤرخاً متمكناً (علاّمة متبحراً، ذا شخصية ضعيفة يسهل التأثير عليها). أخذ هذا الأخير يدافع عن الفكرة التالية: بدل أن نترك للإسرائيليين حق الاستئثار بذكرى تحرير اليهود في بابل، لماذا لا نستغل الأمر لنظهر عظمة الملك الأشمندي قورش الكبير، وأن نجعل من ذاك اليوم يوماً عظيماً في التاريخ القديم، مبرهنين أن للملكية أصلاً نبيلاً وقديماً في إيران؟

هذا الاقتراح بدا خارقاً للشاه، هو الذي كان لا يزال يعاني من آثار صراعه السابق مع مصدق. فهو سوف يستطيع بذلك أن يبرر حكمه الفردي مستنجداً بملكية قديمة العهد في التاريخ، ثم أنه يستطيع أن يلجأ، ضمن الاستجابة لمطالب تتعلق بالديمقراطية وحقوق الانسان، إلى التذكير بالحماية التي خص بها قورش الكبير الأقليات وإلى إعلانه الأول عن حقوق الانسان. من جهة أخرى، كان باستطاعته، سائراً على خطى أبيه المناهضة للعرب والإسلام، أن يمعن في فصل مصير الشعب الإيراني عن مجموع العالم الإسلامي.

في هذه الفترة أي، منذ سنة ١٩٥٧، السنة التي ولدت فيها هذه الفكرة، حتى سنة ١٩٧١، السنة التي أقيم فيها الاحتفال ببذخ منقطع النظير في التاريخ المعاصر، الله وحده يعرف أية أموال طائلة هُدِرت وأية اتفاقيات مثيرة للدهشة عقدت مع المهندسين وفناني الديكور والنجارين والصائغين والمرممين الذين كانوا فرنسيين في معظمهم. إن هذه المبالغة في الترويج الإعلامي وفي التبذير، سببت صدمة عميقة للشعب الإيراني وأعطت الفرصة لآية الله الخميني لكي يتحدى من منفاه في العراق، سلطة الشاه. هناك من مسكنه الأكثر من متواضع الكائن في النجف، اتهم الخميني الشاه بأنه مجنون بالعظمة وطاغية غاشم.

منذ ١٩٦٤ والخميني يعيش في منفاه منسياً. إن التشهير باحتفالات برسيبوليس منحه الفرصة المنشودة للقيام بمحاكمة حقيقية للملكية وخصوصاً للمفهوم الذي كان يريد الشاه تعزيزه. غني عن القول إن هذه المحاكمة لاقت أصداء إيجابية في البلاد، لأن الاحتفالات أثارت سخطاً بلغ مداه الوسط السياسي.

تلك هي الأسباب التي من أجلها كان الثنائي الأميري دو بوربون ـ بارم يعتبر هذه الاحتفالات متخطية للحدود ومنذرة بنهاية الملكية الإيرانية.

حين كنت أخبره عن قضية احتفالات برسيبوليس، لم أشأ التمادي كثيراً في صراحتي لأخبر الشاه بما فعلته أنا نفسي في تلك الفترة.

كنت آنذاك في منظمة الأونيسكو وكنت أرى من وقت لآخر الجنرال بكروان، سفير إيران في باريس. ذات مساء، وبينما كنا نتعشّى سوياً، أخذ يحدثني عن أعماله. بدا لي متعباً ومغتاظاً من الضغوط التي تمارسها طهران لحمل الرئيس بومبيدو على الذهاب إلى

برسيبوليس. قال لي وقد بدا عليه اليأس: «منذ سنة وكل علاقاتنا مع فرنسا تقتصر فقط على هذه المسألة. أليس هذا مشيناً!».

حين عدت إلى المنزل، لم أستطع أن أخفي عن زوجتي بأن هذا الاعتراف قد هزّني في العمق. ومع أنني لم أرغب قط في المشاركة في أي نشاط مناهض للنظام خارج البلاد، إلاّ أنني هذه المرة لم أكن قادراً على الصمت.

في اليوم التالي، اتصلت ببيار جوكس (الوزير العتيد) الذي كان انتخب لتوّه نائباً في الجمعية الوطنية، ودعوته للغداء في مطعم الأونيسكو. كنت أعرفه منذ تخرجه من المدرسة الوطنية لإدارة الأعمال. ومنذ بداية عمله في الشؤون الخارجية، بدا لي فوراً رجلاً متزناً. أخبرته ما أعرف عن مهزلة برسيبوليس والمساعي الماكرة التي تدبّرها طهران لجلب بومبيدو إلى ايران. أضحكه ذلك، ثم قال لي:

«كيف تريدنا أن نهتم بصوابية أسفار رئيس انتخب بالرغم عن إرادتنا؟».

فأجبته: لا أكلمك من وجهة نظر انتخابية، بل بصفتك مواطناً فرنسياً. تخيَّل أن يكتب المؤرخون بعد عشرين عاماً أو ثلاثين أن الفرنسيين قد نصبوا كل هذه الخيام لاستقبال رؤساء العالم أجمع، وناموا في «مخيم الشرشف الذهبي» الذي أقامه جنسن وزيّنه مرسييه، فيما البورسلان مستورد من ليموج والكريستال من باكارا؛ وأن كل أموال الشعب الايراني قد هدرت في بضع ساعات من الجنون، على مآدب أعدها «مكسيم» في باريس وقدّم الخدمة فيها مئة وستون طبّاخاً وخادماً، وعلى خمسة وثلاثين ألف زجاجة نبيذ «شاتو لافيت»، وأن رئيس الجمهورية قد حضر بنفسه ليرعى هذا الاحتفال! على أي حال، لا تتوهم يا صديقي العزيز بأن السيد ميتران يستطيع أن ينتقد الحكم علانية، لأن ذهاب بومبيدو إلى برسيبوليس، فيما لو تحقق، غايته الحصول، كما هو معروف، على اتفاقية لإنشاء مترو في طهران ولبيع إيران خمس طائرات كونكورد. لا تنس، بغض النظر عن حماستك للاشتراكيين، أن العمال الذين يعملون في مصنع الطائرات بتولوز، والذين ينتسبون إلى الاتحاد العمالي العام، قد أضربوا حين طُرحت مسألة الحد من صناعة طائرات الكونكورد.

- ماذا تقترح؟

- اعلام فرنسوا ميتران بكل خلفيات هذه الاحتفالات، لكي يثني بومبيدو، بما يملك من وسائل عن حضور هذه الاحتفالات ضنّاً بسمعة فرنسا.

ودّعني بيار جوكس قائلاً:

- سأرى ما بإمكاني فعله».

بعد ثلاثة أيام، اتصل بي ليطلب مني أن أكتب له أربع أو خمس صفحات على الأكثر بخصوص هذا الموضوع. هذا ما فعلته، ومنذ ذلك الوقت لم نعاود الكلام في هذه المسألة. على أي حال، لم يذهب بومبيدو إلى برسيبوليس بالرغم من علمه بأنه سيجرح بذلك كبرياء الشاه(٧).

ما أن انتهت هذه الاحتفالات (١٩٧١) حتى تبعتها الاستعدادات للاحتفال بالذكرى الخمسين لاعتلاء آل بهلوي الحكم (١٩٧٥). صحيح أن بعض المسؤولين الحكوميين نجحوا، بشيء من المهارة، في إعطاء هذا الحدث طابعاً تكريمياً بسيطاً بعيداً عن الغطرسة، لكن هاتين الظاهرتين اللتين استغلتا إعلامياً انعكستا سلباً على الشعب. لقد أسهمتا في إضعاف الصورة التقليدية للملك العادل والحكيم وللشخصية التي يفترض بها أن تجسد ضمير الجماعة كلها وتسهر على مصالح الأمة أينما كان.

إن هذه الاحتفالات التي ضخّمتها محطات التلفزة العالمية قد قضت تماماً على الصورة المهيبة وشبه الرمزية التي كان قد رسمها الشعب للشاه. من جهة أخرى، كان التلفزيون قد أنقص من شأن القيمة شبه الخارقة وغير المنظورة للشاه، دون أن يحل محل الصورة المهتزة صورة أخرى ديمقراطية ومعاصرة. بدا الشاه في هذه الاحتفالات الرسمية في مظهر جد متعالٍ، لم يكن يتصرف حينئذٍ لا كحاكم تقليدي ولا كعاهل معاصر. إن خجله المعروف كان يحتم عليه الظهور بشكل بارد وجاف. لم يكن الشعب يعرف هذا الأمر بل كان يعتبر محمد رضا شاه شخصاً متعجرفاً ومحتقراً، بينما هو، في العمق، لم تكن تنقصه لا الطيبة ولا الدفء الإنساني.

ثم إن قضية أخرى أساءت إليه بشكل خاص: قبل سنتين أي في العام (١٩٧٦) تحدّى الشاه رجال الدين من جديد وقام بتغيير التقويم الإسلامي الرسمي. كان يريد أن يبدأ التقويم لا من اليوم الذي هاجر فيه النبي من مكة إلى المدينة، بل من ولادة الامبراطورية الاخمينية، قبل ألفين وخمسمائة سنة. كانت لدى الشاه رغبة في الرجوع إلى ما قبل الاسلام. أراد أن يتميّز عن العالم العربي وأن يلتحق بنسب قورش لكي يخفف من الطابع الإسلامي للشعب الإيراني.

- «ماذا يجري في فرنسا؟ سألني الملك، يبدو أن الصحافة الفرنسية متحمسة جداً للخميني، حتى ليقال بأنها اكتشفت غاندي جديداً! لِمَ هذا الافتتان بشخص بالكاد نعرفه؟ أعترف بأني لا أفهم هؤلاء الفرنسيين. إنهم يتعاملون بخفة كبيرة حين يتعلق الأمر بالحياة السياسية للبلدان الأخرى. ليس لديهم أدنى تحفظ، هل بإمكانك أن تشرح لي السبب»

أجبتُ ممازحاً:

- ربما لأنهم في صدد تصفية الحسابات معكم يا صاحب الجلالة. في عام ١٩٧٤، حين ارتفع سعر النفط ثلاثة أضعاف، احتقرتم الأوروبيين واصفين إيّاهم بالمنحطّين ومشهّرين بانحلال مجتمعاتهم. كانوا حينها في أمسّ الحاجة إلى نفطكم، لكنهم عضوا على الجرح آنذاك ليعودوا فينتقموا الآن.

- لكن جريدة «لوموند»، تابع الشاه، انتقدتنا على الدوام. كم من المرات قرأت فيها مقالات تتناول الوضع السياسي في إيران وخصوصاً فساد السافاك وموضوع السجناء الإيرانيين. كان هذا يدفعني مراراً للتحقيق في هذه الأمور. كنا نجد بعد التدقيق أن الوقائع التي تنقلها هذه الجريدة هي غالباً غير صحيحة أو مبالغ فيها. تحدثت عن الأمر إلى سفير فرنسا وأريته كيف أن جريدة «لوموند» أضافت من عندها أصفاراً إلى عدد السجناء السياسيين. أكّد لي السفير أنه سوف يستفسر من الجريدة ولكنه لغاية الآن لم يعلمني عن النتيجة. كان بإمكاننا في الواقع معاودة السؤال، ولكن (أضاف بلهجة مستسلمة) الأمر لا يستحق هذا العناء! دعك من هذا، حين لا يكون الناس ذوي نيّة حسنة، لا يمكن فعل أي شيء. ثم ان الأمر لا يقتصر فقط على جريدة لوموند وحدها. هناك أيضاً المفكرون الفرنسيون الذين لا يحبوننا. خذ مثلاً جان ـ بول سارتر الذي قام، تحت تأثير فريق من المحرّضين، بإلقاء تصريحات عجيبة عن الوضع في إيران.

- عليّ، مولاي، أن أخبرك ما قاله سارتر. في عام ١٩٧٥، كنت لا أزال أعمل في الأونيسكو حين ترك رينيه ماهو منصبه كمدير لهذه المنظمة. غير أنني ظللت ألتقيه بعد تلك الفترة. ذات مساء دعاني إلى العشاء وكان بين مدعويه سارتر وسيمون دو بوفوار. كانا صديقين حميمين لِمَاهو، فهم جميعاً ينتمون إلى نفس الدفعة التي تخرجت من معهد المعلمين العالي قبل الحرب العالمية الثانية. حين قدّمني رينيه ماهو كصديق

إيراني، قال لي سارتر: «اسمع، لديَّ رسالة إلى شاهك، سمعت بأنه أبدى عجبه خلال مؤتمر صحافي أقامه، من أن يهتم فيلسوف كبير مثل سارتر بقضايا التعذيب والسجون في إيران. لذلك، أرجو أن تقول له بأن الاهتمام بقضايا السجناء الذين يعذّبون، يجب أن يشكل الاهتمام الأولي للفيلسوف».

ردّ عليّ الشاه وقد بدا عليه الغضب:

- هل السيد سارتر يهتم أيضاً بمعسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفياتي وفي البلدان الشيوعية ككمبوديا مثلاً!

- مولاي، إن سارتر لم يتوانَ عن فضح القمع الذي تمارسه الأنظمة الشيوعية. إنه أول من اعترض على المصير الظالم الذي يلقاه الشعبان الكمبودي والفيتنامي.

- لا يحتاج المرء لأن يكون فيلسوفاً كبيراً ليدرك بأن الخمير الحمر برابرة. أقصد أن سارتر ومفكرين فرنسيين آخرين، وهؤلاء يشكّلون المرجع الفكري لمعارضينا اليساريين، لزموا الصمت على الدوام حيال ما يجري في الاتحاد السوفياتي، إن خروتشوف، الذي كنت أجده شجاعاً بالرغم من تطرفه، هو أول من سارع للتحدث عن جرائم ستالين. من بعده سولجنستين الذي وصف المأساة التي يرزح تحتها ملايين من الناس. أما سادة باريس الذين ينحصر كل همهم في إعطاء دروس للعالم أجمع، فقد لزموا الصمت لثلاثين أو أربعين عاماً. هل تعرف لماذا؟ لأن سارتر وأصحابه لا يرون الأنظمة إلّا من خلال منظارهم الإيديولوجي . لم يسعوا قط لمعرفة الحقائق في البلدان التي يتكلمون عنها، نظامنا مثلاً، لم يقدروا على التعاطف معه. لم يشأوا أن يروا تحسن الظروف الحياتية لشعبنا، مع أنهم يهتمون، حسب قولهم بمصير الشعوب.

- ربما هذا هو الوجه الآخر لكونهم يجلّون الشعب الايراني، بالمقارنة مع الانجازات التي حُقّقت، هالتهم التجاوزات التي قام بها السافاك في السنوات الأخيرة.

- لماذا لا يقولون شيئاً عن حقوق الإنسان في البلدان العربية كتعسّف نظام الأمن العراقي مثلاً؟

- السبب بسيط مولاي، وهو أن هذه الدول لا تسعى إلى أن تصبح خامس أقوى قوة عسكرية في العالم، ولا أن تذهب باتجاه «الحضارة العظيمة»، كما ادعيتم أنتم

أنفسكم. ثم، لا تنسوا بأن بلادنا تمتلك تراثاً مشرقاً، وتضم كنوزاً ثقافية. ثم أن بلادنا حققت في المرحلة المعاصرة، ثورة ديمقراطية في سنة ١٩٠٦، كما حققت أول تأميم للنفط لاقى صدى عالمياً في سنة ١٩٥١. لهذه الأسباب مجتمعة، يُعتبر وضعنا فريداً. لماذا لا تقول بأنهم يهتمون بنا لأننا نفاجئهم بكل بساطة: مصدق في بيجامته، الخميني وهو جالس تحت شجرة التفاح في نوفل ـ لوـ شاتو، بارد النظرات. لاحظ أيضاً أنه بعد الثورة العلمانية والمناهضة للدين التي شهدها العالم اكتشف الفرنسيون فجأة، أن هناك شعباً يريد القيام بثورة دينية.

ـ هذا بالضبط ما يجعلني أعجز عن فهمهم. فهذه الثورة الدينية لا علاقة لها بالمثل الديمقراطية والعلمانية التي يحاول الفرنسيون نشرها في العالم، ولا علاقة لها أيضاً بالأفكار الماركسية والمادية التي ينادي بها مفكرون يساريون مثل جان ـ بول سارتر.

ـ الوضع فاجأهم، لذلك يهتمون به، إنهم معجبون جداً بشخصية الخميني الذي استطاع أن يبهر شعباً وأن يحرّكه من خارج البلاد، لمناهضة نظام بقوة نظامك دون أن يلجأ إلى أية منظمة أو حزب سياسي، يعتبرون هذا حدثاً جديداً كلياً ولا سابق له.

ـ حسناً، ما تقوله يتعلق بمفكّري اليسار، لكن ما قولك في الأنظمة والأوساط التي تهتم بالأعمال؟ أعرف أن فرنسوا ميتران(٨) مثلاً يدعم المعارضة. هذا يعني أنه لا يحبنا، مع أن الشركات الفرنسية قد استفادت من التوجه الصناعي عندنا أكثر بكثير من سائر البلدان الصناعية الأخرى. لقد عقدنا معها اتفاقات كثيرة لدرجة أنها أبلغتنا أنها غير قادرة على تنفيذها بالكامل، إذا تغيّرت الأوضاع في هذا البلد، فهي لن تستفيد بعد الآن من هذه الفرص.

ـ أولاً، إن الدوائر الحكومية وأوساط رجال الأعمال التي تتحدث عنها مضطرة إلى أخذ الرأي العام بعين الاعتبار، وتالياً، إذا كانت قد توصلت إلى استنتاج بأن النظام الحالي متزعزع، فمن البديهي أن تستعد لمدّ الجسور مع النظام الجديد.

ـ هل صحيح ما أسمعه عن أن جيسكار ديستان يراهن على نجاح الخميني؟ علماً أن الفرنسيين، حين وصل الخميني إلى باريس، أكّدوا لنا بأنه لن يُسمح له بتعاطي السياسة في فرنسا.

ـ لكني علمت أنك أنت نفسك وافقت على أن يسمح الفرنسيون للخميني بالبقاء في فرنسا.

- صحيح. هذه كانت رغبتنا. لكنهم أكّدوا لنا أنه لن يقود حركة المعارضة للنظام الإيراني انطلاقاً من فرنسا.

- ومن الذي أعطاك هذا التأكيد؟

- لقد بعث لنا سفيرنا ببرقية تقول بأنهم اتصلوا به من قصر الاليزيه لينقلوا له رسالة، عبر جان ـ فرنسوا بونسيه، عن لسان الرئيس، الذي كان يقوم بزيارة للبرازيل، مفادها أن الخميني موجود في باريس بصفته سائحاً وأنه لن يمارس فيها أي نشاط سياسي[9]. في صبيحة اليوم التالي أعلم بهرامي أن رسالة جيسكار قد وصلت، وأن إيران كانت موافقة على الطريقة التي ينوي الفرنسيون من خلالها معاملة الخميني. إن سفيرنا قد أوضح من جهة أخرى أن السلطات الإيرانية ليس لديها ما تقوله في هذا الصدد»[10].

ثم تابع الشاه:

- «الآن نرى أن آية الله يستخدم وسائل الإعلام الرسمية كافة في نداءاته الداعية لقلب نظام الحكم وارتكاب الجريمة وجعل مسكنه مجلس قيادة للثورة، دون أن يجد أحد شيئاً يقوله.

- يجب أن نفهم أيضاً الضغوط التي تمارس على السلطات الفرنسية. صحيح أن الراديو الرسمي والتلفزيون ينتميان إلى الدولة ولكنهما بإدارة الصحافيين أنفسهم الذين يتابعون الأحداث انطلاقاً من الأمور التي يريد الرأي العام معرفتها. أنا أكيد أن جيسكار ديستان كان في موقف حرج للغاية. هناك من جهة علاقاته الوثيقة بإيران ومن جهة أخرى هناك ضغط الرأي العام والسحر الذي يمارسه الخميني، ولن يكون الأمر سهلاً بالنسبة له».

قال لي الشاه بلهجة حائرة ومستسلمة:

- «آه، هؤلاء الساسة الغربيون، لا يمكن أبداً التكهّن بما يفكرون».

في الحقيقة، كان الشاه يجد نفسه حيال هذا الوضع مرتبكاً جداً لا بل حائراً، ذلك أنه بعدما طلب من العراقيين طرد الخميني من بلادهم ومارس ضغوطاً على انكلترا وبلدان أخرى صديقة (خصوصاً على الكويت المجاورة لكي تبعد الخميني عند الاقتضاء خارج حدودها)، وجد نفسه أخيراً راضياً عن وجود آية الله[11] في باريس.

إن تنقّل الخميني أثار هيجاناً كبيراً في أوساط الشعب الايراني. من هنا، كان الشاه يخشى أن تتعاظم ردود الفعل فيما لو طلب من الفرنسيين إرساله إلى مكان آخر. لقد حاول جيسكار ديستان إبلاغه، بواسطة سفيره، عن استعداده لطرد آية الله شرط أن تطلب منه السلطات الإيرانية ذلك. وهذا ما لم يكن الشاه راغباً فيه.

أنزل الشاه فجأة رِجلاً عن رِجل، ثم قال:

- حسناً، لا أهمية لذلك. ماذا سمعت أيضاً؟

- التقيت بأحد أصدقائي القدامى الذي كان عائداً من بغداد. لقد أخبرني شيئاً هاماً للغاية. هذا الصديق هو مهدي علوي وهو مناضل اشتراكي مغربي، يعيش منذ زمن طويل في باريس ويعمل مع بن بركة والأممية الاشتراكية. كانت هذه المنظمة منصرفة للتحضير لمؤتمر فانكوفر للأحزاب الشيوعية في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٨، وقد قامت بإرسال مهدي علوي إلى بلدان الشرق الأدنى لاستكشاف الوضع السياسي هناك وخصوصاً في العراق. هناك التقى المسؤولين العراقيين كالرئيس حسن البكر كما التقى ميشال عفلق منظر حزب البعث. قالوا له إنهم مسرورون جداً لأن الخميني قد غادر العراق ولأن المسلمين العراقيين (وخصوصاً الشيعة الذين يشكلون الأكثرية) لن يعودوا تحت تأثيره المتعاظم خطره كل يوم بالنسبة لحزب البعث. لكن المفارقة، حسبما يقول صديقي، هي أن المسؤولين العراقيين نجحوا في تسريب فكرة إلى أوساط الرأي العام، مفادها أن إبعاد الخميني كان بطلب من السلطات الإيرانية خلال لقاء ضمَّ وزيري خارجية البلدين، على هامش اجتماعات المنظمة العامة للأمم المتحدة في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨[١٢]. إذاً وحسبما فهمت، فنائب الرئيس صدام حسين وأصدقاؤه نجحوا في حماية أنفسهم من تأثير الخميني محمّلين مسؤولية طرده للسلطات الإيرانية فقط. حتى إن هؤلاء العراقيين، بحسب علوي، كانوا قادرين حتى على انتزاع بعض المكاسب من الايرانيين».

قال الشاه وكأنه شعر فجأة بالغبن:

- كنا نعرف منذ زمن طويل أن النظام البعثي لا يمكنه تحمّل وجود الخميني في العراق، كان حزب البعث في الحقيقة يحاول، حتى سنة ١٩٧٥ أي حتى اتفاق الجزائر[١٣]، أن يجعل من العراق مركزاً للمعارضة الإيرانية . وكان يحاول بذلك أن يجرنا إلى الكف عن دعم أكراد العراق. حين قرّر مصطفى برزاني ورجاله إيقاف

الحرب ضد النظام العراقي، وبما أننا منحناه حق اللجوء إلى إيران، لم يعد لدى صدام حسين سبب وجيه للاحتفاظ بالمعارضين الإيرانيين عنده، خصوصاً أن الخميني، الرجل الاسلامي الثوري، كان يشكل خطراً على النظام العراقي.

- مولاي، يجب الاعتراف بأن الخميني، بدافع من كبريائه الدائم، إذا لم تكن تريد الكلام عن وطنيته، لم يسمح للنظام البعثي بالتأثير عليه حتى في أحلك اللحظات. علمت من مقربيه أنه رفض جذرياً مطالب النظام العراقي. لهذا السبب حقد عليه صدام وطرده من العراق.

أجاب الشاه:

- أجل، أنا موافق. ربما الخميني جامل صدّام، لكنه لم يجاره.

من المناسب أن نذكر هنا أن المسؤولين الايرانيين والعراقيين كانوا، على حد سواء، يخشون الخميني. وهم اتخذوا قراراً في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ بإبعاده وبأي ثمن عن النجف. في الوقت نفسه استبق هذان البلدان ردة الفعل الشعبية في حال اغتيال الخميني، فاتخذا كل الاحتياطات لكي لا يحملها أحد المسؤولية. السلطات الإيرانية لم تكن تملك فكرة واضحة عن طبيعة مجالات تأثير آية الله في البلاد. كانت مقتنعة بأنها تأتي في غالبيتها من النجف. يجب القول بأن النجف هي بالنسبة للمسلمين الشيعة، المكان الذي يأتي بعد مكة في القداسة، لأن علياً ابن عم النبي محمد ﷺ وصهره دفن فيها. بالإضافة إلى ذلك، تلقى آيات الله الكبار إعدادهم الفقهي في النجف أو علّموا فيها. ومن هذه المدينة الواقعة في بلاد ما بين النهرين هتفوا باللعنات ضد القوى الكولونيالية والحكام الملعونين[١٤].

إن لعبة «الغميضة» هذه بين الدولتين التي تحدث عنها مهدي علوي انتهت لغير مصلحة الشاه بسبب مهارة صدام حسين[١٥]، خصوصاً وأن التأثير الاعلامي لآية الله في باريس فاجأ السلطات الإيرانية والفرنسية وحتى المقربين من الخميني أنفسهم. في الحقيقة، حين غادر هذا الأخير بغداد، لم يكن ينوي الإقامة في باريس، كان يفكر بالأحرى في الذهاب إلى سوريا أو الجزائر. ثم إن البلد الأوروبي الوحيد الذي كان يؤثر الذهاب إليه هو المانيا الاتحادية، وبالتحديد هامبورغ، حيث يوجد المسجد الشيعي الوحيد في أوروبا، لكنه أمام رفض الكويتيين دخوله إلى أراضيهم، وأمام إصرار العراقيين الحثيث على أن يترك بلادهم، فضّل اللجوء إلى باريس، لوجود حلقة

من الأنصار فيها، بصورة مؤقتة في البداية. لكن إقامته أصبحت دائمة بسبب النجاح الاعلامي الذي لقيه هناك.

حدثت إذ ذاك واقعة لا سابقة لها. رغماً عن دولة إيران ورقابتها، نقلت وسائل الاعلام الخارجية، وخصوصاً أجهزة الراديو، رسالة الخميني إلى أمة بكاملها. وهكذا بدأت لعبة «غميضة» جديدة (لست أنا بل الآخرين) بين الشاه وجيسكار. فما إن بدأ الخميني يشغل حيّزاً كبيراً في الصحافة الفرنسية، حتى وجد الشاه نفسه غير قادر على الطلب من السلطات الفرنسية أن تطرده أو تحدّ من تأثير حملاته الإعلامية ، لكي لا يعطي ذريعة اضافية للمعارضة السياسية ـ الدينية. لا سيما وأن الشاه كان يعلل النفس بإرسال مبعوثين إلى باريس للتفاهم مع الخميني. كان الشاه قد تفاوض مع حسين ملك الأردن بهذا الخصوص، ثم أوحى إلى رئيس حكومته السابق علي أميني بالذهاب إلى باريس. ولكن الخميني رفض أي حوار.

ثم إن الملك كان يتوقع، نظراً لعلاقاته الشخصية والمميّزة مع جيسكار، أن يتمكن هذا الأخير من إخضاع الخميني لسلطته مانعاً إياه من لعب دور المقلقل في طهران، آخذاً بعين الاعتبار حجم العلاقات مع إيران، وغير معتبر مجيء الخميني إلى باريس حدثاً ذا بعد سياسي، جَهِدَ ديستان في البداية إلى اخضاع الخميني وإقصائه عن أي نشاط سياسي. لكن الأحداث، على مرّ الأيام، أخذت منحى آخر. كانت تَرِدُ إلى ديستان تقارير من سفيره في إيران تتنبأ بسقوط النظام. لذلك، أخذ يخفف من مساعيه في مراقبة التأثير الإعلامي لآية الله. ثم توصل أخيراً للاستنتاج بأنه ليس من مصلحة فرنسا ردع حركة الخميني في نوفل ـ لو ـ شاتو، حيث كان يوجد فريق من المثقفين الإيرانيين الفرانكوفونيين الذين كانوا ينظّمون المقابلات مع الصحافيين. هذا الأمر جعل جيسكار ومستشاريه يظنون بأن النظام الإيراني المقبل سيكون أقرب إلى فرنسا منه إلى الولايات المتحدة.

الشاه الذي كان ينظر بعين الحذر إلى الانكلوساكسونيين، اتخذ الموقف نفسه حيال ديستان، وأخذ يزداد اقتناعاً بأنه ضحية لمؤامرة تحيكها القوى العظمى ضده.

لهذا السبب انتفض الشاه حين ذكرت اسم جيسكار لأنه كان يشعر منذ تلك اللحظة بأن هذا الأخير قد خانه. كان يتصوّر أنه إذا لم يقدر «صديقه» الرئيس جيسكار على إسكات الخميني، فبمقدوره على الأقل أن يفتح حواراً لتهدئته.

على أية حـال كان مـوقف الرئيس جيسكـار يتلخص بما يـلي: إذا طلبت الحكومـة الامبراطورية بشكل واضح طرد الخميني، فإننا سنطرده، لكن طالما هو باقٍ في فرنسا، فإننا لا نملك فعلاً الوسائل لاسكاته[١٦].

سألني الشاه بلهجة المستفهم:

- «قل لي مَن هم الناس الذين يحيطون بالخميني؟ يقال بأنه خلق حوله مجلس قيادة ثورية بمعاونة فريق عمل وأنهم يأتون من أنحاء أوروبا لرؤيته. هل تعرف مقرّبيه؟

- أعرف منهما اثنين، لأني أنا نفسي أرسلتهما إلى فرنسـا بمنحتين دراسيتـين. الآن، هما ضابطان عند الخميني.

- كيف أصبحا خمينيين ومتى؟

- كانا من أتباع مصدق ومعتدلين جداً. كانت لديهما ميـول اسلاميـة لكن دون أن تصل إلى حدود التزمّت. لقد درسا في معهد الأبحاث الاجتماعية الذي كنت أديـره في طهران قبل الذهاب إلى فرنسا[١٧]. أحدهما قـام بترجمـة أعمال غـرفيتش وبرغسـون إلى اللغة الفارسية.

تابع الشاه مندهشاً:

- كيف تمكنّا في ظل ثقافة ترتكز إلى علم الاجتماع المعاصر أن يصبحا خمينيين؟ عمَّ يفتشان؟ عن التقدّم أم عن التأخّر؟

- صاحب الجلالة، أجد من واجبي أن أنقل لك أسباب استياء كل هؤلاء الشباب من النظام، وأسباب مناصرتهم الخميني، الجيل الوطني داخل البلاد وخارجها، والذي كانت لديه مآخذ على النظام، وجد نفسه مصدوماً لأنه لا يستطيع التعبير عن آرائه في بلاده أو من خلال قادة سياسيـين قادرين عـلى تجسيد أفكـاره. بالـرغم من الكفاءات المميّزة لأتباع مصـدق، لم يكونـوا قادرين عـلى خلق حركـة سياسيـة فاعلة عـلى نطاق واسع. لذلك اتجه الجيل الجديـد الذي لا يملك ميـولاً دينية إلى التيـارات الماركسيـة، واتجه ذوو الميول الدينية بدورهم إلى التيارات الأصولية. بدأ ممثّلو التيارات الإسـلامية يتجمعون داخل «تنظيمات»[١٨] في الولايات المتحـدة وفي أوروبا. في البـداية، لم يـأخذ النظام ولا الماركسيون هذه التنـظيمات عـلى محمل الجـد إلاّ أنها بدأت تنتشر في السبعينـات وتتقرب من الخميني شيئاً فشيئاً، إلى أن انضوت تحت لوائه تمـاماً ابتـداء من ١٩٧٧،

حين بدأت المعارضة الدينية ترتدي أهمية كبيرة في داخل البلاد.

ـ ما الذي حصل خلال إقامة سنجابي في باريس؟ يبدو أن مفاوضاته مع الخميني أدتّ به إلى التخلي المطلق عن مواقفه السابقة وإلى تأييد منه غير مشروط لآية الله.

من المناسب أن نشرح هنا من هو كريم سنجابي: إنه دكتور في الحقوق (متخرّج من جامعة الحقوق في باريس قبل الحرب العالمية الثانية) ومعاون مخلص لمصدق، كان قد نشر منذ سنة «رسالة مفتوحة إلى الشاه وقّعتها أيضاً شخصيتان من أتباع مصدق وهما شهبور بختيار وداريوش فوروهار، ينبهونه فيها إلى عدم احترامه للدستور وإلى تجاوزات الحكم. نجح سنجابي إلى حد ما في إثارة الحركة القومية القديمة وفي تقديمها كبديل للحكم في الإطار الدستوري (مع الاعتراف بحقوق الملك). ارتأى نظام الشاه، رغم نفوره من أتباع مصدق، وأمام تعاظم الأخطار والريبة الكبيرة، دعوتهم للمشاركة في الحكم. لكن هؤلاء لم يشأوا الاستيلاء على السلطة إلاّ برعاية الخميني. من أجل هذا، كانت الطبقة السياسية تعلّق، وخصوصاً التكنوقراطيون الطامحون إلى الانفتاح، أملاً كبيراً على سفر سنجابي إلى باريس.

كان الشاه يأمل كما سنجابي نفسه أن يتوصل هذا الأخير إلى إقناع الخميني: فوقّع لسنجابي شكاً مفتوحاً لكي يتمكن من تأليف حكومة ائتلافية بمباركة الخميني.

لكن الخميني كان قد خطّط لمشاريع أخرى ولم يكن ليصرّح بها بأية حال. لم يكن يريد الاعتراف بدستور ١٩٠٦ ولا بحق القوى القومية السياسية تلك التي كانت تطمح لأن يتوصل سنجابي إلى تفاهم من خلال ميثاق تشارك فيه مختلف القوى (العلمانية والدينية) ويحدد نشاطات هذه القوى وأهدافها المشتركة. لكن سنجابي لم يكن يملك الوقت ولا الجرأة لمناقشة الاشتراطات لمشروع مماثل مع الزعيم الديني المترمّت. لأن هذا الأخير كان يتحسب جيداً من المحاولات الرامية لإنشاء حكومة تكون في النهاية لمصلحة الشاه وتساعد على الخروج من الأزمة.

كان سنجابي قد رسم للخميني صورة تشبه آيات الله الآخرين الذين صادفهم في حياته، أي رجلاً سيكتفي بالتعبير عن بعض الأولويات الدينية والسياسية العامة تاركاً للشخصيات العلمانية حرية التصرف بها، لكنه اصطدم في نوفل ـ لو ـ شاتو برجل رابط الجأش مصمّم على الإطاحة بالنظام الملكي وحازم جداً بخصوص النظام الذي يريد تأسيسه ـ دون أن يعلن ذلك صراحة.

«يجدر بي القول يا صاحب الجلالة أن سنجابي كان يعتقد أنه سينجح في مفاوضاته مع آية الله، هناك حيث فشل بزركان[19] منذ أيام قليلة في باريس.

- لكن بزركان واحد منهم، وآية الله يدين له بالكثير لأنه أول من درَّس الإسلام السياسي في الجامعة. كان دائماً متعصّباً ومتمسكاً بمواقفه.

- لقد تمَّ تقديمه لك بشكل سيِّىء مولاي. أؤكد لك بأنه لا هذا ولا ذاك.

- لكن، هل تعرفه شخصياً لتسمح لنفسك بالتحدّث عنه على هذا النحو؟

- أجل مولاي، أعرفه جيداً. بالرغم من اتجاهاته الاسلامية الغالبة واحترامه لآية الله، أستطيع أن أقول لك إن اختلافه مع الخميني هو أكثر عمقاً من اختلاف الخميني مع سنجابي. في بداية الأمر، ذهب إلى باريس ليناقش مسائل خطيرة كمستقبل الجيش والنظام السياسي والإداري المقبل للبلاد. يقول إنه يريد أن يحقق سياسة الخطوة خطوة لأن تحوّلاً جذرياً في الأوضاع يمكن أن يلحق بالأمة أضراراً مدمّرة. أؤكد لك أنه لو كان النظام الحالي يظهر بعض التسامح والمرونة حيال المعارضة الليبرالية، لكان بزركان وأصدقاؤه مستعدين للمشاركة في ادارة البلاد وفي حل عدد كبير من المسائل التي تطرح نفسها الآن بطريقة مأساوية.

تابع الشاه بلهجة ساخرة كأنما ليخفي أسفه من تفويت فرصة التعاون مع رجل في منزلة بزركان:

- يقال لنا الآن إن علاقتهم جيدة مع الأميركيين وهؤلاء يدعمونهم فعلاً!

- لأن جلالتك لم تدعمهم. السافاك طاردهم دائماً، ثم أن النظام لم يخف قط علاقاته الطيبة بالأميركيين، الآن جاء دور بزركان وأصدقاؤه لينتقموا.

الشاه الذي بدا نصف مشكك ونصف مقتنع، آثر تغيير الموضوع، فقال:

- وماذا يحصل هنا داخل البلاد؟ كيف وجدت الوضع لدى وصولك؟

- الموضوع الذي كنت أنوي التحدّث معك فيه يتعلق بتوقيف سنجابي وفوروهار منذ ثلاثة أيام. هذا الاعتقال ستكون له انعكاسات سلبية داخل البلاد وخارجها.

احتجّ الشاه بنبرة واثقة:

- ألأنّ لهذا الاعتقال مبرراته القانونية؟ انهم ينتقدوننا علناً. الأمر واضح للغاية:

السيد سنجابي[٢٠] بعد مقابلته الخميني، عقد مؤتمراً صحافياً نال فيه من النظام. مثل هذه الإهانة تقع تحت طائلة القانون. لذلك تمَّ توقيفه، ليس في هذا الإجراء ما يدعو إلى العجب:

- لكن الجميع يعرف، يا صاحب الجلالة، هنا وفي الخارج، أنك تحاول منذ شهرين التفاوض مع الجبهة الوطنية... أي مع سنجابي وأصدقائه.

- لكن تصريحاتهم تتعارض في النهاية مع الدستور، فهم يقولون إن النظام الملكي لا يملك أي شرعية الآن.

- تعلم جيداً أن الدستور لم يُحترم، لا تستطيع الاحتماء خلف نصٍ أهين مرات عديدة.

اتخذ الشاه هيئة جدية ثم قال:

- لقد احترمتُ الدستور على الدوام، كان مرجعي الدائم.

- صاحب الجلالة، إن الذين يتكلمون عن احترام الدستور، لا يعنون بذلك احتراماً شكلياً أو التفوه بكلمات بسيطة... هل احترم استقلال السلطة القضائية مثلاً؟ كل هذه اللجان الاستثنائية من أجل مخالفات تتعلق بالتعبير عن الرأي، هل هي شرعية؟

- كانت هذه اللجان تقاضي أشخاصاً متهمين بالاعتداء على أمن الدولة أو بالتجسس أو بالإرهاب.

- مولاي، هل تعني أنه لا وجود عندنا لمعتقلين سياسيين منذ خمس وعشرين سنة؟ هل هؤلاء المتهمون أمثال بزركان وأصحابه أو أمثال آية الله طالقاني ورجال دين آخرين لم يتعاملوا مع أية قوى أجنبية، هل هم حقاً جواسيس وإرهابيون؟ تعرف جيداً أن هذا ليس صحيحاً. كان النظام يلصق التهمة التي يريدها بكل المخالفات المتعلقة بحرية التعبير. بصراحة، لا يمكنك إذاً أن تتشبّث بالدستور وأن تستخدمه فجأة في ظل الأزمنة الخطيرة التي تمر فيها البلاد، كغطاء شكلي لغض النظر عن الوضع السياسي الحالي. لقد درّس سنجابي لسنوات عدة في جامعة الحقوق ولم يتهم دستورية النظام. الآن سمح لنفسه بذلك مستفيداً من العاصفة السياسية التي لا سابق لها. عمله إذاً هو سياسي بحت، وأنت أيضاً يا صاحب الجلالة ليس أمامك

خيار آخر إلاّ العمل السياسي. لسنا في زمن الاحتيال على الشكل والأصول. عليك أن تعاود الحوار معهما، لأنك تعرف جيداً أنهما الوحيدان اللذان يمكن التحاور معهما. من هنا، فإن استبعادهما في السجن لن يحلّ شيئاً.

أراد الشاه أن يتظاهر بالشهامة:

- أنت تعلم بأنهما يعاملان معاملة جيدة. أعطيت التعليمات لكي لا يوضعوا في السجن. إنهما في مقر مخصص للضيوف الأجانب.

- هذا الأمر لن يغيِّر شيئاً في المشكلة، مولاي، إن أحد الشخصين الموقوفين من أعزّ أصدقائي، داريوش فوروهار. لقد أمضى في ظل حكمك أكثر من اثنتي عشرة سنة في السجن وفي ظروف صعبة للغاية. أعرف أنه يملك الآن سجادة وسريراً في غرفته، لكنه يستمر في النوم على الأرض. إنِ المسؤولين عن النظام ليسوا مهتمين لمعرفة ما يجول في رؤوس الناس، بل يعتبرون أن الإخضاع وحده يضمن أمن النظام.

لم يبدِ الشاه اعتراضاً على تحليلي، لكنه حاول، مرة أخرى، مفاجأتي.

- «لقد قلنا أيضاً بأننا تفاوضنا وإياهم لإيجاد حل».

- هناك قضية أخرى أريد أن أكلمك بشأنها وهي قضية احتجاز هويدا[٢١].

انتفض الشاه لدى سماعه اسم هويدا، لكنه تمالك نفسه على الفور.

فيما يتعلق باحتجاز هويدا، كنت أعرف أن الشاه يعيش دراما شكسبيرية منذ أن أعلنت الحكومة العسكرية قبل أيام احتجاز هويدا ووزراء قدامى وصفوا بأنهم «حلفاء الفساد». لكن الشاه كان يعلم أنه حين كان هويدا وزيراً للبلاط في سنة ١٩٧٧، فعل كل ما في وسعه ليحارب التبذير الذي تمارسه العائلة المالكة والمحيطون بها، فضمر له بعضهم حقداً شديداً.

لذلك، لم يكن الشاه يشعر بالارتياح لدى التحدث عن هويدا. حين عيَّن جمشيد، أموزغار رئيساً جديداً للحكومة، أي في المنصب الذي تولاّه هويدا لمدة ثلاثة عشر عاماً، جعل من هذا الأخير وزيراً للبلاط. بهذه الصفة شرع هويدا في عمل أكثر تطرفاً لمحاربة الفساد المهيمن. فأعدّ بوجه خاص مرسوماً يعتبر قانوناً تتصرف وفقه العائلة المالكة فيما يتعلق بالشؤون المالية والاقتصادية. الرهان الأساسي لهذا الإصلاح هو أن تمتنع العائلة المالكة عن التعامل مع شركات لها علاقة مباشرة بالدولة. استغرق

التحضير المتأني لهذا المرسوم حوالي العام تقريباً، وهذا لأن العاهل كان حريصاً على إرضاء عائلته مما جعله يفرض تعديلات دائمة عليه. لكن هذا المرسوم لم يرَ النور إلّا بعد رحيل هويدا من وزارة البلاط أي بعد فوات الأوان. . .

الشاه محمد رضا من جهة، يعرف تماماً أن هويدا كان صادقاً معه، وأنه لا يمكن أن تُنسب إليه تهمة الابتزاز أو القمع، في هذه المرحلة التي يطالب فيها الشعب الثائر بإجراء الحسابات، كان بديهياً إذاً أن يستعمل الشاه هويدا كبش محرقة لامتصاص نقمة الجماهير. في الوقت نفسه، كان يرتاب من أن يفسّر هذا الاحتجاز في الأوساط الحكومية كتعبير عن جحوده بحق هؤلاء الذين خدموه بأمانة.

لهذه الأسباب مجتمعة أصبح ذكر اسم هويدا منذ اعتقاله محرّماً في القصر. وقد جعل هذا الوضع الامبراطور قلقاً ومهتماً لمعرفة ما يقال في المدينة وفي مختلف الأوساط. أنزل رِجلاً عن رِجل متخذاً هيئة متعالية جداً وكأنه كان يريد أن يمارس فصاحته عليَّ أو أن يبرِّر نفسه أمام محاوريه المحتملين، ثم قال لي:

- «بسبب الفلتان السائد، بدا لنا أكثر حكمة أن نزيحه، خلال الأسابيع الأخيرة، طُلب مني مراراً أن أصدر الأمر بتوقيفه[٢٢]. لكني عارضت إلى أن اغتال مجهولون الجنرال خادمي[٢٣] (علمنا لاحقاً أنه أطلق النار على نفسه لحظة اعتقله البوليس)، قيل لي إن هويدا يعرّض نفسه لمصير كمصير خادمي. عندها اتصلت به لإعلامه وقلت له إن الجنود سيأتون لمرافقته إلى مكان آمن».

هل كان يريد أن ينقذ بريئاً، أو أن يسلّم مذنباً إلى العدالة؟ كان هذا الالتباس بالنسبة له وسيلة للخروج من الورطة بتعريض فريسة لخطر داهم، دون أن يتصوّر ما الذي سيحدث في ٧ نيسان (ابريل) ١٩٧٩، وهو إعدام هويدا. هذه القضية ظلّت تسبب له ألماً حتى مماته، كان يراوغ دائماً حين كان يُطلب مِنه أثناء وجوده في المنفى، أن يتكلم عن هويدا.

«صاحب الجلالة، أنت تتكلم عن أمن هويدا، منذ عودتي من باريس، خلال الأربعين ساعة الأخيرة، وأنا أسمعهم يقولون إن الجنود يهيئون خطة لاغتياله وللإيهام من ثم بأنه قضى منتحراً في السجن. إذا كان هذا الأمر صحيحاً فسوف تتحمل أنت المسؤولية والتبعات ستكون ثقيلة عليك. يجب أن تضع حداً لذلك كله».

ـ حينها قال الشاه مذعوراً:

«ولِمَ مثل هذه المؤامرة؟»

ـ لأن العسكريين الذين لم يحالفوا هويدا قط يعتقدون أن الغليان الشعبي سيهدأ إن هم قضوا عليه، وأن ذلك سوف يجنبك محاكمة محرجة جداً. يعتقدون أن في استطاعتهم استخدام الشائعات المنتشرة في أوساط الشعب والتي تقول إن رئيس الحكومة السابق هو من أتباع الدين البهائيّ.

احتدّت لهجته في الدفاع عن شرفه[٢٤] وشرف وزير بلاطه السابق:

ـ لا، هذا افتراء غير مقبول. هويدا ليس بهائياً.

ـ في جميع الأحوال، يجب ترتيب الأمور لكي لا يتحول توقيف هويدا إلى تصفية حسابات شخصية. يجب أن ينتهي هذا الاعتقال بمحاكمة إذا أردت أن يقتنع الشعب بسياستك الواضحة والانفتاحية. لكن يجب أن تتم المحاكمة بجدارة وفي ظل احترام القانون، أعني محاكمة شرعية لا غبار عليها لا سياسياً ولا قضائياً. مولاي، إذا كنت أشدّد على هذه النقطة، فهذا لمعرفتي بأن الحاكم العسكري منصرف الآن إلى تجميع الوثائق المتعلقة بفواتير الاستقبالات التي كان يقيمها هويدا وبفواتير أسفاره المتعددة. كل هذا مضحك دون شك ولن يقنع أحداً. ما يهم هو هذا الامتحان لإدارة البلاد التي سيتمكن الشعب من خلالها، وللمرة الأولى، من رؤية الطريقة التي يقوم فيها حكامه بمسؤولياتهم الدستورية وكيف يعالجون قضايا الدولة الخطيرة. تحدثت إلى علي أميني[٢٥] وقال بأن المحاكمة يجب أن تكون سياسية وليست جزائية. الجميع يعرف أن هويدا لم يسرق. كل ما فعله هو أنه غضّ الطرف عندما سرق الآخرون، وخصوصاً المقربون من العائلة المالكة لكي تجرى مثل هذه المحاكمة، على جلالتك أن تقبل بما ينص عليه القانون وهو أن «رئيس الحكومة والوزراء لا يمكنهم أن يبرروا أعمالهم وتصرفاتهم فقط بالرجوع إلى تعليمات الشاه المكتوبة أو الشفوية». أعتقد أننا، كما قلت لك في المرة الأخيرة، على مفترق طرق. مولاي الوضع يتطلب منك حداً أقصى من الحذر والإخلاص كي تعوّض عن الأخطاء وتعيد إلى البلاد توازنها.

بدا الشاه في حيرة حقيقية، ثم أفلت هذه الجملة البليغة:

«في الحقيقة لا أعرف إذا كانوا يهاجموننا اليوم لخير فعلناه أو لشر ارتكبناه.

- الاثنان يا مولاي، أذكر أنني التقيت بهويدا في بيته قبل شهر تقريباً من سفري إلى الخارج. كان قد استقال لتوّه من منصبه كوزير للبلاط حين سألته عما إذا كان ينوي مغادرة إيران إلى الخارج أو البقاء فيها، قال لي: «أود البقاء هنا للدفاع عما حققناه. هذه هي رغبة جلالته». إذا كان هذا صحيحاً، ينبغي إذاً إعطاؤه الفرصة للدفاع عن نفسه أمام محكمة جديرة قضائياً. هناك بالتأكيد حقائق غير معروفة. ربما بمقدوره أن يثبت أنه اضطر إلى التضحية بالشرعية الدستورية على حساب الفعالية الاقتصادية، وأي شيء آخر، ما أدراني؟».

قام الشاه بحركة تعبّر عن موافقته:

«هل تعتقد أن هناك مجالاً للتفاهم في ظل الوضع التحريضي القائم؟ قلت بنفسي لهويدا: لِمَ لا نُظهر ما حققناه، فهناك، إلى جانب الأخطاء التي ينسبونها لنا، انجازات كبيرة أيضاً».

- صاحب الجلالة، يجب ألا نفقد الأمل. آن الأوان للمباشرة بحساب ختامي. فالشعب يريد الوقوف على حقيقة الأمور. لا يكفي أن يقال له: «نحن أدرى بمصلحتك، دع الأمر لنا». يجب القيام باستراحة حتى ولو كانت على حساب إبطاء مسيرة التطوّر. يجب كشف كل الحسابات ليصير كل شيء واضحاً.

- المشكلة أن الحكومة تعتبر أنه لا يمكن ادانة المسؤولين الكبار بحسب القوانين السارية المفعول حالياً. قال لي أعضاء الحكومة إنهم الآن منصرفون إلى تحضير مشروع قانون وسن أصول جديدة لمحاكمة هؤلاء الأشخاص، وأنهم سيقومون بمناقشة ذلك في البرلمان قريباً.

- صاحب الجلالة، أريد أن أتحدث إليك بشأن موضوع شائك ومغيظ في آن، لكنه ملحّ للغاية. موضوع شاغل تتداوله ألسنة مستشاريك الحكماء[٢٦] الذين لا يجرؤون على مفاتحتك به، بسبب تحفظهم. هذا الصباح، قبل أن آتي إلى القصر، مررت لزيارة وزير البلاط الجديد السيد أردلان[٢٧]. حين قلت له إني أنوي التطرق إلى موضوع ثروتك، أخذني بين ذراعيه، وقال لي: «هذه أفضل خدمة نستطيع تقديمها لجلالته». حين ذهبت إلى باريس اطّلعت على نشرة إيرانية تصدر في المنفى، وتدعى تشاب (يسار)، قد نشرت لائحة بأكثر من مئتي شركة تابعة لـ «مؤسسة بهلوي». ولكي أهيّىء لهذه المقابلة، أمضيت البارحة النهار بطوله أقابل علماء اقتصاد

من بينهم وزير سابق أثق به، لأتحقق من صحة هـذه اللائحـة، لسوء الحظ، أكّـد لي هؤلاء الخبراء الصحة النسبية للوقائع التي أوردتها هذه النشرة.

من ثمَّ أخرجت النشرة من حقيبتي لأريها للملك، حين كنت أناولـه إياهـا، لم يقم بأية حركة لإمساكها، سألني بلهجة منزعجة:

- «هل تقصد بكلامك عن الثروة، ثروتي وثروة عائلتي»؟.

- الاثنين يا صاحب الجلالة.

- لقد منحت كل ثروتي إلى مؤسسة بهلوي. وهذه المؤسسة تهتم بـالأعمال الخـيرية والنشاطات الثقافية. لا أفهم لمَ هذه الانتقادات.

- مولاي، إذا كانت تلك نيتـك عند إنشـائها، فـإنها أخذت تتحـوّل تدريجيـاً إلى شركة تجارية خاصة، لم يعد هذا خافياً على أحد .

من المناسب هنا إعطاء بعض الإيضاحات بخصوص هذه المؤسسة التي كان يشكل غطاؤها الخيري والثقافي جزءاً لا يُذكر من نشاطاتها. في الحقيقة، كانت لديها أهـداف ثلاثة:

- أولاً، إيجاد مصادر لتمويل الشركات التجارية التابعة للشاه.

- ثانياً، مراقبة اقتصاد البلاد عن طريق الاستثمار في مختلف المجالات.

- ثـالثاً، تقـديم دعم مـالي لـلأشخـاص الـذين يُعتـبرون من الأوفيـاء للملكيـة، وخصـوصاً لشخص الملك (دعم ممنـوح في شكل رواتب أو تقـديم منح دراسـة لأولاد هؤلاء الأشخاص، للذهاب إلى الخارج).

تـأسست هذه الشركـة عام ١٩٥٨، وهي أنشئت بـأموال أمـلاك الشاه الخـاصـة. كانت هذه الأملاك تتضمن ٨٣٠ قرية مع مساحة تقدّر بمليونين ونصف مليون هكتـار عادت إلى الشاه محمد رضا من والده رضا بهلوي. استولى هذا الأخير خلال السنوات الأخـيرة من حكمه التي امتـدت حتى سنة ١٩٤١، عـلى أفضل الأراضي الـزراعية في إيران بطريقـة اعتباطيـة، كان قسم من هـذه الأراضي الخصبة يقـع على شـاطىء بحر قزوين. الشاه محمد رضا بـاع هذه الأراضي بـأسعار غـير مرتفعـة نسبياً إلى المـزارعين الذين كانوا يعملون فيها، وأحيل ريع هذا المبيع إلى مؤسسة بهلوي.

كانت المؤسسة تتضمن مجلس إدارة مؤلف من عشرة أشخاص من بينهم خمسة بحكم المنصب (رئيس الوزراء، وزير البلاط، رئيس مجلس الشيوخ، رئيس مجلس النواب، ورئيس محكمة التمييز) وخمسة آخرين يختارهم الشاه بنفسه. تبعاً لقانون هذا المجلس، يرجع ٢,٥ بالمئة من عائدات هذه المؤسسة إلى الواهب (أي الشاه) الذي يوزّعها بدوره على أعضاء مجلس الإدارة.

كان للمؤسسة بعض النشاطات العلمية والثقافية قوامها على إعطاء منح دراسية إلى أبناء رجال الشرطة والعسكريين والساڤاك (ضحايا المواجهات مع رجال العصابات السياسية). أنشأت المؤسسة هيئة لترجمة أهم الأعمال الثقافية ونشرها. واستطاعت أن تصدر حوالى ٥٠٠ عمل هي في معظمها أدبية كلاسيكية وفلسفية وتاريخية عالمية، لكن نشاطها الرئيسي كان متجهاً إلى العمليات التجارية البحتة والمُربحة.

كانت أموال المؤسسة تأتي بالدرجة الأولى من بنك عمران الذي كان يتجاوز رأسماله في سنة ١٩٧٨ الستة مليارات فرنك فرنسي. وكانت لهذا البنك أسهم في عدة بنوك وشركات تأمين إيرانية. وكانت شركة «مَلي» للتأمين التي يعود ثمانون بالمئة من أسهمها إلى المؤسسة، تملك حصصاً كبيرة في قطاع الخدمات العامة ومن بينها حق التصرّف بعقود تأمين الشركة الجوية للخطوط الإيرانية، ممَّا كان يعود عليها بثلاثين مليون فرنك، ربما سنوياً صافياً.

على صعيد آخر، كانت المؤسسة تملك أسهماً في شركات تنتج السكر والاسمنت والسيارات وفي شركات عقارية كبيرة. كانت تملك أيضاً مجموعة كبيرة من الفنادق والكازينوات، الأمر الذي جعلها شبه محتكرة لهذا القطاع.. واقتنت عام ١٩٧٠ مبنى «دبينا» في الجادة الخامسة من مانهاتن الذي يرتفع إلى خمسين طابقاً، بهدف تأجيره لشركات إيرانية أو لمنظمات تملك مكاتب في نيويورك.

لم تكن تحمل هذه النشاطات في أكثريتها لافتة «مؤسسة بهلوي»، بل كانت تختبىء خلف واجهات شركات أجنبية أو إيرانية. كان ينتج عن ذلك ليس فقط جهل الشعب التام بكل ما يجري، بل أيضاً جهل بعض المسؤولين الحكوميين. إن عدم الوضوح هذا الذي لم يكن في مصلحة العائلة المالكة، كان مثيراً لمختلف أنواع الشائعات التي تزيد في الطابع المركنتيلي والتجاري للمؤسسة.

من جهتي كنت مقتنعاً بأن هذه الأعمال المربية تعرّض الملكية الإيرانية للدمار.

قمتُ مع بعض الأصدقاء الذين كانوا غير موافقين على هذه الوسائل (وخصوصاً هويدا، بالرغم من تكتمه) بإجراء تحقيق من أجل الحصول على معلومات دقيقة حول نشاطات المؤسسة. كنت في كل زيارة أقوم بها للشاهبانو أمدها بمعلومات غير قابلة للنقض، وقادرة على إقناع الشاه بالخطر الذي يُحدق به إذا ما هو أفلت العنان لمثل هذه الممارسات. كانت الشاهبانو تقول لي في كل مرة: «يؤكد جلالته أن كل هذه الشائعات هي أقاويل لا صحة لها. اعطوني براهين». كانت بالطبع تدوّن بعض الملاحظات وتملأ بها أحياناً صفحات من دفترها الكبير، دون أن نتوصل إلى اقناع الشاه بمنع تهافت أفراد عائلته على الربح بمثل هذه الشراسة.

قلت للشاه وأنا أملك كل هذه المعلومات:

- «إن أعمال هذه المؤسسة شغلت بال مؤيدي الملكية أكثر من معارضيها».

سألني الشاه عن السبب مندهشاً:

- «لأن مؤيديك يعتقدون أن المركنتيلية، في حال استشرائها، ستصيب العائلة المالكة من الداخل وتعرّض العرش بذلك للانهيار. ثم أن معارضيك المصمّمين في جميع الأحوال على الإطاحة بك سيستفيدون من ذلك، لأنه كلما أصبح المكان فاسداً، كلما أصبحت مهمتهم أسهل.

لكن الشاه استمر في محاولته إقناعي:

«تعلم بأن المؤسسة قامت بنشاطات لم يكن يجرؤ أي قطاع خاص على الاقتراب منها. مثلاً، فيما يتعلق بالصناعة الفندقيّة التي لم تجذب أي مستثمر، واصلت المؤسسة جهودها، بالرغم من النقص في ميزانيتها، لإعطاء البلاد بنية تحتية جديرة بهذا الاسم، كما أنها قامت بمبادرات لتشجيع صناعة الاسمنت والسكر في المناطق الفقيرة.

- صاحب الجلالة، ربما كان كل هذا مبرراً وجوده قبل ثلاثين أو أربعين عاماً، لكنك تعرف تماماً أن الدولة، منذ ازدياد عائدات النفط، قادرة فعلاً على القيام بهذه المشاريع، إذا أخذنا بعين الاعتبار الاحترام الذي يجب أن توحيه الملكية للشعب الإيراني، لا يعود مفهوماً لماذا تريد أن تكون أنت شخصياً نموذجاً للاستثمارات الاقتصادية. مسؤولية منصبك الرفيع جداً ترتب عليك التزاماً أخلاقياً كبيراً. هذا الالتزام الأخلاقي يضعفه مثل هذه الأعمال. وأفضل برهان على ذلك هو أن رجال

الأعمال الذين يدينون لك بازدهار أشغالهم يعتبرونك الآن منافساً لهم. كما أن هؤلاء بالذات يتكلمون عنك في العشاءات والحفلات مبالغين كثيراً في تصوير أعمال عائلة بهلوي. كل الأجانب ورجال الأعمال والدبلوماسيين وصحافيي العالم أجمع يعلمون بذلك ما إن يصلوا إلى طهران. بإمكانك إذاً أن تتصور بسهولة الانعكاسات السيئة لهذا «القيل والقال» داخل البلاد وخارجها».

بدا جلياً أن الشاه كان مرهقاً من كل ما سمعه بخصوص ثروته. قال لي بلهجة جد مستسلمة:

- ماذا عليَّ أن أفعل للخروج من هذا المأزق؟

- أن تمنح كل ما تملكه هبةً لا رجوع عنها. كل ما تملكه يا صاحب الجلالة، كل ما تملكه. ويجب أن تتخلى عن ممتلكاتك في ايران وفي خارجها لتقنع الناس بحسن نواياك. حينئذ فقط ستثبت لهم رغبتك الدائمة.

- حسناً، موافق، لكن أي شكل ينبغي أن تتخذه هذه الهبة؟

- يمكن أن تقدَّم لوزارة التربية الوطنية بحيث تخصص هذه الثروة لطبابة أبناء البلاد وتعليمهم. ولكي لا تتكرر الأخطاء نفسها التي حصلت مع مؤسسة بهلوي، يجب وضع كل ذلك تحت سلطة الحكومة وبمساعدة لجنة مراقبين يعيّنهم البرلمان، دون أن يكون لك الحق بالرقابة، تماماً كما المجوهرات الملكية الموضوعة تحت مسؤولية البنك المركزي، أي خارج متناول عائلتك.

- بما يتعلق بثروتي الشخصية أنا موافق، ولكن ثروات الآخرين. . . ؟

- يمكنك أن تأمر بتأميمها.

العبارة أرعبته:

- هل تقول إنه عليّ أن آمر بتأميم أملاك الآخرين بطريقة قسرية؟ بأي حق أستطيع التصرف على هذا النحو؟ ألا تعتقد أنهم سيثورون على مثل هذا القرار التعسفي، كما قد يفعل أي مواطن عادي في المحاكم المحلية والعالمية؟

- صاحب الجلالة، أولاً، الأمر لا يتعلق بأي فرد كان، ثم أنهم لن يجرؤوا على المعارضة.

- لكن، قل لي، ما هي الوسائل التي يجب اتخاذها على الصعيد العملي؟

- يجب على أفراد عائلتك أن يوقّعوا تفويضاً كاملاً تتصرف بموجبه بأملاكهم الخاصة. أما إذا لم يوافقوا على هذه القوانين، يمكنك حينئذ أن تطلب من الحكومة القيام باحصاء لثرواتهم وتقديم مشروع قانون إلى البرلمان هدفه ليس فقط تأميم الجزء الشرعي من ثروتهم بل أيضاً الجزء غير الشرعي منها. كل هذا ضمن الاحترام المطلق للحقوق. مثل هذا الإجراء سيمنحك نفوذاً كبيراً حيال طبقة المالكين، للشروع في أي اصلاح اجتماعي.

- ألن يقولوا بأني أحرمهم من حق الملكية الذي يتمتّع به كل مواطن ايراني؟

- صاحب الجلالة، لم يحصلوا على هذه الثروات بطرق شرعية. إنها ناتجة عن اتجار بالنفوذ. هاك مثلاً، منذ يومين نشرت الصحف أن الشرطة تلاحق قضائياً مجلس ادارة لشركة تنمية عقارية تُدعى مهستان؛ الأميرة أشرف تملك أسهماً كثيرة في هذه الشركة.

- لكنها قالت لي إنها باعت هذه الأسهم؟

- من أين جاءت بهذه الأسهم يا مولاي؟ إسمحِ لي بأن أقول لك خلفيات هذه القضية. منذ بضع سنوات مرّر وزير الزراعة مرسوماً إلى مجلس الوزراء هدفه أن تمنح مؤسسة بهلوي بضعة ملايين أمتار مربعة من الأراضي الموجودة في الضاحية الشمالية الغربية من طهران، لبناء شقق سكنية للعائلات ذات الدخل المتواضع، عندها قامت الأميرة أشرف بتأسيس شركة عُقارية يتكوّن رأسمالها من بيع جزء من هذه الأراضي التي كانت قد اشترتها الأميرة من المؤسسة بسعر رمزي، وعقدت هذه الشركة نفسها اتفاقات مع شركة ايطالية لبناء ثلاثة آلاف منزل فخم بيعت على الخارطة بأسعار باهظة، وهذا دون أن تحترم التزاماتها حيال المشترين. الآن، ونظراً لشكاوى المشترين، تُلاحَق شركتها قضائياً. إذاً، كما ترى، حققت الأميرة أشرف بضعة ملايين من الأرباح مستخدمة أراضٍ محصّلة ظلماً. هذا دون التكلم عن بيع شقق غير موجودة إلاّ على الورق... ها قد رأيت يا صاحب الجلالة نوع الأعمال التي تقوم بها العائلة المالكة والعار الذي تلحقه بالملكية وبالنظام على حد سواء.

شعرت أن الشاه الغارق في صمت عسير جداً، لم يكن مستاءً لسماع هذه الحقائق التي نادراً ما تسنّى له سماعها على هذا النحو. فشجعني هذا على متابعة الحديث عن أعمال شقيقته التوأم وشخصين آخرين من أفراد عائلته. قلت:

- «أنا واثق من أنهم قدّموا لك مشاريع هذه الشركة بكثير من الفخر لتعتقد بأنه ستقام قريباً، على ضفة طهران، في أسفل جبال الألبروز، مدينة جديدة تضاهي من حيث هندستها وتنظيمها أحدث المدن الغربية. ربما، وبهدف التأثير عليك، عرض لك المهندسون الإيطاليون الذين تستخدمهم الأميرة مجسّم المدينة الجديدة، أليس كذلك؟

- قال لي الشاه وكأنه أفاق من حلم:

- هذا صحيح. رأيت مجسمات بدت لي هامة. لكن، إذا كانت ذاكرتي لا تزال جيدة، فإن هؤلاء الزائرين أكّدوا لي أنهم لا يملكون رأسمالاً كافياً. كانوا يتمنون عليّ أن أعطي تعليمات للبنوك بغية الحصول على قروض.

- ذاكرتك لم تخنك يا صاحب الجلالة، لكن هذه قصة أخرى. إلى جانب الحيل التي أَتَيْتَ على ذكرها، نجح هؤلاء الناس، بطريق المراوغة بوضع اليد على أراض باهظة الثمن في السوق الحرة، ثم بالحصول على أموال المالكين المقبلين، ثم، تالياً، نجحوا في الحصول على قروض ممتازة من مختلف البنوك. هذه الطريقة التي أصفها لك، طبّقتها العائلة المالكة وكل الأوساط النافذة في هذا البلد. أقرباؤك وخصوصاً الأمير غلام رضا كانوا يستفيدون من أزمة السكن، لأن البلدية لا تعطي الإذن بالبناء إلا داخل دائرة خاضعة لشروط محددة. كان أقرباؤك يحصلون بفضل مراعاة خاصة من محافظ طهران على الإذن بالبناء حيث يمكنهم جني أكبر فائدة ممكنة. هذا هو السبب في تدني شعبية نيكبي التعيس، المحافظ السابق لطهران الذي أوقف بتهمة الفساد في الوقت نفسه الذي أوقف فيه هويدا ووزراء آخرون، لم يطبق ذلك المحافظ تطبيقاً عادلاً تعليمات البلدية فيما يتعلق برخص البناء. لقد كان يبعث حفّاراته لدكّ مساكن الفقراء فيما يمنح التراخيص لبناء مدن جديدة تقيمها شركات الأمراء والأميرات.

تابعت أمام الشاه الغارق في تفكير عميق:

«المونوبول في أيدي القلة يسهم في تفاقم أزمة السكن والارتفاع المذهل للأسعار. هذه المسألة إذا تركت على غواربها، تصبح مقلقة للتقنيين والاختصاصيين الذين يلعبون دوراً أساسياً في اقتصاد البلاد، إنهم يضطرون إلى دفع أكثر من ٥٠ بالمئة من رواتبهم للحصول على مسكن لائق... يمكننا أن نعثر هنا على الأسباب الكامنة وراء

استياء سكان المدينة الذين لا يتوقف الثوريون عن استغلاله.. صاحب الجلالة، هناك ما هو أخطر من ذلك، هذه الأزمة كانت متوقعة. أذكر منذ خمس سنوات، أي في سنة ١٩٧٣، حين كنت أعمل في الأونيسكو، أتى هويدا إلى باريس ودعاني إلى الغداء مع المدير العام رينيه ماهو (الذي لا يزال يكنُّ له احتراماً كبيراً لأنه كان تلميذه في صف الفلسفة في المعهد الفرنسي في لندن، عام ١٩٣٨). تناولنا الغداء برفقة زوجاتنا في فندق البريستول. عرض لنا هويدا، لفترة ساعتين كاملتين، وصفاً مدهشاً لإيران ولتطوّرها في كل المجالات، مؤكّداً لنا بأن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية باتت محلولة باستثناء مشكلة السكن، حينها قال له رينيه ماهو إنه يكفي من أجل ذلك اتباع سياسة متماسكة وتطبيقها على مدار سنوات متتالية. فأجابه هويدا: «أجل، ولكن هناك مصالح ضخمة تقف في وجه استخدام سياسة مطردة». كما ترى، مولاي، لم يشأ هويدا أن يقول أكثر لرصانته وتكتمه. اليوم نرى أن الحصار الذي فرضه الركض وراء الاستفادة القذرة بات خميرة التحريض لدى الحركة الثورية. قال لي وزير سابق للاقتصاد (علي خاني): «إذا نظرنا من أعالي التلال، ناحية شمالي طهران، إلى كل الأبراج التي بنيت حديثاً، يمكن أن نستنتج بأنها ما كانت لتبنى لولا وجود حصص للعائلة المالكة في كل برج منها».

بدا الشاه قلقاً:

- هل هذا صحيح؟

- أجل، بشكل عام، يا صاحب الجلالة.

للخروج من المأزق المزعج، ولكيما يقتنع هو نفسه بأن كل ما قيل عن أقربائه لا يستند إلى معلومات صحيحة، قال:

«أنشأنا حديثاً وكالة احصاء للإجابة على شكاوى المواطنين ضد أفراد العائلة الامبراطورية. حين سألت هذا الصباح الوكالة عن أخبار جديدة، قيل لي إن الشكاوى قليلة جداً.

- المناخ الحالي تسوده الإثارة القصوى. الناس لا يهتدون إلى سبيل، ولا يستطيعون أن يصدّقوا بأنك ترغب حقاً في أن تخضع أقرباءك للقانون. عليّ أن أشرح لك يا مولاي بأن غالبية التدخلات التي يقوم بها الأمراء والأميرات تتعلق بالدولة وليس بالأفراد. في عام ١٩٧٧، دعت الشاهبانو بصفتها السيدة الأولى، أعضاء

المجلس الأعلى للبحث العلمي في فندق جبلي في ديزين، لتتم مناقشة النواحي المختلفة لسياسة علمية وتكنولوجية خاصة ببلادنا. حين تطرّقت، مع بعض أعضاء المجلس، لمسألة التبادل التكنولوجي وضرورة ادخال اشتراطات في الاتفاقيات التي تجرى مع الشركات الأجنبية، أفهمتنا الملكة، التي كانت توافق على وجهة نظرنا وتتفهم اهتماماتنا، بأن الأمر يتعلق هنا بقطاع خاص، وبأنه لا يمكن التدخل في هذا النوع من الاتفاقيات بسبب الصراع على النفوذ.

- كنت قد شدَّدت دائماً، في موضوع التبادل التكنولوجي، على ضرورة اعتماد الكادرات الوطنية على جميع المستويات. لكن هذه الكادرات كانت غير متوافرة غالباً في مجال التكنولوجيا المتقدمة، وكنا نريد الإسراع في انشاء مصانع جديدة.

- بعثتُ تقريراً حول هذا الموضوع إلى الشاهبانو حين كنت مديراً لمعهد البحوث والتخطيط التربوي والعلمي، وقمت بدعوة جيمس هاريسون نائب المدير العام السابق للأونيسكو (للعلوم والتكنولوجيا) ونائب وزير كندي للطاقة سابقاً، لدرس المسألة. وأقام هاريسون لمدة شهرين في طهران درس خلالها ستة عقود حكومية ايرانية هامة مع شركات أجنبية (تتعلق بالبتروكيمياء والطاقة النووية والألمنيوم... الخ). لقد شدّد في تقريره على ضعف العنصر الايراني في كل هذه العقود. «إذا لم تفاوضوا حول شروط هذا التبادل بجدية، فلن تحصلوا أبداً على تكنولوجيتكم». وأثبت السيد هاريسون أن تصنيعاً يفتقر إلى سياسة علمية وتكنولوجية واضحة، سيجعلنا تابعين أكثر فأكثر إلى الخارج، ولن نكون أبداً قادرين على الاعتماد على قوانا الذاتية. مولاي، ألا تكمن المشكلة الأساسية في أن إبرام هذه العقود مشبّع بالمصالح الشخصية. أما المشاكل الحقيقية، فإنها تأتي في المرتبة الثانية. مثال آخر: حين خرجت من الاجتماع الذي دعا إليه هذا المجلس العلمي، ذهبنا أنا ومدير مركز الطاقة الذرية، أكبر اعتماد ومدير التلفزيون رضا قطبي وهو ابن عم الملكة، للقيام بنزهة في الجبل وتنشق الهواء النقي. حين سألت اعتماد: «لماذا لم تتوصلوا إلى ادخال اشتراطات ضمان في عقودكم مع الشركات الأجنبية». أجاب أن المراهنات المالية كانت بالغة الأهمية وأن مصالح الأشخاص النافذين تحدّ من حرية المفاوض الإيراني. أما حين تعلق الأمر بشراء محطات نووية لتوليد الطاقة، فلقد وجدنا أنفسنا دائماً تحت ضغط الأميرة أشرف التي كانت تدفعنا إلى القبول بعرض فريق ألماني يزيد بمليار فرنك عن عروض الشركات الأجنبية الأخرى. منذ أيام، استدعى رئيس الحكومة أموزغار مدير

المركز أكبر اعتماد إلى مكتبه وأبلغه أن الواجب يحتم عليه ارضاء الأميرة أشرف[٢٨]، مع أنك أنت بنفسك قمت بتعيين أكبر اعتماد وهو رجل شريف وكفوء. مثال آخر أيضاً: منذ بضع سنوات، عقدت الحكومة اتفاقاً مع شركة كندية من أجل القرطاسية وإنشاء مصنع للورق في شمال ايران على شاطىء بحر قزوين. كان العقد بقيمة ٨٠ مليون دولار. بعد وقت قصير من اتمام العقد، ضمّت الشركة الأمير عبد الرضى إلى المشروع وهذا الأخير وقف في وجه وزير ماليتك وحصل من الحكومة الايرانية على زيادة قدرها ٢٠ مليون دولار دفعت الشركة الكندية في مقابلها ١٢ مليون دولار إلى الأمير. كما ترى مولاي، نواجه دائماً الأوساط نفسها. وأمثلة التدخلات عديدة. كيف يمكننا إذاً في ظل هذه الظروف حماية المصلحة الوطنية؟ إن الأفراد في الحقيقة ليسوا معنيين برفع شكوى ضد أمير، لأن الأمر يتعلق بإهانة المصالح الوطنية كلها.

جهد الشاه عندئذ للتقليل من فساد عائلته:

- «التدخلات والمؤامرات التي تتكلم عنها لا تخص بلدنا وحده. فالأمور هي كذلك، حتى في أمريكا وأوروبا. نسمعهم دائماً يتحدثون عن أشخاص نافذين - أعضاء في مجالس الشيوخ أو نواب أو وزراء - في أمريكا وانكلترا وإيطاليا وفرنسا، متورطين في رشاوى. من المستحيل تحقيق مشاريع واسعة من دون القيام بتجاوزات صغيرة.

- أولاً، الأمثلة التي استشهدتُ بها ليست صغيرة. وثانياً، السلطة في البلدان التي أشرت إليها موزّعة. هناك الأحزاب السياسية والبرلمان والقضاء والصحافة والمنافسة بين المؤسسات والبلديات. . . فيما الحكم هنا مركزي وكل شيء يصدر عنك. لذلك يجب أن تكون متيقظاً جداً. هذا التيقظ هو فدية حكمك.

- أوافقك الرأي. يجب السهر على مصالح الأمة وعدم التساهل حيال ما يعرضها للمخاطر. يجب الانتباه، كما قلت، لأن الأضواء مسلّطة علينا. من هنا، أريد منك أن تقول كل ذلك إلى الشاهبانو. فهي منذ وقت طويل تهتم بهذه القضايا وبإيجاد حلول لها. اذهب لرؤيتها حالما تستطيع وبأسرع وقت ممكن.

- بكل سرور يا مولاي. يجب أن أعترف لك بأني تحدّثت عن هذه المسائل مع الشاهبانو منذ سنوات عديدة وكانت تشاطرني القلق، لكنها لم تكن تعتبر نفسها قادرة على التحرّك. نأمل أن تكون لها القدرة الآن.

- في الواقع، إنها تشارك بشكل فعّال في كل القضايا التي طرأت مؤخراً. إني راضٍ عن الدور الجديد الذي تلعبه.

- هناك نقطة أخرى يا صاحب الجلالة. هل لا تزال مصمّماً على انشاء حكومة ائتلافية؟

- بالطبع. منذ عشرة أيام تحدّثت عبر الراديو معلناً قراري بإنشاء حكومة ائتلافية تجمع كل العناصر الفعّالة في الحياة السياسية.

- أظن أن حسين صديقي[٢٩]، بالرغم من سنواته الخمس والعشرين التي قضاها مبعداً عن الحياة السياسية، مستعد الآن للخوض في غمار التجربة غير آبه للصعوبات الكبيرة التي يمكن أن تواجهه.

حين سمع الشاه باسم الوزير الأكثر نفوذاً في حكومة مصدق والذي لم يقبل أبداً الخضوع، بدا مندهشاً للغاية:

- ماذا تقول؟ من أين أتيت بهذا؟

- البارحة مساء، ذهبت لزيارته. شعرت أنه، بخلاف سياسيين وطنيين آخرين ليس خائفاً من المجازفة، شرط أن تدعمه وتقبل بشروطه، على ما أعتقد.

- إني على استعداد لدراسة هذا الاقتراح، تحدّث عنه إلى الشاهبانو. ستكون سعيدة لسماع هذا الخبر، وتحدث عنه أيضاً إلى أميني وانتظام.

-بكل سرور. لقد استغليت كثيراً صبرَ جلالتك اليوم استأذنك بالانصراف».

نهضت فاقترب مني ورافقني بضع خطوات. قبل الوصول إلى الباب، قال لي مصافحاً:

- إلى اللقاء قريباً جداً.

خرجت من مكتبه وتوجهت إلى مكتب الحاجب. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف. ناديت سكرتير الملكة وقلت له إني أرجو مقابلتها. بعد دقائق معدودات، استدعاني ليعلمني بأن فرح تستطيع استقبالي على الفور. نزلت الأدراج واجتزت الحديقة عبر الممرات الداخلية وتواريت باتجاه مكتب الملكة.

بين الزوجة والأخت

ذهبت إذاً إلى مكتب الشاهبانو الواقع في الطابق الأول من قصر نياڤاران، في جوار الشقق الخاصة بالعائلة المالكة.

منذ عشرين سنة تقريباً وأنا أقوم بزيارة الملكة في هذه الغرفة، حيث كانت تستقبلني على انفراد من وقت لآخر، وحيث كنت أشعر بارتياح بالغ. كانت تصلني بها قرابة من جهة الأم، ومع أن هذا الرباط يسهِّل العلاقات بين الأفراد ويخلق جواً من الثقة، إلّا أن هذه لم تكن حالنا. كانت فرح تبدي اهتماماً كبيراً بالحفاظ على البيئة والتراث الثقافي ورعاية الطفولة ومستقبل الشباب. كنت أكلمها خلال لقاءاتنا عن كل شيء بصراحة وعن كل الأمور الهامة التي تحدث في البلاد، سواء تعلّق الأمر بتجاوزات النظام والفساد في محيط الشاه وعائلته، أو تعلّق بالقمع.

في ذلك اليوم، ما أن جلست حتى أخرجت اللائحة الشهيرة بالشركات التابعة لمؤسسة بهلوي. وضعتها على الطاولة أمامها وقلت لها:

- «زرتُ لتوي جلالته وتحدَّثنا مطوّلاً عن قضايا العائلة المالكة وطلب مني أن نتداول الكلام معاً للقيام بما يناسب. ربما يستدعي الأمر انشاء لجنة من أجل حلّ هذه القضية الشاقة؟».

أمسكت الملكة اللائحة باضطراب. حملقت عينيها حين تصفحتها. وكانت ردة فعلها الأولى اشعال سيجارة. ثم أطلقت تنهيدة ارتياح:

- «لحسن الحظ أن أحداً من أفراد عائلتي لم يرد اسمه في هذه اللائحة».

ثم نظرت إليّ مباشرة:

- ماذا قال لك جلالته حين أطلعته على هذه الأسماء؟

- أولاً، يجب أن أقول لك إن جلالته لم يبدِ أية رغبة في الاطلاع على هذه اللائحة. لكنه حين رأى بأني أصرّ وأتوقع منه اتخاذ قرار بشأن هذه المسألة، أوحى لي بالمجيء إليك. أعتقد، حسبما فهمت، أنه يرغب في أن تعهدي إلى لجنة لدراسة هذه المسألة والقيام بالتوصيات المناسبة.

سحقت الشاهبانو السيجارة التي أشعلتها للتو بعصبية، ثم قالت بهيئة تعبة:

«وما الفائدة من اللجنة؟ إننا ندور في دوامة. من البديهي أن هناك قراراً يفرض نفسه. وهذا القرار لا يتعلق بك أو بي أو بأية لجنة، إنما يتعلق بجلالته وحده، سواء أردت ذلك أم لا.

- تعلمين أن أعمال العائلة المالكة تؤلّف النقطة الأضعف في النظام، هذا أمر بديهي. إنها أشبه بمرض البرص، وتجدر معالجتها فوراً.

- أريد القول إن هذه المسألة كان يتوجب حلّها منذ وقت طويل. للأسف لم يُجر أي عمل في هذا المجال. إني متفقة تماماً معك على أن هذه الأعمال أضرّت بنا كثيراً.

كانت هذه المرة الأولى التي تتكلم فيها الشاهبانو أمامي صراحة عن هذا الموضوع الشائك. في السابق، حتى حين كانت تستمع إليّ باهتمام، كانت تمتنع عن اعلان ذلك لي. فقط، حين قمت منذ بضع سنوات بوصف مؤسف للوضع العائلي، سمحت لنفسها بأن تقول لي:

- لماذا يُفترض بنا، من أجل فريق صغير لا يتعدى أربعة عشر شخصاً أو الخمسة عشر يريد اشباع نهمه للمال، أن نجازف بحياتنا وبحياة أولادنا؟ قل لي، لماذا؟

- هذا هو بالضبط السؤال الذي يجب أن تسأليه لجلالة الملك.

كانت هذه انتفاضة الصراحة الوحيدة التي أظهرتها أمامي. لم تكن الملكة تجرؤ في الحقيقة على الكلام لأنها تعرف تماماً أنها لا تستطيع التحدّث في شؤون العائلة المالكة دون أن تلمّح في الوقت نفسه إلى الأميرة الجبارة أشرف التي كانت تخشى الإساءة إليها. كانت فرح تعلم بأنه كان لأشرف اليد الطولى في طلاق الشاه من زوجتيه فوزية (أخت الملك فاروق) وثريا.

رغم كل الأبهة التي كانت تُحاط بها الملكة منذ بضع سنوات وتقليدها كوصية محتملة للعهد في عام ١٩٧٥، لم تكن فرح تلعب أي دور فعّال في الحياة السياسية الايرانية، وذلك حتى سنة ١٩٧٧، أي السنة التي سبقت انهيار الامبراطورية. أما الأميرة أشرف فكانت على علم بكل أسرار عائلة بهلوي منذ تولي أخيها العرش.

يجب التذكير، على وجه خاص، بالنقاط التقديرية التي سجّلتها فرح في مقابل زوج كان هاجسه التحديث غير مهتم بالتراث الثقافي الذي حار المسؤولون الحكوميون

إلى من يلجأون بشأنه. في هذا الصدد، أسرَّ لي ذات يوم بيروز حاكم مقاطعة فارس التي عاصمتها شيراز، قائلاً:

- «لا أعرف حقاً كيف يمكنني التوفيق بين التعليمات المتناقضة للثنائي الملكي. كان الشاه، في كل مرة يزور شيراز، يطلب منا تشييد مبانٍ عالية من الباطون المسلح. فيما تشدّد الملكة على الاهتمام بالخضرة والأشجار واستعمال المواد المحلية كالقرميد، ولا تني تقول بالنسبة للمباني: «أقل ارتفاعاً. أقل ارتفاعاً!».

مجالان تجلّى فيهما بشكل خاص عمل الامبراطورة الفعّال. هما بناء المكتبات الخاصة بالأطفال في المدن وتشجيع النشاطات التربوية اللاصفية. كما نجحت في إعادة عدد كبير من التحف الفارسية القديمة الموجودة في الخارج، إلى أرض الوطن. وأطلقت في المجتمع الإيراني الراقي نوعاً من الحركة الثقافية لتشجيع الفن الإيراني. كان هذا يرتدي قيمة أكبر من أفكار الشاه حيث كان همه الوحيد نسخ الغرب مظهراً حيال كل ما يتسم بالمحلية جهلاً مطبوعاً بالاحتقار أحياناً، يعود إلى الملكة الفضل في إنشاء متاحف عديدة في طهران كمتحف الزجاج والسيراميك والسجاد والرسم، ومتحف الفن الحديث. لقد عهدت فرح بفكرة هذا المتحف، وهي التي تخرجت من أفضل المعاهد الأوروبية للهندسة المعمارية، إلى المهندس المصري الشهير حسن فتحي الذي عرف كيف يعطي المبنى أسلوباً معاصراً ويحافظ في آن على التراث الوطني.

بحكمي عضواً في لجنة الإدارة التي تراقب أربعين مؤسسة شجعت الملكة على انشائها، كنت على اتصال دائم بها، وأستطيع التأكيد أنها كانت تحاول جاهدة استباق مساوىء التحديث الذي يقوم به الشاه في جميع الاتجاهات، والتقليل منها. لقد كانت تقيم سوراً منيعاً في وجه تجاوزات زوجها واستطاعت بذلك أن تصبح ملجأ وسنداً لأقلية من الفنانين والمفكرين الراغبين في المحافظة على الهوية الثقافية الوطنية من مساوىء الكوسموبوليتية التي تجتاح هذه الهوية وتحجمها. كانت ايران تشهد في تلك الفترة صعود طبقة اجتماعية تضع مصالحها الخاصة فوق المصلحة الوطنية، وتسعى وراء فرض نماذج أجنبية في قطاع البناء يعود عليها استثمارها بفائدة كبيرة...

بالرغم من تمثيلنا الضعيف في لجنة الإدارة، فلقد استطعنا أحياناً، بفضل الملكة وعباس هويدا رئيس الحكومة آنذاك، أن نعيد النظر في سياسة النظام على الأصعدة كافة.

أذكر، ذات يوم، أننا طرحنا قضية الرقابة على المنشورات أمام الملكة ورئيس الحكومة. كانت لهذه المناظرة انعكاسات مباشرة في أوساط الدوائر المسؤولة، حتى أن اعتراضاتنا رُفعت إلى وزير الثقافة بعلبود ـ صهر الشاه المتزوج من أخته الأخرى الأميرة شمس ـ المسؤول عن الرقابة، مع أن السافاك كانت تمسك بكل خيوط القضية. وبفضل حماية الشاهبانو، كنا قادرين أثناء المناظرات التي كانت تجري في لجنة الإدارة، على انتقاد تصرفات الحكم، وكانت هناك تلميحات كثيرة تطال شخص الشاه بنفسه. إلّا أنه يجب التشديد على أن الشاهبانو نجحت بمهارة وذكاء في استقدام معارضي سياسة زوجها إلى القصر حيث كان يُسمح لهم بالتجمع في صالة مجاورة للغرفة التي كان يحكم منها الشاه البلاد بمفرده. . .

قبل سنة من احتفالات برسيبوليس الطنّانة التي أتاحت الفرصة في عام ١٩٧١ لهدر نفقات لا حدود لها، قالت لي فرح أثناء حديث خاص إنها لا تفهم فائدة مثل هذه المشاريع المكلفة. وقد علمتُ لاحقاً أنها اعترضت بشدة على هذه الاحتفالات إلى حدّ أن وزير البلاط علّام، وهو موضع ثقة الشاه، قدّم استقالته إلى الملك احتجاجاً على انتقادات الشاهبانو العنيفة، إلّا أن الشاه لم يقبل هذه الاستقالة، وجرت الاحتفالات بحسب البرنامج المقرّر. كل هذه الوقائع تشهد على الدور الملطف الذي لعبته الشاهبانو إزاء زوجها، تمليه عليها آراء المثقفين واحترامها القيم التقليدية والدينية التي كانت الشاهبانو متشبثة بها.

أما الأميرة أشرف فقد مارست على أخيها تأثيراً مختلفاً كلياً. لقد كانت تملك بيوتاً فخمة في باريس على الكوت دازور وفي نيويورك، وتقضي معظم أوقاتها في الخارج. بالإضافة إلى ذلك، كان حبها للمقامرة والمظاهر الاجتماعية الصاخبة يجعلها مسرفة بشكل صارخ. ذات يوم، وكنت أتناول الغداء مع هويدا، رنَّ الهاتف في غرفة الطعام. كانت أشرف تتصل من جوان ـ لي ـ بين. أقفل رئيس الحكومة السماعة بعد حوار قصير جداً، وبدا منزعجاً للغاية. فهمت على الفور أن الأمر يتعلق بالمال وتجاسرت بالقول:

ـ خسارة كبيرة في الكازينو؟

انفجر رئيس الحكومة قائلاً:

«السيدة تطلب مني مبلغاً محترماً. وقبل حلول المساء! أتصور أنها خسرت في كازينو

كان، مما اضطرها للنهوض في الساعة الحادية عشرة والنصف، وهذا الوقت الفرنسي للاستيقاظ مبكر جداً بالنسبة لها. فهي تنام في ساعات غير اعتيادية وهذا يجعل مزاجها سيئاً للغاية...».

رفع هويدا عينيه نحو السماء بدا عليه الاشمئزاز. ثم أشار إليّ بأنه لا يستطيع التكلّم أكثر. سألته:

- لماذا لا تستقيل؟

وضع سبابته أمام أنفه وكأنه يريد تحذيري من وجود أجهزة تنصت سرية. ثم أجابني بصوت قوي وواضح:

- لا نستقيل حين نكون في خدمة جلالته.

كانت الأميرة أشرف تجمع الجرأة والنفوذ إلى الإغراء. كانت تثير اهتمام الرجال إلى أقصى حد وتنجح دائماً في أن تنال منهم ما تريد. لم تكن تخاف مواجهة الرجال السياسيين الأكثر هيبة، حتى ولو كانوا من طينة ستالين. في عام ١٩٦٢، بعد فشل الاتحاد السوفياتي في الاستيلاء على أذربيجان، ذهبت بنفسها إلى موسكو، لأن الشاه كان متهيباً من لقاء زعيم الكرملين، أعجب ستالين بها كثيراً، إلى حد أنه أهداها معطفاً رائعاً من الزبلين ومن نوعية ممتازة.

في عام ١٩٤٧، ذهبت الأميرة إلى واشنطن لمقابلة الرئيس ترومان وإلى بكين عام ١٩٧٢ حيث أرست مع الزعيم ماوتسي تونغ، أسساً لعلاقات جديدة بين الصين وايران. كما أنها ترأست لسنوات عديدة الوفد الإيراني إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. كانت دائماً مستعدة للدخول في المعارك لمساعدة أخيها وانقاذه في الحالات الصعبة. لم تتردد - كما روت هي نفسها في مذكراتها[٣٠] - عن الاجتماع بممثلين عن الاستخبارات الانكلو- أميركية في أحد مطاعم «بوادوبولوني»، لتنظيم مؤامرة للإطاحة بمصدق رئيس الوزراء آنذاك، وبالاتفاق مع الجنرال الأميركي نورمان شوارزكوف[٣١]. لقد أوعزوا لها بالرجوع سراً إلى ايران لتشجيع أخيها الذي كان لا يزال متردداً، على الانحياز لصالح تنفيذ الخطة.

عُرفت الأميرة أشرف بأنها ليست عقوقة تجاه الناس المقربين جداً منها. وكانت تقلّدهم وظائف هامة لإدارة أعمالها. كانت تعتبر أن النساء، في نضالهن من أجل

التحرر، عليهن التصرف مثل الرجال الشرقيين كما في السابق على الصعيد السياسي كما على الأصعدة الشخصية الأخرى. كان هذا التصرف المتعارض مع قيم البلاد وعاداتها يصدم عميقاً الأخلاقية الشعبية.

كانت الأميرة أشرف سنداً عظيماً لأخيها على الصعيد العالمي، ولكنها أضرَّت به على الصعيد الوطني. من المؤكد، كونها شقيقة الشاه التوأم، وأنها كانت تستطيع الحدس بما يخالجه، وأن شخصيتها القوية دفعتها للعمل بحزم حيث بدا هو متردداً.

لقد قامت بمجازفات لم يجرؤ الملك على القيام بها. على مرّ السنوات من ١٩٤١ إلى ١٩٥٣ وخصوصاً من عام ١٩٤١ إلى ١٩٤٦، حين تولّى الشاه الحكم في فترة احتلال القوات الحليفة لإيران، تعرّض الشاه لمهانات عديدة من قِبَل الانكليز والسوفيات والسياسيين الذين عادوا إلى الواجهة السياسية بعد انقضاء خمس وعشرين سنة من الديكتاتورية التي مارسها أبوه الشاه رضا. في تلك الفترة حيث تعرضت الملكية للتزعزع، دأبت الأميرة على مواجهة السياسيين أو الصحافيين النافذين المعارضين للملك. تمكّنت من التغلّب عليهم لأنها، على غرار كاترين الثانية وبولين شقيقة نابليون الأول، كانت مستعدة للقيام بأي شيء لكي تجعل المعارضين ينضوون تحت حكم أخيها، أو لكي تضعفهم على الأقل. كان الشاه يقدّر الدعم الذي تقدمه له، لكنه كان يعلم جيداً بأن المرأة لا تستطيع الحلول مكان الرجل في بلاد إسلامية. كان هذا الأمر من جهة أخرى، يشكل ضمانة لنجاح الأميرة، لأن الشاه منحها ثقته دون سائر اخوته، لمعرفته بأنها لا تنافسه على العرش.

كانت أشرف في الحقيقة شخصاً موثوقاً من قبل الشاه، وكانت تملك على الصعيد الشخصي مزايا كثيرة يتمنى هو التحلي بها. حين كان يجد نفسه مجبراً على مضض وتحت وطأة الأحداث، على البحث عن تسوية مع بعض رؤساء الحكومة، لم تتردد في اللجوء إلى الدسائس لإضعاف مواقف هؤلاء الرؤساء.

لم يكن الشاه مستاءً في الواقع من امكانية الركون إلى مساعدة الأميرة في الأوقات الصعبة، لكنه كان يميل إلى عدم الالتفات إليها ما أن يشعر بنفسه قوياً. كانت تهيمن عليه من الناحية النفسية، وكان هو واعياً للسحر الذي مارسته عليه طيلة سنوات تواطئهما. كان الشاه يشعر أحياناً بانزعاج من سطوتها، وكانت علاقتهما ذات وجهين دائماً. وكلّما أراد الشاه توجيه إنذار للأميرة، كان يوكل هذه المهمة لأشخاص آخرين يقومون بها بدلاً منه.

أخبرني هوشانغ رام، مدير البنك الخاص للشاه، حين كنا معتقلين في سجن إڤين، أن الشاه طلب منه ذات مرة إعلام أخته بالكفّ عن التدخل في الشؤون المالية للبلد. قال لي رام: «كيف يمكنك التصوّر أن أذهب إلى الأميرة وأقول لها هذه الأشياء فيما أخوها المعظَّم والجبار لا يجرؤ على أن يقولها بنفسه؟». هذا يفسّر السبب الذي من أجله فضّل الملك أن تظل شقيقته بعيدة عن المشاريع وأن تقضي معظم وقتها في الخارج، خصوصاً في السنوات الأخيرة من حكمه. لكنها كانت تنجح، حتى وهي بعيدة، في الوصول دائماً إلى غاياتها ما أن تقرر ذلك. والدلائل التي تملكها عن الفترة الأخيرة من حياة الشاه عندما كان مريضاً، تشير بأن الأميرة كانت مرتبطة بأخيها ارتباطاً عضوياً.

أما حكاية علاقة الشاهبانو بالشاه وتطورها فمختلفة تماماً. كانت فرح لا تزال يافعة حين تعرّفت إلى الملك في عام ١٩٥٨، وقتها كان رجلاً محنكاً وسياسياً نافذاً وكان يكبرها بثمانية عشر عاماً. لم تكن تملك سوابق أشرف السياسية ولا سحرها على الشاه. وهي بقيت لسنوات طويلة ظلاً للملك، لكنها، على الصعيد الانساني، كانت تبث النضارة والحماسة في عائلة أصبحت بحكم ماضيها مرتابة في الناس وفاقدة الحس أمام الحياة. النجاح الإعلامي الذي حققته فرح والذي صوّرها كإحدى بطلات حكايات الجان حيث نرى طالبة في كلية الهندسة بباريس تصير بين ليلة وضحاها امبراطورة بلد ذي حضارة عريقة وقديمة، جعلت الشاه المهووس بصورته في الغرب، يكن لها التقدير، ودفعته إلى السماح لها بإطلاق جملة نشاطات اجتماعية وثقافية سجلت الملكة فيها نتائج ايجابية.

كانت الشاهبانو، بخلاف الآخرين من سلالة بهلوي، وخصوصاً الشاه، ترتاح كثيراً للناس البسطاء وقد تمكنت دائماً خلال زياراتها إلى الريف من التخلص من قيود البروتوكول. كنت شاهداً على ذلك أثناء زيارة قمت بها، لبضعة أيام، إلى مقاطعة غيلان على شاطىء بحر قزوين. كان حاكم المقاطعة الذي كنت على معرفة جيدة به، قد لفت انتباهي إلى أن استعدادات مكاتب الوزارة وأمانة السر لاستقبال الملكة، لن تسمح لها برؤية المشاكل الحقيقية. وتوسّل إليّ كي أعلمها عن بعض التجاوزات الخاصة التي يقوم بها المحيطون بالشاه في هذه المنطقة، وخصوصاً القرار الشائن الذي قضى بمنح الجنرالات مساحات كبيرة من الغابة ـ وهكذا أعطيت خمسمائة هكتار إلى الجنرال نصيري، مدير السافاك. حين تطرّقت إلى هذه المسألة مع الملكة، سألتني عما

يمكن فعله خفية للحؤول دون هذه التجاوزات. فأجبت:

أوحى لي الحاكم بأن تُعلمي منظّمي زياراتك بنيتك مقابلة المندوبين عن الأقضية والمحافظات، لأنهم أناس بسطاء واضحون وصريحون وقادرون على فضح «المؤامرات» التي يشهدونها.

أجابتني الملكة: موافقة ولكن شرط أن ترافقني في هذه الرحلة.

وافقتُ، وتوصلنا فعلاً بالاتفاق مع الموظف الرفيع، إلى جعل الناس «العاديين» يتكلمون عن فضيحة توزيع الأراضي. كانت الشاهبانو كعادتها تقوم بتسجيل الملاحظات. بعد رجوعنا إلى طهران بوقت قليل، أسرّت لي بأنها رفعت المسألة إلى الشاه. لكن القضية لم تسفر عن نتيجة كما كان متوقّعاً.

مفاجأة أخرى جرت مع منظمي الرحلة وهي قرار الملكة زيارة سجن مدينة راشت في تمام الساعة السادسة مساء. حصلت على الموافقة، لكنها اضطرت للانتظار ربع ساعة عند مدخل السجن قبل أن يتلقى الحارس الإذن من رؤسائه بفتح الأبواب.

سنة ١٩٧٣، حين كنت أعمل في باريس، استقبلتني الملكة خلال احدى زياراتي لطهران. أخبرتها عن التعذيب الذي تخضع له زميلتها في الدراسة فدا حاجبي على يد السافاك، وهي مناضلة في احدى المنظمات الثورية. أوحيت لها بأن تحصل من السافاك على إذن بالسماح لصديقتي هذه المناضلة زينات طويق وحمى ناطق بزيارتها في السجن (كي يتسنّى لهما معرفة ظروف اعتقالها). نادت الملكة في الحال على سابتي رجل السافاك القوي، وحصلت منه على الحق في الزيارة، وهذا حق استثنائي تماماً في حالة سجينة محتجزة سراً وموصوفة بالتصلب والمقاومة.

قبل سنة، أي في عام ١٩٧٢، حين كنت لا أزال في الأونيسكو، أبلغتني الشاهبانو، أثناء زيارة كنت أقوم بها إلى طهران، أن أسعى لإدخال كاتب وشاعر يساري إلى هيئة الأساتذة في جامعة همذان الجديدة، وأن أعهد له ادارة متحف للفنون الشعبية والفولكلور. لكن هذا الشاعر، رغم مواهبه، لم يكن يملك أية اجازة أو حتى شهادة ثانوية. بدا لي الأمر مستحيلاً واقترحت على الملكة وسائل أخرى لمساعدته. علمت أيضاً أنها خصصت مساعدة مالية كبيرة تسمح لهذا الشاعر بالسفر إلى أوروبا لاتباع علاج من الادمان. قلت لها:

- «الاهتمام الشخصي الذي تبديه نحو هذا الشاعر جدير بالاحترام. لكن ينبغي تعميم هذا النوع من المساعدات وحث الدولة - وخصوصاً وزارة الثقافة - على مساعدة جميع الشعراء والفنانين الذين يعانون أوضاعاً صعبة. من جهة أخرى، يجب أن أقول لك إن مثل هذه العناية لن تتوصل مع ذلك إلى محو الآثار السيئة لتصرفات أفراد العائلة المالكة من النفوس. إذا أردت أن تكوني ملكة تاريخية لايران، عليك أن تستخدمي نفوذك للتأثير على جلالته فيقوم هو باتخاذ اجراءات حازمة لشفاء عائلة بهلوي من جشعها الفظيع للمال».

ربما لعدم قدرتها على العمل في الاتجاه الآخر، أصرّت الملكة على مساعدة الشاعر الثوري. ينبغي التذكير في هذا المجال أن الملكة كانت تستجيب للتدخلات المطالبة بالدفاع عن المصالح العامة والإعلاء من شأنها. آخذ، على سبيل المثال، التحضيرات للعرض الاستثنائي الخاص بالفنون الاسلامية الذي كان سيجري في لندن في حزيران (يونيو) ١٩٧٦، والذي كان يضم مجموعات تنتمي إلى جهات العالم الأربع، سألت الملكة خلال مقابلة معها. أليس من الأفضل، بدل إرسال وفد رسمي إلى لندن يضمّ تقريباً الأشخاص أنفسهم، إرسال فنانين وحرفيين ايرانيين حقيقيين لكي يشاهدوا هناك أعمالاً يقارنونها بأعمالهم. وبما أنهم لم يخرجوا من ايران قبلاً، فإن سفرهم إلى انكلترا سوف يتيح لهم، على الأقل، تقييم عروضهم في عيون الزائرين. وأشرت إلى الملكة بأن الوفد يمكن أن يضم حسب رأيي مئة وخمسين شخصاً. سألتني حينئذ عما إذا كان بإمكان اختيار هؤلاء الفنانين بنفسي من أنحاء البلاد كافة أجبتها بالموافقة. وفي اليوم نفسه، تلقيت مخابرة من هويدا في ساعة متأخرة يبشرني فيها بأن الحكومة تضع تحت تصرفنا طائرة بوينغ ٧٠٧ وتتحمل على عاتقها النفقات المتعلقة بإقامة المشاركين في المعرض لمدة أسبوع كامل. وبفضل إسهام مكاتب الأقاليم في محطات الإذاعة والتلفزيون، بدأنا، عبر الاتحادات الثقافية، باختيار شيوخ الثقافة في كل حقل فني، وانتقينا المرشحين، وعبر المؤتمر الوطني للعلوم الإيرانية وأمينه العام عراج أفشر اخترنا مندوباً عن المؤرخين والبحاثة.

كل هذه الأمثلة تؤكد على أن الشاهبانو كانت تتصرف بطريقة مختلفة عن عائلة بهلوي. لم تكن تهتم فقط بالمبدعين والفنانين، بل كانت أيضاً حساسة تجاه عذابات المواطنين والمظالم التي كانوا ضحاياها. كانت متى اقتنعت بصحة العمل، تتخطى إرضاء للسلطة.

كانت لفرح نقاط مشتركة قليلة مع عائلة بهلوي التي لم تبد حيالها إلّا النفور. أمر لا يدعو للعجب أن يسارع المقربون من الشاه إلى تحميلها مسؤولية سقوط النظام الملكي. في الحقيقة، الدور السياسي الذي لعبته فرح كان ضئيلاً جداً، لأنها لم تكن تملك الوسائل الضرورية التي تمكّنها من القيام بأعمال شاملة تستطيع من خلالها تلطيف القمع أو إبعاد الفساد. والجهود التي بذلتها خلال السنة الأخيرة من حكم الشاه في محاولة منها لتغيير مجرى الأمور، لم تؤثر فعلياً في الأحداث.

مثال واحد يكفي لإثبات أن محاولات الشاهبانو اقتصرت في بعض الأحيان على جهود ضائعة. في سجن اڤين، في مطلع عام ١٩٨٠، أخبرني محسن فوروقي وهو عالم آثار كبير، أنه تلقى منذ عشر سنوات اتصالاً من بارفير راجي، سكرتير هويدا الخاص، يعلمه فيه أن رئيس الحكومة راغب بمقابلته في أسرع وقت ممكن. أثناء اللقاء قال له رئيس الحكومة:

- «سيد فوروقي، أضع بتصرفك بطاقة سفر ذهاباً واياباً إلى طوكيو حيث حجزت لك غرفة في الفندق. هاك ما يبرّر المهمة التي أوكلها إليك: إن شهرام ابن أشرف أخرج بطريقة غير مشروعة تحفاً أثرية لبيعها بالمزاد العلني في اليابان خلال ثلاثة أسابيع. لقد طبع قائمة بها، وسيعرضها، حسب معلوماتنا، في طابق تحت الأرض تابع لأحد البنوك. مهمتك تقتصر على الذهاب لرؤية التحف المعروضة وتقدير ثمنها ومن ثم رفع تقرير إليّ».

عند رجوعه من طوكيو، أعلم فوروقي هويدا بأنه يقدّر ثمن هذه الكنوز بحوالى ستة ملايين من الفرنكات. قال له هويدا إن شهرام طلب اثني عشر مليوناً ثمناً لها. أوضح لي فوروقي بأن هويدا قرّر، وبتوصيات سرية من الشاهبانو، شراء المجموعة كاملة وإعادتها إلى إيران، وأن شهرام كان يقوم منذ عشرين سنة بتجارة غير مشروعة للتحف الإيرانية القديمة. هذا هو السبب في أن الشاهبانو لم تستطع أن تغيّر شيئاً في الصورة التي رسمها الشعب للعائلة المالكة، وفي أن الثوريين الإيرانيين، بعد سقوط النظام، قد ساووا عائلة بهلوي بالأميرة فرح دون تمييز.

بعد وصول كارتر إلى البيت الأبيض في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧، حاول الشاه، وهو لا يجهل نفور الرئيس الجديد منه، استخدام الشعبية الكبيرة التي كانت تتمتع بها فرح في الولايات المتحدة، لكي يعوّض عن الصورة السيئة التي يرسمونها له وراء

الأطلسي، فيما يتعلق بحقوق الإنسان. لقد دفعها للقيام بعدة أسفار إلى الولايات المتحدة وأظهر الرئيس كارتر وزوجته روزالين وداً حيالها. لكن حين كانت فرح تريد الخروج من دور حامية الفنون ومشجعة الأعمال الخيرية من أجل المحرومين (وخاصة المصابين بالبرص) لتساعد زوجها سياسياً، كانت حينئذ تقع بين أيدي بعض السياسيين التوّاقين إلى السلطة الذين كانوا يستخدمونها لغاياتهم الخاصة. في سنة ١٩٧٨، أوقف الشاه هويدا، وزير حكومته السابق آملاً تهدئة الثوريين. بعد أسبوع من ذلك رجوت الملكة أن تتدخل لتحسين ظروف احتجاز هويدا[٣٢]. لكنني دهشت كثيراً حين بدت متحفظة جداً، مع أن الجميع يعرف بأن هويدا كان بالنسبة لها سنداً لا غنى عنه.

أحسست أنها كانت خاضعة لتأثير بعض السياسيين الذين قرروا أن يجعلوا هويدا كبش محرقة. وأفضل دليل على ذلك هو اختيارها منذ سنتين، مديراً لمكتبها، رجلاً همّه الوحيد احتلال مكان هويدا بجميع الوسائل. وهكذا، فإن الشاهبانو التي كانت تريد أن تكون ملكة الفقراء والشعب كله، وجدت نفسها هي أيضاً متورطة دون قصد منها في مؤامرات سياسية لا تستسيغها إطلاقاً.

الأميرة أشرف من جهتها ساهمت في تشويه صورة العرش بفعالية تتخطى بكثير الجهود التي بذلتها فرح لجعل هذه الملكية أكثر احتمالاً وأكثر إنسانية.

اليوم، يأخذ المدافعون عن النظام ـ وخصوصاً هؤلاء الموجودون في الخارج والذين، حسب قول تاليران عندما وصف المهاجرين الفرنسيين إبان الثورة، «لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً» ـ على فرح معارضتها الجذرية أثناء خريف وشتاء ١٩٧٨ كل محاولة لسحق المعارضة. وبعضهم يؤكد أنها حثّت الشاه على مغادرة البلاد.

من جهتي، سمعت العكس تماماً فيما يتعلق برحيل الشاه المحتمل. أذكر أنه خلال حديث جرى في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨، سمعت فرح تقول: «لا ينفك الناس ينصحوننا بالرحيل. لكني أفضّل البقاء هنا مع أولادي. إذا كانوا يريدون قتلنا، فليقتلونا معاً في بلدنا. أفضل هذا على قضاء بقية حياتي وأنا أتنقل من مطار إلى مطار حاملة حقيبتي في يدي». لهذا السبب، تصورت أنها ستبقى في وقت من الأوقات في ايران مع أولادها، حتى ولو غادر الشاه البلاد، لم تكن تريد أن تعطي الانطباع بأن العائلة كلها تلوذ بالفرار.

من جهة أخرى، كانت معارضتها لسياسة القبضة الحديدية نابعة من قناعتها بأنه طالما بقي الملك محاطاً بعائلة غير محبوبة وفاسدة و «بخدّام» من نفس الشاكلة، فإن النظام لا يمكنه الصمود إلا من خلال القوة ودعم الجيش. لكن دلائل العصيان والتمرّد كانت تتصاعد داخل الجيش نفسه. لذلك دفعت الشاه للتقرّب من رجال الجبهة الوطنية المعاونين القدامى لمصدق الذين احتفظوا بسمعة وطنية محترمة، وأخذت تشجّع الشاه على مقابلة أناس كان ينظر إليهم في السابق بعين الحذر. خلال حديث بيننا أخبرتني الملكة هذه الطرفة التي كانت روتها للشاه: على إثر المظاهرات الضخمة التي جرت في طهران، سأل الشاه، كما الجنرال ديغول في سنة ١٩٦٨ : «لكن أين هم أنصاري؟» فكان الجواب: «في الشانزليزيه، أيها الجنرال!». كان القصد من هذه الطرفة أن يجاب الشاه بالجواب نفسه: «في الشانزليزيه يا صاحب الجلالة!» كتلميح إلى أن أنصاره هم كلهم في الخارج، في فرنسا والولايات المتحدة.

كل ذلك يُظهر حالة الشاهبانو النفسية التي كانت تتمنى البقاء إلى جانب زوجها وإيجاد حل سياسي يجنّب سفك الدماء. إذا كانت جهودها وجهود أناس آخرين من ذوي الإرادة الطيبة لم يكتب لها النجاح، فهذا لأن غباء النظام قاد البلاد إلى نقطة اللارجوع. وهكذا كانت كل مبادرة تصل بعد فوات الأوان. كان الشاه قد منعها هو نفسه لسنوات عديدة من الاضطلاع بدور في الحياة السياسية. لم تستطع الشاهبانو التحرّك في هذا المجال إلّا بوجل، وذلك حتى اللحظة التي أصبح فيها الوضع ميؤوساً منه. كما أنها بسبب طبع الملك الشكاك، لم يتسنَّ لها الالتقاء إلا بأناس نافذين، ولم تكن لديها معرفة كافية بالوضع السياسي للبلد وبالرجال القادرين على النهوض به، إلى أن قابلت في سنة ١٩٧٨ رجال الجبهة الوطنية للمرة الأولى. وتنبغي الإشارة في أية حال إلى أن هناك عاملين خارجين عن إرادتها دفعا الشاه في النصف الثاني من عام ١٩٧٨ إلى اشراكها في القرارات السياسية: أولاً، الأزمة الآخذة في الاتساع داخل البلاد والتي لا تُفهم أسبابها؛ وثانياً، تقليص الدعم الأميركي منذ مجيء كارتر إلى البيت الأبيض.

وبكلمة واحدة فقط، حين اعتبر الشاه كل هذه التقلبات قدراً سيئاً لا مناص من الخضوع إليه، بدأ يستمع إلى فرح. كانت الملكة قد نجحت في أن تتميّز عن عائلة بهلوي من جميع النواحي، مما أتاح لها التوفيق غير المباشر بين الشاه وبين أناس كانوا ينظرون إلى بقية أفراد العائلة بعين الرعب. خلال سنوات المنفى لم تستطع فرح، ربما

بسبب الخوف من الوحدة، أن تبقي هذه المسافة بينها وبين عائلة بهلوي قائمة، وأن تحافظ على تميّزها. ولكن لم يغرب عن بالها أبداً مكر عائلة بهلوي وجشعها. بيد أنها، في الأحاديث العامة التي تكلمت فيها عن أسباب سقوط الشاه، لم تتوصل إلى تخطي مرارة السقوط على نحو يمكنها من التعرّف موضوعياً على الأسباب الحقيقية والمذنبين الحقيقيين. كانت تنضم بغرابة إلى صف الفريق العائلي الذي يرد، بشكل فوضويّ، جميع الأسباب إلى مؤامرة عالمية.

إنها سخرية القدر. المحافظة على التراث الثقافي أمر عظيم يجتمع حوله الشعب الإيراني كله. لقد أولته الشاهبانو في السابق اهتماماً شغوفاً، إلّا أن الأميرة أشرف استطاعت أن تقدم خدمات أكثر في هذا المجال، فشاركت، بفضل ثروتها الخاصة في إنشاء مؤسسة في الولايات المتحدة تُعنى بالثقافة الايرانية، فيما فرح الحائرة تنتقل حزينة «من مطار إلى مطار، والحقيبة في يدها».

أزهار السجادة
(الحديث الثالث مع الشاه)

٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ الساعة العاشرة والنصف

دخلت إلى مكتب الشاه في قصر نياڤاران. كان يقف على مسافة بضعة أمتار من الباب. استقبلني مبتسماً وقدَّم لي كرسياً قبالته، ثم طرح عليَّ هذا السؤال:

- كيف ترى الوضع منذ لقائنا الأخير؟ هل من جديد؟

- صاحب الجلالة، حركة الإضرابات تجتاح البلاد بأسرها.

- هل تستطيع أن تشرح لي سبب هذه الاضرابات؟ هناك بين المضربين موظفون وعمال أجورهم جيدة نسبياً. إذاً دوافعهم ليست اقتصادية أو مهنية. لنا الحق في أن نتساءل عما يكمن وراء هذا كله؟

- لا شك أن هناك إرادة سياسية خلف هذه التحركات لكن تفحصاً دقيقاً يظهر أن هذه الحركات تنشأ وتتوسّع بسهولة أكثر حين تكون الأرضية ملائمة.

- تقصد أنه، بمعزل عن الأجور والمطالب المهنية، هناك أسباب أخرى. ما هي؟

- إن إضراب البنوك مرتبط، يا صاحب الجلالة، بالطريقة التي تدار فيها هذه البنوك. سأوضح فكرتي. في البنوك الخاصة أو التابعة للدولة، حين يُعترف باستقامة المسؤولين ووضوح إدارتهم ، لا نرى لمثل هذه الحركات وجوداً. أما في الحالات الأخرى، وهي الأكثر شيوعاً للأسف، فتكثر الإضرابات وتزداد حدة تبعاً لعدم انتظام الإدارة ؟

- ماذا تقصد بإدارة غير منتظمة؟ ألا يراقب البنك المركزي جميع البنوك الأخرى؟ ألا يُطبّق نظامه في كل مكان؟

- شيء من هذا القبيل، يا صاحب الجلالة. إلى جانب مخالفة التعليمات، هناك أيضاً أصل الرأسمال وتشكله اللذان هما أيضاً موضع شك. حين نراقب عن كثب، نلاحظ أن البنوك التي نبتت كالفطر خلال السنوات الماضية، قد أوجدها أناس يهتمون في الوقت نفسه بالصناعة والتأمين والنقل البحري والجوي والعقارات... الخ. ولكي تموِّل هذه البنوك مشاريعهم بالذات، كانت تقدِّم لهم قروض مجاملة. وباختصار، كانت الفوضى منتشرة، هؤلاء الناس يفعلون ما يحلو لهم. بالإضافة إلى ذلك، لقد وضعوا أقاربهم وأصدقاءهم ومحمييهم في مراكز نافذة. هذه المحسوبية أثارت دائماً استياء الموظفين الذين كانوا على علم بكل مكائد رؤسائهم. في السابق، لم يكن هؤلاء الموظفون يجرؤون على الإفصاح بسبب السياسة القمعية للحكم. أما الآن فهم يجرؤون على مواجهة الإدارة، خصوصاً حين يجدون أن هذه الإدارة ترفض اقامة حوار صريح معهم. والسبب بسيط، وهو أن المساهمين فضّلوا الرحيل إلى الخارج، حيث يمكنهم التمتع مطمئنين بعائدات الرساميل التي وظّفوها.

- ما ذكرته يتعلق بالبنوك والمشاريع الخاصة. لكن ماذا يجري في المؤسسات العامة؟

- المشاكل في مؤسسات الدولة من طبيعة مختلفة. هناك مثلاً مظالم ناتجة عن الفوارق بين الأجور التي تتراوح في بعض الإدارات شبه العامة بين ما نسبته واحد إلى عشرين. بيد أن هذه المظالم لم تعد محتملة اليوم، خصوصاً وأن هاجس العدالة يزيد حدة الغليان الثوري الإسلامي المنادي بالمساواة.

- أتعتقد أن الفوارق في الأجور هي أقل في الدول الصناعية؟

- في القطاع الخاص، لا. ولكن في القطاع العام أو شبه العام، هي أقل في الواقع.

- ولكن في المؤسسات شبه العامة كشركة الاتصالات السلكية واللاسلكية والخطوط الجوية الإيرانية، حيث متوسط الأجور مرتفع نسبياً، لماذا يُضربون؟

- إن وضع شركة الاتصالات يُعتبر نموذجاً بليغاً، لأنها تشهد حالياً ضغوطاً كبيرة.

إن توقف الشركة عن العمل خطير بوجه خاص، لأن بمقدوره عزل البلاد عن العالم الخارجي. هذه الشركة، ذات النظام شبه العام ولكن مع رأسمال تقدمه الدولة، عقدت، بنصيحة من البنتاغون، اتفاقاً تشاورياً مع «الأميركان بل انترناشونال». منذ ثلاث سنوات، والشركة الايرانية للاتصالات تفيد من خدمات بَلْ. لغاية اليوم، هناك أكثر من ٢٥٠ خبيراً في إيران، تدفع إيران لكل واحد منهم مبلغ ٢٠٠ ألف دولار سنوياً. المتخصصون الإيرانيون الذين يعملون في هذه الشركة يؤكدون أولاً أن عدد الخبراء الأميركيين يتجاوز بكثير الحاجات التقنية الإيرانية، وثانياً أن غالبية الأميركيين لا يملكون الكفاءات التي يدعونها، وأن هؤلاء الخبراء المشكوك بجدارتهم يحتلون مراكز هامة يفترض بها أن تعود للإيرانيين. الأميركيون في الواقع يديرون شبكة الاتصالات بشكل كامل. وأبناء البلاد لا يعترضون فقط على الفوارق الفاضحة بين أجورهم وأجور الأميركيين، بل يُبدون أيضاً اعتراضات سياسية على وجودهم. فالدولة الإيرانية، حسب رأيهم، عهدت إلى الأجانب بمسؤولية ينبغي أن تناط بالإيرانيين وحدهم.

بدا الشاه وكأنه يفتش في ذاكرته:

- «منذ بضع سنوات، قال لي العسكريون إنه يجب علينا اقامة خطة تنظيم عامة للاتصالات المعدّة للجيش والمدنيين على حد سواء. لأنه، بذلك، سيكون لدينا جهاز كفيل بالاستجابة لحاجاتنا كلها: هاتف، تلغراف، تلكس عبر الأقمار الاصطناعية... الخ. فطلبنا بالتالي من المدنيين أن يكونوا تحت إشراف العسكريين».

- الناس لا يفهمون، يا صاحب الجلالة، لماذا، من أجل تحديث الاتصالات في بلادنا، يجب أن يتم إدراجها في نظام عسكري أولاً، ومن ثم أن يُشرف عليها خبراء في الجيش الأميركي. تنتج من ذلك بلبلة غير مفهومة، حتى أنني سألت أحد الوزراء في الحكومة السابقة عن هذه المسألة، فأكّد لي أنه غير قادر على الإجابة عن هذا السؤال.

وإذ سُرَّ الشاه لإعطائي إيضاحاً عن مشاريعه التكنولوجية المتعددة، والتي كان يعلّق عليها آمالاً كبيرة، أخذ كل وقته ليعرض لي نظريته بلهجة تعليمية جداً:

- «أولاً، لا تتعجب إذا كان هناك مسؤولون كباراً لم يكن باستطاعتهم حتى متابعة ما كنا نفعله خلال السنوات الأخيرة للوصول إلى تكنولوجيا متطورة جداً، ثم يجب أن

تعرف أن تجهيز بلد ما بنظام اتصالات حديث ومتفوّق لا معنى له إذا لم تؤخذ في الحسبان حاجاتنا للعشرين أو الثلاثين سنة المقبلة. لهذا اضطررنا إلى إقامة نظام يجمع في الوقت نفسه بين حاجاتنا المدنية وحاجاتنا العسكرية، ويمتد على طول دفاعنا الجوي معتمداً على جهاز من الأقمار الاصطناعية. وبما أن الأميركيين هم الأكثر خبرة في هذا المجال، لجأنا إلى شركة كبيرة عندهم وهي «بل» التي تعمل لصالح البنتاغون. و«بل» هي فرع من فروع الشركة الأميركية الكبيرة للهاتف والتلغراف التي تعمل لصالح القوات الجوية الأميركية. بصفتها هذه، طلبنا إلى الشركة تجهيز نظام الاتصالات العسكرية عندنا، لأن القوات الجوية الأميركية تمارس وظيفة المستشار لقواتنا الجوية. هذه هي الأسباب التي دفعتنا إلى إقامة جهاز يغطّي ما هو مدني وما هو عسكري، والدور الذي لعبه الأميركيون».

- صاحب الجلالة كل هذا مبرَّر تقنياً، ولكن هناك أناس كثيرون كما تعرف، لا ينظرون إلى هذه الأعمال من وجهة نظر تقنية بحتة.

- ألا يرى هؤلاء الناس الذين تتحدث عنهم والذين يدّعون الوطنية أنه بفضل التعاون الذي يجعلنا نستفيد من التكنولوجيا الأميركية، سندخل بعد قليل في شبكة اتصالات عالمية تجعلنا في مصاف الدول الأكثر تطوراً؟

- المعارضون، للأسف، لا ينظرون إلى الأمر من هذه الزاوية. إن عدم تفهمهم، كي لا نقول نفورهم السياسي من النظام، يمنعهم من تقدير فوائد التكنولوجيا التي يوفرها الحكم للبلاد.

- ألا يريدون لإيران أن تزدهر وتصبح بلداً عصرياً؟ كيف يمكن لايران أن تصير أمة عظيمة من دون تكنولوجيا متقدمة؟ ألا يرون نموذج اليابان التي هي على وشك تخطي العالم كله بمن فيه الأميركيون؟ ألا يرون أن كوريا تندفع نحو التصنيع بوتيرة مذهلة؟

- صاحب الجلالة، أنت تصيب هنا النقطة الأكثر حساسية وأهمية في الأزمة الحالية: الهاوية تتسع بين الشعب الذي ينفر من النظام لأسباب تاريخية واجتماعية، وبين النظام الذي هدفه الوصول بأي ثمن إلى حد أقصى من التقدم التكنولوجي. وكلما أوغل النظام بعيداً في هذا المجال، كلما تراجع الشعب عن اللحاق به، لأنه يرى أن هذا التقدم لا يعنيه في شيء.

- لكن كيف بالإمكان إفهام الناس كل هذه المسائل الشاقة؟ هل هذا حقاً ضروري بالنسبة لهم؟

- مولاي، خلال سنوات عديدة، كنتم تعقدون مع رئيس الوزراء وبعض المسؤولين الآخرين، اجتماعات في المجلس الاقتصادي مرة كل أسبوع وكنتم تمضون أحياناً خمس أو ست ساعات لمناقشة الملفات الأكثر تعقيداً. في تلك الفترة، قرأت تقارير عن هذه الاجتماعات واقتنعت أنه حتى لو كانت هذه التقارير في متناول الناس لما فهموا منها الشيء الكثير، لأن اللغة المكتوبة فيها هي شبه مرموزة، ولاعتقدوا أن هذا المشروع لا يعني إلاّ عدداً قليلاً من الأشخاص الذين تحرّكهم مصالح خاصة. ولكن لنأخذ مشروعاً كبيراً آخر للاتصالات: تركيب شبكة مؤلفة من مليون خط. صادف أن مستشار الحكومة لهذا المشروع كان شركة فرنسية هي «سوفركوم»، وكان وكيلها في إيران بارفيز بوشهري، صهر الأميرة أشرف. يبدو أن بوشهري رفع ثمن كل جهاز هاتف (حدّدته سوفركوم بـ ٤١٣ دولاراً) إلى أكثر من الضعف، كي تعطى الأفضلية لعرض قدمته شركة أميركية هي شركة «جنرال» للهاتف والأجهزة الإلكترونية. هذا الغش الكامل تم فضحه من قبل موظفي الاتصالات المضربين اليوم. إن مصلحة بعض الأشخاص المرتبطين بشركات أجنبية، تؤمن لهذه الشركات كسب المشاريع على حساب المصالح الوطنية الأكثر بديهية.

- إذا كان ما تقوله صحيحاً، ما الذي ينبغي فعله؟

- الغاء هذا النوع من الاتفاقيات، دون قيد أو شرط.

- ألن تقيم الشركات المعنية دعاوى ضدنا في المحاكم الأجنبية؟

- لا أعتقد، لأن الاتفاقية التي تتكلم عنها، وكذلك الاتفاقية مع «بل هيليكوبتر»[1] قد عقدتا في عهد نيكسون، فيما الرئيس كارتر لا يفتأ يتحدث عن حقوق الإنسان، لِمَ لا نستفيد من سياسته لالغاء هذه العقود الجائرة وإعادة النظر فيها على أساس أخلاقي؟

قال الشاه:

- «ألا تعتقد أن تلك البلدان التي تتحدث كثيراً عن حقوق الإنسان، إنما تتخذ من ذلك ذريعة لتخفي وراءها أهدافها الحقيقية وتسعى لإخضاع العالم لسيطرتها. هل

تعتقد حقاً أنها صادقة؟ ألا يتعلق الأمر بتكتيك تمارسه حيال الدول التي لا تخضع لسياستها وترغب في المحافظة على استقلالها. إنني أشك في صدق نواياها».

- صاحب الجلالة، المهم هو ألا نتيح الفرصة لكي نتعرَّض نحن أنفسنا للانتقاد في ما يتعلق بحقوق الإنسان، وهذه هي إحدى القضايا التي أتمنى معالجتها معك اليوم.

- أوضح فكرتك!

- بعد أربعة عشر يوماً، في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، سيُحتفل باليوم العالمي لحقوق الإنسان. قد تكون هذه مناسبة لإطلاق سراح عدد من السجناء السياسيين الذين لم يتورطوا في أعمال عنف. على كل حال، ما دامت الأرقام التي تحدد عددهم متباينة وأحياناً مغالىً فيها، اقترحت على السيد ناجافي، وزير العدل، وعلى جمعيات حقوق الإنسان، الاجتماع من أجل توضيح هوية المعتقلين وعددهم، من مختلف الفئات. ذلك أن أجهزة الأمن في الوقت الحاضر (السافاك) والقضاء العسكري (الذي يعالج قضية السجناء السياسيين) لم تفصح حتى الآن عن عدد المعتقلين لأسباب سياسية. من هنا، فإن كل أنواع المزايدات ممكنة. لقد نجحت في إقناع وزير العدل، الذي أعرفه جيداً لأنه كان زميلي في الدراسة، بضرورة الاعلان عن ذلك، لكنه لا يملك سلطة على السافاك ولا على القضاء العسكري اللذين يتلقيان أوامرهما من جلالتك. إذا كانت هذه الفكرة تروق لك، أعتقد أن هذا اللقاء سيزيل سوء التفاهم ويهدىء من روع عائلات السجناء وكذلك الرأي العام.

أجابني الشاه برما متخذاً هيئة أتوقراطي أصبح فجأة دون نفوذ:

- «حسب تقارير السافاك، كل هذه الجمعيات التي تتكلم عنها، تنتمي إلى المعارضة، إذاً، ليس هناك من حوار ممكن معها. هل أنت واثق من أنها ستقبل دعوة الوزير للجلوس حول طاولة من دون اثارة الاضطراب؟».

- إنني مقتنع تماماً بذلك، يا صاحب الجلالة. تحدثت مع رئيس جمعية الدفاع عن السجناء، متين دفتري[٢] فأكّد لي أنه مستعد للتحدّث إلى الوزير الذي يقدّره، ولجلب لائحة بأسماء السجناء. أستطيع أن أؤكد لك أنه سيفي بوعده، شأن جميع المسؤولين عن منظمات حقوق الإنسان.

طلب الشاه من المقسم الهاتفي للقصر أن يصله بالجنرال بهزادي رئيس المحكمة العسكرية، وأمره قائلاً:

«تعال غداً إلى مكتبي مع لائحة بأسماء السجناء السياسيين، وأفرد لائحة أخرى لهؤلاء الذين يمكنني العفو عنهم. بعد ذلك توجّه للقاء وزير العدل».

حين كان الشاه يتكلّم، همستُ له:

- شدّد على إجراء لائحة كاملة.

حين أقفل السماعة، نظر إليّ مبتسماً وكأنه يريد التنويه بشهامة تصرفه. ثم قال لي:

- وماذا أيضاً؟

ولم أشأ تفويت الفرصة:

«صاحب الجلالة، أشكرك لأنك استجبت لاقتراحي. لكن اسمح لي أن أنوّه بأن عدد السجناء السياسيين كان يقارب ثلاثة أو أربعة آلاف سجين، وأنه لو اتخذ المسؤولون المبادرة للقيام بهذا التوضيح لما أعلنت «منظمة العفو الدولية» وجريدة «لوموند» أن هناك مئة ألف سجين سياسي في إيران ...».

أدركت أن الشاه كان مستغرقاً في أفكاره. هل كان مدركاً الأخطاء التي ارتكبها في إدارته للبلاد؟ هل كان يفكر أن مستشاريه هم الذين أوصلوه إلى هذه المآزق؟ أم كان يتحقق، في جميع الأحوال، من عدائية العالم الخارجي تجاهه؟ بعد لحظات قليلة من الصمت، انتقلت إلى موضوع آخر: قضية توزيع الطاقة في البلاد.

- «مسألة أخرى كنت أريد خوضها مع جلالتك، وهي تتعلق بوضع الشركة الوطنية للنفط ومسألة احتياطي المحروقات في البلاد.

- سمعتهم يقولون في كل مكان إنه يجب ألا نشغل بالنا في هذا الخصوص، حتى ولو لم يكن في مقدور إنتاجنا الداخلي تغطية احتياجاتنا، يمكننا والحالة هذه استيراد منتوجات مكررة من بلدان الخليج الفارسي، جواً عند استدعاء الحاجة».

هذه الملاحظة فاجأتني كثيراً. كيف يمكن، في الواقع، نقل هذه الكميات الكبيرة من مشتقات النفط جواً؟ حين طرحت السؤال على المختصين، أجابوني بأن الأمر ممكن ولكن بكميات قليلة وفي منطقة معيّنة وخلال وقت قصير نسبياً، شريطة أن

تتوافر اللوجستية اللازمة (عدد كافٍ من الطائرات، خزانات في المطار وشاحنات صهاريج. . . الخ)، من أجل خلق جسر جوي، كان تحليل الشاه، في نظرهم، يثبت بشكل قاطع بأنه مهما كان متضلعاً في مسائل النفط والصناعة والتسلّح، إلاّ أن معلوماته تشوبها ثغرات هامة. لقد حصَّل معرفته بهذه الأمور من خلال اهتماماته في ميادين معينة، ولم تكن صادرة بالتالي عن رؤية متكاملة أو ثقافة علمية شاملة.

قلت:

- «حسب قول قريبي كيفن نراغي الذي يدير قطاع توزيع المشتقات النفطية، إن إضراب عمّال المصافي والانشاءات الأخرى سيقودنا في عز الشتاء إلى الكارثة.

- إذاً لماذا لم يقل لي المسؤولون[٣] شيئاً عن ذلك؟ مع أنهم على اتصال دائم بي.

- لأنهم لا يجرؤون على تزويدك بأخبار سيّئة. يعلمونك كل مساء أن حمولة النفط الخام في خرج هي بنسبة ثلاثة أو أربعة ملايين برميل. وهذه النسبة، منظوراً إليها من خارج، مطمئنة جداً. على أية حال، قدرة إنتاج المصافي للاستهلاك الداخلي لم تكن حتى الآن إلا بنسبة مليون برميل يومياً، وهي في انخفاض مستمر».

من المناسب هنا القول إن الجيش والحكومة العسكرية كانا يرجوان أن يؤدي نقص الطاقة في البلاد إلى التقليل من التفاف الشعب حول المضربين، كنتيجة أولية. فلا يعود أمام الجيش، بما يمتلكه من وسائل نقل، إلاّ توزيع المحروقات بنفسه، فارضاً ذاته بهذه الطريقة منقذاً للأمة. . .

من جهة أخرى، كان قريبي قد أقنعني بأن العسكريين كانوا يخدعون أنفسهم بالنسبة لهذه النقطة. كان المسؤولون الرئيسيون، بسبب عدم التنسيق فيما بينهم، يجهلون أن اتفاقاً معقوداً مع الشركة الوطنية للنفط يرغم هذه الأخيرة على وضع احتياطي يكفي لشهرين على الأقل من مختلف أنواع الوقود تحت التصرف المباشر للجيش. بيد أن الموظفين في شركة النفط، الذين كانوا يشاطرون المُضربين والثوريين مشاعرهم، قد سمحوا لهذا الاحتياطي المخصص للجيش بأن يُستعمل لسد حاجات الشعب اليومية.

وهكذا يتبيّن لي أن الجيش الإيراني الطامح لأن يصير القوة الثالثة في العالم، يمكن أن يصبح هامشياً وبلا قدرة في مواجهة المدنيين. كان هذا الأسطول الهائل الذي

يحظى باعتبارات هامة، يبدو عقيماً حين يرشّح نفسه منقذاً للشعب.

الثوريون، من جهتهم، ولجان المضربين كانوا يتصورون أن مصادر المحروقات لن تنضب. والسبب أن شركات النفط كانت قد وزّعت خلال السنوات الخمسين الماضية جميع أصناف هذه المادة الحيوية في سائر القرى، حتى القرى الأكثر عزلة، لكن مسؤولي الشركات لم يقدِّروا أن توقفاً طويلاً للإنتاج يمكنه أن يُسبِّب نضوب هذه المصادر. الأفكار المتناقضة التي كان الشاه والعسكريون والثوريون يتناولون بها هذه المسألة كانت كلها خاطئة.

بعد أن أصغى إلى تفسيراتي، سألني الشاه:

- «ما الذي يجب فعله في رأيك لكي يتأمن توزيع الطاقة؟».

- أن تفصل موضوع التموين الداخلي عن التصدير، وأن تسعى إلى التفاهم مع المعارضة مظهراً لها خطورة الوضع ومذكراً إيّاها مثلاً أنه خلال سنوات الحرب في لبنان، لم يتعرّض أي حزب مسلح إلى شركة الكهرباء في بيروت. على أية حال، لقد اصطحبت كيفن إلى مقر انتظام[4]، الذي ستقابله غداً، وهو يشاطرنا تحليلنا. وقد أسر لي أنه يجب على الشاه ألا يدير أذنه للعسكريين فيما يتعلق بالمسائل المدنية لأنهم لا يفقهون شيئاً في هذه الأمور.

بدا الشاه حائراً جداً:

- هل هناك أناس يضطلعون بمسؤولياتهم في هذه القضية؟ هل سيقبل العمال بالتوقف عن إضرابهم لدى تدخل هؤلاء الناس بالذات؟ وكيف سيكون بإمكانهم التمييز في مجال الإنتاج - وهو يتضمن الاستخراج والتكرير والتوزيع - بين ما هو خاص بالتصدير وما هو خاص بالاستهلاك الداخلي؟

- في صفوف المعارضة الدينية والوطنية شخصيات يمكن التحاور معها. لقد أخطرت صديقي موتاهاري، وهو ممن ينصت الخميني إليهم في باريس، وهو يسكن بالقرب مني وينتظرني الآن في بيته. يمكننا التوجه إلى قادة وطنيين أمثال فوروهار وبزركان اللذين أسعى إلى إبقائهما على اتصال بقريبي كيفن، أما عمال النفط المضربون، فمن واجبي أن أقول لك إنهم الرجال الأكثر وعياً لمسؤولياتهم في كل البلاد. وهم يميّزون جيداً بين ما هو خاص بالاستهلاك الوطني وما هو مخصّص

للتصدير. وقد بلغ بهم الأمر أنهم وضعوا خطة لتأمين توزيع الوقود مع تصنيف الأوليات كالمستشفيات والأفران ومحطات الكهرباء، والحد الأدنى للحاجات المنزلية مروراً بحاجات المصانع التابعة للدولة أو الخاصة وأخيراً بالجيش. ولقد وضعوا لكل فئة حدوداً للتساهل لا يمكن تجاوزها. كما أنهم مستعدون للتفاوض مع السلطات من ضمن احترام القوانين الموضوعة. باختصار، إنهم مستعدون يا صاحب الجلالة، للعمل كي لا يعاني الشعب من البرد ومن أجل تأمين الحد الأدنى الضروري دون إلحاق الأذى بحركة المعارضة(٥).

- إذا كنت أفهم جيداً ما تقوله، أفلا يعني هذا أنه علينا الاستسلام لقوى تحارب النظام ولا نعترف بوجودها شرعياً؟

- إنها موجودة على كل حال، حتى ولو كانت السلطات تتجاهلها. كان يفترض بالسلطات أن تعتمد منذ وقت طويل على أمثال هؤلاء الناس وأن تتيح لهم المجال لإبداء التعاون. لا أعرف إن كان قد قُدّم إليك تقرير بذلك، لكني أستطيع أن أؤكد لك هذا الميل للاتحاد فيما بينهم. مثلاً، في بازار أصفهان المضرب منذ ستة أشهر، أنشأ التجار لجنة من أجل تأجيل قروض المدينين بالتفاهم مع الدائنين. وقد أعدّ الثوار الأصوليون في الأحياء الجنوبية لطهران نظاماً للديون من دون فائدة مخصصاً لمساعدة الأشخاص الذين يعانون من أوضاع صعبة.

- من أين يأتون بالمال؟

- صاحب الجلالة، إن مئات الجوامع قد بُنيت في طهران خلال السنوات الأخيرة، وأكثر من ١٠٠ ألف طالب قد تسجّلوا في مدارس التعليم الديني، وآلاف النشرات الاسلامية قد طبعت، هذا دون أن تنفق الدولة مليماً واحداً. كل هذا هو ثمرة التضامن الاسلامي. أما بالنسبة لتجار البازار الذين نالوا نصيبهم من عائدات البترول، فإن المال لا ينقصهم ولا النخوة.

- لماذا لم يأخذ مخططونا وتكنوقراطيونا هذه القوى بالحسبان، أثناء تخطيطهم للمشاريع الهادفة إلى الرفاهية الاجتماعية؟

- لأن مفهومهم للدولة المنسوخ عن نموذج خارجيّ، لم يتجاهل الخصوصية الثقافية والدينية للشعب الإيراني فحسب، بل كان أيضاً أبوياً وكأنه يفترض بالأفراد انتظار كل شيء من الحكم.

ـ لكن ألا تعترف بما قدمت الدولة لهم؟ ليس عليك إلّا أن تقارن مستوى معيشتهم الحالي بالمستوى الذي كانوا عليه قبل عشرين سنة أو ثلاثين.

ـ إن أحدهما لا ينفي الآخر، يا صاحب الجلالة، كان بمقدورنا فعلاً تحقيق سياسة اجتماعية تستند إلى توجهات الحكم من جهة وتأخذ بعين الاعتبار القوى الكامنة الخاصة بالشعب الإيراني من جهة أخرى. لَمَ لا نوفّق بين هذين المستويين؟ ربما يؤدي ذلك إلى إبطاء مسيرة التقدم، لكنه يمهل الشعب الوقت الكافي لاستيعابها.

ساد الصمت بيننا، وأخذ الشاه يحدّق مرة أخرى بأزهار السجادة. هل كان يأسف لرؤية مفهومه للتطور وهو يواجه بهذا القدر من الرفض؟ أم أنه بكل بساطة لم يكن قادراً على القبول بما كنت أقوله؟ لن أعرف ذلك أبداً.

قطع هذا الصمت مجيء رئيس المائدة الذي اتجه نحو محدثي وناوله دواءً وكوب ماء. ثم طلب الشاه منه أن يأتيني بالشاي، ما أن ترك هذا الأخير الغرفة حتى أدلى الشاه بهذا الاعتراف غير المنتظر:

«هل تتناول أنت أيضاً أدوية؟ لا أعرف أي نحس ترصّد بي منذ الطفولة وجعلني أتناول طيلة حياتي أقراصاً ضد الحمى وأوجاع المعدة ولا أعرف ماذا أيضاً ـ لم أتوقف عن هذا أبداً. طيلة الوقت أدوية، طيلة الوقت!

ـ صاحب الجلالة، أحمد الله على أنني لم أتناول دواء إلا فيما ندر. لم أعان من ارتفاع الحرارة منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

ـ كم أنت محظوظ. آمل أن تقدر هذه النعمة. أنا لم أتوقف أبداً عن تناول الأدوية.

كان يردد كلمة «أدوية» بنبرة شاكية تتناقض بشكل خاص مع تحفظه المعهود. فكرت عندئذ أن الشاه يتوسل عطفي. لكن حين علمت بعد سنة أنه مصاب بالسرطان، أدركت أنه ربما كان محتاجاً إلى قول ما قاله، وأنه كان مستسلماً في تلك اللحظة إلى رغبته بالشكوى.

بلهجة ممازحة وأليفة يتجلّى فيها شيء من السخرية في الوقت نفسه، عاد ليسألني:

ـ «أرى أنه لا يزال معك أوراق أخرى. ماذا هناك؟

- معي لائحة بأسماء ستين شخصاً يعتبرون الناشطين الأساسيين في تهريب التحف والكنوز الوطنية. هذه اللائحة وضعها فريق من الموظفين الكبار النزيهين الذين يرغبون في أن يحظَّر على أولئك المستفيدين مغادرة البلاد، وأن يدقق في ثرواتهم من خلال تحقيق قاس، حتى لا يتمكنوا من تحويل ملايينهم إلى الخارج.

- لكن، ألم يجر توقيف العديد من الوزراء السابقين والمسؤولين الكبار منذ اقامة الحكومة العسكرية؟

- مولاي، إن الذين أوقفوا هم، بغالبيتهم، أبرياء. يؤخذ عليهم بشكل خاص إيثارهم الصمت للبقاء في مراكزهم، وغضهم الطرف عن تبذير الثروات الوطنية على أيدي الأشخاص الواردة أسماؤهم في اللائحة التي سُلِّمت إليَّ. هؤلاء الناس، كما نعرف، الذين تبلغ ثرواتهم ملايين الدولارات وضعوا قسماً كبيراً من أموالهم في البنوك الأجنبية في حسابات مرقّمة في سويسرا بشكل رئيسي. لقد عملوا على طريقة المستثمرين الأجانب أثناء الفترة الاستعمارية. ما يتوقعه منك الرأي العام هو أن تقدم على عمل عظيم لا يطال الوزراء وحدهم».

وكما جرى يوم قدمت له لائحة بالشركات التابعة لمؤسسة بهلوي، تردَّد الشاه كثيراً في أخذ الورقة من يدي، ثم طلب إلي من جديد أن أعرضها على الشاهبانو.

«جيد جداً، سأطيع تعليماتك ولن أفوّت على نفسي فرصة الذهاب لرؤية الملكة. لكن المطروح على بساط البحث هو مشروع قانون ينبغي أن تقدمه الحكومة إلى المجلس لوضع إجراءات ملائمة وسريعة للحكم على المخلّين بواجباتهم».

طلب الشاه من موظف الهاتف في القصر أن يصله برئيس الحكومة الجنرال أزهري الذي تلقى الأمر بأن يسرع في اعداد مشروع القانون. أجاب رئيس الحكومة بأن وزير العدل يعمل الآن بنشاط كبير لإنجاز القانون نفسه، وأنه سوف يقدمه قريباً جداً إلى البرلمان.

«سؤالي الأخير يا صاحب الجلالة يتعلّق بالحكومة الائتلافية التي كنت تنوي تأليفها. أعلم أن أميني وانتظام [وهما مستشاران] سوف يلتقيان حسين صديقي. اتصل بي أميني هذا الصباح وأوحى لي بأن أطلب من جلالتك الإذن بالذهاب لرؤية سنجاري وفوروهار، الزعيمين الوطنيين الموجودين حالياً في السجن، لكي أستشيرهما بخصوص حكومة محتملة لصديقي. ما رأيك؟.

- في الواقع، إنها فكرة جيدة. متى ستذهب؟

- في أقرب وقت ممكن، غداً صباحاً، مثلاً.

اتصل الشاه فوراً بالجنرال مقدم مدير السافاك وطلب منه أن يرسل في الغد سيارة لاصطحابي إلى السجن كي أتكلم بحرية مع سنجابي وفوروهار. ثم التفت إليَّ وقال مبتسماً:

- سوف تتحقق من أن هذين السيدين يعاملان جيداً.

- أتصور أنكم تسمحون لهما ببعض الكتب؟

- تستطيع أن تحضر لهما كل ما تريد. يمكنك أن تعطيهما بالمناسبة مناشير مناهضة للنظام الملكي. هناك الكثير منها في هذه الأيام...

- لن يحتاجا إليها يا صاحب الجلالة لأنهما يعلمان جيداً كل نشاطات المعارضة. أستأذنك بالانصراف».

نهضت، قام ببعض خطوات لمرافقتي، ثم مدَّ يده مصافحاً. انحنيت له وخرجت من المكتب.

لا تطلقوا النار على الشعب
(الحديث الرابع مع الشاه)

الثلاثاء ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، الساعة الرابعة والنصف

دخلت من جديد إلى مكتب الشاه في قصر نياڤاران. استقبلني بحرارة وقدّم لي كرسياً قبالته. ثم طرح عليَّ هذا السؤال مباشرة:

- حسناً، كيف ترى الوضع السياسي؟

- إنه سيِّىء جداً، يا صاحب الجلالة، خصوصاً منذ بداية شهر محرم الذي يصادف اليوم، الرابعَ منه، وأيضاً منذ دعا آية الله الشعب للتمرّد على الدولة. إنها المرة الأولى التي يطالب فيها المكلّفين بعدم دفع الضرائب، والموظفين بعصيان أوامر رؤسائهم. التوتر يتصاعد والمواجهات بين الشعب والعسكريين تتزايد، وفي كل يوم يتساقط القتلى في طهران وفي المقاطعات.

- وجهت أمراً للعسكريين باستخدام الغازات المسيلة للدموع فقط لتفريق المتظاهرين، اما إنْ اضطروا لاطلاق الرصاص فعليهم ألا يطلقوه إلاّ في الهواء. لكنهم قالوا إنهم يتعرضون لهجمات تزداد عنفاً مما يضطرهم إلى الدفاع عن أنفسهم.

مال الشاه ناحيتي، وكأنه أدرك فجأة خطورة الأحداث. ثم قال لي بلهجة مستسلمة:

- ما الذي يمكن فعله لإيقاف المتظاهرين الذين لا يهابون الموت؟ لكأنَّ الرصاص يجتذبهم.

- لهذا السبب بالذات، لن نتوصل إلى تهدئتهم بـاللجوء إلى العسكـريين. حملتهم الجديدة التي تقوم على الهتاف كل مساء فوق السطوح كلها: «الله أكبر!» فعّالـة بشكل مخيف.

- العسكـريون يقـولون لي إن المتـظاهرين يستخـدمـون أشرطـة التسجيـل لـتزداد أصواتهم ارتفاعاً.

- هذا برهـان جديـد على أن العسكـريين يغمضـون أعينهم ويُصمون آذانهم. لن أخفي عليك أننا نصعد أنا وعائلتي إلى السطح كـل مساء. أستـطيع أن أؤكـد لك أن طهران كلها تنشد نغماً واحداً خلال ربع ساعـة. كأنها تتحـوّل إلى محيط هادر، وهـذا مؤثـر جداً. زد عـلى ذلك، أني أشـاهـد كـل صبـاح بـين السـاعـة الثـامنـة والنصف والتـاسعة، من نـافذة مكتبي، تـلامذة المـدارس الثلاث في الحي، يبـدأون بـإطـلاق الشعارات ما أن يلمحوا جنوداً.

- أتصوّر أن الهتاف الأكثر استعمالاً هو: «الموت للشاه»؟

فجأة سألني الشاه بلهجة يتجلّى فيها حزنه من تصرف أبناء البلاد حياله ويـأسه من مصيره الشخصي في آن:

- أنت عالم اجتماع ويمكنـك تحليل تصرف النـاس، هل تستـطيع أن تقـول لي لماذا يهتفون: «الموت للشـاه». ماذا فعلت لهم؟

- لأننا نعيش يا مولاي في مجتمع هرمي محكم حيث كل شيء يؤول إلى قمة الهرم. أولئك الذين كانوا يرددون بأن على الملك أن يتربع على العرش دون أن يحكم، كانـوا يستشعرون أننا ذاهبون إلى أزمة مستفحلة. وها هي الأزمة قائمة فعلاً الآن.

- هل تعتقد أن القوى الكبرى التي تمثّل مختلف الفئات الضـاغطة كـانت ستسمح لنا بتحقيق ما حققناه بغياب نـظام قوي؟ الـرغبة في جعـل الشاه يتـولى العرش فقط، كانت تحفز كل أولئك الـذين سعوا في الخـارج لأن يكون الشـاه مجرد دميـة. الانكليز مثلاً، لم يكونوا راغبين في توطيد حكم قوي في بلادنا.

- لكنهم ساعدوا أباك[1] على أن يصبح الرجل القوي في نظام جديد.

- أنت تعرف جيداً، أنـه تمت الإطاحـة بوالـدي ما أن أطلق اصـلاحات لتـطوير الصناعة في البلاد.

- لكن الأميركيين، بالمقابل، ساعدوك في هذا الميدان. . .

- الأميركيون هم من نوعية أخرى. إلّا أنهم استسلموا لدسائس الانكليز الذين كانوا يخشون ازدهارنا، أي قوتنا. كان أمراً مناسباً للندن وجود ملك ضعيف هنا يحرّكه عملاؤهم.

- صاحب الجلالة، يجب الاستماع أيضاً إلى حجة الرجال السياسيين الذين هم وطنيون حقيقيون ويأملون في أن يبقى الملك على الحياد، بهذه الطريقة يمكن للدستور أن يُحترم ويظل الملك سلبياً معاق.

- لكن كل هؤلاء الناس الذين يقولون إن الملك يجب أن يبقى على الحياد هم في الواقع متأثرون بالغربيين.

وأضاف الشاه بلهجة وقورة ومهيبة:

«هذه النظرية آتية من خارج البلاد ولا علاقة لها بالمصلحة الوطنية».

- هل تسمح لي بأن أقول لك يا صاحب الجلالة إن الفكرة هي محض شرقية.

- كيف يمكنك أن تقول ذلك؟

- صاحب الجلالة، تعرف تماماً لعبة الشطرنج، وتعرف أن الهدف الأخير لهذه اللعبة هو حماية الملك، وأن خطة اللاعبين تقوم على استعمال قطعهم وعلى التضحية بها عند الحاجة شرط أن يبقى الملك سلبياً معاق. لكن مجال تحرك هذه القطع أوسع بكثير من مجال الملك الذي يقتصر تحرّكه على خانة واحدة. المفهوم الذي نكوّنه عن الملك في الشرق يقوم على اعتباره خارج النزاع، ومحصّنا إزاء محاولات التحكّم به.

- إذا كنت أفهم جيداً ما تقول، أفترض أن على جميع القطع في لعبة الشطرنج أن تقوم بوظائفها. بعد أيلول (سبتمبر) ١٩٤١[٢]، لم تكن الدولة تملك أدنى سلطة في مواجهة القوى المحتلة، وكان الأجانب يتدخلون في كل شيء. والرجال السياسيون كانوا شركاء لهم، لذلك وجب ارساء سلطة الدولة والتخلص من كل التدخلات الخارجية.

- صحيح أنه منذ تولّيك الحكم في سن العشرين لم يعد السياسيون يسعون، ظاهرياً على الأقل، إلى إقامة علاقات مميّزة مع السفارات الخارجية. وهنا واقعة

جديدة: أذكر أنه منذ حوالى السنتين طردت من حكومتك وزيراً سافر إلى الولايات المتحدة لتجديد بطاقة اقامته. لكن، وبالمقابل، يقول معارضوك إنك تركت الأميركيين يجتاحون حياتنا وإنك اعتمدت عليهم إلى حدّ أنك صرت عضواً في الحزب الجمهوري[٣].

- المشكلة هي أن الحزب الديمقراطي لا يملك حس الجغرافيا السياسية العالمية. الديمقراطيون يملكون أفكاراً محدّدة جداً في مجالات كثيرة. الجمهوريون أكثر مرونة ويأخذون بعين الاعتبار الحقائق السياسية والاستراتيجية للمناطق والبلدان[٤].

- المعارضة تعتبر أنه كان يجب المحافظة على استقلالنا حيال الأجنبي وتأخذ عليك أنك لم تفعل ذلك.

كان جلياً أن محدثي غير راغب في التوغل بعيداً في هذا الموضوع وهو حاول أن يغيّر مجرى الحديث:

«قرأت في إحدى الجرائد الفرنسية عن تصوراتك للخروج من الأزمة. حسب رأيك، يجب الشروع في «إزالة التماهي»[٥]. ماذا تقصد بذلك؟

- كنت أفكر بادىء الأمر في إزالة التماهي[٦] على الصعيد المؤسساتي، بحيث لا تعود جميع القرارات الاقتصادية والسياسية والعسكرية في يدك وحدك، يا صاحب الجلالة. بكلام آخر، يجب الشروع بتوزيع المسؤوليات. على كل حال، حتى ولو كان الأمر يتعلق فقط بإجراء رمزي، يقترح أنصار الملكية المستنيرون أن يُزال اسم جلالتك عن الساحات والجادات وكل السدود والمدارس. أذكر أنني طرحت هذه المسألة مع الشاهبانو منذ ثلاث سنوات. كانت تشاطرني الرأي وقالت لي حرفياً: «لماذا يراد إعطاء اسم ابنتنا لسدّ يفترض به أن يحمل اسم منطقته. بهذه الطريقة، لا يمكنني أن أتعرف إلى جغرافية ايران». أعرف أن هناك أناساً يتمنون عليك منذ زمن طويل أن تقرر بنفسك سحب كل تماثيلك التي يقال إنها مصنوعة بذوق سيِّىء. العسكريون لا يجرؤون على قول ذلك لك، لكنهم مرغمون عل حماية هذه التماثيل المعرضة لتعديات المتظاهرين، ليلاً نهاراً.

في هذه اللحظة، قطع الشاه حديثي ونادى مرافقه عبر الهاتف الداخلي، قائلاً له:

«غداً، حين يأتي رئيس الوزراء لزيارتي، يجب اعلامه بعدم مطاردة المتظاهرين الذين يهاجمون التماثيل».

- هذا قرار حكيم، يا صاحب الجلالة، نظراً لعدد المدن الصغيرة والكبيرة المعنية بالأمر، لأن حراسة التماثيل تشكّل عبئاً ثقيلاً جداً. استطعت أن أستنتج بنفسي أن الجنود الذين يحمون تماثيلك، يستفزون المتظاهرين لمجرد كونهم هناك، حول التماثيل. البارحة صباحاً، كنت ماراً أمام هؤلاء الرجال الذين يثيرون شفقتي بوجه خاص، فتساءلت: «إذا هاجمهم أحد ماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟» لا خيار لديهم سوى استعمال بنادقهم الرشّاشة أو البقاء دون سلاح، لأنهم إذا كانوا مهيئين لخوض المعركة ضد عدو خارجي، فهم غير مدربين اطلاقاً على مواجهة المدنيين في قلب المدينة. لم يتلقوا في هذا المجال أي تدريب تقني أو سياسي.

- لهذا السبب أمرنا بإحضار فرق خاصة من المانيا الاتحادية واليابان تستطيع الصمود في وجه المتظاهرين دون التسبّب بسقوط قتلى منهم. كان علينا أن ننشيء جهازاً خاصاً مثل .C.R.S في فرنسا من أجل التصدي للمظاهرات المدنيّة.

- المشكلة ليست في التزوّد بمدافعين وأسلحة خاصة لمواجهة المتظاهرين. المشكلة هي تأمين التدريب المدني للجيش. سأعطيك مثلاً: منذ عدة أيام، حدث شيء في مشهد وفي مقام الإمام الرضى بالذات، كان له وقع القنبلة في البلاد: حين أطلق العسكريون النار داخل المقام[7].

- بحسب المعلومات التي وصلتني شخصياً، هاك ما حصل. أشار الزائرون إلى أحد الضباط قائلين إنه أحد رجال السافاك وهتفوا «أمسكوه! أقتلوه!». خاف زميل له كان على مقربة من أن يُصاب الضابط بأذى، فأخرج سلاحه، وقام بإفراغ الطلقات التي أصابت إحداها سقف الصالة الرئيسية. هذه هي كل الحكاية. وفيما تبقى، قام رجال المعارضة بتعميم الخبر مذيعين بين الناس أن السافاك دنست المقام.

- في جميع الأحوال، ترى أن هؤلاء المعارضين نجحوا في مشروعهم، فالشحنة الرمزية لهذا الحدث كانت قوية جداً بحيث أن المعارضة رأت لزاماً عليها أن تدعو منذ صباح اليوم التالي، الشعب إلى اضراب عام في البازار وفي المدارس والجامعات والدوائر... الخ. وإلى تنظيم مظاهرة في مشهد ارتدت طابعاً استثنائياً. من المناسب أن نستخلص من ذلك كله عدداً من العِبَر. هؤلاء الضباط المنتمون إلى السافاك والذين يرتدون الثياب المدنية لم يفهموا أن الزمن قد تغيّر. في السابق، حين كانوا يختلطون بحشود الزائرين، كان سكان مشهد يتعرفون إليهم لكنهم لم يجرؤوا على التشهير بهم. الآن وقد زال هذا الخوف، يبدو كل هجوم على النظام مشروعاً

وطبيعياً. ثم أن الساڤاك والجيش فقدا حبّ الشعب تماماً لدرجة أن أقل تشهير شعبي بالنظام كافٍ لتحريض الجماهير. وأخيراً شدّد المتظاهرون على الطابع المقدس للمقام حيث يحظّر الدخول على كل من يحمل سلاحاً. والدك، حين كان في أوج عهده، كان ينزع المسدس من حزامه علانية، لدى زيارته مشهد. اليوم، الطابع المقدس للمقام بات أكثر تأصلاً في نفوس الناس عما كان في السابق. إن العلمنة الشكلية التي تدعمها الدولة جعلت عملاء الدولة يعتقدون، بمن فيهم الساڤاك، أنهم لا يفترض بهم بعد اليوم الاهتمام بردات الفعل الشعبية، وأن القيم الرمزية قد خنقتها سلطة الدولة التي أظهرت موقف الحياد في ما يتعلق بالدين.

- لكني أنا نفسي مؤمن وأحترم القيم الدينية احتراماً عميقاً. كما وأني فضلاً عن ذلك، متعلق كثيراً بذكرى الإمام الرضى. منذ أن توليت الحكم وأنا أذهب كل سنة لزيارة مشهد، ولا أفهم عداء رجال الدين تجاهي.

- ايمانك لا يغيّر شيئاً، يا صاحب الجلالة. هناك قاعدة في الدين الاسلامي تربط الدين بالمعاملة. بيد أن معاملة النظام تتناقض مع ما يدعو إليه الدين الاسلامي. خصومك اليوم يستغلون هذا التناقض ويضخمونه لكي يحطوا من هيبة نظامك، إنهم يشنون ضده حملة مركّزة وفعالة جداً، يغرب معناها عن بال عملاء الدولة خصوصاً قوات الأمن والجيش التي يقتصر تحركها على استخدام القوة.

- ما الذي ينبغي عمله في هذه الظروف؟

- سحب قوات النظام من المدن قدر الإمكان. لأن الجنود أكثر نفعاً وهم في ثكناتهم، خاصة وأنهم عاجزون عن التحرك وغير قادرين على القيام بشيء سوى التفرج على المتظاهرين والاستماع إلى شعاراتهم المعادية للنظام. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك دائماً تنافس بين الشرطة والساڤاك والجيش ربما أنت شجعت بنفسك هذه المنافسة خلال فترة الاستقرار، كي لا يتغلب فريق على آخر. إذا كنت قد استطعت التحكّم بهذه المنافسة في السابق، فإنها اليوم، وبمواجهة الأزمة الحادة للنظام، تصير عامل فتنة اضافياً. إذا تفحصنا الوضع عن كثب، نستنتج أن هذا التنافس هو في أصل أكثر المواجهات مع الشعب وهو الذي يتسبب كل يوم بسقوط قتلى وجرحى. ففي طهران مثلاً الصراع بين الحكومة العسكرية والساڤاك على أشده، الجنرال مقدم [مدير السافاك] يتفهم الوضع نظراً لخبرته التي تفوق خبرة الجنرال عويسي الحاكم العسكري لطهران الذي لا يحكم إلاّ بالقوة.

- استقبلت البارحة الجنرال عويسي[8] فقال لي إنه، نظراً لمسؤوليته عن احلال الأمن في العاصمة، ينبغي أن يكون وحده صاحب القرار.

- مولاي، الجنرال عويسي ليس رجل المرحلة بالتأكيد، وهو لا يفهم أن وسائله العنيفة التي تمكنت في السابق من التغلب على المتظاهرين، تجعلك تجني اليوم ما زرعته[9]. على كل حال، إنه يتحضر الآن لسحق التظاهرة التي دعا إليها آية الله طالقاني في اليوم التاسع من شهر محرم. إذا لم تمنعه من ذلك، فسيسقط الآلاف من القتلى وسيكون هذا اليوم أسوأ بكثير من «يوم الجمعة الأسود»[10] الذي يتحمل عويسي مسؤوليته أصلاً.

- قيل لي إن المتظاهرين كانوا ينوون التوجّه إلى القصر؟

- هذا نوع آخر من الحماقات التي يتفوّه بها الجنرال عويسي والسادة العسكريون. هناك عشرون كيلومتراً تفصل، كما تعرف يا صاحب الجلالة، نقطة انطلاق التظاهرة عن قصر نياڤاران في الأعالي. ويستغرق اجتياز هذه المسافة سيراً على الأقدام لآلاف المتظاهرين يوماً كاملاً. وهذا يُظهر كم أن فكرة الجنرال غير مقبولة. على كل حال يمكن للسلطات، أن تطلب من المنظمين توضيحاً عن مسار التظاهرة. بناء على الأحاديث التي جرت بيني وبين أعضاء لجنة التنظيم، يمكن التوصل مع ذلك إلى اتفاق على جميع الأصعدة. والتأكد حتى من أن المتظاهرين لن يهتفوا بأي شعار عدائي.

فجأة قال لي الشاه؛ بلهجة تشوبها الحيرة:

«إذا سحبنا كل القوات العسكرية من المدينة وإذا سمحنا بالتظاهر، فسوف يكون هناك حشود كثيرة. ألا تعتقد أن المعارضة سوف تنتهز الفرصة لجعل هذه التظاهرة استفتاء ضد النظام؟

- بالتأكيد، ولكن إذ يسمح النظام بهذه التظاهرة، فإنه يؤكد أنه لا يزال يملك المبادرة، ويثبت تسامحاً يجنب البلاد سفك الدماء.

- لكن إذا كانت هذه التظاهرة لا تفيدنا بشيء فلمَ التساهل؟

- لسبب بسيط يا صاحب الجلالة، وهو أن النظام لا يملك خياراً آخر. مما لا شك فيه أن المواجهة بين الجيش والمتظاهرين سوف تؤدي إلى حمام دم مُريع. هل ستقبل بإضافة مجزرة جديدة إلى سجل النظام؟ مهما يحصل يا صاحب الجلالة، سوف يعترف

المؤرخـون بأنـك، عند هـذا المنعطف الخـطير من حكمك، اخـترت التسـامـح بـدل العنف. بما أنه لا وجود لحلّ آخر للأزمة، ألا يشكّل هـذا المكسب الأهم الذي يمكن الحصول عليه؟ في الوقت الحاضر، وخلافاً لآراء الحكومة العسكـرية، سـوف تتجنب الكارثة، هذا هو أيضاً رأي أميني وانتظام. من جهته، الأستاذ صديقي الذي ستلتقي به بعد غد، والذي ستقترح عليه تأليف الحكومة الجديدة، يعارض كل أنواع العنف. سيقول لك تماماً نفس الشيء الذي أقولـه. وأعرف أن الملكـة ستشاطـرنا أيضـاً وجهة النظر هذه.

ولكن، بـالرغـم من أني أخفيت جـزءاً من حقيقة أفكـاري، شعرت مـع ذلـك أن الشاه قد فهم جيداً ما أعنيه: «إذا كان عليـك أن تتخلى عن الحكم، لا تغـادر ويداك ملطختان بالدماء».

وضع الشاه رِجلاً على الأخرى، وبقي صامتاً لبضع لحظات وهو يُحدّق فيّ مباشرة، ثم قال لي متظاهراً بالفهم:

- «جيد جداً. سأتكلم عن ذلك مع هؤلاء السادة غداً».

هذا الجيش الذي كان خلال الأشهر الأخيرة قد اجتاح المدن الكبيرة والذي لجأ إليه الشاه من دون قناعة، هو من صنع رضـا خان. لقد بدأ إعداده منذ عام ١٩٢١، أي قبل تولي رضـا خان العرش مكان الكوجر عام ١٩٢٥.

كان إنشاء نظام دفاعي حـديث يُشكل غـايته الـرئيسية منـذ زمن بعيد، لكنـه كان يفكر في استخدامه لإحلال الأمن في الداخل أكثر من تكليفه الذود عن الحدود. كـان الشعب يعـاني عندئـذ من ابتزاز القـوى الاقطاعيـة أو العشائـرية المعسكـرة في مختلف أنحـاء البلاد. لـذلك، في بـداية عهـد الشاه رضـا، كـانت فكرة انشـاء جيش وطني حقيقي يبسط سلطة الدولة ويحفظ أمن البلاد، تحظى بالتجشيع. وكـان يفترض بهـذا الجيش أيضاً إرساء سلطة الحكم المركزي وتقوية حكم السلالة الجديدة.

أسس رضـا خان، بصفته وزيراً للدفاع، مدرسة للضباط وبعث ٦٠ تلميذاً ضابطاً للتدرّب في فرنسا. بعد ثلاث سنوات، تابع رضـا خان جهوده لصهر القوى المبعثرة في جيش وطني موحد. فقدم بصفته رئيساً لمجلس الوزراء، مشروعاً للبرلمان يقضي بإنشاء قانون للتجنيد الإجباري. وبما أن هذا القانون كان يُطبّق دون تمييز على جميع الرجـال في العائلات الإيرانية، فإن مفهوم المواطنية اتخذ معنى حقيقياً في البلاد.

كان التجنيد الإجباري في السابق تقليدياً، حسب نظام بونيتشه[11]، ويجري عن طريق شيوخ القبيلة والزعماء الدينيين. القانون الجديد اصطدم بعدائية هؤلاء الشيوخ والزعماء لأن الشيعة لم يكونوا يعترفون بشرعية الدولة، من جهة، ولأن هذا القانون كان يُطبق على رجال الدين كما على أي مواطن آخر. . . كان هذا القانون السبب في أول تظاهرة قام بها رجال الدين الشيعة احتجاجاً على إصلاحات رضا خان. وفي أول تجمع لرجال الدين في قم، ظهر، حسب شهود عيان لتلك المرحلة، طالب جديد يُدعى روح الله الخميني كواحد من المناضلين الأكثر حماسة.

كان رضا خان قد وافق هايري، الزعيم الديني المشهور في تلك الفترة، على تحويل المركز الديني من النجف إلى قم. وقد توصلا إلى تسوية تنص على إعفاء رجال الدين من الخدمة العسكرية الاجبارية، تاركين للدولة الحق في ممارسة رقابتها.

اختار الشاه رضا بنفسه كل قادة الوحدات في المقاطعات، وقد عينهم من بين التلاميذ الذين درّبهم بنفسه حين كان عسكرياً. كانوا في الواقع يوطّدون النظام بقبضة من حديد. ويقيمون علاقات دائمة مع شيوخ القبائل والسلطات الدينية والمسؤولين عن الجمعيات المدنية. كما كانوا يراقبون جميع العناصر التي تسبب القلاقل للدولة التي أصبحت بوليسية أكثر فأكثر.

إن الهجوم المفاجىء الذي قامت به القوات الحليفة الانكليزية والروسية ضد إيران في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ (متذرعة بوجود «طابور خامس» للألمان في البلاد)، وذلك من أجل نقل عتاد الحرب الأميركي إلى الاتحاد السوفياتي، لم يصطدم إلا بمقاومة مبعثرة لجيش لم يكن مؤهلاً للدفاع عن حدوده. إن الاحتلال الأجنبي وتشرذم الفرق الإيرانية دفعا الشاه رضا، الحاكم المطلق، إلى الاستقالة والمنفى الاختياري في افريقيا الجنوبية، وإلى التخلي عن العرش لابنه محمد رضا البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً وخريج مدرسة روزي في سويسرا.

وهكذا، حين تولّى الأمير الشاب العرش، كانت البلاد محتلة من قبل دولتين كبيرتين لم يشعر الايرانيون تجاههما بأي تعاطف بل كانوا يعتبرونهما ـ خصوصاً الإنكليز ـ العائق الرئيسي في وجه استقلالهم. الشعب الذي كان وجود القوى الأجنبية يذله، استقبل بحرارة الأمير الذي كان بخلاف والده خجولاً. لقد اضطرب صوته لدى أدائه اليمين الدستورية (فيما والده كان يسخر من الدستور).

كانت علاقة الملك الثاني لسلالة بهلوي بالجيش مختلفة عن علاقة والده به. ففيما ارتقى والده سدة الحكم بفضل الجيش واعتمد عليه دائماً في اتساع نفوذه، تولى الابن العرش في وقت كان فيه هذا الجيش مفكّكاً وفي حاجة إلى جهود الملك ليعيد بناءه.

إذا كان الحاكم الشاب قد أظهر لبعض الوقت ريبة حيال الجيش، فذلك لأنه لم ينس أن والده ارتقى سدة الحكم وطرد ملكاً شرعياً بفضل انقلاب عسكري... بعد خمس سنوات من توليه العرش، عرف الجيش الإيراني شعبية خاطفة لحظة رحيل الجيش الأحمر، بعد أن حاول ستالين عبثاً ضم اذربيجان الإيرانية وجعلها جمهورية ديمقراطية (يحكمها نظام الاستخبارات الروسية من الرأس إلى القدم). لكن الشاه لم يكن يجهل أن جلاء الجيش الأحمر عن بلاده، وهذه حالة فريدة في عهد ستالين، يُعزى إلى وجود رجل دولة حاذق للغاية[12] وإلى الإنذار الأميركي، أكثر مما يعزى إلى الجيش. على كل حال، إن استرجاع أذربيجان ساهم في الإعلاء من نفوذ الشاه والجيش. بعد سبع سنوات، بدأت الخلافات مع مصدق (عام ١٩٥٣) التي انتهت بانقلاب دبّره الانكليز والأميركيون ولعب فيه الجيش دور الممثل الصامت. إثر ذلك، انكبّ الشاه بشكل خاص على تعزيز الجيش لاستخدامه أداة لسياسته الدولية. لكنه، بخلاف والده، لم يعتمد على الجيش كقوة يناط بها توطيد الأمن الداخلي.

حتى سنة ١٩٦٦، كان الجهاز العسكري الإيراني متوسط الأهمية. كان منظماً على الطريقة الأميركية وتسهم واشنطن، إلى حد بعيد، في تمويله. لكن بعد هذا التاريخ، أنهضت الزيادة في عائدات النفط الشاه طموحات جديدة. في شباط (فبراير) ١٩٧٦، زار الشاه موسكو واشترى للمرة الأولى سلاحاً سوفياتياً بقيمة ١١٠ ملايين دولار تقريباً. هذا التقرّب من الاتحاد السوفياتي دفع الأميركيين إلى الإكثار من بيع الأسلحة لإيران، وهكذا سمح نيكسون سنة ١٩٦٩، بتشجيع من كيسنجر ودون موافقة البنتاغون، بأن تشتري ايران من الولايات المتحدة كل السلاح الذي ترغب فيه، باستثناء الأسلحة النووية. وهكذا دخل الجيش الإيراني المتطوّر مرحلة جديدة.

فيما كانت الميزانية الإيراينة الحربية لا تتعدى المليار دولار (٨٨٠ مليوناً) سنة ١٩٧٠، بلغت سنة ١٩٧٨، عشية الثورة ١٠ مليارات دولار.

هذه الزيادة المذهلة للميزانية سمحت لإيران بعقد اتفاقيات مع الولايات المتحدة لم ينعكس تأثيرها الإيجابي «على الشركات الأميركية الكبيرة»، فقط، مثل «نورثروب»

و «لوكهيد»، بل أسهمت أيضاً في مساعدة شركة «غرومان» لتنتج طائرات «تومكات».

إن استعمال الأسلحة المعقدة كان يتطلب مساعدة متخصصين لا وجود لهم ضمن الجيش ولا في الصناعة الإيرانية. لذلك توجب استدعاء تقنيين أجانب، أميركيين بالضرورة، لأنهم كانوا على إلمام جيد بالعتاد. وهكذا كان يوجد في إيران، منتصف سنة ١٩٧٨، أكثر من خمسة وأربعين ألف أميركي، يعمل ثمانون بالمئة منهم في الجيش. . .

هذا العدد المتزايد للخبراء يدلّ على تلهف الشاه لجعل جيشه ثالث قوة في العالم. هذه التبعية للولايات المتحدة لم تكن منسجمة، على الصعيد السياسي، مع صورة بلد يطمح لأن يصير قوة إقليمية متفوقة. من جهة أخرى، كان صعباً أن يُعرف ما إذا كان هذا الجيش الهائل سيتبع للدولة بسلطاتها أم لسلطة الشاه وحده. ففيما كان الدستور ينص على أن وزير الدفاع مسؤول أمام مجلس الوزراء وأمام البرلمان عن كل ما يتعلق بالجيش، كان الشاه من جهته على اتصال مباشر برئيس الأركان ومختلف قادة القوات المسلحة.

يجب التشديد على أن التدريبات ذات المستوى العالي التي تلقّاها الضباط في مجال التكتيك الحربي واستعمال الأسلحة المتطورة، تمّت على أيدي مدربين أميركيين موجودين إما داخل إيران وإما في الولايات المتحدة. لكن، حين كانت التدريبات تتعلق بميدان الاستراتيجية الوطنية المخصصة لأصحاب الرتب الرفيعة، كان الأمر يصل إلى طريق مسدود، لأنه لا يمكن التحرّك في هذا المجال إذا لم تؤخذ في الحسبان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد، وهذا ما لم يكن العسكريون يرغبون في التحدث بشأنه. إذا كان صغار الضباط يعيشون جو إرهاب حقيقي بسبب شبكة العلاقات الاستخباراتية التي تقيمها الشعبة الثانية، فإن الضباط من ذوي الرتب الرفيعة كانوا أيضاً يعيشون الجو نفسه بسبب شكوك الشاه[١٣]. كان يحدث غالباً أن يحال فجأة ضباط كبار، لا يزالون في مقتبل العمر، إلى التقاعد.

هذا الجيش المؤلف من أربعمائة ألف رجل يضم ٢٠ ألف ضابط و١٥٠ ألف ضابط صف وتقني، أصبح جيشاً محترماً يملك سلاحاً يزداد تعقيداً، وعالماً منغلقاً على ذاته. كان قادة هذا الجيش ومعهم الخبراء الأميركيون يشكّلون في نظر الشاه كياناً معزولاً عن مشاكل المجتمع والدولة الإيرانية. فيما بقية أفراد الجيش كانت تشاطر

الشعب الإيراني ظروف حياته على جميع الأصعدة[١٤]. كان للجيش الإيراني أهداف عسكرية إقليمية، وهذه لم تكن الحال في عهد البهلوي الأول. عَهِدَ الشاه بكل مسائل الأمن الداخلي إلى السافاك الذي كانت الشرطة والدرك أدواته. إذا كانت المحاكم العسكرية تُستدعى للحكم في جرائم سياسية، فذلك بهدف إبقاء هوية المتهمين سرية وإصدار أحكام على وجه السرعة. لكن الضباط، الذين كانوا مرغمين على المشاركة، أضمروا نوعاً من عدم المسامحة للشاه الذي جعلهم المنفذين الصامتين لخطط السافاك.

وحين انفجرت الأزمة، لم يكن الجيش مسيساً بشكل كامل. لكن، وبالرغم من ذلك، جرى استدعاؤه لمواجهة الحالة الثورية في البلاد.

طلب مني الشاه أن أخبره عن الأحاديث التي أجريتها مع زعيمي الجبهة الوطنية سنجابي وفوروهار لمعرفة آرائهما بشأن حكومة احتمالية لصديقي.

«لقد زرتهم وتحدثت طويلاً إليهم».

سألني الشاه بنبل ظاهر:

- «قبل كل شيء، هل يعاملون جيداً؟»

- معاملة جيدة جداً. إنهما يعيشان في فيللا جميلة في أسفل هضبة. قادني حراسهما إلى دار رأيت فيها بيانو بديعاً وسجاداً جميلاً جداً. حتى أنني استحقيت يا مولاي فنجان قهوة بالحليب قدّمه لي مسؤول الخدم، الذي كان يرتدي قفازين أبيضين، فوق صينية من فضة.

- أتصور أنهما، كما الآخرين، يعتقدان أنه يجب عليَّ أن أغادر.

- أجل، تقريباً، يا صاحب الجلالة.

- ما هو موقفهما الحقيقي من الخميني؟

- أعتقد أن سنجابي لا يحمل على محمل الجد ما يقال عن فلسفية وقانونية مقاربات آية الله الخميني. إنه يعتبر أن كتاباته لن يكون لها تأثير حقيقي. بالنسبة له، كل شيء سياسي، والتحالف الذي عقده الخميني في باريس مع العلمانيين تكتيكي بحت.

قال لي بلهجة واثقة جداً: «ما أن نصير في عرض البحر حتى يصير بإمكاننا ادارة الدفة».

- ما رأيها بحكومة صديقي؟

- أسرَّ لي سنجابي بنفسه أنه لا هو ولا صديقه سيقبلان المشاركة في هذه الحكومة، لكنهما لن يعارضاها في الوقت نفسه.

- يقال لي إنه مستعد لمقابلتي حتى وهو معتقل.

- لا يبدو لي لائقاً بجلالتك الالتقاء برجل سياسي طالما تشكك في آرائه والتزاماته نحوك، أطلق سراحه وتفاوض معه مباشرة مولاي[١٥].

رحَّب الشاه بالفكرة.

«صاحب الجلالة، أود أن أكلمك في مسألة أخرى تثير ضجة كبيرة هذه الأيام. إنها تتعلق بلائحة نشرها مضربو المصرف المركزي عن أشخاص أرسلوا أموالهم إلى الخارج»[١٦].

بدا السخط على الشاه ثم قال بصوت عالٍ:

«تلفيق خالص! أخبار كاذبة! هذا الصباح بالذات، استلمت من المصرف المركزي تقريراً يفيد بأن هذه اللائحة لا أساس لها من الصحة.

- أنا مقتنع بذلك يا صاحب الجلالة. لكن الرأي العام يبدي نفوراً شديداً حيال النظام لدرجة أنه يرغب في تصديق هذه اللائحة التي تتضمن أسماء ظل ذكرها حتى الآن محرماً.

- هؤلاء الثوريون يتهمون النظام بالدناءة وقلة النزاهة. إنهم يشوّهون كل شيء ويلطخون سمعة أناس لم يهرّبوا يوماً أموالاً خارج البلاد، نجد في هذه اللائحة الشهيرة مثلاً رجال أعمال قاموا فقط بتصدير أموال على حسابهم الخاص من أجل شراء تجهيزات. أيعدّ هذا اختلاس أموال؟

- على أية حال، قد يكون الحل الأمثل الطلب إلى البنك المركزي، بالاتفاق مع النائب العام، إصدار لائحة تتضمن أسماء الأشخاص أو الشركات التي قامت فعلاً بتهريب رساميل في عام ١٩٧٧».

اتصل الشاه بمدير البنك المركزي وأمره بأن يتفق مع وزير العدل على وضع هذه اللائحة[١٧].

كانت الساعة تقارب السادسة، والليل قد أسدل ستاره. وفجأة انطفأت جميع أضواء طهران بالتتابع، خلف الشاه الذي كان يدير ظهره للنافذة، وخيَّم على المدينة بأكملها جو منع التجول. أديرت المولدات الكهربائية العظيمة بسرعة خاطفة، وأنير القصر من جديد وكأن شيئاً لم يكن.

منذ بعض الوقت والإضراب شبه عام، والشلل يصيب تدريجياً البلاد كلها. في الأقاليم، رفض عمال الكهرباء معاودة العمل في المحطات الكبيرة التي تغذي العاصمة بالتيار الكهربائي. في طهران، كان التيار يُقطع تبعاً لأوامر المسؤولين النقابيين، وكان الإضراب يبلغ بهذه الطريقة مختلف أحياء المدينة بالتناوب.

حتى هذا اليوم من كانون الثاني (يناير)، كان انقطاع التيار يجري بشكل جزئي، لكنها المرة الأولى التي يكون فيها منع التجول شاملاً. غرقت المدينة التي يقطنها خمسة ملايين نسمة فجأة في ليل أسود كالحبر.

بين لحظة الانقطاع وإدارة مولدات القصر الكهربائية، انطفأت الثريا الكبيرة التي تتلألأ في السقف ومعها المصابيح الموزّعة في الأنحاء. ورغم العودة شبه الخاطفة للضوء، أحسَّ الشاه هذه المرة وكأنه واقع في الفخ الذي يطبقه عليه عمال الكهرباء كل مساء، كيفما يحلو لهم وفي الوقت الأقل توقعاً.

في هذه اللحظة بالذات، استطعت أن أقرأ على وجه الشاه المنقبض تموجات توتره العصبي مقدّراً الضغط الأقصى الذي كان يخضع له. قال الشاه بلهجة منزعجة وكأنه يريد أن يتخلص من هذا كله: «آه! ها إنهم يعيدون الكرة!» مبيّناً عن غير قصد عن اعتقاد أن هذا الانقطاع قدراً محتماً. تخلّى عن المظهر البارد الذي يتخذه عادة. نهض عن كنبته واتجه نحو النوافذ التي اعتاد أن يتأمل منها المدينة منبسطة على مدّ النظر وسط السهل الشاسع. لكن أضواء المدينة ما عادت تتلألأ. بهيئة غائبة، كان الشاه يتحرّى بعينيه أنحاء المدينة.

على سبيل التهذيب، رأيت لزاماً عليّ أن أنهض بدوري وأقترب من محدثي وأقف ملتزماً المسافة المطلوبة. فجأة، أفاق الشاه من ذهوله ومشى بخطى متعجلة لموافاتي ووقف قربي بطريقة بدت لي غريبة تماماً، لأنه كان يبقي دائماً مسافة بينه وبين زائريه، بصوت يتجلى فيه القلق والاستسلام معاً، فاه، وهو ينظر مباشرة إلى عيني، بهذه الجملة القصيرة المحمّلة بالمعاني والقابلة لتأويلات كثيرة:

- «ها إن المدينة كلها تغرق في الظلام! . . . ».

وكأنه كان يتكلم عن اخفاق انسان آخر، أو كأنه كان منذ الآن الشاهد على مأساة لم تعد تعنيه، أو كأن طهران تختفي فجأة عند قدميه. . . منزعجاً لكوني شاهداً، رغماً عن إرادتي، على سقوط نظام جبار، أشحت بناظريّ عن الشاه وأحنيت رأسي. لزمنا صمتاً طويلاً كمثل الصمت الذي يهيمن فوق سرير مريض يحتضر. ولكي أتخلص من هذا الإحراج، قلت:

- «أعتقد مولاي أنني أتعبتك بما فيه الكفاية. أستأذنك بالانصراف».

اعترض قائلاً: «لا، لا»، وكأنه يفيق من حلم. أنت لا تتعبني. إذا كانت لديك أشياء تريد قولها لي، لا تتردد في المجيء لرؤيتي.

رافقني بضع خطوات. شددت منحنياً، على اليد التي بسطها لي. ثم خرجت من مكتبه وهبطت الأدراج مجتازاً الحديقة. صعدت في سيارتي وانحدرنا إلى وسط المدينة في جو من العتمة الخانقة. بدا لي سائقي الذي كان خمينياً إلى أبعد الحدود، قلقاً لفكرة حرمان الشاه من الكهرباء ربما، وقال لي، كأنما ليطمئن نفسه:

«يملكون في القصر مجموعة مولّدات كهربائية، أليس كذلك؟».

ثم سألني عن حالة الشاه النفسية. نقلت له بعض الأقوال التي تبادلناها، وهتف عندئذ ساخطاً:

- «لم يقولوا له الحقيقة، أليس كذلك يا سيدي؟».

كان هذا الرجل يفضّل، كملايين الإيرانيين، أن يعلّل النفس بأن الشاه لم يكن مطّلعاً على الحقيقة اطلاعاً كافياً.

(الحديث الخامس مع الشاه)

السبت ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، الساعة العاشرة والنصف

استقبلني الشاه في قصر نياڤاران. حين دخلت إلى مكتبه، انحنيت احتراماً له. تقدم ببضع خطوات نحوي وصافحني مبتسماً، ثم أشار لي بالجلوس على كرسي قبالته. سألني على الفور:

- كيف الوضع الآن؟ تحمل دون شك أخباراً من صدّيقي. هل لا يزال يشعر أن في استطاعته مواجهة الصعوبات التي تعترضنا؟

- نعم، يا صاحب الجلالة. قبل مجيئي إلى القصر، ذهبت لرؤيته وقمنا بجولة أفق على الوضع الراهن. مقدّراً الصعوبات الحالية بشكل كامل، بدا متفائلاً بفرص نجاح حكومة المصالحة الوطنية التي يتهيأ لتأليفها، شريطة أن تقبل جلالتك ببعض الشروط التي يعتبر التسليم بها ضرورياً.

- أية شروط تعني؟

- تمنى صدّيقي أن تقوم جلالتك باتخاذ عدد من الإجراءات قبل أن يُعلن تكليفه رسمياً.

- إني على كامل الاستعداد للنظر في شروطه ولاتخاذ الإجراءات التي تفرض نفسها. لكن قل لي أولاً، ما هي هذه الشروط؟

- نظراً لأنك سوف تستقبل، كما يبدو، صديقي غداً، أفضّل أن يعرضها لك بنفسه، لأنه رجل دقيق للغاية، يعرف وزن كلماته ولا يستعملها إلّا بعد طول تبصّر.

لكنه سمح لي، في حال طلبت مني ذلك أن أعطيك فكرة عنها. إنه يتمنى عليك من جهة، حلّ الساڤاك ورفع حالة الطوارىء واطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وأن تتخذ من جهة أخرى قرارات مشدّدة فيما يتعلق بثروات العائلة المالكة. كما أنه يشدّد أيضاً على ضرورة الانتهاء سريعاً من التحقيق في ملفات السجناء الجدد الذي هم في غالبيتهم وزراء سابقين ومسؤولين عن السياسة الاقتصادية. ففي حال رفع حالة الطوارىء، لن يعود هناك مبرر قانوني لإبقائهم في السجن، صديقي لا يملك أي تصور مسبق عن تهم المعتقلين أو عن براءتهم، لكنه يرى أنه منذ أن أعلنت الحكومة العسكرية حالة الطوارىء في آب (اغسطس)، أخذ العسكريون يعتقلون من يشاؤون دون تمييز. أما بالنسبة لحملات الاعتقال التي طالت الوزراء ورجال الأعمال، والتي بُوشر بها لتهدئة الرأي العام، فيخشى صديقي بأن تكون محض اعتباطية. لهذا السبب، يرجو أن تكون قضايا المعتقلين خاضعة من الآن فصاعداً لسلطة وزير العدل، وأن تخصّص لها سجلات تحتوي على الأدلة القاطعة. ولهذا السبب أيضاً يتوقع من جلالتك إعطاء الأوامر لجمع الأدلة التي من شأنها إجلاء الاتهامات، بشكل جدي وموضوعي.

- أتمنى على صدّيقي أن يعلن بنفسه هذه الإجراءات المتنوعة، لأنه بهذه الطريقة سيحظى بالنفوذ والشعبية اللذين سيحتاجهما عند تأليفه الحكومة.

- يعتبر صدّيقي أن هناك قرارات تُناط مباشرة بجلالتك وخصوصاً الإجراءات التي يجب اتخاذها لكي تُعاد أموال العائلة المالكة إلى الدولة.

- أستطيع أن أقول لك إننا قد أنشأنا بهذا الخصوص لجنة مهمتها البحث في الشكاوى الخاصة ضد أفراد عائلتي، وذلك من أجل اصلاح التجاوزات والمظالم التي ارتكبت.

- صاحب الجلالة، سبق وشددت أمامك أن الأمر لا يتعلق، بأموال العائلة المالكة فقط، بل بفضح عمليات التدخل التي جرت في مشاريع الدولة الاقتصادية.

- هنا أيضاً، يجب أن أقول لك أنني أوضحت ضمن رسالة مفصّلة، أنه يُحظَّر عليهم من الآن فصاعداً التدخل في مشاريع الدولة الاقتصادية والمالية. ووزير البلاط يقوم بتوزيع هذه الرسالة على جميع أفراد عائلتي وعلى أجهزة الدولة المختصة.

- صاحب الجلالة، اسمح لي أن أقول لك، مع أسفي الشديد، إن مجرد التأخير

في اعلان هذه الرسالة يكفي لانتزاع كل حظ لها بإحداث النتيجة المرغوبة، لأن لا أحد يجهل أن كل أفراد العائلة المالكة قد غادروا إلى الخارج، ربما تسمح لي بإعلامك بما حاولت أنا نفسي فعله في هذا الخصوص خلال هذه السنة، ولكن دون جدوى للأسف، إذ لم أكن قد حظيت بعد بشرف استقبال جلالتك لي.

بدا جلياً أن أقوالي حيّرته، لكنه لم يبدُ مستاءً على كل حال من فكرة أن بعض الأشخاص كانوا يهتمون من بعيد بمسائل تعنيه مباشرة، قال لي:

ـ آه، صحيح؟ أخبرني إذاً!

ـ في ربيع ١٩٧٨، علمت أن رسالة كانت قد حُضِّرت فعلاً، ولكنك، أمام ضغوط عائلتك ـ وخصوصاً الأميرة أشرف ـ كنت تتردد في نشرها على الملأ. في بداية الصيف، جاءت فلورالفيس مراسلة النيويورك تايمز إلى طهران لإجراء مقابلة معك. قبل أن تلتقي بك، جاءت تزورني لتعرف ما يجري في إيران، وأخبرتها بهذه المناسبة عن هذه النشرة، لكي تستند إليها عند الاقتضاء خلال حديثها معك. بعد إجرائها المقابلة، أتت لرؤيتي من جديد. قالت لي إنها طرحت عليك سؤالاً بهذا الخصوص فأجبتها، للأسف، أنك لا تنوي في الوقت الحاضر الإعلان عن فحوى هذه الرسالة في إيران، لكنك سمحت لها بأن تعلن عنها في الخارج. احترمت فلورالفيس بطبيعة الحال هذه الأوامر، وحاولت أن تُرسل خبراً صغيراً بهذا الشأن في ٣ تموز (يوليو)، لكن الرقابة لم تدع البرقية تمر[1]. كذلك، حين علمت من جهتي أنك ستعقد مؤتمراً صحافياً في تموز (يوليو) ١٩٧٨، أشرت على صديقي عنايات الصحافي المعتدل والمستقيم جداً، بأن يستغل هذه الفرصة ليسألك بخصوص الرسالة. يبدو أنه فعل ذلك برهافة مطلقة مراعياً كل الأصول، ولكنك أجبته بلهجة جافة وكأنك شبه مهان: «أجل، لقد اتخذنا إجراءات». وهكذا أضعت من جديد فرصة استثنائية كان من شأنها معالجة المسألة علنياً، وتزويد الرأي العام بالمعلومات الخليقة بطمأنة أنصارك.

بلهجة يتجلّى فيها الندم والانزعاج من هذا «العمل المعيب»، قال الشاه:

ـ فليكن. المهم، ما الذي يمكن فعله في الوقت الحاضر؟ هل تعتقد كالعادة، هذا إذا كنت قد فهمتك كما يجب، بأن الأوان قد فات مرة أخرى؟

ـ صاحب الجلالة، يجب التحرّك دون غموض كما يجب اتخاذ قرارات جذرية.

- حسناً، اعلم إذاً أننا منصرفون الآن لإعداد مرسوم من شأنه أن يسمح لي بالحصول من أفراد عائلتي على التوكيلات التي أحتاجها لاتخاذ كل التدابير اللازمة.

- وما الذي تعتزم القيام به للحصول على هذه التوكيلات؟

- سأبعث رسولاً إلى مختلف أفراد عائلتي في الخارج لكي يسلّمهم الوكالات التي تفوّضني حق التصرف بأموالهم.

- أخشى يا صاحب الجلالة أن يكون الأوان قد فات، هنا أيضاً. الرأي العام ملتهب جداً ويطلب منك قرارات تُطبق مباشرة وليس الاكتفاء بإعلان خطوات صغيرة. وهو يعتبر، من جهة أخرى، أفراد عائلتك مالكين غير شرعيين للأموال التي اغتصبوها، ومحتكرين للتراث الوطني. كما أنه من المستبعد جداً في الواقع أن تمنحك أشرف توكيلاً مماثلاً مثل باقي اخوتك وأخواتك. فهي تقول إن القسم الأكبر من ثروتها الذي ورثته من أبيك الجليل، قد تحوّل بفضل عنايتك إلى رأسمال أولي لمؤسسة بهلوي. أفراد العائلة المالكة يعتبرون أنه بسبب ارتفاع غلاء المعيشة، قد اضطروا خلال السنوات الأخيرة للمباشرة بعمليات اقتصادية ومالية. وهم يؤكّدون أنهم لا يستطيعون الإيفاء بمتطلبات حياتهم الأميرية، خصوصاً وأنهم لا يتلقون شيئاً من مؤسسة بهلوي. لهذا السبب، لا يمكن الفصل بين ثروتهم وبين ثروتك. ولتجنب أي سوء تفاهم، من الأفضل اتخاذ قرار يشمل ثروتك وثروتهم، حتى ولو لم يكن هذا كافياً لإرضاء الرأي العام المقتنع بأن عائلتك قد حوّلت جزءاً كبيراً من رساميلها إلى الخارج.

قال الشاه بلهجة حائرة ومستسلمة في آن:

- «سوف نرى ما يمكن فعله. والآن فلنرجع إلى الشروط التي وضعها صديقي».

- إحدى المسائل الأكثر إلحاحاً هي الانتهاء بأسرع وقت ممكن من التحقيق مع السجناء الذين أوقفوا بتهمة الفساد، لأن محاكمتهم غير ممكنة، لعدم وجود الأدلة الثابتة.

- لقد تحدّثت مرات عديدة إلى رئيس الوزراء وإلى وزير العدل. ولديّ انطباع بأن القضاة يقومون بعرقلة القضايا ما أن يواجهوا محاكمات تهمنا. أليس بليغاً ألا يقوم هؤلاء القضاة أنفسهم، الذين ينظّمون إضرابات ويهتفون بشعارات ثورية، بعمل

شيء ما عندما تعرض عليهم قضايا تتعلق بمبذّري الثروات الوطنية؟ في الواقع، كل شيء يجري وكأنهم شركاء في الخطة الشاملة التي ترمي إلى تخريب البلاد وشلّها.

- صاحب الجلالة، يجب ألا نغفل عن التمعّن في شكاوى القضاة والتفتيش عن أسباب حالتهم النفسية.

- على كل حال، في كل مرة يواجهون متهماً ينتمي إلى هؤلاء الذين كنت أتحدث عنهم منذ قليل، يفعلون كل ما بوسعهم لتبييض صفحته والعفو عنه. لماذا؟

- السبب بسيط جداً. يقول القضاة إن الحكومة لم تُحِلْ، لسنوات عديدة، إلى القضاء إلّا مذنبين تعساء من الدرجة الثانية. لم يحدث للحكومة أن أحالت إلى القضاء شخصيات بارزة. لهذا يلجأون إلى إصدار العفو. إنهم يعرفون جيداً أنهم بتصرفهم هذا، لا يحكمون بالعدل، لكنهم يدعون أن النظام هو الذي يدفعهم لأن يتصرفوا على هذا النحو.

- لكن، ألم يجر توقيف عدد لا يستهان به من الأشخاص الذين لا يمكن وصفهم بالفقراء التعساء!

- الوضع الحالي مختلف. على كل حال، يظن القضاة بأن هذه الاعتقالات تحركها دوافع سياسية غير خاضعة للقضاء. إذا كان موقف القضاة حيال الملفات التي أعدّتها حكومة لا تحظى بثقتهم، يظهر علانية الآن، أن عدم الثقة قد وُجد على الدوام حيال النظام، وإن بطريقة أكثر تكتماً. القضاة لم يغفروا للنظام تعديه على امتيازاتهم. ولم يستسيغوا قط إنشاء هيئة التفتيش الامبراطورية الذي يشكل بنظرهم انتهاكاً فاضحاً للقوانين الأساسية التي تنص على أن يُناط التفتيش بالقضاء.

- ولكن، الجميع يعترف بكفاءة هيئة التفتيش القضائية ونزاهتها.

- دون شك، صاحب الجلالة، ولكن مصلحة التفتيش هذه كانت هيئة مستقلة لا تخضع اطلاقاً لمراقبة القضاء ويديرها دائماً جنرال مقرّب منك. إلى جانب ذلك، نادراً ما تسنى لنا رؤية إحدى هذه القضايا الهامة، التي تشكل موضوع تحرّياتهم، تعلن على الملأ.

- حسناً. لنفرض أن القضاة محرومون. لكن ماذا يقول المحامون الذين شكلوا دائماً على الصعيد المهني فئة مميّزة؟

- المحامون، وإن كانوا يتمتعون بوضع أفضل، إلاّ أنهم يشعرون أيضاً بالحرمان ولو بطريقة مختلفة. أولاً إن نظام قضاء يعمل بشكل صحيح يثبط عزيمة القضاة والمستشارين القانونيين لأنهم يجدون أنفسهم عاجزين عن ممارسة مسؤولياتهم ممارسة صحيحة. إن نجاح محام، ضمن النظام الحالي، مرتبط بقدرته على إقامة علاقات بأوساط النافذين، أكثر مما هو مرتبط بكفاءاته. على كل حال، المحامون الكبار لا يرافعون أبداً كما يبدو.

الشاه، مندهشاً:

- «وماذا يفعلون في هذه الحالة؟ كيف يربحون قضايا زبائنهم؟

- في الكواليس، يا صاحب الجلالة، وعبر كل أنواع الحيل والألاعيب. إنهم وسطاء أكثر مما هم محامو أعمال. ولكي يقوموا بهذا الدور، عليهم أن يكونوا على صلة بالنظام. وبما أن النظام يشجع الأشخاص البارزين، فإنه يعزّز هذه النزعة لدى المحامين، لأن مثل هذه التصرفات جعلت غالبيتهم معادين للنظام.

- كيف عزَّز النظام هذه النزعة؟

- إن نقابة المحامين التي أنشئت في الستينات، كانت آخر هيئة مستقلة عن الحكم في ايران. لكن النظام اخترق استقلاليتها بشكل اعتباطي حين فرض عليها نقيباً من اختياره. هذا ما لم يقبل به المحامون الشبان. وما أن أحسّوا بهبوب رياح التغيير عام ١٩٧٧، حتى انضموا كلياً إلى صفوف معارضي النظام.

- نقابة المحامين هذه لم تكف طيلة السنة المذكورة عن توجيه حركة ضدنا تنادي بحقوق الإنسان. وهذا الأمر دفعها للتعاون مع الأجانب(٢) المتآمرين على النظام.

- للأسباب التي أتيت على ذكرها يا صاحب الجلالة. تعلم جيداً أن المحامي وأساتذة الحقوق في العالم أجمع يهتمون كثيراً، بدافع من نشاطاتهم المهنية بحقوق الانسان. بيد أن وزارة العدل لم تدعهم مرة واحدة إلى زيارة السجون...

- لكن ألم ندعُ منذ سنتين منظمة العفو الدولية ومنظمة الصليب الأحمر لزيارة السجناء والمعتقلين في إيران بشكل منتظم؟

- بلى، يا صاحب الجلالة. لكن المحامين ورجال القانون اعتبروا أنه لو سمحت

لهم القيام بأنفسهم بمثل هذه الزيارات لأمكنك تجنّب اللجوء إلى بعثات تقصٍّ خارجية».

أفاق الشاه من التفكير العميق الذي أَغْرَقْتُه فيه أقوالي وقال متعجباً:

- لنعد إلى صديقي وشروطه.

- إنها تتضمن تحديداً، وكما أشرت الساعة، حلَّ السافاك.

- لا أعترض على هذا الأمر في المبدأ. لكن ألا تعتقد أنه نظراً للصعوبات التي تواجهنا حالياً، سيثير مثل هذا القرار استياءً عارماً في صفوف السافاك، مما سيدفع ببعضهم إلى الانضمام للمعارضين ويبدأون بالمعلومات والوسائل التي يملكونها، بإحاكة المؤامرات؟

- حين يقترح صديقي حل السافاك، فهو لا يقصد صرف كامل المستخدمين. بل هو يتصور توزيعاً جديداً للأدوار تكون فيه المحافظة على حقوق المواطنين منفصلة عن النشاطات العملياتية التي تُحال عندئذ إلى الشرطة والدرك، طبقاً لنصوص الدستور. مراكز الاستخبارات ومكافحة الجاسوسية تُعهد عندها إلى هيئة أخرى لا تملك أية سلطة تنفيذية.

- إذا كانت القضية مدروسة كما يجب، فليس لديَّ ما أقوله.

- يجب ألا يغيب عن بالك أن صديقي هو من المتقيّدين تماماً بحرفية الدستور وشعاره: «كل في مكانه المناسب». وهذا الشعار لن يكون تطبيقه سهلاً عملياً، حتى من جهة جلالتك.

- ولماذا لن يكون سهلاً بالنسبة لي؟

- لأن أحداً من المسؤولين لم يواجه خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية الإرادة الملكية بمتطلبات القانون. إن تنفيذ شعار صديقي سوف يتطلب إذاً بعض التضحيات من جانبك.

- حتى ولو قررت الامتثال للدستور بحذافيره، يجب ألا ننسى أيضاً أن هذا الدستور يعطيني أيضاً حقوقاً.

- فلتطمئن جلالتك! سيجعل صديقي حقوقك محترمة وسيدافع عن حقوق الشعب بالعناد نفسه.

وأضفت ضاحكاً:

- بما أن حقوق الشعب قد تقلّصت كثيراً خلال السنوات الأخيرة، فليس هناك ما يدعو للعجب إذا كانت البوصلة تتجه ناحية الشعب.

- حسناً، ماذا هناك أيضاً؟

- ينوي صديقي اعادة المصداقية للسلطة التشريعية.

- ما رأيه بحلٍّ احتمالي للبرلمان؟

- بصفته تلميذ مصدق، فهو يعتقد أنه من الأفضل أن يكون عندنا برلمان سيّىء من ألا يكون أبداً. كما تعرف يا صاحب الجلالة، أنه نظراً لقانون الانتخاب الحالي، فإن البرلمان لا يتمتع بأي رصيد شعبي، حتى ولو كان بعض النواب يتجرؤون، منذ بعض الوقت، على انتقاد الحكومة حين لا يكون النظام هو المقصود.

- حتى لُيقال إن بعض النواب أخذوا يشاهدون فجأة روبسبيير في أحلامهم كل ليلة. هناك نواب لم يسبق لي أن سمعتهم يتفوهون بكلمة من قبل يطلقون اليوم خطباً رنّانة...

- صاحب الجلالة، حين يعيّن الحكم نواباً بدل انتخابهم شرعياً، هل يسعنا أن نفاجأ لدى رؤيتهم يغيّرون لونهم كالحرباء وبسرعة مذهلة ما أن يبدأ الحكم بالتداعي؟ إنهم لا يصيرون فقط متملّقين وقحين بل يتخطون عموماً الزعماء الشعبيين وكأن لديهم حساب يجب تصفيته مع الحكم الذي منه يستمدون شرعيتهم النيابية المزعومة...

- لا أفهمك. أي حسابات يريدون تصفيتها؟ لماذا يرمون بكل شيء دفعة واحدة؟ لماذا هذه الضراوة وهذا العنف في أقوالهم؟

- مولاي، إن نائباً مصنوعاً صناعة من الرأس حتى أخمص القدمين هو في أعماقه رجل ذليل، لأنه يعلم جيداً أن الرأي العام والتابعين لدائرته يحتقرونه بصفته منتحل لقب. لذلك يسارع، ما أن يشعر بهبوب رياح التغيير وبأن النظام يفقد توازنه، بقلب

ظهر المجن. حين نسمع خطب النواب الذين أخرجهم السافاك من الزنزانات، نلاحظ أن هذه الخطب هي أكثر ثورية من اللغة التي يستعملها من أمضوا سنوات عدة في سجون هذا السافاك نفسه... يعتقد هؤلاء النواب أنهم يعلون من شأن رصيدهم السياسي لدى ممارستهم هذه المزايدة.

- هل تعتقد أن إجراء انتخابات حرّة يمكن أن يعطي نتائج حسنة في مناخ التمرّد السائد؟

- في جميع الأحوال، سوف يكون الرجال المنتخبون في ظل هذه الظروف أكثر مسؤولية وجدارة من النواب المزيَّفين السابقين.

- أود أن أعرف الآن ما هي مشاريع صديقي بخصوص الجيش وقيادته؟

إذا كان الشاه قد طرح عليَّ هذا السؤال، فهذا لأنه كان يشك بأن صديقي، على غرار كل رؤساء الحكومة الذين أرادوا الامتثال للدستور لن يقبل باستمرار الشاه في ادارة الجيش غير مبال بصلاحيات الحكومة.

- صاحب الجلالة، إن قيادة القوات المسلحة بالنسبة لصديقي هي شأن من شؤون الحكومة.

- «هل هذا يعني أن لا دور يضطلع به الشاه إزاء الجيش؟».

كنت أعلم أن صديقي لم يكن يريد الاصطدام مباشرة بالشاه في هذه النقطة، ليس فقط بسبب الشروط القاسية المفروضة على الشاه، بل لأنه كان يعتقد أن الشاه يمكن أن يكون له تأثير إيجابي في تشكيل الحكومة.

«صاحب الجلالة، في الوقت الحاضر، يعتزم صديقي استشارتك بشأن تعيين وزير الدفاع، علماً بأن هذه الاستشارة لا تعني بالضرورة التسليم بقرارات جلالتك. وهو يعتبر أيضاً أن ميزانية الجيش هي من شأن الحكومة تماماً، ويجب أن تخضع ككل فروع الميزانية، لرقابة ديوان المحاسبة.

- كيف يفهم صديقي موقفنا داخل حلف السانتو[٣] والعلاقات مع حلفائنا؟

- يعتبر أن ايران يجب أن تبقى على مسافة من السانتو، وأن تقلع عن سياسة التبعية للأميركيين.

- أي سياسة خارجية يقترحها لبلادنا؟

- إنه من أنصار عدم الانحياز. يريد أن نوقف تصدير البترول إلى افريقيا الجنوبية واسرائيل لأن العلاقات التي نقيمها مع هذه البلدان تثير ردات فعل سلبية في أوساط الدول الأفريقية والعربية.

- ما هو موقف الجبهة الوطنية من صديقي؟

- من اللائق في البداية أن أوضح يا صاحب الجلالة بأن صديقي لم يعد عضواً في الجبهة الوطنية. لكن حين ذهبت لزيارة سنجابي وفوروهار الموقوفين، قالا لي إنهما لن يعارضا تعيين صديقي لأنهما يعتبرانه أفضل مرشح ممكن في الحالة الراهنة.

- لكن لماذا، عندما أتى سنجابي لزيارتي في القصر نشرت الجبهة الوطنية تصريحاً يلمّح إلى أن سنجابي قد اقتيد إلى هنا مكرهاً؟

- لأن سنجابي يحاول أن ينعم برضى آية الله الخميني ودعم جلالتك في آن معاً.

- أود الآن أن أطرح عليك سؤالاً بخصوص «ليبراليِّيك» ومثقفيك. قيل لي إنهم شاركوا في ذكرى عاشوراء [اليوم العاشر من شهر محرم الذي يُحتفل فيه بذكرى مصرع الإمام الحسين]، وإنهم انضووا بالتتابع تحت راية «الجمهورية الاسلامية». هل يؤمنون حقاً بهذا الشعار؟ يبدو أن هناك عدداً كبيراً من المتظاهرين المنتمين إلى الطبقة الميسورة والذين يقطنون أحياء المدينة الشمالية، قد انضموا إلى هذا الاحتفال الديني وإلى الثورة، كيف تفسِّر ذلك؟

- سؤالك يا صاحب الجلالة وجيه تماماً. لأن الأمر يتعلق في الواقع بمسألة أساسية لم يسبق حتى للمسؤولين عن البلاد أن طرحوها على أنفسهم. إن محلّلي النظام لم يفهموا أن حوافز حركة العصيان هذه لا ترتدي طابعاً اقتصادياً. والسبب أن غالبية هؤلاء المحللين، حتى ولو بدا الأمر غير معقول، ذوو ميول ماركسية. هذا يفسر أن أعضاء حزب تودة السابقين [الأعضاء السابقين للحزب الشيوعي الإيراني] التائبين قد سيطروا منذ ثلاثين عاماً على كل الساحة السياسية والايديولوجية للنظام. هؤلاء الناس حافظوا على بلاغتهم الستالينية فوضعوك بشكل ما مكان ستالين، لإرضاء السافاك. واستعملوا على أية حال في خصوص المديح نفس اللغة التي استعملتها هذه البلاغة. وبما أن قادة السافاك ليسوا أناساً مثقفين ولا يملكون معلومات سياسية كافية،

فقد اعتبروهم منظّرين مفيدين للنظام. «التوديون» السابقون، كما تعرف، يعتبرون «الدين أفيون الشعوب»، وأنه في جميع الأحوال، رجعيّ.

- أفهم جيداً تحليلك، لكن يجب أن أضيف أن مستشارينا الأنكلو- أميركيين أيضاً لم يساعدونا. في هذه اللحظة بالذات التي أحدثك فيها، كيف نفسِّر هذا الاندماج بين جماعات متجانسة؟

- كما أشرت آنفاً، هذه المعارضة ليست مستندة إلى عوامل اقتصادية، بل نشأت عندما ارتُكبت جريمة الانقلاب بحق مصدق عام ١٩٥٣. هذا الانقلاب لم يُثر في المعارضين إلاّ الكراهية وفي صفوف الشعب إلاّ الاحتقار. ثم أتى الدين في الواقع ليبلور هذا الشعور ويخلق حالة تنويم مغناطيسي جماعية تدفع الجميع نحو هدف واحد.

قاطع الشاه بغتة كلامي ليقول بهدوء:

- وهل هذا الهدف الجماعي هو إبعادي عن الحكم؟

- مولاي، إن إبعادك عن الحكم ذريعة تخفي مشاعر مختلفة. فلنأخذ مثل هذه الطبقة الميسورة التي أشرت إليها آنفاً. إنها غير راضية عن الوضع السياسي في البلاد. من الواضح أنها وجدت في المعارضة منذ سنوات عديدة، منفذاً لها.

بدا الشاه حزيناً وخائباً أمام نكران جميل هذه الطبقة، ثم قال:

«هذه الطبقة مستاءة؟ ما السبب؟ أمن الرفاهية التي بلغتها بهذه السرعة؟ أم من الأسفار التي يمكنها القيام بها؟ أم من صلابة عملتنا؟ أم لأنها باتت قادرة على وضع أولادها في مدارس يصل مستواها إلى مستوى أفضل المعاهد الغربية؟».

أجبت بلهجة ممازحة:

- «مولاي، ربما يعود سبب استياء هذه الطبقة بالذات كونها استطاعت أن تصل بسرعة كبيرة ودونما جهد إلى مستوى عيش مرتفع. وها هي الآن تسعى إلى أن تسهم في إدارة البلاد.

- فلنأخذ مثلاً مهندساً يكسب ما يعادل ستين ألف فرنك فرنسي في الشهر، ويملك في فرنسا فيللا على الكوت دازور، وتشتري زوجته ملابسها من محلات كريستيان

ديور. أي شيء مشترك يجمعه بباعة جنوبي المدينة الذين لا تسلية لهم سوى الذهاب إلى الجامع أو الحج مرة كل سنة برفقة زوجاتهم؟

- مولاي، إن هاتين الفئتين اللتين تتكلم عنهما يجمعهما مع ذلك حرمان مشترك: لم يسمح النظام لشخصياتهم بأن تتفتح. سأوضح فكرتي:

- منذ هزيمتنا أمام الروس[4]، حيث أدرك الإيرانيون تخلف جيشهم التكنولوجي - أي تخلّف بلادهم - ألم يكن هدف الإيرانيين كلهم الوصول إلى مستوى الغرب التكنولوجي؟ خلال كل تلك الفترة، ألم يطالب الإيرانيون بإنشاء سكك حديد وطرقات معبّدة وشبكة كهربائية تعمّ البلاد كلها؟ ألم يكن أحد الأحلام القديمة للمواطنين الثوريين في بداية هذا القرن قيام صناعة للفولاذ في ايران؟ حسناً، ألم نحقق نحن كل ذلك؟

- لا شك بأن هذه الانجازات تزكي حماسة الإيرانيين. لكنهم يشعرون أنهم لم يسهموا بتحقيقها، لأن إدارة المشاريع في البلاد تعود إليك وحدك. حين نذهب لزيارة القرى في أول يوم من شهر محرّم [الذي يسبق العاشوراء] يمكننا رؤية السكان ينظّمون ولائم شعبية حيث يجتمع الأغنياء والفقراء رجالاً ونساء ويشاركون في إعداد الطعام. كل الناس يدعون إلى هذه الذكرى التي تستمر عشرة أيام، وهي مناسبة لاجتماع يندرج تحت شعار الوحدة. ما أن توقف النظام عن إحياء هذا التقليد حتى بدأ كل امرىء يحتفل باستشهاد الإمام الحسين على طريقته، مستفيداً في المناسبة للتنديد بالنظام. هناك ملاحظة أخرى تفرض نفسها في هذا المجال: حين اكتشفت الطبقات الوسطى الميسورة هذا العدد الوافر من الرموز الدينية التي أخفاها النظام لسنوات طويلة، لم تدهشها دينامية هذه الرموز فقط، بل وأحسّت أيضاً، بحقدٍ عنيف حيال النظام الذي نحّاها عن إحيائها باسم علمانية سطحية.

- هل تعرف ما هي الشعارات التي رُفعت في التظاهرة!

- أجل يا صاحب الجلالة: «الله، القرآن، الخميني».

- هل يمكن أن يكون كل الأشخاص المثقفين الذين تلقوا علومهم في جامعات ايران وفي الخارج أنصار الخميني حقاً؟ هل هذا معقول؟

- بالنسبة لهم، الخميني هو رمز قبل كل شيء. لكن ألا توجد عبر التاريخ أمثلة كثيرة لزعماء دينيين صاروا رمزاً لحركة وطنية؟

- إذا كنت لا أزال أتذكر جيداً، كان أحد الشروط ينصّ على أن تنسحب القوات المسلحة من المدينة خلال ثمان وأربعين ساعة، وأن تترك المدينة للمتظاهرين على ألا يرفعوا شعارات عنيفة جداً مناهضة للنظام. بيد أنك تعرف، أن هذا الشرط لم يحترم خلال اليوم الثاني.

- صاحب الجلالة، الاتفاق الذي عقدناه مع لجنة التنظيم كان يتعلق فقط باليوم الأول للتظاهرة [اليوم التاسع لشهر محرم]. هذا الالتزام احترم بدقة، وقد أشار إلى ذلك الصحافيون الأجانب في تعليقاتهم وكانوا هم أول المندهشين. في اليوم التالي، تخطى المتطرفون اللجنة ونظّموا، حقاً، تظاهرة مناهضة للنظام بشكل علني.

- المنظّمون، الذين يدعون أنهم القادة، لا يقودون شيئاً. باسم مَنْ يتكلمون إذاً؟

- صاحب الجلالة، إنهم يواجهون مهمة صعبة للغاية. إنهم محاصرون من كل جانب. سوف أعطيك برهاناً. غداة اليوم العاشر [العاشوراء]، ذهبنا أنا وزوجتي قبل انبلاج الفجر، لنرى ماذا تبقّى من الاحتفال بالذكرى. مشينا، خلال ساعتين، على نفس الطريق التي مشاها المتظاهرون. كان هناك على الجدران وواجهات المخازن أعداداً لا تحصى من الكتابات والملصقات. قلت لزوجتي: «كأن محيطاً لفظ أحشاءه على الشاطىء بعد ليلة عاصفة».

سألني الشاه، بلهجة هازئة يشوبها الاستسلام:

«هل يمكن أن تقول لي بكلمات قليلة ماذا تحتوي هذه الأحشاء؟

- فقدان اعتبار لا مثيل له للقادة، وانعدام ثقة كلي بهم، احباطات شعب بكامله... وبكلمة واحدة نبذ تام للنظام».

الشاه الذي بدا عارفاً بخفايا الأمر، اندهش، رغم ذلك، مما حفلت به تظاهرة عاشوراء الكبرى.

- يبدو أن الفدائيين(*) والماركسيين الاسلاميين [مجاهدي الشعب] وبعض أعضاء حزب تودة هم الذين نظّموا هذه التظاهرة.

- صاحب الجلالة، السافاك والفدائيون يصرّون على جعلك تعتقد أن التظاهرات، حيثما تجري، هي صنيعة الشيوعيين أو الأحزاب اليسارية المتطرفة. هذا يثبت أنهم يقلّلون كثيراً من اعتبار الحياة الدينية ولا يعرفون شيئاً عن المبادىء التي

تستلهمها. أذكر، صاحب الجلالة أنني حضرت، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، احتفالاً دينياً نظّمه سكان الأحياء الجنوبية من طهران واجتازوا فيه كل المدينة. دام الاحتفال أكثر من ثلاث ساعات وضم آلاف الأشخاص. بموضوعية كاملة أستطيع أن أقول لك إنه جرى بتنظيم لا غبار عليه وأن الأسلوب الذي جرت فيه النشاطات الثقافية والعروض والموسيقى والأناشيد التي رافقت العرض، كان يضاهي الاحتفالات العالمية التي تسنّى لي أن أراها في حياتي. هذا يعني أن التقليديين في جنوبي المدينة، والذين يشكّلون غالبية سكان طهران، يعرفون جيداً كيف يدرجون مكتسباتهم الاجتماعية وتقاليدهم الدينية في اطار الحياة السياسية. والخميني، على كل حال، نجح في جعلهم يعتقدون أنهم صانعو هذا الزواج بين السياسة والدين[٦].

لكي يذكّر بشهامته حيال السجناء السياسيين الذين أمر باطلاق سراحهم وفقاً لنصائح «مستشاريه» الجدد (وأنا منهم)، هتف الشاه بتهكّم:

«يبدو أن السجناء السياسيين الذين عفونا عنهم حديثاً قد مشوا في طليعة المتظاهرين!».

- ماذا تريد صاحب الجلالة! بعد أن احتُجزوا ظلماً وعوملوا بعنف أحياناً، يصعب عليهم كثيراً نسيان هذه المعاملة. سيتخلصون على مر الوقت من صدمتهم، لكن المهم ألّا يتكرر هذا النوع من الاعتقالات.

- لقد أعطينا تعليمات شكلية للعسكريين والسافاك تقضي بأن يتجنبوا العنف من أي نوع كان.

- مع أسفي الشديد جداً، يا صاحب الجلالة، يجب إعلامك، أن العنف لا يزال حتى الساعة سيد الساحة داخل السجون وخارجها.

- هل أنت متأكد مما تقوله؟ هل لديك اثباتات؟

- أجل، مولاي. عشية عاشوراء، وفيما كان العسكريون يقومون باعتقال «محرّضي الجماهير» حسب زعمهم، أمسكوا بالسيدة حمى ناطق وزوجها ناصر باكدمان[٧] وبحاج سيد جوادي[٨]. اتصلت بالشاهبانو وتوسلت إليها أن تتوسط لديك لصالحهم. وعرفت أنك بقيت لمدة نصف ساعة تجري المخابرات الهاتفية لكي تصل إلى المسؤولين العسكريين. بفضل تدخلك السريع، أطلق سراحهم واقتيدوا إلى منازلهم في المساء

نفسه. وإنني ممتن لك عميقاً يا صاحب الجلالة. وإذا كنت قد صمّمت أخيراً على المجيء متطفلاً في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، فهذا لأنني مقتنع تماماً بأن نوع الوسائل التي يستخدمها العسكريون لن تسمح بحل أية مشكلة.

- هل تتفضل بإعطائي بعض الأمثلة على الممارسات العنيفة؟

- نعم، صاحب الجلالة. قالت لي حمى ناطق إنها حين كانت محتجزة في الثكنة مع نساء أخريات يرتدين الشادور، تصرّف العسكريون بطريقة وقحة مع هؤلاء النساء. أما عن الممارسات العنيفة خارج السجون، فأستطيع أن أنقل إليك شهادة مباشرة لصحافي عرفت عنه رصانته وهو بول بالطا من جريدة «لوموند». حين كان في أصفهان يراقب موكباً للمتظاهرين، رأى جنوداً ينقضون على شاب في الثامنة عشرة أو العشرين من العمر كان منصرفاً إلى غسل سيارته بسلام وأمروه بوحشية أن يصرخ: «يحيا الشاه». وبما أن المراهق بقي مذهولاً، أطلق العسكري رصاصة في عنقه. هذا مثل نموذجي عن الأعمال الوحشية التي يرتكبها العسكريون حين يسعون إلى إثارة ردات فعل موهومة مناصرة للملكية، لا معنى لها في الواقع سوى تشويه صورة الشاه.

- يدّعي العسكريون أن الأمر يتعلق من جهتهم بردات فعل عفوية أمام تظاهرات غير محتملة ومعادية للملكية.

- مولاي، أُثبت لنا مرات عديدة أن هؤلاء العسكريين - أريد أن أقول قادتهم - لا يردعهم رادع عن تضليل جلالتك. وهم يسعون لإيهامك بأن ما يصدر عنهم ليس إلاّ تصرفات عفوية. لكننا نعرف تماماً أن حاكم طهران وهو في الوقت نفسه قائد القوات البرية، أنشأ عن قصد مع بعض الرجال المأجورين والمشكوك جداً في أخلاقهم، لجنة مكلفة بتنظيم مظاهرات مزيّفة. هذه اللجنة التي تحاول إيهامنا أن كل ما تفعله هو تنفيذ أوامر جلالتك، ترغم بعض رجال الأعمال على أن يقدموا لها مبالغ كبيرة من المال. رجال عديدون مهتمون بمصير الملكية رجوني، حين عرفوا بأنك سوف تستقبلني اليوم، بإعلامك عن هذا كله.

أجابني الشاه وقد بدا عليه الانزعاج والغيظ:

- «إذاً، كل هؤلاء الناس ينتظرون أن تهتف الجماهير: «السقوط للشاه!» وحين يحصل العكس، يبدون مندهشين.

- صاحب الجلالة، إذا هتف الشعب: «يحيا الشاه»! لن يعارض أحد. لكن العسكريين، للأسف، يتصرفون حالياً برعونة كبيرة جداً، حتى ان الشعب لن يعطي الثقة لأية تظاهرة مناصرة للملكية. وإذا كان الجنرال مقدّم، المدير الحالي للسافاك، يعتقد أنه يجب وضع حد لتصرفاتهم، فهذا لأنه يعرف الناس الذين يحرّكون خيوط هذه العمليات السخيفة ويعتبر أن سمعتهم السيئة لا يمكن إلا أن تلحق الأذى الفادح بجلالتك.

جهد الشاه ليستعيد هدوءه وقال:

- حسناً، ما الذي ينبغي فعله لإيقاف هذا الأمر؟

- أن تتكلم بخصوصه مع رئيس الحكومة الذي هو الأكثر تعقلاً بين العسكريين.

- حسناً، سأفعل ذلك. لكن إذا كنت موافقاً على وضع حد للتصرفات التي حدثتني عنها، لا أستطيع بالمقابل أن أطلب منه منع كل تظاهرة عفوية لصالح الملكية...

- يجب، خاصة، ألا يتخذ العسكريون مبادرات سياسية. ربما قد يكون مناسباً يا صاحب الجلالة أن نشدّد على هذه النقطة الرئيسية؟

- فليكن. هل لديك أشياء أخرى تقولها لي؟

- يستمر العسكريون في إطلاق رصاص حقيقي، وكل يوم يسجل سقوط قتلى وجرحى بحالة الخطر.

- منذ أكثر من شهرين أعلمت الجنرال توفانيان[9] بجلب رصاص مطاطي من الخارج. قال لي إن الأميركيين الذين عقدنا معهم دائماً اتفاقيات للتسلح، أجابوا أنهم لا يملكون منها وأنهم بالتالي ينصحوننا باللجوء إلى الانكليز. لكن الانكليز يتلكأون في الأمور. وإني لأتساءل هل صحيح أنهم لا يملكون رصاصاً مطاطياً أم أنها مجرّد ذريعة. لا أفهم حقيقة ما يجري».

من دون تمهيد، وبلهجة ساخرة وخائبة في آن، أفلتت هذه الفكرة المدهشة:

«إذا كان الانكليز لا يسلموننا الرصاص الذي نطلبه منهم، فهذا ربما لأنهم يفضّلون أن يسقط القتلى كل يوم في إيران وأن تتمكن الـ «بي. بي. سي» من ايجاد مواضيع خارقة لنشراتها المثيرة[10].

- صاحب الجلالة، لا أملك أن أقول شيئاً في هذا الخصوص.

- كلما أعربنا عن اعتراضاتنا للانكليز، كانوا يجيبوننا بأن الـ «بي. بي. سي» مؤسسة مستقلة عن الدولة وأن الحكومة لا تستطيع التدخل في نشراتها. من جهتنا كنا نرى، مع احترامنا لحرية الإذاعة في التعبير، أن هذه الوكالة تتجاوز الحدود بحيث أنها تبث معلومات عن الوضع في إيران تشكل في الواقع إرشادات للمعارضين. في جميع الأحوال، كل شيء يجري وكأن الـ «بي. بي. سي» أصبحت جهاز دعاية واتصال للمعارضة الإيرانية.

- صحيح، يا صاحب الجلالة، أن هذه الإذاعة تحظى بشعبية واسعة بين المستمعين. وعندما تبث نشرتها المسائية من الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين إلى الساعة الثامنة والنصف، تتغيّر المدينة كلياً لأن معظم الناس يعودون إلى بيوتهم للاستماع إليها.

- هل تستمع إليها أنت أيضاً؟

- بطبيعة الحال، يا صاحب الجلالة، لأن هذه النشرة تقدم الأخبار والتعليقات المتعلقة بإيران باتقان فريد من نوعه.

- ألا تعتقد أن وراء هذا كله غرض سياسي؟

- مع أنني، بدافع التعصب ربما، لا أؤمن أبداً ببراءة الانكليز مهما تكن الظروف. إلّا أنني لا أعرف، والحالة هذه، ماذا يمكن أن يكون دافعهم. إذا كان من أحد يعرف ذلك فهو جلالتك أنت. ربما تسببتَ في أذيتهم حين منحت الأميركيين مكانة هامة في إيران وحين اشتريت أسلحتنا من هناك بدل أن تشتريها من بريطانيا؟ أو ربما كان ذلك نتيجة للقرار الذي اتخذته بتحويل أموالنا من لندن إلى نيويورك والتي كانت تتجاوز في تلك الفترة الأربعة عشر مليار دولار. المعلومات القليلة التي في حوزتي لا تسمح لي بالإجابة عن هذه الأسئلة. ومع ذلك، تاركاً على حدة جوانب القضية المتعلقة بالدبلوماسية الانكليزية، لدي تفسير أقدمه. وهذا التفسير ينطوي على شقين: بريطاني وإيراني.

- حسناً! إني أسمعك.

- فيما يتعلق بالجانب البريطاني، ألا يمكننا التفكير بأن بلداً كبريطانيا العظمى

تحمّل بصعوبة فقدانه الامبراطورية الأكثر قوة في العالم، يجد اليوم مناسباً أن يتمكن من لعب دور في الحياة السياسية لبلد كبير من الشرق عبر نشرات إذاعية؟ لا سيما أن المملكة المتحدة تشعر الآن بأن بلداً ظل لفترة طويلة عصفوراً في يدها، قد أفلت فجأة؟ أما فيما يخص الجانب الإيراني، ألا تعتقد يا صاحب الجلالة أن الانبهار الحالي بنشرات إذاعة أجنبية ما كان ليوجد لو أننا قدمنا في إيران نشرات إذاعية وتلفزيونية تتناول المشاكل الوطنية بحريّة؟

ـ لكن، ما أن أطلقنا العنان للراديو والتلفزيون حتى ثارت ثائرة السافاك ولم يتوقف عن اتهامها بأنها مأوى للشيوعيين. ألم أحمِ الراديو والتلفزيون دائماً من السافاك؟

ـ صاحب الجلالة اعذرني إذا قلت لك إنك لم تحمها بما فيه الكفاية. والبرهان، الاعترافات التي أسرَّ لي بها رضا قطبي[11]، الذي تعرف ولاءه لك، بخصوص تصرفات السافاك وبعض أفراد حاشيتك. بالرغم من الانتقادات الحادة التي طالته والضغوطات التي خضع لها دائماً، لم يتردد قطبي، في المجال الفني على الأقل، في اعطاء بعض الحرية في التعبير لمفكرين لم يكونوا مؤيدين للموقف الرسمي للنظام. لو أنك أعطيت بنفسك للراديو والتلفزيون والصحافة المكتوبة، الحرية التي من دونها لا تستطيع ممارسة مهامها الإعلامية، لما احتاج الايرانيون بالطبع للالتفات ناحية المصادر الأجنبية.

رغبت في أن أنهي الحديث دون انتظار ردة فعل الشاه، فقلت له:

«صاحب الجلالة. سأطلب منك أن تأذن لي بالانصراف».

نهضت لأودعه وانحنيت أمامه. صافحني وخرجت من مكتبه.

التنازل المستحيل
(الحديث السادس مع الشاه)

الاثنين ٢٥ كانون الأول (ديسمبر)، الساعة العاشرة والنصف

دخلت إلى مكتب الشاه وحييته. جاء لموافاتي. أشار لي بالجلوس، ثم توقّف قبالتي وسألني كالعادة:

- إذاً، ما هي الأخبار؟

- قبل الدخول في الحديث عن الوضع السياسي، أودّ يا صاحب الجلالة أن أبلغك هذه الرسالة من مهندس شاب.

- ماذا تقصد؟ مَن يكون؟

- التقيت به في طريقي إلى القصر حين كنت أوقف سيارة لتقلني.

- أليست لديك سيارة؟ لماذا لم تطلب إلى البروتوكول بأن يرسل لك واحدة؟

- صاحب الجلالة، إضراب الموظفين بلغ أيضاً موظفي الملاك في معهدي. ومع أن لجنة الإضراب سمحت استثنائياً لسائقي، لأسباب عملية، بألاّ يوقف خدمته، لكني فضلت أن أفعل كما يفعل الجميع أن أوقف سيارة أصل بها إلى هنا. كل شيء سار جيداً. كان المهندس الذي أقلّني في سيارته ودوداً وكان لي حديث هام جداً معه.

- ماذا قال لك؟

- حين تيقّن وبدهشة كبيرة أن أستاذاً في الجامعة يذهب إلى قصر نياڤاران على طريقة «الأوتو- ستوب»، من أجل مقابلة الشاه نفسه، صرّح بهذه الفكرة الطريفة:

«كنت أعتقد أن الناس الذين يذهبون لزيارة جلالته يركبون سيارات الرولس رويس أو الكاديللاك، ولم أتصور قط أنهم يفعلون ما تفعله».

بدا الشاه وقد أثارته الحشرية:

- وبمَ أجبتَه؟

- قلت له إن الناس الذين يتحدث عنهم يتنقلون الآن بسياراتهم على طرقات كاليفورنيا أو الكوت دازور. وإنه لم يبق في طهران إلا منتظرو السيارات المارة يأتون لزيارة جلالته...

أظهر الشاه بعض الرضى لدى التفكير أنه لا يزال بين رعاياه، بالرغم من الأزمة التي تهدّد جدّياً الملكية، أشخاص لم يتركوه ويأتون لزيارته حتى ولو اضطروا إلى انتظار السيارات. لكن، في الوقت نفسه، بدا متألماً لأنه اعتمد على حاشية بادرت، في مواجهة العداء، إلى التخلّي عنه. سألني بلهجة أليفة:

- ماذا قال لك هذا المهندس الشاب؟ ما هي رسالته؟

- كان يتساءل، بحكم كونه مهندساً زراعياً يعمل في خوزستان[1]، عمّا إذا كنت عارفاً، أنه حين تعرض عليك مشاريع لإقامة سدود تهدف إلى تشجيع الصناعة الزراعية - الغذائية مثلاً، بأن هذه المشاريع لا تسهم في تحسين حياة المزارعين اليومية.

- ماذا يقصد؟ هل يعتبر أنه يجب الاقلاع عن إقامة السدود؟ وأنه يجب عدم انشاء شبكة وطنية للكهرباء جديرة بهذا الاسم؟

- كان يقصد بالطبع، صاحب الجلالة، أن تطويراً حقيقياً للاقتصاد الزراعي لا يمر بالضرورة عبر اقامة السدود الكبيرة. وأفضل برهان على ذلك هو تشغيل سد خوزستان، الذي أنشىء قبل خمسة عشر عاماً ولم يؤدّ، في غياب أعمال الريّ الملائمة، إلى أي تطوير ملموس. لو أنه جرى ضخ المياه على طول النهر الكبير كارون، لاستفاد المزارعون بشكل أكيد.

- حسب ما فهمت، انتقادات هذا المهندس تتوجه خاصة إلى المخططين، لأنه يعتقد أن تخطيطاً أكثر عقلانية يُفترض به أن يأخذ بعين الاعتبار مصالح المزارعين.

- أعتقد أنه كان يقصد القول إن كل تخطيط تكنوقراطي، كونه يتم بشكل فوقي،

لا يمكنه أن يراعي بما فيه الكفاية مصالح الشعب. خلال السنوات الأخيرة، هذا العدد الكبير من المشاريع الاقتصادية قد أفاد بشكل خاص الأجانب وشركاءهم الإيرانيين الموجودين الآن في أوروبا والولايات المتحدة.

صدرت عن الشاه فجأة هذه الفكرة التي تكشف على الأقل خيبة معينة حيال الأجانب وبوجه أخص الأميركيين:

«عليّ الاعتراف، آسفاً، أن الأجانب فرضوا علينا فعلاً مشاريع لم تراعِ مصالحنا الخاصة».

ـ لكن، يا صاحب الجلالة، ألم يكن هناك أناس حولك يسعون إلى جعلك تعتقد أنه يكفي أن تثق بالأميركيين حتى يسير كل شيء على أكمل وجه؟

ـ أنت على حق، بعض من هذا.

ـ هناك مقال لريتشارد هلمز[١] صدر في «التايم ماغازين» في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، يُجسِّد تماماً هذه الثقة التي تتجاوز الحدود. كان يأخذ على جيمي كارتر قوله «إنه لا يعتقد أن جلالته سيخرج سليماً معافى من الأزمة الحالية». كان يتظاهر بالدفاع عنك، لكنه في الحقيقة يلحق أعمق الضرر بك. كتب مثلاً أنه لم يكن ينبغي على الولايات المتحدة أن تتركك تسقط، فيما كنت مدافعاً عن المصالح الأميركية. وأوضح أنك عجَّلت، خلال الأزمة العربية ـ الاسرائيلية سنة ١٩٧٣، بإرسال مبعوث إلى مصر وإلى العربية السعودية لمنع خطر محتمل على البترول المصدَّر إلى الولايات المتحدة. كما وأنه كشف عن أمر لا يزال سريّاً حتى الآن، وهو أنك أرسلت كتيبة من طائرات القتال «أف خمسة» لمساعدة الأميركيين في حرب فيتنام. يمكنك أن تتصور بسهولة النتيجة الوخيمة لهذا المقال الذي يزعم الدفاع عنك خصوصاً في هذا المناخ الحالي من الغليان السياسي.

رفع الشاه فجأة ذراعيه نحو السماء من شدة الغضب:

«مثل هذه الأقوال لا تهدف أبداً إلى الدفاع عنا، بل على العكس! الأمر نفسه حصل مع مدير عام وزارة الخارجية البريطانية الذي صرّح منذ شهرين أنه يجب مساندتي لأني دافعت عن المصالح البريطانية في المنطقة. هؤلاء السادة يفعلون كل شيء لإقناع شعبي بأني كنت في خدمتهم. بدل أن يساندوني حقاً، يعملون على التقليل من شأني. إنهم مخادعون إلى أقصى الحدود».

- صاحب الجلالة، الجميع يعتقد، بأن الانكليز والأميركيين هم أصدقاؤك.

- اطلاقاً. الانكليز لم يساندوني قط، ومنذ حوالى السنة تخلّى الأميركيون عن دعمهم لي... كل شيء يجري وكأنهم متفقون على تصفيتي.

- لماذا يمارسون هذه السياسة يا صاحب الجلالة؟

- لا أعرف. ربما لأنهم يعارضون وجود دولة قوية في المنطقة. أشعر بأنهم يخافون على مصالحهم على المدى البعيد.

- ما دمت على علم بمشاريعهم، لماذا لم تُنذر الرأي العام بالأمر؟

أجابني الشاه مشكّكاً:

- أتعتقد أنه يمكن إفشاء مثل هذه الأسرار للشعب؟

- صاحب الجلالة، لم يفدك بأي حال من الأحوال أن تلتزم الصمت حيال هذه الأمور. فيما يتهمك الناس بأنك تخدم مصالح الأجانب، ها أنت تقول إن هؤلاء الأجانب ينوون إبعادك...

- عداؤهم لي قديم جداً. لا الانكليز ولا شركات النفط الأميركية استطاعت أن تغفر لي المعاهدة التي عقدتها مع مايتي[٣] والتي كانت مختلفة عن جميع المعاهدات التي تقوم بها الشركات حتى ذلك التاريخ. رأيت على كل حال ما جرى لمايتي. شركات البترول في الولايات المتحدة واسعة النفوذ. كلما كنت أضغط على اتحاد النفط من أجل زيادة ثمن المحروقات، كانت تقوم تظاهرات في داخل البلاد وخارجها. وحده نيكسون أظهر قدرة على الوقوف في وجه هذه الشركات. وما أن ترك الساحة السياسية، حتى عادت الشركات تمارس من جديد نفوذها داخل الإدارة الأميركية. أما الديمقراطيون وجيمي كارتر، فحدِّث ولا حرج! إنهم لعبة في أيدي شركات البترول.

- ربما كان الشعب الإيراني سيهتم جداً بمعرفة هذه الأمور.

- لا أنتمي إلى مدرسة مصدق الذي كان يمثّل دور المتألّم لكي يكسب دعم الناس وتأييدهم. أعتبر أن على المسؤول الذي يواجه صعوبات أن لا يقوم بعرض هذه الصعوبات أمام الملأ، بل عليه أن يسعى إلى حلها.

- صاحب الجلالة، حسب فهمي للأمور، أرى أنك وجدت نفسك أخيراً في وضع مصدق ذاته.

- مع هذا الفارق، أننا استطعنا التخلص من هيمنة الأجانب وسيطرتهم على صناعتنا النفطية، وأننا أنشأنا الأوبك[4] وعززناها لتظل لوقت طويل بُعبع شركات البترول. كما أننا نجحنا أخيراً في انتزاع جزء كبير من أرباحهم، بينما مصدق، بإقفاله مصفاة عَبَدَان وبإثارته الاضطراب، قوّى وحدتهم وسمح لهم بتهيئة أنفسهم للمعركة.

- مولاي، لو سمحت، أود الانتقال إلى موضوع آخر. ألا تعتقد أن ما يقال الآن في الولايات المتحدة[5] عن وكالة الاستخبارات المركزية يستحق التوقف عنده.

- كل هذا يدخل في نطاق مسرحية كبرى هدفها تبرير التغيير الحاصل في السياسة الأميركية، يريد القادة الجدد إلقاء المسؤولية، حيال الأزمة الراهنة، على عاتق الاستخبارات الأميركية التي امتنعت في ظل رئاسة الجمهوريين عن الاتصال بمعارضينا بناء على طلب مني. كل ما يقال اليوم مغلوط. في الواقع، كنت قد توجهت ببساطة إلى نيكسون وكيسنجر قائلاً: «ما دمتم تنصّبون أنفسكم حلفاء لبلادنا، وما دام هناك أميركيون كثيرون في إيران، لماذا لا تتوقفون عن التسلل إلى دوائرنا ورشوة دبلوماسيينا وضباطنا ليكونوا جواسيس لكم». وبما أنني كنت حريصاً بشكل خاص على وطنية ضباطنا وإبقائهم بعيدين عن المغريات، قلت لمحدثي إن أجهزتنا بما فيه السافاك مستعدة لإعطائهم كل المعلومات التي يحتاجونها عن مكائد الشيوعيين والعملاء السوفيات في إيران. اليوم، الوضع مختلف تماماً. الجميع يعلم أن وكالة الاستخبارات المركزية لا تمتنع عن توسيع شبكة معلوماتها واتصالاتها مع المعارضة الإيرانية في الخارج. هذه المعارضة التي يتواجد أهم أحزابها في الولايات المتحدة، لا يُغض الطرف عنها فحسب، بل إنها تحظى برعاية السلطات هناك.

لوقت طويل، اقتصرت السي. أي. إيه في علاقاتها بمعارضي الشاه على الحد الأدنى وذلك لسببين رئيسيين. الأول هو أن الأجهزة الأميركية للاستخبارات جعلت هدفها الرئيسي في الستينات والسبعينات مقتصراً على معرفة نشاطات السوفيات في المنطقة. كانت السي. أي. إيه، التي تتلقى تقارير السافاك المتتابعة، تعمل مباشرة في إيران بفضل جهاز تنصّت إلكتروني متطوّر نُشر على طول الحدود الإيرانية - السوفياتية، يسمح للأميركيين بالتقاط الاتصالات التي تقوم بها شبكة الدفاع السوفياتية بمراقبة قواعد إطلاق الصواريخ والقاذفات الصاروخية المنتشرة في الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفياتي.

السبب الثاني هو أن الرؤساء الأميركيين، خلال الفترة التي تمتد من وصول جونسون إلى الحكم - إثر اغتيال كينيدي عام ١٩٦٣ - وحتى مجيء كارتر إلى البيت الأبيض (١٩٧٧)، قد اعتبروا الشاه الرجل السياسي الوحيد المقبول في إيران. كانوا يعتقدون أن المعارضة الإيرانية لا تمثّل في أي حال قوة يعتدّ بها. وكان الشاه يجري مع المسؤول عن شبكة السي. أي. إيه في طهران محادثات منتظمة كتلك التي يجريها مع سفير الولايات المتحدة. فيما لم يكن في العالم كله رئيس دولة يعتقد أن من واجبه استقبال المسؤول عن السي. أي. إيه بشكل منتظم. كان الشاه في الواقع حريصاً جداً على أن يدير بنفسه أجهزة الاستخبارات الإيرانية ولا يريد أن يعهد بهذه المسؤولية إلى أي شخص آخر، بما أن الشاه اتفق مع الأميركيين بأن يزودهم السافاك بالمعلومات الخاصة بإيران، فإن كل معلومة إذاً كانت تدور في النهاية في حلقة مقفلة بين الـ السي. أي. إيه والسافاك والملك. الأمر الذي كان يجعل أخطاء كثيرة تتكرر من دون أن يقدر أحد على كشفها.

إن كانت أهمية الظاهرة الدينية وما تنطوي عليه من ثورية قد غابت تماماً عن السي. أي. إيه، فهذا لأن الشاه والسافاك لم يكونا يعتبران الإسلام الشيعي خميرة ثورية. كان يشوّش تفكيرهما هجسهما بالخطر الشيوعي وينقلان إلى السي. أي. إيه معلومات وتحاليل متأثرة برؤيتهما الوحيدة الجانب. لم يكن يحق للشاه إذاً أن يستهجن البلبلة التي تسود في الولايات المتحدة بشأن ايران، لأنه يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية بسبب ضلاله هو بالذات.

طيلة فترة رئاسة الحزب الجمهوري، من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٧٦، كان الشاه الطفل المدلّل للولايات المتحدة وكان مباحاً له كل شيء. من هنا، كان طبيعياً أن يشعر الشاه بالضياع مع وصول الديمقراطيين إلى الحكم وتزمّت جيمي كارتر. شكل موقف الأميركيين صدمة عميقة له وأخذ يتصرف كعاشق خائب. كل شيء في كلماته وتصرفاته يوحي بمرارته، كأن لسان حاله يقول: «ألأنني تفاهمت معكم على جميع الأصعدة، تعاملونني هذه المعاملة الملتبسة؟ النقطة الوحيدة التي لم نكن متفقين بشأنها هي تلك المسألة الشائكة المتعلقة بحقوق الإنسان التي جعل منها المرشح كارتر قميص عثمان. حسناً، حتى ولو لم أكن أوافقه الرأي، ها إني أفعل كل ما في وسعي للسير على خطاه. لماذا يتخلون عني إذاً؟».

لم يكن أحد في حاشية الشاه ينقل له ما يجري في واشنطن. وقد عجز من ناحيته

عن فهم التغيرات التي حدثت منذ وصول كارتر إلى الحكم. لم يدرك أن الاستقبالات الفخمة التي كانت تقام في سفارات إيران لم تعد كافية لتبديل موقف حكم خرج لتوّه من حرب فيتنام وفضيحة ووترغيت.

أعتقد أنه يجب التذكير هنا بالأحاديث التي أجريتها، بعد أسابيع قليلة من انتخاب جيمي كارتر رئيساً للجمهورية، مع أحد أقرباء الملك الذي كان يحلّل نفسية هذا الأخير بنفاذ بصيرة. حين سألته عن الموقف الذي سيتخذه الشاه حيال كارتر وسياسته المدافعة عن حقوق الانسان، قال لي: «الشاه متأكد من أن كارتر لن ينتخب لرئاسة ثانية، وهو يعتقد أنه يستطيع أن يكسب الوقت إن هو تظاهر بأن نظامه يذهب باتجاه الليبرالية مجرياً لذلك بعض التبديلات الهادفة إلى تهدئة الرئيس. لكن بؤس الملك يكمن في أنه إذا كان قد استطاع حتى الآن أن يتداول الأفكار كلها بيُسر ومن بينها فكرة الثورة [كان يقصد الثورة البيضاء]، وإذا كان قد ربح على جميع الأصعدة، فإنه يخطىء في تصوره أن الحرية هي مجرد لعبة. في الحقيقة، إن الحرية بين يدي قائد سياسي عُرف دوماً باحتقاره للحرية هي قنبلة توشك أن تنفجر في وجهه في أية لحظة».

وفي النهاية، نستطيع القول إنه منذ تولّي كارتر الرئاسة، جانب الشاه اعتناق استراتيجية شاملة من شأنها الاستجابة لمتطلبات «لبرلة» النظام، وأخذ، بدلاً من ذلك، يمارس سياسة «الخطوة خطوة»، معرضاً نفسه إلى فشل متتابع جعله سهل المنال وغارقاً في حيرة عميقة - وهل يمكن للحال إلاّ أن يكون كذلك؟».

الشاه، الذي كان يحزنه موقف الأميركيين إلى درجة لا يرغب معها في التحدّث بشأنه، سألني طاوياً الموضوع:

«هل لديك أخبار جديدة عن صديقي؟ إننا ننتظر نتائج مشاوراته.

- صاحب الجلالة، صديقي سيأتي حتماً ليطلعك على ما عنده في الأيام المقبلة. أراه كل يوم وأستطيع التأكيد أنه يخضع لضغوط رهيبة.

- من أين تأتي هذه الضغوط؟

- من أصدقائه السياسيين.

- لقد سمعت أخباراً تقول إن أصدقاءه القدامى في الجبهة الوطنية ذهبوا لزيارته

وأن أحد زعماء الجبهة أجهش بالبكاء أثناء حديثه معه. ما الأمر؟

- داريوش فوروهار الذي كان يحاول عبثاً أن يثني صديقي عن قبول عرضك، أخذ يجهش بالبكاء. دموعه تفضح الارتباك الواقعة فيه الجبهة الوطنية حالياً.

- أي ارتباك؟

- فوروهار وأصدقاؤه يكنون كبير الاحترام لأخلاق صديقي ولنزاهته، لكنهم يخشون من جهة أخرى أن تكون القاعدة التي يريد تشكيل حكومته على أساسها - أي دستور ١٩٠٦ - قد تخطّاها الزمن. هم لا يستسيغون أن يفقد صديقي مصداقيته.

- ألم يدعُ أعضاء الجبهة الوطنية دائماً إلى احترام الدستور؟ حسناً، فليطبّقوا ذلك الآن!

- يعتقدون أن جلالتك قد تجاهلت طويلاً الدستور، ولم يعد في مقدورك أن تكون ملكاً يخضع للدستور.

- هل فكّروا في المستقبل؟ ألديهم الضمانة على أن حرياتهم سوف تصان في حال تغيّر الزعيم؟ ماذا يريدون أن يضعوا مكان الدستور؟ هل يدركون أنه لن يتبقى لهم سوى الجري وراء رجال الدين، ولن يكون لديهم دور يلعبونه؟ هل تعرف ماذا يريد رجال الدين؟ هل تعرف إلى أين يذهبون بالبلاد؟

- على كل حال، إن حركة المعارضة، يا صاحب الجلالة، اتسعت اليوم اتساعاً هائلاً بحيث لم يعد يجرؤ أحد على دعم الملكية حتى ولو كانت دستورية. فيما يتعلق بصديقي، أعتقد أني أستطيع اعلامك بأنه سيرفض ربما العرض الذي قدّمته جلالتك له والذي يقضي بتأليف حكومة جديدة.

استفسر الشاه مندهشاً عن الأسباب وأسف لهذا الرفض.

- «لقد وضع شروطاً لم تُحترم يا صاحب الجلالة».

- أية شروط؟

- الشرط المتعلّق مثلاً بالعفو عن السجناء. بالرغم من أن وزير العدل عقد اجتماعاً مع ممثلي الجمعيات والمسؤولين عن القضاء العسكري، وبالرغم من أن لائحة بأسماء السجناء الذين سيعفى عنهم، قد وُضعت، فإن شيئاً لم يحدث.

- لماذا هذه العرقلة؟ أنا مستعد للتحرك مباشرة. ما الذي يمكنني فعله.

- الوسيلة الأسرع يا صاحب الجلالة هي الطلب إلى وزير العدل، لأنـه قادر عـلى ذلك، بتعميم قرار جلالتك دون إبطاء على العسكريين والسافـاك.

- هل يمكن القيام بذلك عبر التلفون؟

- بالطبع يا صاحب الجلالة. تكلمت البارحة مع الوزير وأعتقـد أنه مـوجود الآن في مجلس الشيوخ.

تمكّن مـوظف الهـاتف في القصر من الاتصـال بـالمجلس خـلال دقـائق قليلة. ردّد الشاه لنجافي، وزير العدل، نفس الكلام الذي طلب مني الوزير أن أنقله للشاه.

مستعيداً حديثنا، سألني الشاه:

- هل هناك شيء آخر؟

- البارحة مساءً، زوّدني صديقي بوثيقة تثبت أن مؤسسة بهلوي، تواصل صفقاتهـا التجارية.

اتصـل الشاه فـوراً بوزيـر البلاط ليسـأله عن آخـر التطورات بخصـوص مؤسسـة بهلوي، وتحديداً عن التعليمات التي أعطاها لإيقاف كل عملية مالية باسمه، وأمره بأن يقدّم له غداً صباحاً المرسوم النهائي ليوقّع عليه. ثم قال لي:

- ما هي الشروط الأخرى لصديقي التي لم تُحترم؟

- إنها تتعلق بنقطتين هامتين يـا صاحب الجـلالة: قيـادة القوات المسلحـة ومجلس الوصاية.

- بالنسبة لي، ليس هناك أدنى شك بأن قيادة القوات المسلحة تعود إليّ.

- صديقي يستند إلى القوانين السابقة ويعتـبر أن إشراف الملك على الجيش، شـأنه شأن الامتيازات الملكية الأخرى، يـرتدي طـابعاً رمـزياً ولا يفـترض التدخـل الفعلي. بالنسبة له، كل ما يتعلق بالجيش يعود إذاً إلى مجلس الوزراء وليس إلى جلالتك.

- يدعي صديقي أن قيادة الجيش ليست من صلاحياتي؟

- اسمح لي، مولاي، بهذا التوضيح: الرأي الموضوعي لكل رجال القانون يقـول

إن الامتيازات الامبراطورية هي رمزية فيما يتعلق بالممارسة التنفيذية للسلطة.

- أعتقد من جهتي أن امتيازات الملك في مجال الجيش هي كاملة. سنناقش هذا الموضوع مع صديقي.

- مسألة تتعلق بالأخرى، يا صاحب الجلالة وهي اتفاقيات التسلّح. يود صديقي أن تكون موضوعة أيضاً تحت إشراف الحكومة(٦).

- الآن، قل لي ما رأي صديقي بمجلس الوصاية؟

- خلال الأسبوعين اللذين باشر فيهما صديقي استشاراته، أدرك أنه يتوجب على النظام إذا كان يريد الصمود أن يتغيّر بمقاييس معينة. بعد تفكير عميق، توصل إلى الاستنتاج التالي وهو أن جلالة الملك يجب أن يحتجب لبعض الوقت، وإن في داخل البلاد، ويعهد بامتيازاته إلى مجلس وصاية.

- مجلس الوصاية يُعيَّن فقط في حال غيابي، ليحلّ مكاني ويقوم بواجباتي. وإلا فما الغاية من تعيينه؟

- صاحب الجلالة، بما أن الدستور يشترط أنه «في حال سفر الملك أو تغيبه، يعين الملك مجلس وصاية»، في مقدورك إذاً في حال قررت أن تبقى مؤقتاً بعيداً عن شؤون الدولة، أن تعيِّن مثل هذا المجلس، رغم بقائك في البلاد.

- هل تريدني أن أبقى في البلاد بعد تعيين مجلس وصاية؟

- نعم يا صاحب الجلالة.

بدا الشاه مغتاظاً وقال لي بلهجة متهكمة:

- «لكن ألن يكون هذا اعترافاً بأني مجرّد قاصر يخضعونه للوصاية!».

- ليس لديك خيار آخر، يا صاحب الجلالة. بما أنك خصصت نفسك بسلطات لا يمنحك إياها الدستور، أصبحت اليوم هدفاً لكل الانتقادات والهجومات المناهضة للنظام.

غيّر الشاه مكانه على كرسيه بعصبية وقال:

«لا، لا، لا! ما تقوله مخالف للدستور ولا أستطيع القبول به. إن رضيت بذلك فسيعتقد الجميع بأني تخليت عن مسؤولياتي.

- إذا نفذت القرار الذي يقترحه صديقي، فسيتوقف معارضوك عن معارضتهم. حين تتعرض شركة تجارية لأزمات مؤقتة، ألا ترى بأن المساهمين يسعون إلى تأليف لجنة انتقالية لإدارة الأزمة؟

- لا يمكنني أبداً القبول بهذا الحل.

- في هذه الحالة، يا صاحب الجلالة، صديقي أيضاً لن يوافق على تأليف الحكومة، لأن هذا الشرط هو بالنسبة له واجب لازم».

من اللائق هنا توضيح الأسباب التي دفعت صديقي - بخلاف شهبور بختيار الذي سوف يطلب من الشاه في الأسبوع التالي مغادرة البلاد - إلى أن يطلب بقاء الشاه في ايران والاحتجاب مع الشاهبانو في دارتها المطلة على بحر قزوين، تاركاً الشؤون كلها في عهدة مجلس الوصاية والحكومة. عادة، حين كان الشاه يغادر البلاد للقيام بزيارات رسمية في الخارج، كان يعيّن مجلس وصاية يتألف من رئيسي مجلس النواب ومجلس الشيوخ ورئيس الوزراء وقائد القوات المسلحة ورئيس محكمة التمييز ووزير البلاط وأحد إخوته أحياناً.

كان صديقي يرغب في توسيع هذا المجلس ليشمل شخصيات سياسية محترمة وواحداً أو اثنين من رجال الدين، بحيث يتبين للجميع في البلاد وفي أوساط المعارضة بأن الحالة قد تغيّرت وأن المجلس يمكنه أن يضمن شرعية النظام. إذا كان صديقي يصرّ من جهة أخرى على ملازمة الشاه للبلاد، فهذا لأنه كان يأمل بهذه الطريقة في إبقاء الجيش بعيداً عن الأحداث واستباق أية محاولة انقلابية. ثم إن الشاه، بالرغم من فقدانه لمصداقيته في نظر الشعب، كان لا يزال يتمتع بشعبية معيّنة في صفوف الجيش، ووجود الشاه في إيران قادر على طمأنته. من جهتهم، كان الليبراليون يخشون أن تؤدي حركة عصيان تقوم في صفوف الجيش إلى اشعال فتيل الحرب الأهلية. باختصار، كان صديقي حريصاً على أن يبقى الشاه في مملكته، ويأمل خصوصاً بأن يكون قادراً على إصلاح النظام. لكن الشاه الذي أضعف المرض قواه الجسدية لم يكن يملك أيضاً القوة المعنوية للاستجابة لهذا الحل. لا سيما وأن الانكليز والأميركيين كانوا، عبر سفيرَيْهم (اللذان كانا يأتيان لزيارة الشاه بانتظام) يشجعونه على الرحيل.

قبل أن أنسحب، قلت:

- صاحب الجلالة، لدى صديقي مطلب آخر وهو أن تشدّد على حلفائك الانكليز

والأميركيين أن يكفوا عن إعلان دعمهم لك يومياً. وهو ينوي، في حال رئس الوزارة أن يطلب من جيمي كارتر الامتناع عن التأكيد المنتظم بأنه يدعم النظام الإيراني. يعتبر صديقي أن تصريحات من هذا النوع مهينة للشعب الإيراني.

ختم الملك بذكاء:

- «في الواقع، لا نعرف إلى أي حد يبلغ خبث هذا الدعم».

كان الشاه، بهذا الخصوص، قد أسرّ لي مرات عديدة أن الانكليز والأميركيين لا يدعمونه حقاً. وأدلت فرح باعترافات مماثلة لي. لكن الشاه كان يقيم عبر صهره السابق أردشير زاهدي سفير ايران في واشنطن، علاقة مباشرة مع الأميركيين وتحديداً مع بريجنسكي مستشار الرئيس كارتر، وكان يستخدم هذه القناة ليتوسّل دعمهم. لم يكن الشاه يتوصل إلى الإقلاع عن هذه العادة التي ترقى إلى ثلاثين عاماً. في مواجهة التناقض بين الدعم المهذّب الذي يتظاهر به الأميركيون وبين تصرفاتهم، كان الشاه في حالة ضياع تام. وقد ضاعفت من حيرته آراء المستشارين على أنواعهم الذين كانوا يؤمّون القصر. ويمكن تصنيفهم في ثلاث فئات:

الفئة الأولى التي تضم الأميرة أشرف مثلاً، كانت تؤكد له أن الأميركيين تخلوا عنه، وأن للأزمة حلاً واحداً هو القيام بانقلاب عسكري.

الفئة الثانية التي تضم صهره السابق مثلاً، كانت تواصل اعتمادها على الأميركيين لأنها كانت تتوهم بأن هؤلاء لن يتخلوا عن الشاه في نهاية الأمر، وتفسّر أدنى إشارة من واشنطن وكأنها علامة على إخلاصهم لحكمه.

وأخيراً فئة المستشارين الجدد للشاه مثل صديقي، الذين كانوا يطالبونه بالتخلي تماماً عن دعم الأميركيين والالتفات فقط للشعب الإيراني.

كل هذه الآراء المتضاربة كانت تزيد في تمزّق الشاه الداخلي وتدفعه إلى اختيار الرحيل. كان الشاه، آنذاك، أشبه بشخص مسجون داخل غرفة معتمة، يتلمس الجدران ويحاول يائساً أن يذهب في اتجاه النور.

من جهتي، كان لديَّ انطباع بأني تجاوزت الحد حين أوحيت له بالتنازل عن سلطات كثيرة. قبل أن أستأذن بالانصراف، حاولت أن أحمل له شيئاً من التعزية المعنوية، فأخبرته هذه القصة:

«صاحب الجلالة، حين أبلغتك هذا الصباح برغبة هؤلاء الذين يتمنون عليك

التخلي عن كل سلطاتك، حاولت أن أتمثل حالتك النفسية. عـاودتني ذكرى من أيـام الشبـاب. أيـام كنت طـالبـاً في جنيف وأنـا في العشرين من العمـر، طلب مني أحـد أصدقائي، وهـو متسلق جبال، أن أصـطحبه في إحـدى رحلاتـه. أمضينا الليـل عند بعض الأصدقاء في كامونيكس، ثم انطلقنا باتجاه القمم في السـاعة الـرابعة صبـاحاً. مع أني لم أكن معتاداً على الجبال، إلاّ أن اكتشافي بعد انقضاء كل ربع ساعة أو نصف ساعة لمنـظر جديـد ورائع، كـان يفتنني إلى حد أنني كنت أنسى تعبي. واصلنـا السير لوقت طويل، عند حلول الظهر، كنا على ارتفـاع ٣٥٠٠ متر. كـان المكان يـطل على فراغ شاهق وأحسست بالدوار حين جعلت أفكر بما ينتظرنا قبل وصـولنا إلى الـوادي، ولكن ما أن أنهينا التهام سندويشـاتنا وألقينـا نظرة أخـيرة مفتونـة على المنـظر الشامـل المنبسط أمامنا، قال لي صديقي: الآن، ينبغي الهبوط من جديد!». الآن، يا صاحب الجلالة، يمكننا مقارنة الوضع بحالة متسلق جبال بقي لمـدة خمس وعشرين سنة يتسلّق خـطوة خطوة الـطريق المتعـرّج المؤدي إلى قمـة الجبـل ـ الجبـل استعـارة تمثّـل الحكم المطلق ـ ثم يُطلب منـه فجأة الهبـوط من جديـد إلى الوادي خـلال وقت قصير جـداً. أثناء التسلّق، يعرف المتسلّق جيداً أين يضع قدمه، ولكنه، في طريق العـودة، يحسب أن الصخور توشك على الانزلاق كل لحظة تحت قدميه. كلما ازداد الهبوط سرعة، كلما زاد خطره. كل هذا مفهوم تماماً يا صاحب الجلالة، وأنا لا أستخف اطلاقاً بتخوفاتك وأحوالك النفسية. ولكن لا خيار آخر.

أثنـاء كلامي، كـان الشاه مسمّـراً نظراتـه في الأرض، محدقـاً بنقـوش السجـادة. وشعرت أنه غارق في لجة من الأفكار. وفجأة، وكأنه أفاق من حلم، قال متعجباً:

«هل هناك شيء آخر نتحدث بشأنه».

ـ صاحب الجلالة، أحد أصدقائي الحميمين وهو تيري دي جاردان الصحـافي في مجلة الفيغـارو موجـود الآن في إيران. بـالرغم من أنـه يعرف جيـداً أنك تـوقفت عن الادلاء بأحاديث للصحافة منذ أشهر عدة، يأمل بمقابلتك. إنه صحافي نزيه وأستطيع أن أؤكد لك أنه لن يحرّف أقوالك.

ـ حسناً. قل لمدير البروتوكول أن يحدد له موعداً.

ـ شكراً، يا صاحب الجلالة.

نهضت لأستأذنه في الذهاب. شدَّ على يدي وخرجت من مكتبه.

ماذا يحصل في الغوادلوب
(الحديث السابع مع الشاه)

الاثنين ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩

حُـدِّد موعـدي مع الشـاه في الساعـة العاشرة والنصف. وصلت إلى القصر، تبعـاً للبروتوكول، قبـل نصف ساعـة من الموعـد. في أعلى الـدرج، عند الـرواق الرئيسي، التقيت تييري دي جاردان خـارجاً من مقـابلة الشاه، سـألته عـما إذا كانت الأمـور قد سارت بشكل جيد فأجابني أن الشاه يحلّل الوضع بنفاذ بصيرة، لكنه متردد. وقـال لي أيضاً إنه كان مسروراً جداً لأن الشـاه سمح لـه بنشر فحوى هـذا «الحديث الخـاص» الذي وافق على اجرائه معه بناء على طلبي. وأضاف أنـه في نهاية اللقـاء، حصل أمـر غريب يعكس حميمية عميقة جداً، لكنه لن ينوه بها في مقاله.

في نهاية الحديث، قاده الملك إلى النافـذة المطلة عـلى المدينـة والتي يمكن منها سـماع الهـدير البعيـد للمتظاهـرين الذين جعلوا يهتفـون بشيء يشبه: «المـوت للشـاه!». ثم حدق الشاه بتييري دي جاردان وسأله فجأة:

- لو كنت مكاني، ماذا كنت تفعل؟

فأجابه المراسل لكي يخفف التوتر:

«أعمل في الصحافة، يا صاحب الجلالة».

عندئذ ربت الشاه بطريقة أليفة ورصينة في آن على بطنه، ثم قال له:

«ليس هذا وقت المزاح، سيد دي جاردان!».

بهذه الكلمات انتهت المقابلة.

عند الساعة العاشرة والنصف، دخلت بدوري إلى المكتب الامبراطوري. تقدم الشاه لموافاتي، شدَّ علي يدي ثم سألني بلهجة ممازحة:

«ماذا، هل انتظرت سيارة لتقلك هذه المرة أيضاً؟».

حين كنت متجهاً إلى الأريكة التي دعاني للجلوس عليها، أجبت:

- نعم مولاي. لكن هذه المرة، الأمر لا يتعلق بالنقص في البنزين أو بالإضراب، ولكن بأسباب أخرى...

- ما هي؟

- أصبح الوضع خطيراً، كان من الأفضل ألّا يعلم معاوني بمجيئي إلى القصر.

استنتج الشاه مندهشاً ومستسلماً في آن:

- آه، هكذا إذن...

- رأيت لتوّي الجنرال دجام[1] حين كان خارجاً من عندك. هل قبل بعرض بختيار؟ سألت لأغيّر الموضوع:

- لا أعتقد أنه سيقبل بوزارة الدفاع. من جهة، لأن لديه ابناً معاقاً تتطلب حالته الصحية عناية دائمة. ولأنه من جهة أخرى لا يريد تلطيخ يديه بالدماء. أعرف أن زاهدي وسيّد جلال طهراني ذهبا لزيارته ولكني لا أعتقد بأنهم سينجحان في اقناعه.

لدى سماعي الشاه، فهمت أنه لم يكن يرغب حقيقة في رجوع الجنرال[2] إلى العمل السياسي. وهذا لسببين: الأول هو أن الملك الذي أقصى دجام من الجيش منذ سنين، كان يخشى رجوعه الآن كي لا يصبح منقذاً للجيش وراعياً لأمن الدولة. والسبب الثاني هو أن الشاه لم يكن يحتمل، بعد عشرين سنة من الحكم المطلق، أن يحصل حدث هام بمعزل عنه. في أعماقه لم يكن يتمنى نجاح بختيار مثلاً، لأنه حتى ولو رأى نفسه مضطراً اليوم، بسبب من قوة الأشياء، إلى استدعائه، فهو لم يكن يثق أبداً بهذا الرجل الذي ظلّ طيلة ثلاثين عاماً يعلن انتماءه إلى مصدق.

سألت:

- هل صحيح أن جلالتك تنوي مغادرة البلاد؟

- «إنه بختيار الذي يطلب مني ذلك». أجابني الشاه وكأنه يريد أن يقول لي: «لو كان الأمر راجعاً لي، لبقيت وتحملت كل المجازفات».

- صاحب الجلالة، أنت نفسك دعوت بختيار. بأية سلطة يفرض عليك هذا الشرط؟

أجابني الشاه بطريقة لم تكن متوقعة أبداً:

«ليس بختيار وحده من يقول ذلك. هناك أيضاً آخرون[3] يقولون لي: «إذا لم ترحل ولم يرجع الخميني إلى ايران، فلن تُحلّ الأزمة».

في الواقع، كان الشاه يريد تحميل مسؤولية رحيله لكل الآخرين عداه: لبختيار وللأميركيين والله يعلم لمن أيضاً. من جهتي كنت أستنتج أنه بين صديقي الذي كان ينصحه بالبقاء في ايران والابتعاد لفترة مؤقتة عن الشؤون السياسية، وبين بختيار الذي يشجعه على الرحيل، كان الشاه يفضل الحل الثاني. لأن بقاءه في ايران والقبول باقتراح صديقي يتطلب من جانبه تكيّفاً نفسياً وتوبة تجعله يكفّر عن خطيئة الغرور التي ارتكبها خلال سنوات طويلة. لئلا يخضع لهكذا تجربة، كان يفضّل الرحيل والتخلّي عن أحد العروش الأكثر نفوذاً في العالم[4]. لهذا السبب، كنت مقتنعاً بأن الشاه اتخذ قراره قبل أن يقترح على بختيار تأليف حكومة جديدة.

في الواقع، قبل أيام من لقائه الرجل السياسي، كان له حديث طويل في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ مع شخصية فرنسية هي ميشال بونياتوفسكي. كانت مهمة م. بونياتوفسكي أن يرفع تقريراً للرئيس جيسكار ديستان عن الحالة النفسية للشاه والوضع السياسي في إيران، تهيئة للقاء القمة الذي سينعقد في الغوادلوب (أطلق عليه قمة الأربعة)، في الخامس والسادس من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، ويضم زعماء جمهورية ألمانيا الاتحادية والولايات المتحدة الأميركية وفرنسا والمملكة المتحدة. بيد أن م. بونياتوفسكي أكّد لي، خلال حديث أجريته معه لاحقاً في باريس، أن الشاه كان ينوي الرحيل في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ لأنه بعد أن تفحّص ملياً الاحتمالات المختلفة المعروضة أمامه، أقصى صراحة الاحتمال المتعلّق بمواجهة دامية مع الشعب قد تعرّض رحيله للخطر بشكل حاسم.

وقال لي م. بونياتوفسكي أيضاً، الذي ذهب إلى طهران بأمر من الرئيس الفرنسي وبمعرفة هلموت شميت وجيمي كارتر ربّما، إن الشاه لم يكن راضياً عن موقف حلفائه

الغربيين. «لم يتخلّ عن مساندتي الانكليز وحدهم، بل الأميركيون أيضاً. فهم يتخذون مواقف متناقضة ورجراجة ومتغيّرة بين أسبوع وآخر، سواء كانت صادرة عن أجهزتهم السرية أو عن العسكريين أو عن الدبلوماسيين[٥]. يجب على القوى الغربية أن تدرك أن السوفيات سيتدخلون في حال حصول اضطرابات في إيران. لذلك أتمنى أن يُتخذ موقف جماعي واضح في الغوادلوب للسعي للحؤول دون تدخل الاتحاد السوفياتي».

لكن السيد بونياتوفسكي أضاف موضحاً أن الشاه، في الوقت الذي كان يطالب بدعم الغربيين له وباتخاذ موقف مشترك لمواجهة الأزمة الايرانية، لم يكن يملك استراتيجية واضحة لمعرفة ما إذا كان عليه البقاء أو الرحيل. في ذلك الوقت، كانت رسالته إلى الرؤساء الأربعة هي التالية: قراره الأخير سيكون مشروطاً بتصميم القوى الغربية على دعمه أو على التخلي عنه. وهو من دون دعمهم، سيجد نفسه مهزوماً حتماً أمام خصومه.

حين ألمح مبعوث الرئيس جيسكار ديستان إلى إمكان مقابلته رئيس الوزراء السابق هويدا في السجن (والذي كان يقدّر دائماً تحليلاته الثاقبة)، أجابه الشاه قائلاً: «صحيح أن هويدا قادر على القيام بتحليل صائب للوضع السياسي في البلاد، لكنه لا يتمتع الآن بأية صدقية في أوساط الرأي العام. في جميع الأحوال، سيكون الحصول على إذن بمقابلته أمراً صعباً، حتى ولو بقيت هذه الزيارة سرية».

إلى جانب المثل الذي أُعطي، هناك دلائل أخرى[٦] تشير إلى أن رغبة الشاه في المغادرة كانت، منذ يوم الجمعة الأسود - ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ - تتأكد بشكل تدريجي ولكنه كان فقط يبحث عن ذرائع لتبرير رحيله.

في ذلك اليوم من ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، مررتٍ قبل لقائي الشاه، بمكتب الجنرال بكروان، الذي عُيِّن منذ فترة نائباً لوزير البلاط، لأعرف رأيه في الوضع. لقد سبق له وأنذرني منذ شهر قائلاً إن الشاه لم يعد يملك لا الرغبة ولا القدرة على التفرغ لشؤون البلاد. كما وأعرب الجنرال عن خشيته من أن يفقد الشاه طاقته على الصمود وأن يكون ميّالاً بالأحرى للرحيل. قال لي بحزم: «سيكون رحيله تهرباً من مسؤولياته. يجب ألّا ندعه يرحل»!

من جهتي، كانت لدي أسباب تدفعني إلى الاعتقاد بأن الشاه قد اتخذ قراره

بالرحيل، سيما وأن كل المواضيع التي تطرق إليها في ذلك اليوم تُظهر أن المملكة بات متعذِّراً حكمها بنظره، حين كان يتحدث عن المشاريع المالية للبلاط ولعائلته، قال لي بلهجة منزعجة:

«الصحف لا تنشر بطبيعة الحال القرارات التي اتخذتها في هذا الشأن. ألم يطالب السادة الثوريون على الدوام بأن يُحظَّر على عائلتي التدخل في الشؤون المالية التي تخص مؤسسات الدولة؟ الآن، وقد وُجد قرار صريح وواضح في هذا المجال، فإن الصحف تتجاهله، لأن هؤلاء السادة أنفسهم فرضوا جواً من الإرهاب عليه.

- صاحب الجلالة، كل الناس ذوي النوايا الطيبة سيطلعون على قراراتك برضى. لكنهم سيستمرون على اعتقادهم بأنه كان ينبغي عليك اتخاذها منذ زمن طويل..».

ولكي يقنعني الشاه - أو ليُقنع نفسه بالأحرى - بأن لا شيء يمكن القيام به، استشهد بمثل آخر:

«أريد أن أطلب منك أن تفسِّر لي شيئاً حدث هذا الصباح. علمت منذ نصف ساعة أن الأطباء والممرضات في مستشفى الأمراض القلبية - الذي بنته أمي بثروتها الخاصة وبالهبات الفردية، والذي يحمل اسمها - قد تجمعوا في باحة المستشفى للمطالبة بإبدال اسم المستشفى باسم علي شريعتي...».

ثم دقَّ الشاه صدره بقوة وقال ساخطاً

«مستشفى أمي! المستشفى الذي بنِته أمي! قل لي كيف تفسِّر ذلك».

أجبته بهدوء:

- مولاي، إن هذا التمرد يحركه الشعور بعدم الامتلاك، إنه تمرد شعب يشعر أنه لا يملك شيئاً، حتى وإن كانت أمك قد بنت من أجله مستشفى حديثاً ومتطوراً. صحيح أن الشعب هو المستفيد منه، لكنه يشعر في الوقت نفسه بالإحباط لرؤية ختم عائلتك في كل مكان. الآن وقد توافرت للشعب إمكانية التحرك، يريد أن يطلق على المستشفى اسم يحد المنتمين إليه. يريد أن يُثبت للآخرين وأن يثبت لنفسه بأنه موجود. إنها مطالبة باستعادة الهوية. لكن هذا الشيء يا صاحب الجلالة ليس، في آخر الأمر، بالخطورة التي تتصورها. ربما سيكون كافياً أن تقول أمك ببساطة: «لقد بنيت هذا المستشفى من أجلكم. إذا كنتم ترغبون في اعطائه اسماً من اختياركم،

فافعلوا ذلك بطيبة خاطر». الناس البسطاء هم أيضاً بحاجة، يا صاحب الجلالـة لأن يكونوا معترفاً بهم...».

هذا التغيير المفاجىء لاسم المستشفى «الأمومي»، سبَّب جرحاً عميقاً للشاه. وحين كنت أقول له أشياء تهدّىء من روعـه قليلاً، كنت أتحقق تمـاماً من أن الانفصـال بينه وبين الشعب قد تمَّ إلى الأبـد. فانتفـاضة مـوظفي المستشفى الذين انتقتهم ووظفتهم أمانة سر والدة الملك لا يمكن أن تُنسب لأي حزب سياسي أو لأية مؤامرة عالميـة. كان هذا يعني ببساطة أن السوسة قد بلغت لب الثمـرة، وأن البلاد بـأكملها تـدير ظهـرها للعـائلة المالكـة، وأن كل الصـلات أصبحت مقطوعـة بشكـل لا رجـوع عنـه. لكن الشاه؛ لكي يبرهن عن شجاعة وتفاؤل متزن، تابع بلهجة محايدة غير مقنعة:

- «فلنرَ ما بإمكان شهبـور بختيار أن يفعـل. آملٍ أن يتمكن من إرجـاع الحيويـة لاقتصادنا المشلول بأسرع وقت ممكن.

- إن مهمته صعبة للغاية، يـا صاحب الجـلالة. غـالبية النـاس الذين استـدعاهم رفضوا المشاركة في حكومته.

- ذلك لأن هؤلاء الناس لا يتطلعون اليـوم إلاّ ناحيـة الشارع. هـاك البرلمـانيين: إنهم أول من يصبون الزيت على النار!

- يريدون أن يُعاد انتخابهم مرة ثانية يا صاحب الجلالة.

- يعيشون في الأوهام. رجال الدين لن يتركوا لهم أي مكان.

- التاريخ سوف يحكم في هذا الأمر.

- أنت عـلى حق تمامـاً. التاريـخ ستكون لـه الكلمة الأخـيرة. أليس التـاريـخ في الزاوية ملجأنا الوحيد؟».

على هذه الكلمات، غادرت المكتب.

تأشيرة مرور إلى مصر
(الحديث الثامن والأخير مع الشاه)

الأحد ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩

كان موعدي مع الشـاه قد حُـدّد في الساعـة العاشرة والنصف، وصلت إلى القصر كالمعتاد قبل نصف ساعة. التقيت في غرفة الانتظار ببعض الجنرالات وقد بـدا عليهم انشغالهم بإعلان سفر الشاه إلى الخارج. قال لي البعض:

- «حين تقابل الشاه يجب أن تقنعه بعدم الرحيل».

إلاّ أنني أحسست أن الأوان قد فات تماماً: الرحيل أو البقاء لن يغيّرا شيئاً في مصير رجل لم يعد في مقـدوره، بسبب طبعه وحـالته الصحيـة (التي لم نكن نعرف خـطورتها بعد)، مواجهة العاصفة العاتية التي تجتاح بلاده.

أثنـاء انتظاري في مكتب الحـاجب، لاحـظت، من خـلال المخـابـرات الهـاتفيـة، الضغط الذي كانت تمارسه حاشية الشـاه لإقناعـه بالـرحيل عـلى متن إحدى طـائرات الشحن التي كانت تنقل حاجيات عـائلته إلى الـولايات المتحـدة. كما فهمت أن أفـراد الحـاشية الـذين يعتبرون من أصحـاب الامتياز، قـد حصلوا من جـلالتـه عـلى الإذن بمغادرة البلاد. يجدر التنويه في هذا الخصوص أن الشاه كان يحاول قدر الإمكان إعطاء الانطباع بأن سفره ليس الرحيل العظيم. بحيث أن موعد السفر وتـاريخه بقيـا سريين حتى المساء.

عند تمام العاشرة والنصف، أدخلني الحاجب إلى مكتب الشـاه. دخلت وأنا أنحني

باحترام. جاء الشاه لموافاتي واسع الابتسامة، ثم دعاني إلى الجلوس طارحاً السؤال المعتاد:

- «هل من جديد؟

- الخبر الأكثر أهمية هو اعلان سفرك يا صاحب الجلالة.

قال لي بنبرة محايدة، محاولاً إخفاء مشاعره:

«أنوي، في الواقع، الرحيل لبعض الوقت من أجل اخلاء الساحة لحكومة بختيار وإفساح المجال أمامها لإيجاد حل للأزمة.

- هل حددت جلالتك الوجهة؟

- قررت الذهاب إلى الولايات المتحدة.

- قرارك بالذهاب لقضاء عطلة في الخارج أعلنته واشنطن للمرة الأولى منذ يومين عبر وزير الخارجية الأميركي سايروس ڤانس الذي وصفه «بالحكيم». لكن الأوساط الوطنية كانت ستفضل أن يعلن عن القرار في طهران. فضلاً عن ذلك، ألا تخشى يا صاحب الجلالة أن اختيار الولايات المتحدة، في ظل الهيجان المعادي لأميركا السائد في البلاد، يذكي نار العداء الذي كنت هدفاً له؟».

فضّل الشاه عدم الردّ على ملاحظتي الأولى، وفهمت من الطريقة التي كان يشبك بها ساقيه ويباعدهما، أنه كان راغباً دون شك في أن يكون الأميركيون هم الذين أعلنوا سفره، لكي يشعروا بمسؤوليتهم عن كل ما يحدث له.

أما بالنسبة لملاحظتي الثانية، فردُّه كان التالي:

«زيارتنا أولاً هي زيارة خاصة. وسوف ننزل عند أحد أصدقائنا[1]. ثم إننا، إذا كنا قد اخترنا الولايات المتحدة، فهذا لأن سلامتنا لن تكون مضمونة إلاّ هناك.

- ولكن، يا صاحب الجلالة، كل بلد يستعد لاستقبالك سوف يضمن بالضرورة سلامتك.

- أيّ بلد تقترح؟

- بلد اسلامي في الشرق الأوسط.

- في هذه الحالة، لن يلزم الثوريون الهدوء وسنسبّب المشاكل للذين

سيستضيفوننا. في أميركا، الأشياء مختلفة. فنظام الأمن معدّ بطريقة تؤمن سلامتنا الشخصية. على كل حال، تلقينا دعوة من بلد صديق في الشرق الأوسط[٦]، سنرى ما يمكن فعله».

تجدر الإشارة هنا إلى أن الشاه، حين أخبره السفير الأميركي في طهران وليام سوليفان أن الرئيس السادات يدعوه إلى مصر لبضعة أيام، بدا متردداً في القبول لشدّة ما كان مستعجلاً في الذهاب إلى الولايات المتحدة. (عند وصوله إلى مصر، أدرك الشاه أن الأميركيين بدوا أقل تحمساً لتوجيه الدعوة إليه من جديد).

أسلان أشرف، رئيس البروتوكول الامبراطوري، الذي لم يترك الشاه خلال الأشهر الأخيرة، والذي رافقه لاحقاً في سفره إلى مصر وإلى المغرب، أسرَّ لي بأن الشاه قال له لمرات عديدة إنه كان يرغب في الذهاب إلى الولايات المتحدة «ليشرح لأعضاء المجلس الوطني للأمن وللجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس، الأخطار التي تهدّد إيران والمنطقة، لأن لا السفارة الأميركية في طهران ولا السفارة الإيرانية في واشنطن نقلت بدقة الواقع الايراني للأميركيين».

في الواقع، كان الشاه يعتقد أن الأميركيين ينظرون إلى الواقع الإيراني بمعزل عنه. لم يكن يدرك أنه هو نفسه كان يشكل منذ عشرين سنة المرجع الرئيسي للسياسة الأميركية في المنطقة. أحد المتخصصين الأميركيين في العلوم السياسية، الذي يعرف إيران جيداً، نشر مؤخراً كتاباً عن الشاه وعلاقته بالأميركيين، يظهر فيه أن أميركا لا تستطيع أن تفهم إيران إلاّ عبر الشاه محمد رضا.

في كتابه، يدافع مارفن زونينس تحديداً عن فكرة رئيسية يمكن أن تلخص بما يلي: إن تدخل الولايات المتحدة في الحياة الإيرانية تجلّى في المراحل المختلفة لنظام الشاه وفي ثورة الشعب الإيراني الذي كان ينبذ بشكل قاطع هذا النظام. الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية كل ما جرى في إيران لأنها كانت على صلة حميمة بعائلة بهلوي. لو أنها تصرفت بشكل مختلف عند كل مرحلة من مراحل حكم الشاه، لكان مصير هذا الأخير مختلفاً. لقد ساهمت الولايات المتحدة بشكل حاسم، ربما، في جعل الشاه الرجل المستبد الذي صار إليه. شجعت الولايات المتحدة أحلامه بالعظمة وصنعت القوة الاقتصادية والعسكرية لنظامه. هذا ما فعلته أيضاً على الصعيد النفسي حين سمحت للشاه باستخدام أميركا ورؤسائها وكأنهم ممتلكاته الخاصة. كما وشجعته على

استخدامهم حين أراد أن يعطي البريق لسلطته والمثالية والطابع التوحيدي الذي كان بحاجة ماسة إليه من أجل الحفاظ على دوره كملك. . .

على كل حال، سواء كان الأمر متعلقاً بأسباب أمنية (كما قال لي) أو لكي يستطيع «التفاهم مع الأميركيين» (كما أكّد لرئيس البروتوكول) أو لأسباب صحية (كما ستكون الحال بعد بضعة أشهر خلال منفاه في البهاماس أو في المكسيك) أو، كما يتهمه ثوريّو طهران، من أجل امتلاك المال الذي وضعه في أميركا، فإن الشاه كان يسعى يائساً وعبر كل الوسائل للوصول إلى الولايات المتحدة. إن اسباغ الكمال المثالي على الولايات المتحدة والتعلّق العضوي الذي يربطه بهذه القوة الجبارة لم يتوقفا حتى مماته، وهما يفسّران المأساة الشخصية[3] والسياسية التي تمثّلت باحتلال السفارة الأميركية في طهران عام ١٩٧٩ إثر موافقة الولايات المتحدة على استقباله[4]. مع أن الإدارة الأميركية في واشنطن وحكومة بزركان في طهران بعد الثورة قد فعلتا كل ما وسعهما لتحاشي هذا الانفجار الذي جعلته اقامة الامبراطور في الولايات المتحدة، متوقعاً. بسبب عناد الشاه هذا لم يستطع الطرفان منع الانفجار.

خلال لقائي مع الشاه في ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، وجدت نفسي أمام رجل كنت أحسه مسكوناً ـ لا بل مهووساً ـ بالولايات المتحدة، ومع أنه كان في أعماقه ينسب سقوطه إلى أميركا فإنه، وبالرغم من كل شيء، آثر اختيار هذا البلد حتى لحظة تخليه عن الحكم.

للتخفيف من الجو المتوتر، قلت له:

«خلال ستين عاماً، كلما وجدت ايران نفسها أمام وضع غامض، كان أبي يستشير دائماً شاعرنا الكبير حافظ[5]. هذا ما فعله الآن حين فكّر في الأزمة الحالية وفي مصيرك أنت بالذات.

سألني الشاه وقد بدت عليه الحيرة الشديدة:

ـ إذاً، ماذا قال حافظ؟

أجبته مازحاً:

«نظراً لعدم اهتمامك كثيراً بالشعر، يا صاحب الجلالة، من الأفضل أن أعطي القصيدة مباشرة إلى الشاهبانو، ولكني أستطيع أن ألخّص لك الفكرة الأساسية: في

مواجهة المحنة من الحكمة أن تلزم مسافة من الأمور. فبعد تلاشي الضجيج واضطرابات هذا العالم، لن يتبقى منا في النهاية إلّا الخير الذي فعلناه في هذه الدنيا»[6].

بدا الشاه راضياً ومرتاحاً. ثم هزَّ رأسه مرتين قائلاً:

- «هذا جيّد! هذا مشجّع...

- صاحب الجلالة، سأغادر الآن وأتمنى لك سفراً ميموناً.

- حسناً! إلى اللقاء، إلى اللقاء... آمل أننا سنلتقي من جديد.

- آمل هذا أنا أيضاً، يا صاحب الجلالة».

نهضتُ لاستئذان الشاه بالانصراف. خلافاً لعادته، رافقني حتى باب مكتبه. حين شدّ على يدي، أحسست بأنه أبقاها في يده أكثر من المعتاد. شخص بنظره إليَّ كما لم يفعل من قبل. لمعت عيناه فجأة ببريق الانفعال الحاد. أعتقد أني قرأت في هذه النظرة إحساساً جلياً بالعرفان، ممزوجاً مع ذلك بالندم والحسرة. كأنه كان يريد أن يقول لي: «لماذا لم تأتِ قبل الآن؟ لماذا لم تأتِ حين كنت في أمس الحاجة لمن يجعلني مدركاً للحقائق؟».

فما كان مني إلّا أن أجبته في، نفسي، مثل الكثيرين: «لأنك فضّلت طويلاً يا صاحب الجلالة الاستماع لهؤلاء الذين كانوا يخفون عنك الحقائق».

لم يتسنَّ لي أن أرى محمد رضا بهلوي مرة ثانية، آخر شاه لإيران. بعد يومين غادر وفرح في «رحلة رسمية» إلى أسوان في صعيد مصر. هناك في وادي النيل، عاد ليموت في عام ١٩٨٠، حيث دُفن بعد محن صعبة الاحتمال على ضفتي الأطلسي.

القسم الثاني

في سجون الثورة...

شباب كما في فينسان
(الاعتقال الأول)

نيسان (ابريل) ١٩٧٩

أوقفت للمرة الأولى في بداية نيسان (ابريل) ١٩٧٩. احتجازي في المكاتب السابقة للسافاك لم يدم سوى أربعة أيام، لأن المرحوم موتاهاري[1] تدخّل بفعالية لدى اللجنة[2] لكي لا يتم الاحتفاظ بي طويلاً دون سبب. كان استجوابي قصيراً ولكن مركزاً. الذين استجوبوني كانوا شباناً يساريين مع بعض الميول الإسلامية. وكانوا يكنون احتراماً كبيراً للمنظر علي شريعتي الذي كان مصاباً مع ذلك بانفصام ستاليني بامتياز. كانت أسئلتهم تذكّرني بالأسئلة التي كان يطرحها عليَّ تلامذتي اليساريين حين درّست علم الاجتماع في جامعة فانسن في بداية السبعينات. في نظرهم، كان كل ما يجري في العالم مقصوداً ومخططاً له من قبل الامبريالية الأميركية وبشكل أدق من الـ سي. أي. إيه. كل أوروبا الغربية وكل المنظمات العالمية، بما فيها الأونيسكو ـ التي عملت فيها طيلة ست سنوات من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٥ ـ كانت كلها خاضعة لأوامر الولايات المتحدة. هكذا، لم تكن إيران موجودة إلاّ من خلال الأميركيين ورأسها المفكر لا يمكن أن يكون إلاّ السافاك. حين لم يستطع مستجوبيّ كشف أي أثر للسافاك، كانوا يبنون فرضيات أكثر تعقيداً تتهم الـ سي. أي. إيه بشكل مباشر.

طرحوا عليَّ أسئلة عن معهد الدراسات والأبحاث الاجتماعية الذي أسسته في جامعة طهران عام ١٩٥٨. يرجع إلى هذا المعهد الفضل في اعداد قسم كبير من الباحثين المستقلين عن النظام، وفي تحقيق دراسات كثيرة جداً، اجتماعية ـ اقتصادية تتناول مختلف جوانب المجتمع الإيراني.

بما أن هذه الدراسات لم تكن تسير في الخط السياسي للنظام الإيراني، فإن المحققين في سجلّي خلصوا إلى الاستنتاج بأن المعهد تدعمه قوة خفية لا يمكن أن تكون إلّا الـ سي. أي. إيه. لكن، بما أن بني صدر كان أحد الباحثين الأوائل في المعهد ـ وهذا كان موضع فخره الدائم ـ صعب عليه اعتبار منظمتي انبثاقاً عن الـ سي. أي. إيه. في بداية الثورة، كان الرئيس بني صدر يعتبر أحد المستشارين المقرّبين من الإمام الخميني، وكانوا يمتنعون عن مهاجمته مباشرة. تجدر الإشارة في هذا الخصوص إلى أن كل المنظمات اليسارية المتطرفة، خلال السنة الأولى من الثورة (١٩٧٩)، كانت قد انضوت تحت لواء الإمام الخميني من أجل الإطاحة بحكومة بزركان ومؤسسات الجمهورية الاسلامية حديثة العهد، باستثناء المحكمة الثورية. لهذا السبب، كان القضاة المحققين، إبان اعتقالي الأول، يراعون الإمام ومحيطه.

عوملت معاملة خاصة لأن موتاهاري كان يؤكد علناً على نزاهتي الفكرية والسياسية في ظل النظام السابق. أُطلق سراحي بعد أكثر من خمس عشرة ساعة، استجواب أظهر فيه القضاة جهلاً شبه مطلق بكل المشاكل الوطنية والعالمية... متخلّين شيئاً فشيئاً عن عجرفتهم الأولية. أشعروني في النهاية أنهم يعتبرون أجوبتي قاعدة لاكتسابهم تربية سياسية.

فهمت بفضل الكبير بينهم، أنه بالرغم من موقفي الفكري المعروف، لم يثبت لهم تفحص وثائق السافاك أي تورط من جهتي مع عائلة بهلوي. لهذا، أعدت إلى بيتي بكياسة بعد ظهر اليوم الرابع لاستجوابي.

حين كنت أودّع قاضي التحقيق الذي أوصلني في سيارته حتى باب بيتي، طلب مني بحياء كبير أن أعطيه نسخة عن الكتب التي نشرتها خلال السنوات الأخيرة من حكم الشاه، وقد سمع بها حين كان في السجن أيام نظام الملك المخلوع. أحد أبنائي أتى له بالكتب. فرجاني أن أكتب له اهداء في مقدمتها ولكن ليس باسمه بل باسم مستعار «علوي»... قبل أن يغادر، أعطاني رقم هاتفه المباشر وقال لي ألّا أتردد في الاتصال به إذا واجهت ظروفاً صعبة. هذا الشخص هو نفسه اتصل بزوجتي يوم توقيفي ليعلمها بكثير من الاحترام أنهم يحتفظون بي عندهم كضيف وأنني أدير ندوة سياسية، وسيرجعني في أقرب وقت ممكن إلى البيت...

كل هذا لأوضح الإطار الذي جرى فيه اعتقالي الأول الذي يبدو أن دافعه كان

الحاجة إلى جمع معلومات من رجل يُقال عنه «إنه معتاد على تناول كل الأمور بصراحة».

في اليوم التالي، نشرت اطلاعات، الصحيفة الطهرانية المسائية الواسعة الانتشار صورتي في الصفحة الأولى إلى جانب صورة وزير العدل في الحكومة الامبراطورية السابقة هويدا، مصحوبة بعنوان مكتوب بأحرف كبيرة: «منظِّر عائلة بهلوي والوزير السابق للعدل جرى توقيفهما». اتصلت على الفور بقاضي التحقيق لأسأله عن معنى هذا كله.

أجابني قائلاً: «لقد فعلنا المستحيل لكي لا يُنشر خبر توقيفك، لهذا السبب، على كل حال، أخرجناك من باب خلفيّ حين علمنا أن الصحافي الذي كان يحاول بأي ثمن مقابلتك، كان على أهبة الوصول إلى اللجنة. وإذا كنا قد استعجلنا في الانتهاء من استجوابك، فهذا لنجنّبك لقاءه. على أية حال، يجدر بك الاتصال حالاً بالجريدة لتبلغها بأنك في بيتك من غير الاشارة إلى اعتقالك».

من جهة أخرى، اعترف لي بهذه المناسبة أنه لم يتلق الأمر باعتقالي. عندها، لم أكن أفهم الدافع لاستجوابي ولا كيف أفسِّر وجود صحافي في لجنة لا يمكن الوصول إليها دون تملّقها مرات عديدة.

رئيس تحرير جريدة **اطلاعات** أسرَّ لي انه كان عاجزاً تماماً أمام المحررين الثوريين الجدد الذين حلّوا في الجريدة، وقال لي:

«لسوء الحظ، أنا عاجز عن تصحيح أي خبر كان. الصحافي الذي تابع استجوابك استطاع أن يحصل على أشرطة التسجيل الاثني عشر التي يصفها بأنها هامة جداً، بحيث يمكنها الكشف عن نقاط عدّة متعلقة بالمؤسسات وبرجال سياسيين من جهات مختلفة. إنه منصرف الآن إلى تفريغها لنشرها في مجموعة مقالات سيكون لها تأثير كبير، بحسب رأيه».

فما كان مني إلاّ أن أحتج بشكل صارخ مبيّناً أني أدليت بشهاداتي أمام أحد الأجهزة القضائية لدولة ثورية من أجل إعطاء التفسيرات التي طُلبت مني. لكن لم يكن في نيتي التوجه إلى الشعب. لم يردّوا على احتجاجي، وكان رئيس التحرير نفسه مرتعباً ويخشى أن يعزل من وظيفته.

بما أنني كنت على معرفة جيدة بوزير الإعلام في حكومة بزركان (السيد ميناتشي) أخبرته حادثة اطلاعات ورجوته أن يتدخل.

أجابني بدوره قائلاً: «مع أن الجريدة باتت تخضع لسلطتي، إلّا أنني عاجز عن فعل شيء. كل ما يمكنني فعله من أجلك هو استدعاء النائب العام لطهران إلى وزارة العدل[٣] وإعداد محضر ضد الصحافي».

قررت أن أدع الأمر يمر.

إلّا أني بقيت لبضعة أيام قلقاً جداً، ثم تلقيت اتصالاً ذات مساء عند منتصف الليل من شخص لم يُرد الكشف عن اسمه، وهمس لي بصوت منخفض:

«اعمل في الجريدة وأخصك باحترام كبير، علمنا، بمساعدة بعض الأصدقاء، أن صعلوكاً تظاهر بأنه صحافي ثوري، نجح عبر وسائل لا نعرفها، في الحصول على نسخة من أشرطة التسجيل التي تحوي شهاداتك أمام اللجنة، آملاً أن يجعل منها سبقاً صحفياً، ضارباً بعرض الحائط كل أخلاقية صحافية. نظراً للفوضى القائمة الآن، لا أحد يملك السلطة ولا الوسائل الضرورية لمنعه من ذلك. من هنا، قررنا اخفاء هذه الأشرطة وإتلافها. وهذا ما نفعله الآن نم مطمئناً وليلة سعيدة».

ثم، أقفل السمّاعة.

كان عليَّ أن أكتشف لاحقاً أثناء الاعتقالين الآخرين، أنه لم يظهر في سجلي أي أثر للساعات الخمس عشرة لاستجوابي، وهذا عائد في نظر قضاة المحكمة الثورية في اڤين إلى أن محققيَّ الأوائل كانوا يساريين متطرفين وقد أبعدوا عند نهاية السنة الأولى للثورة في ١٩٧٩، وحملوا معهم أشرطة استجواباتي.

مفاجآت المستشفى الخاص بالسجن
(الاعتقال الثاني)

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ - نيسان (ابريل) ١٩٨٠

بالرغم من كل الملابسات التي أحاطت باستجوابي الأول، كنت مطمئناً تقريباً إلى أن الحكم الثوري مطّلع على الأقل على المواقف التي اتخذتها في عهد الشاه. يجب القول، وبشهادة متهميَّ، أنني كنت في وضع خاص جداً. وهذا الوضع، إذا لم يكن يبعث على الشك فهو على الأقل يدعو إلى الالتباس. كنت قد فضحت، في الواقع، عبر كتبي ومقابلاتي الإعلامية، «التطورية المثاقفة» والتغرّب الجامح للنظام، بعنف أشد مما فضحته المعارضة الماركسية أو الإسلامية. إذا كنت قد انتقدت النموذج الليبرالي على الطريقة الأميركية، فإنني كنت قاسياً جداً في انتقادي للنموذج الشيوعي. كان المفكرون الماركسيون بالنتيجة يجدونني مزعجاً والإسلاميون يأخذون عليّ، مع أنهم كانوا يجنون بعض الفائدة من تحليلاتي، توجهي الاصطلاحي وعدم مشاطرتي لراديكاليتهم. هذا هو السبب الذي كان يجعل إلصاق أي تهمة بي أمراً مستحيلاً، والذي كان يجعلني أيضاً في الأوقات «الساخنة» أصلح تماماً ككبش محرقة لكلا الفريقين.

نظراً للحساسية المفرطة التي كان يظهرها الثوريون حيال المفكرين، كتبت لبزركان أعلمه عن نيتي في نشر أحاديثي مع الشاه التي من شأنها الكشف عن جوانب مظلمة في النظام المخلوع. أوضحت في رسالتي أنه ليس في نيتي مغادرة إيران وأن زوجتي وولديَّ الأصغر سناً سيبقون في طهران. كنت أريد فقط الذهاب لقضاء بضعة أشهر في باريس لرؤية ابني البكر الذي يتابع دراسته في المعهد العالي للتجارة. كلّف بزركاز

صديقه الحميم الأستاذ يد الله سحابي وزير الدولة، بأن يتابع إجراءات تجديد جواز سفري، فاتصل بي عدة مرات ليؤكد لي أن الأوراق اللازمة قد منحت ولكنه لم يكن يفهم لماذا يتأخرون في تسليمي الجواز. كان ينسب هذا التأخير إلى المسؤولين عن مكتب قريب من مكتبه، ويشغله مساعد أمين سر الوزارة[1] من مستوى أدنى من مستواه، ولكن لم يكن يبدو أنه يشاطره الثقة التي كان هو نفسه يمنحني إياها.

استغرقت الإجراءات بضعة أشهر، حتى بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩، أي حين كان الطلاب يحتلون السفارة الأميركية في طهران متخذين السياسيين كرهائن. بعد استقالة حكومة بزركان، أصبح بني صدر مسؤولاً عن عدة وزارات وتحديداً وزارة الخارجية. بما أنه كان مقرّباً من الإمام وعضواً نافذاً في المجلس الثوري، استطاع أن يكفلني وحصلت على جواز سفري، لكن بعد موافقة المحكمة الثورية. إلّا أنه بقي مع ذلك إذن أخير يجب الحصول عليه من ديوان رئيس الوزراء، فتدخّل بني صدر من جديد. بعد أن وُضع الختم، أبلغني الديوان عبر الهاتف رقم اللائحة وأكّد لي أني أستطيع السفر في اليوم التالي إلى باريس على متن الخطوط الجوية الفرنسية. ذهبت إذاً إلى المطار في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ واستودعت حقائبي التي توجد فيها ملاحظاتي المتعلقة بالشاه، وفيما كنت أخضع للتفتيش تقدم مني شاب وطلب جواز سفري، يجب الاعتراف بأن الشرطي لم يكن موافقاً على هذا التدخل المفاجىء، لأنه قال لي:

- «سيد نراغي، أعيد إليك جواز سفرك الذي هو مستوفٍ لكافة الشروط. هذا السيد يتدخل في ما لا يعنيه».

بدا أن «هذا السيد» يريد احتجازي لبضع ساعات فقط كي «يطلب مني تفسيرات». قادني إلى مكتب ممثل المحكمة الثورية في طهران. وسرعان ما فهمت أنهم يريدون اعتقالي. وأعتقد أن الشخص الذي اتصل من ديوان رئيس الوزراء وأعلمني أنه في استطاعتي السفر، كان هو نفسه الشخص الذي اتّصل بمكتب المحكمة الثورية ليبلغهم موعد رحيلي. من الواضح أن كل هؤلاء الناس كانوا ينفذون أمراً صادراً من «مكان ما».

أما أنا فبالكاد استطعت أن أتوسّل إلى بعض الأشخاص الذين كانوا يسافرون على متن الطائرة نفسها ليبلغوا ابني في باريس أن يذهب ليستلم حقائبي من مطار أورلي. كنت في أعماقي مسروراً لأن مخطوطة كتابي عن أحاديثي مع الشاه، والتي كانت هي

سبب اعتقالي على ما أظن، موجودة ضمن الحقائب. ثم اتخذت مكاني في سيارة فولسفاغن يوجد فيها ثلاثة فتيان مدنيين اقتادوني إلى سجن اڤين في أعالي العاصمة.

مع أني كنت منزعجاً من هذا الحادث الطارىء، إلا أنني قلت في نفسي إن بضع ساعات استجواب مع قاضٍ مهتم لن يعرقل خطة سفري، كانت شيئاً محتملاً جداً وهي مجرد تكملة للشهادات التي أدليت بها من قبل أمام اللجنة الثورية. كنت إذاً مسترخي الأعصاب، وأثناء الطريق بدأت أدندن وأصفّر بهدوء، أمام تعجّب رفاق طريقي لا بل استمتاعهم.

بعد نصف ساعة، وصلنا أمام بوابة اڤين المهيبة. فُتح الباب على مصراعيه مفضياً إلى مدخل ثانٍ، واتجهت السيارة نحو مبنى يحمل الرقم ٩، كما عرفت لاحقاً.

كان المدراء وغالبية قضاة الاستجواب قد اختيروا، في بداية الثورة، من بين سجناء الشاه، وهم يمارسون أساليب الساڤاك نفسها في الاستجوابات وإدارة السجون. في الواقع، حين كان الساڤاك يعتقل في السبعينات مناضلي حرب العصابات، كان هدفه الرئيسي يقوم على حملهم على «فضح» أصدقائهم وكشف مخابىء الأسلحة ومخططات الاغتيالات والاعتداءات. ومن أجل انتزاع الإقرار منهم كان الساڤاك يستخدم طرقاً مختلفة، من بينها التعذيب الجسدي. ولتحطيم معنويات السجناء كانوا يُرمون في الزنزانات الانفرادية المظلمة، حيث لا يلتقون إلا مستجوبي الساڤاك. ثم حين «يتكلمون» تباعاً، يجري نقلهم إلى الأقسام المشتركة حيث الزنزانات أقل إزعاجاً والمعاملة أقل قساوة. كان أسياد اڤين الجدد، السجناء القدامى، يمارسون تقريباً الطقوس نفسها مع المعتقلين الجدد، باستثناء التعذيب[٢]. وهناك فرق ملحوظ آخر: كان الوزراء القدامى وأعضاء مجلس الشيوخ وجنرالات الامبراطورية، مستعدين «للكلام»، لكي لا يبقوا دقيقة اضافية واحدة في السجن. وكانوا يُقدمون على هذا الأمر دون خشية كبيرة، لأنه، بسبب رحيل الشاه، أمست حظوظهم قليلة في أن يروا اعترافاتهم تنقلب عليهم ذات يوم.

دخلنا إذاً إلى المبنى رقم ٩ حيث أعلن الحارس للفتيان الذين اصطحبوني أنه يجب، «حسب الأوامر» اقتيادي إلى القسم الطبي. فهمت حينئذ أن توقيفي أثار، لا بد، نزاعاً لدى السلطات العليا وأنهم كانوا يضعونني بوجه الاحتمال في القسم الطبي لكي يقلّلوا من خطورة اعتقالي. خصوصاً وأنهم أعطوني غرفة في العيادة فيها مغسلة، وهذا لم يكن متاحاً في أي مكان من اڤين. كل الأحاديث المشبوهة التي سمعتها

أفهمتني أيضاً أنه، برغم الوعود التي قطعها لي حرّاس الثورة في المطار، وخلافاً لما اعتقدته أنا نفسي في البداية، سوف أبقى أكثر من ساعتين في إفين مفوّتاً طائرتي ورحلات الأيام المقبلة. كانت العيادة تحتوي على ست غرف تطل على رواق يستخدم كممشى للنزهة حيث يستطيع المرضى والمرضى المزيفون أن يزرعوه جيئة وذهاباً. كما أن ساعة العشاء (حوالى الساعة السابعة) كانت قد ولّت، أعدّ لي الحارس في القسم عجّةً، ومن ثم استلقيت على السرير. الليلة الأولى التي نقضيها عادة في السجن، لا يغمض لنا جفن، لأننا نجد أنفسنا مرميين فجأة في عالم مجهول دون أن نعرف إطلاقاً ماذا سيحصل لنا، وحيث نغرق في الريبة الكاملة. من جديد، وقعت في التجربة.

في صباح اليوم التالي، جاء أحد حرّاس الثورة شاب خدوم للغاية وحمل إليّ إفطاراً مؤلفاً من خبز وجبنة وشاي. بعد لحظات قليلة، فُتح باب غرفتي ودخل إليها رجلان: أحدهما قصير سمين وذو لحية رمادية، والثاني شاب ملتح صامت ترتسم فوق شفتيه ابتسامة مريرة. كان الرجل الثاني ينظر إليّ بعطف وفي الوقت نفسه كان يحرص على ألّا يظهر ذلك أمام حرّاس الثورة. عندها تعرّفت إلى وزير الصحة السابق في حكومة هويدا، الذي أُبدل حكم الإعدام بحقه إلى السجن المؤبّد شرط أن يخدم كطبيب سجون، أفهمني بسرعة أنه يجب ألّا أظهر ودوداً معه أثناء وجود الحرس الثوري، وأن زيارة غرفتي تدخل ضمن نطاق جولته اليومية. خلال الأيام القليلة ـ التي تقارب العشرين والتي أمضيتها في العيادة ـ سنحت لي الفرصة لأتحدث معه بحرية لمرات عدة. في المرة الأولى، أسرَّ لي أنه خلال عمله الجديد في افين، لم يسبق له في ما عداي، أن صادف سجيناً يأتي مباشرة إلى المستشفى. وهذا يعني في نظره أن لا مآخذ كبيرة عليَّ ولا يُفترض بي أن أقلق.

في اليوم الأول لاعتقالي، أردت إقناع نفسي بأن المسؤول في المطار الذي بعثني إلى إفين كان صادقاً حين أكّد لي أنهم يريدون فقط طرح بعض الأسئلة عليَّ وأن هذا لن «يستغرق أكثر من ساعتين». كنت أتوقع في كل لحظة استدعائي إلى القاضي. عند نهاية بعض الظهر، فهمت أني عللت النفس بأمل كاذب وأنه من الأفضل لي الرضوخ لحكم الواقع وتحمُّل ألمي بصبر ـ وهذا حفظني من القلق والإحباط معاً.

واقع الحال هو أن استجواباً سريعاً يحدث حين تتوافر عناصر اتهام جدية ضد الموقوف، وأنه في حالة العكس، لا يعود للوقت من قيمة. حين يوقف معتقل لمدة طويلة من دون استجواب ـ ستة أشهر أو سنة مثلاً ـ فهذا لأن قضاته لا يملكون أدلّة

كافية ضده. فيحتفظون به منتظرين أن يظهر اثبات ما.

تبينَّ لي أيضاً أن مدة الاحتجاز التي تسبق التحقيق قد تكون في النهاية لصالح المعتقل. وهكذا حين كان السجناء يشتكون من طول احتجازهم، كنت أعزّيهم قائلاً: «كلما طال احتجازكم هنا، كلما أمكنكم الخروج بسهولة. ذات يوم، ومن دون أن تقاضوا، سيُقال لكم: «أنتم أحرار السبيل».

يبقى أنني مكثت عشرين يوماً دون استجواب وأن الوقت بدا لي طويلاً. فقط في اليوم الرابع لاعتقالي استدعيت إلى مكتب مدير المستشفى، حيث كان يوجد أحد معاوني بني صدر في وزارة المالية والشؤون الاقتصادية. عرفته على الفور لأن رئيسه، حين أصبح مسؤولاً عن العلاقات الخارجية والاقتصاد، أرسله إليّ. أعلمته آنذاك أن عدداً هاماً من الاتفاقات التي عقدها النظام الامبراطوري مع شركات صناعية أوروبية وأميركية ويابانية، والتي كانت تُقدَّر بعشرات مليارات الفرنكات، لم تحترم ـ وهذا كان يشكل أمراً خطيراً، لا سيما أن الشاه، منذ ارتفاع أسعار البترول في عام ١٩٧٣، اتبع سياسة الدفع مسبقاً. إذا كان بني صدر قد أرسل إليّ معاونه عدة مرات، فهذا لاعتقاده أنني أستطيع مدّه بمعلومات موثوقة[٣]. ليس لأن المعلومات التي يمكن إيجادها في سجلات الوزارات مليئة فقط بالبنود المضمرة، بل لأن الناس الذين كان بإمكانهم إعطاء معلومات كاملة تركوا البلاد قبل الثورة أو طردهم الثوريون دون تمييز.

حين اقتربت، بحضور الحرس الثوري، من معاون بني صدر بودّ كلي، اتخذ هيئة باردة جداً إلى حد أني لم أفهم السبب في بادىء الأمر. ثم قال لي بلهجة رسمية جداً: «رأيت لتوّي المدعي العام للمحكمة الثورية، وقال لي إنك كنت تنوي السفر دون أوراق كاملة؟».

لم أكن أفهم موقفه خصوصاً وأنه كان على علم تماماً باستعدادات سفري. أبرزت عندئذ جواز سفري بغية اقناعه بالسبب غير المفهوم لاحتجازي. في هذه اللحظة، خرج الحرس الثوري من المكتب وبقينا لوحدنا بضع لحظات. اغتنم الفرصة ليهمس لي قائلاً: «ماذا فعلوا بمخطوطتك في المطار؟».

هدّأت من روعه مبيّناً له أنها كانت موجودة في حقائبي التي غادرت إلى باريس في عنبر الطائرة... أطلق عندئذ تنهيدة ارتياح. حين رجع الحرس الثوري إلى المكتب، استعاد فوراً هيئته الجافة وقال لي: «حسناً، سأكتب تقريراً بكل ذلك إلى بني صدر!

بطبيعة الحال، سيقوم السادة القضاة بما يلزم تجاهك إلى اللقاء!».

لم أستطع أن أفهم ما حدث إلا بعد وقت طويل. ابراهيم يزدي الوزير السابق للخارجية في حكومة بزركان[4] والذي لم يعد عضواً في الحكومة الجديدة، لكنه أبقى على صلات بالثوريين الإسلاميين. كان يخشى أن أنقل في كتابي الأحاديث التي قالها الشاه بخصوصه وأن أتكلم عند الاقتضاء عن علاقاته الحميمة بالأوساط الأميركية. الآن وقد صار العدو اللدود لبني صدر، ومرتاباً ربما من أن أكون قادراً على مساعدته على الصعيد الدولي في حل مسألة الرهائن الأميركيين[5]، عرفت أنه هو الذي كان السبب في احتجازي.

كان الوقت الذي أمضيته في المستشفى التابع للسجن مفيداً جداً لي لكي أفهم سير الأمور في اڤين. مدير السجن، محمد كتشوي (الذي اغتاله المجاهدون بعد سنة ونصف في عام ١٩٨١) كان يذهب كل مساء لرؤية الطبيب وزيارة السجناء المرضى القلائل. كان مناضلاً إسلامياً حارب الشاه وأمضى، قبل الثورة، بضع سنوات في اڤين. عمل في تجليد الكتب في بازار طهران. لم ينهِ سوى دروسه الابتدائية ولكنه بفضل مهنته وكفاحه النضالي، اهتمّ بالكتب والأدباء، وتالياً، بحالتي[6]. بعد قيامه بجولته المسائية، كان يأتي للدردشة معي واقفاً عند عتبة الباب. ذات يوم ألححت بالدخول والجلوس للحظة. لكنه رفض قائلاً: «هنا، الناس، كما تعرف، سيئو الطبع. إذا رآني رجال الحرس الثوري، وغالبيتهم من الناس البسطاء، جالساً أتحدث إليك، لن يفهموا السبب، لأنهم لا يميزون بين السجناء».

كان محمد كتشوي مدير سجن نزيهاً للغاية ومستعداً تماماً للاستماع إلى المعتقلين. خلال الأشهر الأربعة التي أمضيتها هذه المرة في اڤين، وحتى بعد اخلاء سبيلي، كان يتجاوب دائماً للتدخلات التي قمت بها لديه من أجل سجناء آخرين. هذا يفسّر أن رجال الدين في النظام القديم، بخلاف المجاهدين، لم يتنازعوا على السلطة السياسية مع قادة الجمهورية الاسلامية، وكانوا يكنون له احتراماً كبيراً. احتفظت بذكرى طيبة جداً عنه؛ وأتذكر خصوصاً، ليس من دون تأثر، ما فعله المنشد الديني جواد زابهي، الذي عرفته خلال فترة اعتقالي.

كان زابهي، أيام الشاه، يؤدي الأناشيد الدينية في حفلات الطبقة الراقية وعبر الاذاعة. وبما أن الأصوليين كانوا يعتبرونه خائناً وذا سلوك طائش، كان طبيعياً إذاً توقيفه منذ الأيام الأولى للثورة. بعد أشهر قليلة، حين خفّ التوتر، حكمت عليه

المحكمة الثورية بعقوبة السجن لثلاث سنوات. لكنه من ثمَّ أفاد من عفو أخفض هذه العقوبة إلى سنة. حين أزفت ساعة إطلاق سراحه وقف عند شباك سجن افين وفي يده الورقة التي تخوّله الخروج من السجن. عارض مدير السجن هذا الرحيل دون تقديم أي تفسير. عندها جاء المنشد زابهي يتوسّل إليّ التدخل لدى هذا الموظف الغريب الذي يرفض الخضوع لحكم المحكمة. فعلت ما طلب مني. عندها حدَّق بي مدير السجن وقال لي بلهجة حاسمة: «حين تطلب مني اطلاق سبيله، فإنك تدفع به في الحقيقة نحو الموت. أفهِمْهُ أنه هنا أكثر أماناً من الخارج. فليصبر قليلاً!». اقتنعت بأقواله وشرعت على الفور بإقناع صاحب الشأن بأن هناك أخطاراً تحدق به. فتصبَّر في الواقع. ثم صادف إطلاق سراحي بعد شهرين في نيسان (ابريل) ١٩٨٠. وبعد وقت قليل علمت أن جواد زابهي، لشدّة إصراره، نجح في الخروج من السجن. بعد أيام قليلة من خروجه، خطفته فرقة مغاوير إلى خارج المدينة حيث جرى اغتياله.

خلال إقامتي في عيادة افين، كان هناك محور اهتمام آخر بالنسبة لي وهو وجود الطبيب المسؤول عن السجن الذي تكلمت عنه آنفاً. كان مثل محمد كتشوي، يأتي لزيارتنا كل مساء بعد إنهاء جولته ويمدنا بأخبار عن الأقسام الأخرى. بفضل ديناميته وقدراته الملحوظة على التنظيم، اكتسب خلال وقت قصير ودّ المدعي العام والرؤساء الأخرين. كان الأطباء، في هذا الخصوص، يتمتعون، حتى خارج السجن، بوضع خاص نسبة إلى الكادرات العليا. كان الإسلاميون يقدّرونهم أكثر من الفئات المهنية الأخرى التي تلقت ثقافة غربية. عند وصولهم إلى السجن كانوا يعاملونهم معاملة خاصة حتى ولو كانت الجرائم التي ارتكبوها خطيرة جداً في نظر قادة الجمهورية الإسلامية. وهذا يفسّر دون شك أن قلة قليلة منهم فقط قد نُفِّذ بحقهما حكم الإعدام.

السجن عالم مُصغَّر

بعد أن أمضيت حوالي الثلاث سنوات في افين (هذا إذ جمعنا مدة الاعتقالين الأول والثاني)، أستطيع أن أقول بسخرية إن هذا السجن كان مقياساً لكل شيء في الجمهورية الإسلامية. كان منذ البداية النقطة التي تلتقي عندها كل المساومات والقوى الفاعلة في البلاد. لقد شكّل عالماً اجتماعياً مصغراً يعكس بأمانة حقائق الثورة. بسبب الدور الهام الذي كان يلعبه الأطباء والعيادة في وسط السجن، أتيحت لي فرص مميّزة لأستنتج، من خلال اعترافات جميع الأطباء، أن كبار القضاة

الاسلاميين، الذين يسببون الذعر للسجناء ويعتبرون محصنين ضد أي تأثير، ومتصلبين في ممارسة وظائفهم، كانوا في الحقيقة يظهرون دون حيلة مثلهم مثل سائر خلق الله حين تكون صحتهم أو صحة عائلاتهم على المحك. بمجرّد أنهم كذلك، رأينا أننا قد نستطيع ربما، عند اقتضاء الحال، استرضاءهم.

خلال الأسابيع الثلاثة الأولى لاعتقالي، كنت أمضي الوقت مع زميليَّ في الغرفة، وقد أخبراني أشياء كثيرة عن الأوساط التي ينتميان إليها. كان أحدهما عقيداً في الحرس الامبراطوري، وقد كشف لي، خلال أحاديثي معه، عن موقف ضباط النخبة حيال النظام والعائلة المالكة. وكان الثاني شاباً تنتمي عائلته كلها إلى المجاهدين، ويمثل نموذج المناضل الذي يعارض بضراوة حكومة الخميني.

كان العقيد ينتمي إلى كتيبة «الخالدين»، أي الجهاز العسكري الذي اختير بعناية فائقة ليؤمن سلامة الشاه وعائلته. لدى استماعي إليه، فهمت إلى أي حد كان ضباط هذه الوحدة موضوعين بعيداً، ليس فقط عن الحقائق السياسية والاجتماعية في البلاد، ولكن أيضاً عن كل ما يتعلق بالشاه نفسه. أدركت سريعاً أن هؤلاء الرجال، نظراً للتدريب الذي تلقّوه، يكنّون احتراماً لا حد له لشخص الشاه ويعتبرونه رجلاً متفوقاً بل أسطورياً، فيما يظهرون لا مبالاة، إن لم يكن احتقاراً، حيال باقي أفراد العائلة الامبراطورية (بمَن فيهم الملكة). هذه العبادة لشخص كانوا يعتبرونه منزّهاً عن الخطأ دفعت بهم إلى إلقاء تبعة كل تشويه لصورة النظام، كما الفساد الذي أدى إلى سقوط النظام، على عاتق الآخرين بشكل كامل.

مع أني اعتدت أن أسمع في الأوساط الأكثر تنوّعاً ـ وتحديداً في أوساط الطبقة الراقية التي كانت تسعى بهذه الطريقة إلى تبرير نفسها ـ أحاديث مغالىً فيها عن جشع العائلة المالكة والحاشية وطيش عاداتها، إلّا أن أقوال العقيد فاجأتني تماماً. متمعناً في ما قاله لي، وبما سيقوله لي من ثم ضباط آخرون التقيت بهم في السجن، توصلت إلى الاستنتاج بأن تفاني هؤلاء الموظفين كان سيتداعى خلال مواجهات طويلة الأمد بين النظام ومعارضيه. حين لا يبدي رجال حيال النظام والقيم التي يمثّلها نفس الاحترام الذي يبدونه لرئيسهم عينه، فإن اخلاصهم يمكن أن يدوم طالما النظام غير مهدّد فعلياً. لكن ما أن يبدأ هذا الأخير بالاهتزاز، لا يعودون قادرين فعلياً على مؤازرة الملك في الحفاظ على سلطته.

كان زميلي الثاني في الغرفة، كما قلت، شاباً مجاهداً نشأ وسط عائلة معادية تماماً

للشاه ومتفانية بشكل كامل للقضية التي تناضل من أجلها. كان سعيد في الواحدة والعشرين من عمره، وقد فقد أخته محبوبة متحدة وغلاد بوش زوجها اللذين قُتلا أثناء مواجهة مسلّحة مع رجال السافاك. كان المجاهدون يسارعون للاستفادة من استشهاد إخوانهم الذين سقطوا أثناء النضال للاستيلاء على السلطة، فحوّلوا هذه المرأة إلى بطلة وطنية. وهكذا أطلقوا، في ظل حكومة بزركان، اسم محبوبة على الجامعة الوحيدة للفتيات في طهران التي كانت تحمل في ظل النظام الملكي اسم فرح. يمكن أن نتصور بسهولة الهالة التي تحيط بشخصية محبوبة وتأثيرها على أخيها الأصغر الذي كان يبحث في الوقت نفسه عن الانتقام لأخته الشابة ونشر العدالة، بين الناس.

شخصية سعيد معقّدة، كان يحدث لي حين أدخل إلى غرفته، أن أجده جالساً وفي يده كتاب أقوال الإمام علي ومستغرقاً في القراءة بكل أحاسيسه. كان يقول لي حينئذ: «هذا بديع! هذه القراءة تنقلني بعيداً، بعيداً جداً».

في أوقات أخرى، كنت أباغته منصرفاً إلى التدرّب على الكاراتيه. فيقول لي عندها: «يجب على المناضل أن يكتسب لياقة بدنية وأن يكون مستعداً لمحاربة العدو».

من كان ذلك العدو غير المرئي؟ لا شك أنه يقصد في الحقيقة كل هؤلاء الذين لا يشاركونه آراءه وأفكار المنظمة التي ينتمي إليها. كنت أرى ذلك الولد المسكين، متنازعاً بين روحانية فكر ديني يشكّل بالنسبة له هدفاً، وبين جاذبية الأساليب العنيفة التي كان يريد أن يحقق من خلالها هذا الهدف.

مناضلو الشيوعية والإسلام

في اليوم الذي تلا الانقلاب الأنكلو ـ أميركي ضد مصدق عام ١٩٥٣، نجح الشاه في إبعاد جميع المعارضين وحظر جميع الأحزاب السياسية. الجبهة الوطنية، المؤلفة من المعارضين السابقين لرئيس وزراء الشاه، لزمت مسافة حيال السلالة الحاكمة، ولم تكف بطريقة نظرية أكثر منها فعلية، عن التنديد «بلاشرعية» كل الحكومات التي رتّبها الشاه. لكنها لم تكن قادرة مع ذلك على قيادة حركة سياسية شعبية.

ساهم بزركان أكثر من الآخرين في تأسيس تيّار أكثر نشاطاً، داخل الجبهة الوطنية، يحمل اسم «حركة من أجل الحرية». وأعطى بالمشاركة مع مناضل آخر ومعاد للملكية وهو آية الله طالقاني، هذه الحركة وجهة اسلامية، مختلفة عن وجهة

الجبهة الوطنية نفسها. ولكن الجيل الجديد، الذي وضع آماله إما في الجبهة الوطنية ذات الاتجاه العلماني نوعاً ما، وأما في «الحركة من أجل الحرية» ذات الميول الاسلامية التي أسسها بزركان، شعر بنفسه محبطاً بعد عشر سنوات من الانتظار، فاختار الأساليب الأكثر راديكالية. فدائيو الشعب، الذين سبب لهم حزب تودة والاتحاد السوفياتي خيبة عميقة، المأخوذون بالماركسية ـ اللينينية ونماذجها مثل فيديل كاسترو وتشي غيفارا وهوشي منه أنشأوا في الستينات حركة حرب عصابات هدفها الإطاحة بالنظام الملكي. في الوقت نفسه وُجد فريق ثوري إسلامي آخر هو مجاهدو خلق أو مجاهدو الشعب.

إن نجاحات الثورة الجزائرية خلال العقدين الممتدين من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠ والتعبئة الجديدة للفلسطينيين وتجديد نشاطهم كانت بمثابة أضواء هادية للمجاهدين. وخلافاً للفدائيين الذين انخرطوا منذ البداية في العمل المسلَّح، انتظر المجاهدون وقتاً للسير في الطريق نفسها. لكن الفدائيين والمجاهدين ابتعدوا معاً عن جميع التقاليد السياسية في البلاد، إذ لم يتبعوا رجلاً ذا خبرة بل اتخذوا رؤساء لهم لا تتعدى أعمارهم الثلاثين.

كانت عقيدة المجاهدين تستند إلى دعامتين: على الصعيد الفلسفي، أرادوا الانتماء إلى الإسلام بشكل مطلق، وعلى الصعيد العملي، أعلنوا انتسابهم إلى الماركسية. بالرغم من إسلاميتهم المتصلبة، كانوا يعتقدون أنهم بتخلّيهم عن الجانب الفلسفي من المادية الجدلية، يستطيعون اتخاذ الماركسية أساساً للعمل الثوري. فيما يخص الاسلام، وبرغم التاريخ الفقهي الطويل، رجعوا إلى الايمان الأولي لينتهوا إلى أصولية شيعية مطعّمة بماركسية ـ لينينية ستالينية صرفة. تلك كانت ايديولوجية المنظمة الثورية للمجاهدين الذين استشهد منهم مئة مناضل خلال حرب العصابات المدنية التي نُظّمت ضد عائلة بهلوي والتي خلالها ارتكبت اغتيالات موجهة استهدفت مثلاً الأميركيين الذين يعملون في اتصالات الجيش. المجاهدون الذين كانوا غداة الثورة يحظون بمكانة منظمة مناضلة، إلاّ أنها كانت قد تفكّكت تماماً في ظل حكم الشاه، لم تنجح أبداً وسائلهم ولا يزال بعض قادتهم أمثال مسعود رجوي محتجزين في سجن افين. ليس هناك أدنى شك من أنه للخميني وحده يعود الفضل في توظيف ايمان المواطنين لخدمة حركة معارضة سياسية زعزعت النظام وكانت في بدايتها، على الأقل، مسالمة بشكل مطلق.

وهكذا، حين كان قادة الجمهورية الإسلامية - من الخميني إلى بزركان - يظهرون تعاطفاً مع المجاهدين، فذلك فقط احتراماً لماضيهم. لأن المجاهدين كانوا طيلة سنتي ٧٧ و٧٨ بعيدين تماماً عن الساحة. المبادرة تعود في المقدمة إلى بزركان وأصدقائه الليبراليين، وبالنهاية إلى الخميني وأتباعه. إليهم يعود الفضل في تنظيم شبكة واسعة تقليدية قوامها مئة ألف رجل دين قادوا، خلال خريف ١٩٧٨، اضرابات مفتوحة في أسواق المدن الكبرى. ولكنْ، إذا لم يكن المجاهدون قد لعبوا دوراً فعالاً في إسقاط الشاه، إلا أن هذا لم يمنعهم من اعتبار أنفسهم البادئين الحقيقيين. وكانوا بصفتهم هذه، يطلقون أحكاماً قاسية جداً في حق الآخرين. وهم لم يترددوا في وصف ليبراليِّي بزركان ورجال دين الخميني بالمحافظين المائعين والمتواطئين الموضوعيين مع الامبريالية الأميركية.

هكذا كان موقفهم ووضعهم في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩، إبان احتجازي في اڤين، في الغرفة المجاورة لسعيد.

بالرغم من صغر سنِّه، أمضى سعيد بضع سنوات في السجن وحاول عدة مرات الفرار. حتى ليقال إن هذا الشاب قد آثر بنفسه الموت على الحياة. غداة الثورة الإسلامية، وضع نفسه في خدمة الحركة التي سقطت من أجلها أخته، ساعياً إلى التطرف في جميع الاتجاهات، ومصمماً على تنفيذ مهمات صعبة، بل وخطيرة.

كان المجاهدون يتمثلون بالتدريبات السياسية والعسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية. في أيام الشاه، أرسلوا بعضاً من مناضليهم إلى معسكرات تدريب تابعة لمنظمة فتح في لبنان لكي يتلقوا إعداداً ايديولوجياً وعسكرياً. في ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩، حين أعلن الجيش وقوفه على الحياد وأُطيح بالعرش نهائياً، لم يقبلوا بإلقاء السلاح جانباً. ورفضوا في الوقت نفسه الخضوع لسلطة الدولة والاستجابة لنداءات الخميني التي كانت مسموعة في البلاد على نطاق واسع.

كان الطابع الثوري لحركتهم يسمح لهم، في نظرهم، الاستيلاء على المال حيثما وُجد. وهكذا أوكلت إلى سعيد مهمة سرقة مخزن للمجوهرات في أحد أحياء طهران الفخمة. في حال فشل مشروعه وأوقف، كان عليه أن يقول إنه ينوي بيع الحلى وتوزيع ثمنها على فقراء الضواحي الجنوبية في المدينة. بعد حصوله على مسدس أوتوماتيكي، أمر الصائغ، بتهديد السلاح، بأن يفتح خزنته. ولكن شريك الصائغ في الغرفة المجاورة، أطلق صفّارة الإنذار، فأصيب هاوي السرقة الشاب بالهلع ورمى

مسدسه لأنه لم يكن قادراً على استعماله، ولاذ بالفرار. لكن الصائغ التقط المسدس وأطلق النار على سعيد فأصابه في قدمه، أوقف سعيد وأودع سجن اڤين ـ لأن جرم السرقة بالسلاح منوط بالمحكمة الثورية ـ واقتيد إلى عيادة السجن.

هذا الفتى، الذي حرص كثيراً على أن يصير بطلاً مثل شقيقته، شعر بالخيبة لأسباب عديدة. ليس فقط لأن مشروعه على طريقة روبن هود قد فشل، بل لأنه لم يستطع، خلافاً لما كان يتوقع، أن يقود حركة واسعة النطاق لاسترداد «الثروات غير المشروعة». من جهة أخرى، كانت منظمته، من أجل انقاذ صورتها، قد أدانت مبادرته، وهذا كان يعذّبه بشكل خاص.

ما كان يعتبره انجازاً بطولياً ارتد عملاً تخريبياً. وقد اضطر، من أجل الحفاظ على مكانة منظمته، أن يتحمل وحده عبء هذه الفضيحة.

مدير السجن كتشوي، مثله مثل حكام إڤين الآخرين، يعرف جيداً أن سعيداً لم يقم سوى بتنفيذ الأوامر، ولكن التعليمات التي تلقّاها لم تسمح له بالتصرف تبعاً لذلك. من جهة أخرى، لم يكن ممكناً في سجن اڤين الصفح عن سعيد وعن حركته، لكونه تحدّى شرعية حكم لا يزال حديث العهد.

كان مدير السجن يمثل فريقاً من الإسلاميين الذين حاربوا نظام الشاه بالشراسة ذاتها التي أبداها المجاهدون، ولكن بوسائل سلمية. كان هذان الفريقان ينتميان إلى تيارين سياسيين مختلفين لا بل متناقضين، ولا مجال للتفاهم بينهما. لكن النزاع بينهما لم ينشأ، لسخرية القدر، إلا في خلال السنوات الأخيرة التي أمضياها معاً في السجن. أما العداوة بينهما خارج السجن فكانت محدودة جداً. كان السجن يشكل بالنسبة لهما مكان مواجهة، وهذا أمر لم يتوان السافاك عن استغلاله.

كان الإسلاميون في ظل حكم الشاه ممثلين في فريق صغير من المسلمين الأتقياء الذين ينتسبون إلى الخميني الموجود في منفاه في العراق آنذاك (١٩٦٤ ـ ١٩٧٨). كانوا يتحدرون من الأوساط الشعبية التقليدية ولا يريدون الاختلاط، داخل السجن، بالمجاهدين الذين بالرغم من ادعائهم الانتماء للإسلام، كانوا قريبين جداً في الواقع من الماركسيين ـ اللينينيين، وبذلك يعتبرهم الإسلاميون ملحدين. كان المجاهدون، من جهتهم، يستخدمون اصطلاحات مقتبسة من الماركسية، وحركات التحرر في الستينات، متظاهرين بفوقية فكرية ويحتقرون الإسلاميين. كان الفريقان يتبادلان،

مداورة وتبعاً للظروف، التهم بالميوعة حيال النظام الامبراطوري. ليس مدهشاً إذاً أن يكـون الإسلاميـون، الذين طـردوا لتـوّهم المجاهـدين، بعـد سنـة من الثـورة، من المناصب العليا في محكمة اڤين، مغتبطين لفكرة وضـع يدهم عـلى فريسـة مغرية جداً مثل سعيد، ابن عائلة مجاهدين ذائعة الصيت، ومتّهم، فوق ذلك، بـالسرقة. لم يكن في نيتهم إذاً التخلي سريعاً عن حالة يرتسم خلفها هذا النزاع الأسـلامي ـ المجاهـدي الذي ظل يرزح بثقله طيلة سنوات ما قبل الثورة. المفاهيم المـاركسية المـطبّقة بـطريقة دوغمائية على المجتمع الإيراني، واستلهام المجاهدين لتجربة منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن ترتدي أي معنى في بلد مثل إيران سـواء في ظل نـظام الشاه أم في ظـل النظام الجديد: القتال الذي تخـوضه منـظمة التحـرير الفلسـطينية كـان يهدف في الـواقع إلى إعطاء وطن لشعب طُرد من أرضه من قبل شعب آخـر. وهذا الـوضع ليس هـو ذاته وضع الشعب الأيراني.

هذا العداء بين الفريقين اللذين كانـا ينسبان لنفسيهـما حق التفردّ بـالمزايـا الثوريـة والمناهضة للامبريالية، حوَّل الحياة السياسية إلى مزايدة مستمـرة حيث كل واحـد فيهما يخاف أن يتخطاه الآخر.

أحكام الإعدام الأولى، ومناقشات مجلس المحلّفين الإسلاميين لدى إعداد الدستور واحتجـاز الرهـائن في السفارة الأمـيركية خـلال سنتي ١٩٧٩ و١٩٨٠ وتخلخل الحيـاة الاقتصادية، كل هذا حصل، في قسم كبير منه، بنتيجة هـذه المنافسـة بين الفـريقين. لهذا السبب، كانت أحاديثي مع سعيد تكشف عن جوانب عديدة، لأنه لم يكن يدرك الموقف المزدوج لرؤسائه وخداعهم، رغم علمه بكل مـا يُقال في قيـادة منظمتـه. كان رؤساؤه يظهرون علانية تحمساً للخميني وطالقاني، ولكنهم في الخفـاء يقولـون «إنه ينبغي العمل على توسيع الشقاق بينهما». وقد أمدّني سعيـد، بخصوص إعـدام مسؤولين من النظام القديم دون محاكمة، بمجموعة معلومات تثبت أنه لولا تأثير المجاهدين، لما كان عدد هذه الأحكام مرتفعاً إلى هذا الحد.

بحسب قوله، كان خلخالي، حين عُيِّن قاضياً في المحكمة الثوريـة، لا يعرف مـاذا يتـوجب عليه أن يفعـل في الأشهر الأولى. وهـذا لكونـه لم يسبق له أن تـابـع دروسـاً متعمقـة، بخلاف رجـال الدين الآخـرين المحيطين بـالخميني. ونظراً لأن المجـاهدين الذين تبوأوا أدوار القضاة، هم سجناء سياسيون سابقون تلقـوا إعداداً علمانيـاً، فإنهم كـانـوا يـديـرون التحقيقـات والمـرافعـات بضراوة لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى أحكـام

بالإعدام. كان خلخالي الحريص على استباق تحفظات الشخصيات الدينية أمثال آية الله بهشتي الذين لم يكونوا راغبين في إصدار قرارات سريعة بالإعدام، يحتمي إذاً خلف ملفات أعدّها بحسب زعمه قضاة «شبه علمانيين وثوريين».

السجن، جدّيا

عشرون يوماً مرّت عليَّ في العيادة، فيما قيل لي في المطار إنه سجري اقتيادي إلى سجن اڤين «لحديث ساعتين» لا غير. وإذ أيقنت أن احتجازي سيطول، طلبت إلى كتشوي مدير السجن ألّا يعطيني صفة السجين «المميّز»، كي أستطيع الاختلاط بجماعات المساجين. وافق على طلبي ونُقلت في اليوم نفسه إلى القسم الثالث.

كان القسم يشغل مبنى بطبقتين، ويشرف على باحة مربّعة يبلغ طول كل من أضلاعها عشرين متراً. كانت الغرف السبع مصطفة على جانبي المربع. أما المراحيض وغرف الاستحمام المشتركة فكانت في آخر الرواق. وفي كل غرفة، ستة أمتار لستة، يوجد اثنا عشر إلى أربعة عشر سجيناً. كان لكل سجين فراش يضعه عند الصباح لصق الحائط ويستند إليه طيلة النهار. في أوقات الطعام، يُبسط شرشف من القماش المشمَّع وسط الغرفة ويتحلق حوله المساجين متربعين على الأرض، متناولين طعامهم، على «الطريقة الإيرانية». ويوكل بالأعمال: تنظيف الموكيت المطاطية مرتين في النهار والاهتمام بالشرشف (وتحضير السلطة في فترة البحبوحة) والقيام بجلي الأواني وتحضير الشاي، إلى أحد المعتقلين مداورة ويدعى خلال الأربع والعشرين ساعة «مختار اليوم».

كان لكل قسم مسؤول تعيّنه إدارة السجن، فيما المسؤول عن الغرفة يعيّنه السجناء أنفسهم. أما توزيع الوافدين الجدد فيقع على عاتق المسؤول عن القسم.

لدى وصولي، قال لي هذا المسؤول: «سأصفك في غرفة السياسيين والمفكرين الذين يطالبون بك منذ أن علموا بوجودك في العيادة. إنهم ينتظرونك».

وجدت هناك أصدقاء لي، وخصوصاً أديباً كنت أحبه كثيراً هو أمين رياحي الذي لم يلعب أي دور سياسي سوى أنه كان وزيراً للتربية لمدة سبعة وثلاثين يوماً في حكومة بختيار (١٩٧٨ - ١٩٧٩). والتقيت هناك أيضاً برجل قانون لامع، كان رئيساً لمحكمة التمييز أيام حكومة هويدا. كان يبدو قلقاً جداً على مصيره، لأنه نظراً لأحكام

الإعدام التي نُفّذت، لم يستبعد أن يكون اسمه ضمن الدفعة المقبلة. كان لكل سجين فراشه في مكان معيّن، وعُيّن مكاني بين هذين الصديقين. في المسافة التي تفصل فراش كل واحد عن الآخر والبالغة خمسة وعشرين سنتمتراً، كان المعتقلون يضعون حاجاتهم الشخصية وكتبهم في صناديق كرتونية. وكان كل واحد يستطيع أن يعلّق على مسمار فوق رأسه، كيس نيلون يحوي ثيابه. ويمكن، تبعاً لحجم هذا الكيس، تقدير طول الفترة التي استغرقها وجوده في هذا المكان.

أعطيت لي على الفور الشروحَ عن نظام القسم. يسمح لأفراد عائلتنا الأقربين بزيارتنا مرة في الأسبوع لمدة عشر دقائق. كان هناك فاصل زجاجي بيننا وبين زائرينا وكنا نتحدث إليهم عبر السمّاعات. ويمكننا أن نتلقى كل أسبوع مئتي تومان (أي ما يعادل مئة فرنك فرنسي في تلك الفترة) وكيس فواكه لا يستطيع أقاربنا شراءه إلّا من مخزن السجن. كان إفطارنا يتألف من الشاي والخبز والجبنة. وكان هناك سخّان كهربائي موضوع في تصرفنا لنحضّر عليه الشاي ساعة نريد. ويمكننا أيضاً الذهاب إلى مخزن السجن حيث يوجد البيض والسردين والبسكويت والسكر والبلح. كان الطعام مقبولاً وصحياً على كل حال. في الصباح، يقوم البعض بتمارين رياضية في باحة السجن أو يتمشون فيها لساعتين أو ثلاث، وبعد الظهر يتكرر البرنامج ذاته مع إمكانية البقاء في غرفنا لقراءة كتب جلبها لنا الزائرون.

كنا حوالي المئة وستين معتقلاً في القسم. عدا الضباط الكبار في الجيش وموظفي السافاك، كان هناك وزراء وأعضاء مجلس شيوخ ونواب ورجال أعمال، أي باختصار كل العالم الجميل السابق لطهران الامبريالية. وكان هناك أيضاً، نظراً لأن الجمهورية الاسلامية لا تعترف بصفة السجين السياسي، بعض المعتقلين لأسباب شائنة، وهؤلاء أضفوا شيئاً من الاختلاف على هذا السجن الاصطفائي جداً.

إذا كان بعض ضباط السافاك واثنين أو ثلاثة من البهائيين واثقين تقريباً من أن حكم الإعدام سينفّذ بحقهم، فإن الآخرين اجمالاً لم يكونوا معرّضين لخطر الإعدام لأن الحمى الكبرى لإعدام المساجين التي بلغت أوجها في عام ١٩٧٩، قد تلاشت الآن.

خلال الأشهر الأولى للثورة، أي في الفترة الممتدة بين شتاء وربيع ١٩٧٩، أصدرت المحاكم الثورية في طهران والمقاطعات أحكام الإعدام ونفّذتها بحق خمسمائة أو ستمائة شخص بينهم ضباط كبار في الجيش ومدراء في الشرطة والسافاك ورجال

سياسية. كل الذين بقوا من هذه الفئات الاجتماعية والموجودين في سجننا حالياً، كانوا قد أوقفوا منذ البداية. وبما أنهم رأوا محتجزين آخرين يساقون إلى الإعدام، اعتبروا أنفسهم إذاً بمثابة ناجين من الموت، وأخذوا يعلّلون الأمل الآن بإطلاق سبيلهم. وصارت إحدى الاهتمامات الأساسية للسجناء الإسهام في التحضير لمرافعات رفاقهم الذين ما يزال مصيرهم غير مؤكد.

من جهتي، ونظراً لما عرفته عن ملفي خلال توقيفي الأول، اضافة لاحتجازي باديء الأمر في العيادة لدى توقيفي الثاني، كانت لديّ أسبابي للاعتقاد أنهم دون شك يتحيّرون كثيراً في صحة اعتقالي. كنت مقتنعاً إذاً ليس فقط بعدم تعريض حياتي للخطر بل أيضاً بعدم بقائي طويلاً في السجن.

إن سفري إلى أوروبا ونشر كتابي عن الشاه كانا في موقف حرج للغاية. ولكن، في مقابل ذلك، كانت لديّ امكانية للالتقاء في السجن بأناس كثيرين لعبوا أدواراً هامة في ظل النظام المخلوع، وللاستماع إليهم. كنت أعرف، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عدداً كبيراً من السجناء معي، ولكن ليس معرفة حميمة تجعلني أتكلم معهم بصراحة، إلا أنه، نظراً للتغيرات السياسية التي حصلت، أخذ هؤلاء الناس غير الثرثارين في العادة يفكون عقدة لسانهم أمام شخص لا يرون فيه عدواً أو خصماً، بل سميراً بالأحرى. لهذا، انتهى بهم الأمر إلى أن يتحدثوا إليّ بصراحة.

كانوا كلهم تقريباً يعبّرون عن مفاجأتهم بسقوط العرش، فهم كانوا يؤمنون عميقاً بنظام يشبه، حسب تعبير جيمي كارتر، «جزيرة استقرار وسط محيط هائج»[٧]. لذلك لم يكن في مقدورهم أن يفهموا كيف أن الشاه، الذي كان يحظى عملياً بمساندة كل الدول الكبرى في العالم، قد أطيح به بهذا الشكل المحزن والعنيف. ولا أن يستوعبوا أيضاً من أين خرج رجال الدين هؤلاء الذين تمكنوا من الاستيلاء على السلطة بهذه السهولة. كانت هذه الإطاحة المفاجئة بالعرش وظهور القوى الاسلامية يتوقف فقط، في نظرهم، على الدور الذي لعبته بعض الدول. لذلك كانوا يرفضون التسليم بأن هذه الثورة هي وليدة حركة شعبية عفوية داخلية.

ذهنيتان متعارضتان

المحاكمات التي أجريت بحق المسؤولين السابقين بسبب خيانتهم أو تواطئهم مع الأجانب كانت من الاقتضاب والرعونة إلى درجة لا يمكن معها أن تساهم في هداية الشعب الإيراني، ثمّ أن الطابع المغالى فيه للاتهامات الموجّهة ضدّهم

لا يحمل على ـ الإقناع. كان كل يوم يشهد فضائح سياسية ـ ماليّة جديدة في مكان ما، دون أن يكون هناك دليل فعليّ جدير برفعها إلى محكمة يمثل أمامها شهود موثوق بهم ومحلّفون أكفّاء. كان يبدو كل ذلك غريباً جداً، بحيث أن مسؤولية المذنبين المفترضين كانت تموَّه خلف صورة كاذبة عن العدالة. وتعجيل القضاة كان نتيجة الصراع الضاري الذي لا يرحم بين قوى متجانسة ومتعارضة في آن، لا تجمع بينها أية قرابة سوى معارضة نظام لم يعرف قط تحديد هوية أعدائه، فخلط بينهم بشكل أرعن. إن عدم تبصر آل بهلوي شجّع على الانصهار بين هذه القوة المتنافرة أصلاً. لهذا السبب، بدأت هذه القوى، حين أطيح بالسلالة الحاكمة، بتمزيق بعضها بعضاً إلى أن انتهى الأمر لاحقاً، في عام ١٩٨١، إلى نشوب حرب أهلية، وهذا ما لم يحدث من قبل في إيران.

على كلّ حال، كان زملائي في السجن يعيشون في حال اضطراب كامل، لأنهم كانوا يجهلون تماماً ميول قضاتهم، جعلوا يتشاورون ذات مساء فيما بينهم بخصوص مرافعة يعدّونها لموظّف في السافاك كان يعمل في مصلحة مكافحة التجسس اقتصرت مهمته، طيلة حياته المهنية، على محاربة التدخل السوفياتي في إيران، كما أنه يملك في صالحه أعمالاً مبرّرة تماماً من وجهة نظر وطنية.

لكي يُقنع القاضي ـ الشيخ بمشروعية الخدمات التي أدّاها للبلاد، كتب مرافعة مقنعة جداً وافق عليها الجميع. وفجأة أعلن أحد السجناء أن نائب القاضي شيوعي مناصر للاتحاد السوفياتي، وقال:

«إذا سمعك تتحدث على هذا النحو، سيحقد عليك حتى الموت».

وهكذا تقرّر بالإجماع ألا يتكلم السافاكي عن ماضيه. هذا مثال عن الحيرة العميقة التي وقع فيها هؤلاء السجناء إزاء الغموض السياسي للمحكمة، حيرة يزيدها تعاظماً جهلهم بالشرائع والقيم الأخلاقية والقانونية للإسلام. كانوا لا يملكون عملياً، بطريقة عيشهم «المتغرّبة» إلى أقصى حد، أي فكرة عن الشرع والعادات الإسلامية. كانوا متعجبين لاكتشافهم أنه لا وجود، في الشرع القرآني، لانفصال بين الحياة الخاصة والحياة العامة أو بين الجريمة الاقتصادية والجريمة السياسية، أي باختصار بين الأخلاق والشرع. حين تمّ توقيفهم مثلاً لأسباب سياسية واقتصادية وبعد أن وجدت المحكمة دفاعهم مقنعاً، لم يفهموا لماذا كان اكتشاف صندوق ويسكي في شققهم يوقعهم من جديد في الاتهام.

حاولت إذاً أن أشرح لهم، وفقاً للشريعة الإسلامية، أن مفهوم المسؤولية غير قابل للانقسام وأن الشرعية تنبع من الأخلاق والقانون في الوقت نفسه. إن علاقة رجل بزوجته وبأملاكه يجب أن تكون شرعية من كل النواحي لأنها نابعة، في نظر المسلمين، من مفهوم شامل. كنت أحاول في الوقت نفسه أن أشرح لقضاتهم أن الرؤية الشمولية للحياة غير واقعية. كنت أقول لهم، مثلاً: «حين يبقى موظّف رفيع نزيهاً طيلة حياته المهنية، أياً تكن الفرص التي عرضت له، فهذا لأنه عمل بموجب ضميره الأخلاقي والمدنيّ وحافظ بهذه الطريقة على مصالح بلاده. وعليه، حتى لو رأيتم هذا الرجل نفسه يقبّل يد الملكة فرح في صورة خلال حفلة تسكب فيها الشامبانيا، يجب أن تسامحوه».

وقد اكتشف رجال الطبقة الراقية الإيرانية الموجودون في السجن، شيئاً آخر وهو أن زوجاتهم يلعبن دوراً إيجابياً لصالحهم في نظام ذكوريّ. ومهما بدا هذا الأمر محيّراً، فالسبب بسيط. بما أن المحكمة الثورية لم تكن تعترف بأي حق من حقوق المحامين، لم يجد المتهمون حينئذٍ أي ملجأ آخر سوى أقربائهم، أي أولئك الذين يزورونهم مرة في الأسبوع. ولكن القضاة كانوا يفضلون الزوجات أو الأمهات عند اقتضاء الحال، لأن الجنس الضعيف يبدو لهم أقل إثارة للشبهات. فضلاً عن ذلك، وبالرغم من جهلهم بالشرع الإسلامي، كان يمكن الاستنتاج بأن الزوجات، في مجتمع علماني ابتعد بسرعة عن جذوره الدينية، كن قد احتفظن بتمايز عن أزواجهن! في الواقع، قد حافظن، حتى في المجتمع الراقي، على صلاتهن اليومية بالتقاليد، فيما عاش أزواجهن على الطريقة الغربية تماماً ضمن اكتفاء تكنوقراطي ذاتي وكوسموبوليتي. لذلك، لم يكن غريباً أن تتوصل هؤلاء الزوجات الجريئات جداً، عبر تحديهن النظام الذي كان يحظر كل علاقة خارج المحكمة الثورية، إلى الاتصال، ولو عبر الهاتف، بالقاضي الذي يهتم بقضية أزواجهن، بعد أن يجري هذا الاتصال الأولي، كن يعرفن كيف يكلّمن رجال الدين بلغة قريبة منهم. لكن كثيراً من رفاقي، لقلة حظّهم، كانوا قد أرسلوا زوجاتهم وأولادهم إلى الخارج وتحديداً إلى أوروبا أو إلى الولايات المتحدة، حيث يملكون بيوتاً.

هناك فئة أخرى من المعتقلين الذين استهدفت المحكمة ثرواتهم، هي فئة «المعتقلين الاقتصاديين»، كان للمحكمة الإيرانية الحق في مصادرة، إن لم يكن جميع ثروتهم، فعلى الأقل هذا القسم الذي يعتبر ثمرة «تعاونهم مع نظام عائلة بهلوي

الملعون». كانت المحكمة تقوم بجرد ثرواتهم داخل البلاد وخارجها. في البداية، كان القضاة مهتمين خصوصاً بتقدير الثروات الموجودة في الداخل، لكنهم فهموا، بعد مرور عدة أشهر، أنّ الجزء الأهم من ثروة الطبقة الراقية قد استمر في شراء بيوت على شاطىء الكوت دازور وفي باريس وفي لندن أو في كاليفورنيا هذا إن لم تكن في حماية البنوك السويسرية.

رجال الدين - القضاة، الذين تلقّوا دروسهم في معاهد دينية قائمة في الريف خصوصاً، لم يخالطوا قط هذه الطبقة التي وُلدت منذ عشرين سنة في إيران، ولم يكونوا قادرين بالتالي على تكوين فكرة واضحة عن مبالغ رساميلها المصدّرة. في الواقع، كان يشق على المحلّفين الأكثر خبرة تقدير هذه الثروات التي جمعت بوسائل مشكوك بأمرها. كان رجال الدين يملكون على الأكثر، شعوراً غامضاً بأن هذا المتهم أو ذاك يشكّل «قطة سمينة»، ولكن من دون أن يملكوا إثباتاً على ذلك. خلال الاستجوابات، لم يكن السجناء يشيرون إلى ثروتهم في الخارج، خصوصاً وأنهم كانوا يعرفون تماماً انه لا وثيقة رسمية تؤكّد وجودها. فالبنوك السويسرية، كما نعرف، توفّر لزبائنها إمكانية الحصول على حسابات مرقّمة واستئجار خزنات حيث يمكنهم وضع كل الوثائق والرسائل المتعلقة بهذه الحسابات. كان الزبائن في مثل هذه الحالة مطمئنين إلى حماية السرية المطلقة.

أحياناً، كان القضاة يعتقدون أن احتجازاً طويلاً للمعتقلين سيسمح لهم باكتشاف علائم جديدة، ولكنهم ارتكبوا بذلك خطأ فادحاً. شخصياً، لم أشاهد إلّا حالة واحدة اضطر فيها أحد المعتقلين لإرجاع مئات آلاف الليرات الاسترلينية من إنكلترا إلى أرض الوطن. ولكنْ ما سهّل عمل القاضي في هذه الحالة هو عناد الزوجة الأولى التي كانت تنوي الانتقام من زوجها السابق وزوجته الثانية. فأرغمت زوجها السابق على البقاء في السجن لسنة ونصف السنة. ولكنْ، عرفت فيما بعد أنها تصالحت معه بعد إطلاق سبيله وقبلت بوضعها كزوجة ثانية بعد أن أعادها زوجها... وهذا يُظهر أنه حتى في حال تسوية الحسابات بين الأزواج، كان ممكناً جداً استخدام المحكمة الثورية للوصول إلى غاياتهم.

- **دولشي فيتا على الطريقة الفارسية**

في نهاية الأمر، لم تنجح هذه المحكمة إلا بإرجاع جزء صغير مما هرّبته البورجوازية

إلى الخارج. كلّما كانت ثروة الناس كبيرة في الخارج، كلّما أظهروا استعداداً أكبر للاعتراف بما يملكون في إيران وحتى على تقديمها كهبة إلى الجمهورية الإسلامية لقاء إطلاق سبيلهم. عرفتُ أناساً قدّموا، منذ اليوم الأول لاعتقالهم، لوائح مدهشة عن ثرواتهم وصرّحوا باستعدادهم للتخلي عن كل شيء، وفي الوقت نفسه أقسموا اليمين على أنهم لا يملكون قرشاً في الخارج. كان القضاة عندئذ يسوون قضيتهم في وقت قياسي ويعاملونهم بكثير من التهذيب. بعد إطلاق سبيلهم، وبعد سنة أو سنتين من الرواح والمجيء إلى المحكمة، كانوا يحصلون على براءة ذمة مالية من جانب القضاة وأيضاً على جواز سفر للخروج من إيران. اليوم نجدهم مقيمين في شقق فخمة لندنية أو باريسية، أو يطوفون بالرولس رويس وهم يتذكرون إقامتهم الجبرية في إڤين.

يقول الخبراء انه لا وجود لجالية أجنبية هاجرت إلى الولايات المتحدة مُحمَّلة بالثروات مثل الجالية الإيرانية التي تعد ثلاثمائة ألف شخص يقيمون اليوم في كاليفورنيا. لكنْ، ألم يُعطِ الشاه وعائلته منذ رجوعهم إلى إيران سنة ١٩٥٣ المثلَ باقتنائهم مساكن فخمة في الغرب حيث كانوا يمضون فترة طويلة من كل سنة؟

قبل عدة سنوات من الثورة، وفيما كنت أعمل في منظمة الأونيسكو، علمت أن الاحتفال بزواج ابنة أحد كبار الموظفين الإيرانيين من ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وهو صديق للشاه، أجري في مطعم «ماكسيم» في باريس بحضور ستين مدعواً قدموا خصيصاً من طهران. وفي ١٩٧٦، احتفل مدير الخطوط الجوية الإيرانية وهو جنرال مقرّب من الشاه، بزواج ابنه في طائرة بوينغ تغص بالمدعوين، على متن رحلة خاصة من طهران إلى لوس أنجلوس. إحدى علامات المحبة القصوى التي يمكن أن يقدمها الشاه هي قبوله دعوة توجه إليه من الطبقة الراقية. كان النبل يقضي أن يؤتى بكل ما يتعلق بالعشاء (الطعام والشراب والأواني والخدم)، من أحد المطاعم الباريسية الأكثر فخامة. وبالنسبة للزينة، كان يفضّل جلب التوليب من هولندا، فيما هذه الزهرة - واسمها «لاله» باللغة الفارسية - مهاجرة إلى أوروبا من مناطقنا.

لكي يستطيع المرء مماشاة نسق الحياة الغربي هذا الذي أصبح مهيمناً ومؤدياً إلى بلوغ قمة الهرم الاجتماعي، كان يفترض به التخطيط للحصول على وسائل مالية مماثلة، أي امتلاك حسابات تُغذّى باستمرار في البنوك الأجنبية. كان الأمر سهلاً خصوصاً وأنه منذ عشر سنوات أصبحت عائدات البترول كبيرة إلى حد أن أجور الخدمات التي يقدمها الوكلاء الإيرانيون يمكن تحويلها مباشرة إلى عمولة. إن

المعاهدات الخاصة بتجهير البنية التحتية والمعقودة مع شركات أجنبية، كانت تبلغ في مجموعها عشرات مليارات الفرنكات كل سنة ويستفيد منها إيرانيون معروفون أو مجهولون، كانوا يحوّلون مباشرة الأرباح إلى حساباتهم في بلاد ما وراء البحار.

حين يكون وكيل هذه المشاريع الغربية شركة أو فرداً إيرانيين، فإن المشاركة تكون معلنة صراحة. ولكن حين يكون الوكيل منتمياً إلى العائلة المالكة أو إلى محيط الشاه، فإن المشاركة تبقى سرية.

يجب التشديد في هذا المجال، انه منذ بداية السبعينات بدأ يجري أيضاً تحويل رساميل الفئات العليا من الطبقة الوسطى إلى الخارج.

تسنّى لي في إڤين التعرُّف على هوشانغ رام مدير بنك عمران ـ البنك الخاص للشاه ـ الذي أنشىء حوالى عام ١٩٦٠، خلال النزهات العديدة التي قمنا بها سوية في باحة السجن، أمدَّني رام بإيضاحات هامة عن تهريب الرساميل إلى الخارج. بحسب رأيه، هذه التحويلات، التي سمح بها البنك المركزي على كل حال، تزايدت بشكل محسوس ابتداء من سنة ١٩٧٤، لكنها بلغت أوجها في العام الأول من الثورة (١٩٧٩) وبداية النظام الإسلامي. هذا يفسّر أن النظام المصرفي كان في مجمله ليبرالياً جداً ولم يتدخل التحظير الرسمي لتحويل الرساميل إلا في بداية ١٩٧٩.

كان البنك المركزي، في ظلّ الملكية، يتلقى من البنوك الأخرى كشف حساب يومياً بحجم هذه التحويلات ووجهتها. هذه التحويلات تعاظمت في ظل النظام الجديد، ولكنها جرت بشكل سري في السوق السوداء، بسبب الحظر. إن وفرة الرساميل الجاهزة والتراجع المفاجىء للاستثمارات والحيرة التي أثارتها التصريحات المجلجلة في بعض الأوساط الراديكالية (الإسلامية أو اليسارية) عن تأميم الاقتصاد وتدويل التجارة الخارجية، سبَّبت هجرة قوية للأشخاص (خصوصاً من بين الكوادر التقنية) وللرساميل. فيما هذا التحويل العظيم، الذي كان يقدّر شهرياً بمليارات الفرنكات، يجري على مرأى ومسمع «القضاة الشجعان» لمحكمة إڤين الثورية، كان القضاة يعملون بصعوبة على إعادة بعض المبالغ إلى البلاد، من دون أن يفوزوا عملياً بنتيجة سوى مفاقمة هواس الهرب.

في إڤين، أنشأ علماء الاقتصاد والمحاسبون المحلَّفون في المحاكم الثورية قسماً اقتصادياً أبدى القضاة الإسلاميون، بسبب جهلهم لآلية الاقتصاد المعاصر، استياءهم

منه في أول الأمر. في هذا المجال أيضاً، كنا نرى الفئة نفسها من مساعدي القضاة الإسلاميين المتمركسين، ذوي الهوية السياسية الملتبسة، يتابعون أهدافاً خاصة بهم. لم يكونوا صادقين حيال القضاة الدينيين في الجمهورية الإسلامية ولا حيال حكومة بزركان التي كانت تتابع تطبيق سياسة الاقتصاد الحر للملكية. ولم يظهروا علنياً أي حماسة للنهوض من جديد باقتصاد شلّته الإضرابات خلال الأشهر التي سبقت الثورة. في الواقع لقد ساهموا بدورهم في تشجيع هجرة الناس والرساميل.

يجدر هنا التذكير أن البنوك الخاصة في ظل الشاه، كانت تطبّق سياسة الاقتراض الحر إلى أقصى حد، مفسحة المجال لكثير من المقاولين بممارسة نشاطاتهم بفضل قروض تتعدى بكثير حجم الرساميل التي يراد استثمارها. أحد القرارات الأولى للحكومة الثورية كان تأميم البنوك. في تلك الفترة، كان القسم الاقتصادي في المحكمة الثورية يوقف رجال الصناعة ويجبرهم على دفع ديونهم للبنوك المؤممة. لكن مع مشاريع لم توظف منذ أكثرٍ من سنتين ومعاملات معلّقة، لم يكن احتجازهم في إڤين إلا ليزيد من ديونهم ويؤخر انطلاق المصانع من جديد. ولم يفهم القضاة الإسلاميون، إلا بعد مرور عدة سنوات، أن لمساعديهم أهدافاً مختلفة كلياً عن أهدافهم، وأن هؤلاء تلاعبوا بهم. بعد أن تصرفوا على طريقة الرجل الذي قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً، قرروا الاستغناء عن إسهام الاخصائيين المزعومين وأن يتولوا بأنفسهم الشؤون الاقتصادية واضعين نصب أعينهم هدفاً رئيسياً لا يقوم على قمع رجال الأعمال بل مساعدتهم على إعادة توظيف مشاريعهم. ولكن، للأسف، بعد فوات الأوان!

هناك مسألة كانت في صميم اهتماماتنا ـ وهي كانت راهنة جداً لأنها شكّلت أحد أسباب احتلال الطلاب للسفارة الأميركية ـ ، تتعلق بثروة الشاه في الخارج. أعطاني هوشانغ رام بهذا الخصوص أرقاماً أكّدها الخبراء. في رأيه، تصل ثروة عائلة بهلوي إلى خمسة أو ستة مليارات فرنك. لم يكن الشاه نفسه واضع اليد الرئيسي على هذه الثروة بل تأتي في المقدمة الأميرة أشرف وابنها شهرام ثم فاطمة الأخت الصغرى للملك زوجة قائد القوات الجوية.

بحسب رام، لم يكن الشاه بخيلاً ولا متلهفاً لتكديس الثروات كما كانت عائلته. حين كان يتدخل للتحايل على القوانين، فهذا كان يحدث لمراعاة الآخرين، فيما الأميرة أشرف وبقية أفراد العائلة كانوا يهتمون حصراً بمصالحهم الخاصة.

أوفقير إيراني

حقيقة أخرى أتاح لي السجن اكتشاف جوانبها الأكثر سريّة، وهي طريقة عمل الساڤاك. أمضيت وقتاً طويلاً في التحدث إلى الموظفين السابقين لهذه «المنظمة» التي ظلت مكتنفة بالغموض، ليس فقط بالنسبة لي بل أيضاً لأشخاص كثيرين كانوا متورطين في النظام المخلوع.

أنشأ الشاه عام ١٩٥٧ الساڤاك المكلّف باستقصاء المعلومات والاهتمام بأمن البلاد، بمساعدة الأميركيين التقنية والدعم الإداري للموساد، منظمة الاستخبارات الإسرائيلية. كان مديرها، الذي يحظى بصفة أمين سر الدولة، يرتبط، على الورق، بسلطة رئيس الوزراء. ولكنه في الحقيقة كان معيناً من قبل الشاه ولا يرتبط إلا به.

كان جهاز الساڤاك يتألف من أربعة أقسام للعمليات وأربعة أخرى للدعم الإداري. كانت مهمات قسم العمليات موزَّعة على الشكل التالي: القسم الثاني مكلّف بتقصّي المعلومات الخارجية، والثالث بالأمن الداخلي (وهو الأكثر إثارة للرعب بين الأقسام كلها) والسابع بتحليل المعلومات المجموعة في الخارج، والثامن بمكافحة التجسس.

أول مدير للساڤاك كان الجنرال تيمور بختيار الذي يتحدر من شيوخ لعشائر البختيارية. السبب الأول لتعيينه لا يعود لكونه قريب الملكة ثريا بل إلى ماضيه. في الواقع، حين كان بختيار ضابطاً شاباً، نظَّم في المناطق الجبلية من أذربيجان شبكة من الأنصار هدفها محاربة الجمهورية الديمقراطية العابرة التي أقامها الجيش الأحمر في أذربيجان في عام ١٩٤٥. بعد سقوط مصدق في العام ١٩٥٣، عُينِّ حاكماً عسكرياً لطهران ونظَّم، بهذه الصفة، حركة قمع لا رحمة فيها ضد معارضي نظام الشاه: أنصار مصدق وخصوصاً شيوعيي حزب تودة. وتمكن في خلال ثلاث سنوات من الإرهاب، من تشتيت كل الشبكات المناهضة للسياسة الإمبراطورية، وأصبح بذلك ركناً من أركان النظام. وحين أصبح على رأس الساڤاك، لم يغيّر وسائله ووجَّه هذه المنظمة نحو الاستخبارات السياسية. ثم اتخذ من رجاله بالذات معاونين له، أي الضباط الذين اكتسبوا خبرتهم في أرض الميدان جاعلاً من الساڤاك قوة بوليسية موجودة في كل الامبراطورية. وقد طبّق أيضاً بمساعدة شرطييه، بعد سحقه لمعارضة أعضاء الحزب السري تودة، طريقة تعتمد على دعوة هؤلاء للتعاون معه. وأحيل قسم

من ضباط الاستخبارات في الجيش إلى السافاك، ولكن بفضل وضعه لرجاله منذ البداية في مناصب حساسة، عمل على جعل هذه الشرطة دولة ضمن الدولة وأداة نفوذ شخصية في الوقت نفسه. وبعد أن وزّع عملاءه في كل مكان من إيران، أخذ يطمح لأن يصبح سيّد البلاد، محجّماً شيئاً فشيئاً دور الشاه إلى ممثل صامت. ولكن الملك أدرك سريعاً طموحاته وعزله من منصبه في عام ١٩٦١ وأرسله إلى الخارج. واثقاً جداً من شبكة استخباراته وعارفاً تماماً نقاط ضعف الشاه، أخذ تيمور بختيار يحرّض على مؤامرة هدفها اغتيال الشاه خلال زيارته الرسمية إلى برلين الغربية. وفي النهاية، تمكّن الشاه من القضاء عليه، فقتله رجالُ السافاك عام ١٩٧١ في العراق. لقد أُجريت دائماً مقارنة بين قصة بختيار وقصة الجنرال أوفقير المغربي الذي أبعده الملك الحسن الثاني بعد أن كان خادمه الأمين لوقت طويل.

جنرال ليس كالآخرين

بعد تيمور بختيار تولى رئاسة السافاك حسن بكروان، وهو رجل مثقف للغاية وملمّ بالسياسة العالمية. كان مختلفاً تماماً عن سلفه في نواحٍ كثيرة. كان أبوه رجلاً سياسياً وأمه أمينة بكروان أديبة إيرانية موهوبة تكتب باللغة الفرنسية. هذا الوسط العائلي سمح له باكراً بمتابعة دراساته في أوروبا.

حين كان أبوه يشغل منصباً في مصر، التحق بالمعهد الفرنسي في الاسكندرية، ثم باشر في دراسة الهندسة التي أوصلته إلى المدارس الحربية الفرنسية في بواتييه ومونتانبلو. حين رجع إلى إيران، دخل في سلك الجيش مدرّباً لامعاً في مدرسة الضباط لسنوات طويلة، أصبح بعدها ملحقاً عسكرياً في الباكستان.

في عهد مصدق، تولى رئاسة الشعبة الثانية في الجيش. حين رأى العلاقات بين مصدق والشاه تسوء، آثر البقاء على الحياد، ثم ذهب في مهمة حربية إلى فرنسا بداية عام ١٩٥٣. أخبرني لاحقاً هذا الفصل من حياته بهذه العبارات: «أقسمت على الإخلاص للملك كضابط من جهة، ومن جهة أخرى، كنت أعتقد أنه علينا احترام ملكيتنا الدستورية. إلا أنني لم أكن قادراً، بصفتي مواطناً، على التورّط في المؤامرات التي يحرّض عليها الضباط المحيطون بالشاه ضد مصدق باستمرار. فضّلت إذاً الانسحاب والابتعاد من طهران».

إن تعيين بكروان رئيساً للسافاك في عام ١٩٦١ خلق مفاجأة كبرى في طهران لأنه

اشتهر برهافته وتسامحه ولم تكن شخصيته تتوافق مع الصورة الرهيبة التي يرسمها الشعب للبوليس السرّي. في الوقت نفسه، لم يكن أحد يجهل أن الشاه كان يفتش عن كسب ود جون كنيدي الذي وصل لتوه إلى البيت الأبيض والذي كان يطالب بتطبيق حرية أكثر في البلدان التي يقال عنها إنها حليفة.

حاول بكروان أن يحدّ من الطابع القمعي لأساليب السافاك، ولم يتردد في استقبال المعارضين والمفكرين الذين لم يكن بإمكان الشاه تحملهم. لقد نجح في أن ينفي الخميني، عام ١٩٦٤، إلى تركيا ثم إلى النجف في العراق وهي مقام رفيع للإسلام الشيعي، بدل محاكمته في إيران وسجنه. من جهتي، عرفته جيداً وأستطيع التأكيد انه كان يتجاوب معي دائماً حين كان علي التدخل لصالح أصدقاء مفكرين أو طلاب يعانون المصاعب مع السافاك.

هذه كانت الحال حين تدخلت لصالح رئيس الجمهورية المقبل بني صدر وحسن حبيبي نائب الرئيس الحالي للجمهورية الإسلامية. كانا باحثيْن شابيْن في المعهد الذي كنت أديره. حصلت لهم على منح من الحكومة الفرنسية ولكن السافاك رفض إعطاءهما جوازي سفر نظراً لتعاطفهما مع مصدق. ذهبت إذاً للقاء بكروان الذي قال لي: «كن مطمئناً، سيسافران !».

فيما يتعلق ببني صدر الذي كانت حالته الأصعب أخبرت بكروان عن المضايقات التي كان يعانيها على يد رجال السافاك. فأجابني: «كن واثقاً من أنه سيغادر خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. لكن قل لي ألا تعتقد أنَّ التلاميذ الأجانب، كما تؤكد لي معرفتي بالحياة الجامعية في فرنسا، يمكنهم أن يبقوا سنوات دون إنهاء دراستهم إذا لم يكونوا متفرغين لها حقاً؟ هل فكرت في الأمر؟».

أجبته: «لقد تحدثت في هذا الخصوص مع صديقي جورج بالانديه وهو أستاذ في جامعة السوربون فأكّد لي أنه سيشرف بنفسه على أطروحة الدكتوراه لبني صدر في علم الاجتماع».

اكتفى بكروان بالقول، وهذه الكلمات بقيت محفورة في ذاكرتي: «حين حدّثتني عنه، سألت أجهزتي: ما هو الشيء الذي يستوقفكم في حالة بني صدر هذا؟ فقالوا لي إن اسمه يندرج في لائحة الأشخاص الذين لا تسمح لهم المحكمة العسكرية بمغادرة إيران والذين يعود أمر العفو عنهم إلى الشاه وحده. فعرضت قضيته على

جلالته قائلاً له إنه من الأفضل أن يكون المعارضون أناساً مثقفين بدل أن يظلوا جاهلين محدودين. أما فيما يخصك، فلا أستطيع إلا تهنئتك على ما فعلته من أجل تثقيف شبابنا».

كل هذا لأظهر أن بكروان كان يتحلى بروح التسامح ولم يكن، في كثير من النواحي، على شاكلة الشاه. وأن يتحفظ الشاه على مشاريعه لإصلاح السافاك فأمر لا يدعو إلى العجب[٨].

ما إن اطمأن الشاه للأميركيين (لأنه، بعد مقتل كنيدي، لم يكن يعاني من أية مشاكل مع جونسون)، حتى تخلّص من بكروان متذرّعاً باغتيال رئيس الوزراء منصور، لأن هذا الاغتيال شكّل بنظره دليلاً على ضعف رقابة البوليس السرّي. وعيّن مكانه الجنرال ناصري، الرئيس السابق للحرس الامبراطوري الذي لم يكن يملك ثقافة سلفه ورهافته. أما من جهتي فقد أخذ عليَّ الرئيس السافاكي الجديد أني جمعت، من خلال اهتمامي بالباحثين، كل معارضي الشاه. أحسست أن الخناق يضيق عليّ فانتهزت الفرصة التي قدّمها لي في عام ١٩٦٩ رينيه ماهو المدير العام للأونيسكو، لأشغل منصب مدير قسم الشباب. وهكذا ذهبت للإقامة في باريس.

بعد وقت قصير، عُيِّن بكروان سفيراً لإيران في فرنسا. كنت أراه من وقت لآخر. وكانت علاقتنا صريحة جداً وتسودها الثقة من غير حاجة للشكليات. ذات يوم قلت له: «أنا لا أفهم الشاه. لماذا استغنى عن خدماتك؟ بمقدورك أن تكون مستشاراً ممتازاً له».

فأجابني: «أولاً، الشاه لا يريد مستشارين. إنه لا يريد سوى منفّذين. ثم أننا لم يكن لدينا التصور نفسه لأجهزة الاستخبارات. غالباً، حين كان يطلب مني تقريراً عن هذا الشخص أو عن ذاك الوضع، كنت أقول له إني سأقوم بالأبحاث اللازمة وإنني سأجهّز له التقرير في أسرع وقت ممكن. لكني في كل مرة أسلّمه التقرير، كنت ألاحظ أنه لا يتوافق أبداً مع أمنياته. ما كان يريده في الحقيقة هو الحصول أولاً وبسرعة فائقة على ذرائع تسمح له بتبرير قرارات اتخذها بشأن أشخاص أمثال رئيس الوزراء والسفراء الأجانب أو حتى عائلته بالذات، وثانياً على أن يعرف مدير السافاك القراءة بين السطور وبفهم مرامه. الآن أفهم لماذا كان يُعنى ناصري بتسليمه تقارير ذات نبرة ومحتوى جديرين بإثارة إعجابه وسترى أنه سيبقى في وظيفته أطول وقت ممكن، إلا إذا دفعت قوة خارجية الشاه إلى تغيير رئيس السافاك».

وهذا بالضبط ما حصل لاحقاً.

حين قلت للساڤاك الذين كانوا معي في السجن: «أنتم الذين كنتم تعرفون جيداً الفساد المالي للطبقة السياسية ولأفراد كثيرين من العائلة الامبراطورية لماذا لم تذكروا ذلك أمام الشاه؟» فأجابوني أن «ناصري كان يردد دائماً أنه لا يستطيع أن يسلّم الشاه تقارير غير تلك التي كان يطلبها منه».

مكتب «استياء الشعب»

أثناء حديثي مع هؤلاء العملاء السابقين، اكتشفت أنه كان يوجد داخل غرفة الأمن الداخلي للمنظمة، قسم يدعى «مكتب استياء الشعب». بما أن الرئيس السابق لهذا المكتب كان في نفس القسم معي في إڤين، سنحت لي الفرصة عدة مرات للتحدث معه، كان مجازاً في الحقوق ولم يسبق له أن تورّط في الاعتقالات أو الاستجوابات أو أي عمليات من هذا النوع. شرح لي عن طبيعة التحقيقات التي كان يقوم بها مع معاونيه بشأن غلاء المعيشة أو التضخم أو النقص في المواد الغذائية وكل الظواهر التي يصطنعها غالباً المضاربون. تحدّث لي أيضاً عن تحقيقات متقدمة جداً حول أزمة السكن. هذا الملف بقي خلال سنوات ما قبل الثورة في عداد الملفات التي واجهها النظام ولم يجد لها حلاً عملياً. في جميع الحالات، كلّما تقدم المحققون في تحرياتهم، تعرّضوا أكثر للاصطدام بـ«رجال سلطة» محميين بشكل جيد. هؤلاء مَنْ كان يجب محاربتهم، ولكن الدائرة كانت عاجزة من دون مساندة الشاه. لذلك، كانت التقارير التي يعدّها المحققون تمر إلزامياً بناصري أولاً.

أسرّ لي الموظَّف السابق في الساڤاك أيضاً: «ذات يوم، دعاني ناصري إلى مكتبه. في البداية أظهر لي الودّ، ولكنه ما لبث أن أضاف: «مع تقديري للجهود التي تقوم بها، أحرص على أن أقول لك إن جلالته لا يحب إطلاقاً أن أسلّمه تقارير عن مواضيع لم يأمر بها. وبالتالي، ما هي فائدة تقاريرك؟ لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل بها. إنها تضعني في ورطة. وبعبارات أخرى، ما الفائدة من أن تكتب لي نصوصاً أجد لزاماً عليَّ تقديمها إلى جلالته، فيما أعرف جيداً انه لا يهتم بها. لذلك أقول لك: تابع تحقيقاتك، كنْ دائماً مستعداً ولكن لا تبعث لي بتقارير ما دمت لا أطلبها منك».

العبرة التي يمكن استخلاصها من هذه الحكاية هي أن الشاه لم يكن يرغب في الاستعلام من جهاز المخابرات عن مواضيع هامة مثل الرأي العام. وقد سنحت لي

فـرص أخرى لاستنتـاج هذا الأمـر. خلال أحـد الاستجوابـات التي أجـريت معي، كشف لي أحد القضاة الإسلاميين وهو يحمل في يده ملفاً ضخماً ـ ملفاً أعـدّه السافاك بخصوصي وهو يتعلق بتقرير خطير نوعاً ما أجـري عام ١٩٦٨ عن المعهـد الذي كنت أديره آنذاك[٩] ـ مرفقاً بالملاحظات التي عقّب بها الشاه على هذا التقريـر: «لماذا تقـارير هذا المعهد تشدد على النقاط الضعيفة لمشـاريعنا بـدل التركيـز على الإنجـازات الكبيرة التي قمنا بها؟». وهذا يظهر أنه كان يبدي حيال تقارير معهد علم الاجتماع الانزعـاج نفسه والدهشة نفسها التي كان يبديها حيال أجهزة مخابراته بالذات.

إنّ منطق هذه الحالة النفسية يفسّر على الشكل التالي: حين يصبح الـرئيس عاجـزاً عن السماح بأيـة معارضـة مفتوحـة في الصحف أو في البرلمـان، ينتهي به الأمـر حتـماً للوقوع في جنون العـظمة بحيث لا يعـود يحتمل الانتقـادات حتى ولو كـانت طفيفة أو منقولة بشكل سري من قبل أجهزة مخابراته بالذات.

إذا كان عدد من المتخصصـين في المخابـرات، أمثال ألكسنـدر دو مارنش في كتـابه المنشـور عام ١٩٦٨[١٠]، قـد اعتقدوا أن بـإمكانهم إلقـاء مسؤولية سقـوط الشاه عـلى أجهزة مخابراته نفسها، فإن هـذا النوع من الإثبـاتات يـرجع قبـل كل شيء إلى جهـل بالطبيعة الحقيقية لنظام الشاه وآليته.

في هذا الكتاب، يعترف المؤلّف بأن صدّام حسين، بهجـومه عـلى إيران، قـد أساء التقدير بشكل فادح لمقاومة الشعب الإيراني أمام الغازي. وهو، في كتابه، ينتقد أيضاً نظام مخابرات الرئيس العراقي. على كل حال، صدام حسين سوف يسيء مرة أخـرى تقدير ردة الفعل الأميركية والعالمية حيال احتلاله للكويت عام ١٩٩٠.

إن اعتبـار نظام المخـابرات وكـأنه وحـدة ميكانيكيـة صرفة يمكن استبـدالها في أي وقت، قـادرة على السير في أي نظام سيـاسي ـ اجتماعي ينـطوي على تجاهـل مـطبق لحقيقتين: الأولى تتعلق بالسياق الاجتماعي للأنظمة التي تقيّد الحـريات حيث يخضـع عملاء المخابرات لنفس الإرهاب ونفس المراقبة الذاتية التي يخضع لها سائر المواطنين، والثانية تتعلق بتصرف رئيس سلطوي يتقن لعبة المرايا وينتهي به الأمر إلى قولبـة نظام مخابرات ليصير لا عمل له إلا إطراء استيهاماته.

كل هذا يُظهر أن حاكماً طاغيةً لا يمكنه أن يرضى طويلاً عن نظام مخابرات ينقل لـه الحقائقَ. فالشرطـة الأكثر كمـالاً تصير في النهـاية بـين يديـه أداة غير مجـدية، حتى في

الأمور التي تخصه. بعضهم يعتبر أن الأمور كانت سوف تسير في إيران الشاه كما سارت في عراق صدّام لو أنّ رؤساء المخابرات كانوا رجالاً أكثر شجاعة. لو كان الأمر كذلك، لما سقط الشاه، حسب رأيهم، ولما هاجم صدام حسين إيران أو الكويت. ولكن مثل هذا القول هو تجاهل للظروف الخاصة التي يعمل فيها جهاز سرّي في ظل نظام سلطوي.

الشجاعة هي، عند الموظّف، مزية إنسانية ينبغي على رؤسائه دائماً الإمعان في تقويتها في أعماقه والإعلاء من شأنها. وينبغي على الموظف بدوره أن يقدر من خلال إعطاء القدوة، على تطويرها عند معاونيه هو بالذات. لكن هذا غير ممكن الحصول في ظلّ نظام الحكم الفرديّ. وبعبارات أخرى، لكي يعمل نظام مخابرات بشكل صحيح، لا يكفي أن يُتاح له، بطريقة شكلية بحتة، قول الحقيقة، بل يجب أيضاً تشجيعه دائماً للبحث عنها، حتى ولو كانت المعلومات التي أوكل إليه جمعها موجّهة إلى شخص واحد فقط. في ظلّ نظام حيث كل الناس البارزين يدينون بمناصبهم فقط إلى المهارة التي يبدونها في الالتفاف على المحرّمات والتستير على حقائق مزعجة، لا يمكننا أن نفهم كيف يستطيع جهاز ورئيسه أن يكونا الوحيديْن اللذين يكرسان نفسيهما للتفتيش عن الحقيقة دون إثارة غضب الحاكم الطاغية في الوقت نفسه.

مثال آخر يظهر أن الشاه لم يكن راغباً حقاً في معرفة الطريقة التي تسيّر فيها أمور البلاد. في الواقع، كان الشاه قد أنشأ عام ١٩٥٨، متعدياً سلطاته، هيئة تفتيش امبراطورية تابعة له. كانت الهيئة تتألف من موظفين سابقين في الوزارات اختيروا في أغلبيتهم من بين الأكثر كفاءة ونزاهة. كان هدف الهيئة يقوم على وضع حد للتهاون والفساد المستشريين في أجهزة الدولة كلها. ولكن، وبالرغم من التحقيقات المتقدمة التي قامت بها الهيئة في مختلف المجالات، فإن نشاطها لم يسهم في تحسين إدارة نظام الشاه.

إن جهاز المخابرات ليس آلة يمكن إدارتها على نحو ما يدار أي جهاز سياسي أو قضائي. الشاه كان ضحية هذا الوهم.

قد يكون من المجدي في هذا الخصوص نقل حوار جرى مع عبد الله انتظام. كان انتظام، وهو وزير خارجية سابق، يعرف الشاه منذ عام ١٩٣٦، حين كان هذا الأخير يتلقى دروسه في مدرسة روزي في سويسرا. انتظام بكونه عضواً في منظمة الأمم في

جنيف، ظل أحد أصدقاء الشاه الحميمين، حتى صعود جنون العظمة الملكي. أسرَّ لي أن الملك كان يود أن تكون منظمة السافاك شبيهة بـ «الأنتليجنس سرفيس». وهذا الإعجاب راجع، بحسب رأيه، لسببيْن رئيسييْن: أولاً، لأن الشاه نشأ في ظل النفوذ العالمي لإنكلترا الذي لا جدال فيه، حين كان نظام المخابرات الانكليزي (أنتليجنس سرفيس) عارفاً بكل الأمور. وثانياً لأن الشاه كان يعلم جيداً ان الانقلاب الأنكلو ـ أميركي عام ١٩٥٣ ضد مصدق كان نتيجة تعاون الـ «سي أي إيه» و«الأنتليجنس سرفيس»، مع أنه لم يكن مصدقاً في البداية لنجاح العملية. هذا ما حصل وفق ما يرويه الصحافيون الأجانب: في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٥٣، عند الساعة الثانية، وفيما كان الشاه يتناول طعام الغداء مع ثريا في فندق «اكسيلسيور» في روما، جيء له ببرقيات طارئة. فأخذ يقرأها ويعيد قراءتها بيد مرتجفة، كي يتأكد فعلاً من أنه يستطيع العودة إلى إيران. في الحقيقة، كان معجباً بالاستخبارات الأنكلو ـ أميركية ويخاف منها في الوقت نفسه.

فيما بعد، حين قام بزيارة رسمية إلى بريطانيا العظمى، يروي انتظام، سأله البروتوكول الإنكليزي عمّا إذا كان يرغب في إجراء تعديلات على البرنامج المقرّر، قال الشاه إنه يودّ الاطلاع على وثائق «الأنتليجنس سرفيس» المحفوظة في «سوسكس». وبرغم دهشتهم، انصاع المضيفون لرغبته ونظّموا الزيارة في نطاق من السرية الكاملة. وأظهروا له نظام التنسيق ونوع المعلومات التي تحتويها الوثائق بخصوص البلدان والأحداث ورجال السياسة. بعد ذلك، طلب الضيف الامبراطوري أن يرى ملفّه هو بالذات وملف والده. لم يعرف أحد ماذا وجد في ملفه. ولكن من المعروف أنه تفحّص طويلاً ملفَّ أبيه واستطاع أن يستنتج من خلال التقارير المتلاحقة لعملاء الأنتليجنس سرفيس، أن والده كان مستهدفاً من المنظمة مذ كان نقيباً في فرقة القوزاق، أي قبل أن يصبح الجنرال رضا خان بوقت طويل. كان الشاه يحتفظ بذكرى مروّعة عن زيارته لسوسكس التي عزّزت في الوقت نفسه إعجابه بالمنظمة وتخوفاته حيال السياسة الإنكليزية. لكن الشاه لم يدرك، فيما يخص نظام المخابرات الإنكليزية، أن الأمر يتعلق بجهاز منفصل تماماً عن الشرطة، حيث همّ العملاء الدائم تجنب استخدام القوة ما أمكن لهم ذلك. أما السافاك فكان، بخلاف ذلك، جهاز مخابرات وشرطة سياسية وعملاؤه معرضون دائماً لامتحان تجربة القوة من أجل الحصول على معلومات.

من جهة أخرى، «الأنتليجنس سرفيس» تعمل في نظام حقوقيّ - سياسيّ حيث للبرلمان والصحافة والقضاء الخيار في انتقادها في حال تعدّت الحقوق المعطاة لها، مما يرغمها بالضرورة على التزام الحذر الشديد.

أخيراً، يجب الاعتراف أنه بالرغم من الشهرة التاريخية لنظام المخابرات الإنكليزي والأميركي اللذين اعتبرا في الخمسينات والستينات عارفيْن بكل خفايا الأمور، لم يقدرا مع ذلك على استباق عدد من الأحداث المصيرية. بشكل عام، يجب إزالة المطلقية عن يقينية أجهزة الاستخبارات أيّاً تكن الأنظمة التي تعمل في كنفها وبوجه خاص، الأنظمة السلطوية حيث لا يمكن لأحد أن يفلت منْ شباك الرقابة الذاتية.

معلومات قليلة أو أكثر من كافية

أثناء حديثي مع ضبّاط قدامى، علمت في الواقع أن الشاه كان يتلقى، بالإضافة إلى تقارير السافاك، ملفّات تقدمها الشُعب الثانية في الجيش البري والبحري والدرك. وكانت الشرطة من جهتها، تعدّ له تقارير عن نشاطات بعض التجمعات السياسية في الأسواق التجارية والجامعات والأوساط العمالية. فيما بعد، أخذت أجهزة التلفزيون والراديو تبعث بدورها للملك وبعض المسؤولين الكبار نشرة عنوانها «أخبار غير منشورة»، حيث يمكن أن نجد معلومات وتعليقات تصدر عن وسائل إعلام خارجية بخصوص إيران، ولكن الرقابة تمنع نشرها في البلاد.

فيما كنت أواصل أبحاثي بعد قيام الثورة الإسلامية، كنت أذهب من وقت لآخر للاطلاع على وثائق وزارة الإعلام حيث عثرت هناك على النسخة الأخيرة للنشرة المذكورة آنفاً التي أصبحت سميكة جداً (من ٥٠ إلى ٦٠ صفحة) حين أصبح النظام على وشك الانهيار.

كان الشاه يتلقى يومياً بمعدّل عشرين تقريراً سياسياً، ثلاثة أرباعها معدّة له خصيصاً. كانت هذه التقارير تحفل، على جميع الأصعدة، ومن ضمنها الصعيد الشخصي، بتفاصيل تعبر عن تلهّف المُرسَل إليه. إذاً لم يكن الشاه مطّلعاً على الأمور بشكل سيِّىء، وإنما يمكن القول إنه كان مطّلعاً أكثر من اللزوم في بعض الجوانب. ولكنه لفرط ثقته بنفسه، لم يكن يريد مناقشة هذه المعطيات ولا تحليلها مع أيّ كان، لأنه يعتبر أنه يتمتع، بهذا الخصوص، بامتياز امتلاكها وحده.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن هذه المعلومات لم تكن قادرة على تزويد الشاه برؤية شاملة للأمور، لأنه هو نفسه عينٌ لها ميادين تقصٌ معينة. كانت المعلومات التي يمتلكها الشاه لوحده قبل تفشي الأزمة في البلاد، تسمح له بالسيطرة على حاشيته فيبدو وكأنه سيد اللعبة الحقيقيّ. لكن هذا الامتياز الظاهري سرعان ما أصبح، مع ظهور البوادر الأولى للأزمة، عائقاً جدياً. لم تكن التقارير تعكس حقيقة ما يجري في المملكة. وأصبحت التقارير تزداد تناقضاً كلما ازدادت الأزمة حدة.

كان الشاه يفتقر إلى الرؤية الشاملة لأنه فضل البقاء مع استيهاماته الشخصية بدل أن يتبع طرقاً أخرى. أستطيع أن أعطي مثلاً في هذا الخصوص. قبل عامين من قيام الثورة، وعند رجوعي من جولة في أوروبا، قلت لهويدا، رئيس الوزراء في تلك الفترة، إنني لاحظت أن هناك صورتين لإيران تزدادان تباعداً: هناك أولاً صورة إيران الرسمية المزدهرة السائرة على طريق التقدم المذهل حيث كل شيء كامل. وثانياً، صورة إيران المستائين بصداها الأكثر إثارة للاحتجاج في الخارج. صورة إيران في الخارج هي عبارة عن بلدٍ نامٍ حيث الشعب المستغل يمنعه السافاك كلياً من الكلام. وسائل الإعلام إضافة إلى المفكّرين الغربيين أخذوا يثقون بهذه الصورة تدريجياً. لكن الأخطر من ذلك، أن المئتي ألف طالب إيراني الموجودين في الخارج والذين يُفترَض بهم عمّا قريب توجيه الأمة، كانوا متأثرين أيضاً بهذه الرؤية السلبية للأمور. إذاً كنا على أهبة الدخول في وضع تصادمي، ووجب الخروج من هذا الانفصام الوطني.

سألني هويدا ماذا أقترح. فأجبته: «هناك معاهد أبحاث مختصة باستطلاع الرأي في العالم تدرس جدياً هذا النوع من المسائل. يمكننا اللجوء إليها شرط أن تتمتع بالحرية الكاملة لإنجاز مهمتها».

ردَّ رئيس الوزراء: «هذه فكرة ممتازة! أطلب منك أن تبدأ منذ الآن باستشاراتك لكي تتحقق من أفضل مركز استطلاع وتباشر هذه الدراسة على وجه السرعة».

اتصل في حضوري برضا قطبي، مدير الراديو والتلفزيون، طالباً منه التعاون معي والتكفّل بنفقات هذه المهمة. بعد شهرين من هذا الحديث، ذهبت إلى ميشال بونغران في باريس وهو أحد المختصين الفرنسيين البارزين في هذا المجال، من أجل دراسة الشروط لإجراء هذا البحث.

السيد بونغران شكل في الحال فريقاً من المختصين البارزين من أجل تشخيص

الأسباب الداخلية والخارجية للصورة السيِّئة لإيران، ضمن أكبر قدر ممكن من الموضوعية. ودعا بيار ديل رئيس الـ Sofres، أول جهاز فرنسي للاستطلاع، والعالم السياسي ألان لانسلو (المدير الحاليّ للعلوم السياسية) واندريه لابريدير المختص بالاستطلاع.

رضا قطبي وأنا أمَّنا لهم كل التسهيلات الممكنة ونظَّمنا اللقاءات بينهم وبين الخبراء الإيرانيين. قاموا بجولات في أنحاء المملكة من الشمال إلى الجنوب، ثم قدموا في ربيع ١٩٧٨ تقريراً بالمعطيات التي حلّلوها وبانطباعاتهم. في تلك الفترة، لم يعد هويدا رئيس الوزراء ولكنه بقي على أية حال وزيراً للبلاط. وكانت الشاهبانو فرح على علم بهذه الدراسة وتهتم بها عن كثب. ومع ذلك فإن أحداً لم يجرؤ على ايصالها إلى الشاه، لسبب بسيط وهو أنَّ النتائج لم تكن متوافقة مع الفكرة التي يملكها الشاه عن الوضع في إيران[11].

كون الشاه حاكماً أوتوقراطياً كان يمنعه من استشارة المحيطين به. على كل حال يجب الاعتراف أن هؤلاء لم يكونوا يوماً قادرين على تقديم نصيحة مفيدة. لم يقرر الشاه استشارة الآخرين إلا في النهاية، حين أصبح الوضع مشوّشاً وفالتاً من أي رقابة. كنت في عداد هؤلاء الآخرين ولكن، مرةً أخرى، بعد فوات الأوان.

نتائج الاجتماعين أو الثلاثة التي أدارها في نهاية حكمه مع المسؤولين العسكريين والمدنيين تُظهر أنه كان حائراً بشكل كامل، وغير قادر على إدارة المناقشات أو استخلاص عِبَر منها في الوقت نفسه. يجدر القول إن الحاكم المطلق يفضل دائماً تقريراً مكتوباً على إجراء حوار مباشر مع الناس، أياً تكن كفاءتهم وأياً يكن إخلاصهم، لأن التقرير المكتوب يمكن أن يحفظ في أحد الأدراج لإجراء ما يلزم، ولا يورّط في أي حوار مع شاهدٍ ما. لهذا السبب قال لي بكروان قبل ذلك بسنوات إن الشاه كان يُفضّل الخدم والمنفذين على المستشارين.

حين وضعت الأزمة، أوزارها، سارع المحيطون بالشاه والطبقة الراقية بأكملها إلى إلقاء المسؤولية على الخارج أو على السافاك. ولكن هذا القول عبثي فيما يخص السافاك لأنَّ مصيره كان مرتبطاً بمصير العرش ولا يمكن خيانة الشاه. الصحيح أن السافاك قد انفجر بشكل حاسم على الصعيد النظري كما على الصعيد التنظيمي. أعلمني أصدقائي في إڤين أن الأميركيين، حين ساعدوا السافاك في الوقوف على قدميه في

عامي ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، أعلنوا ثلاثة مبادىء أساسية وهي أولاً أن النظام الإيراني مهدّد بالأفكار الشيوعية وثانياً أنّ الدعاية الشيوعية، تنتشر من خلال منظمات، وثالثاً أن الخطر يتسرب دائماً من الخارج.

وهكذا، كان يقول موظفو السافاك: «كل إحساسنا ومهارتنا كانا مصوّبين إلى هذه الاتجاهات الثلاثة. غاب عن بالنا أن الحركة الإسلامية النابعة من الداخل، كانت تنتشر عبر آليات قديمة وليست بحاجة لأية منظمة...».

وقالوا لي أيضاً إنهم كانوا يحضرون بانتظام ندوات لكبار الخبراء الأميركيين والأوروبيين في المخابرات ولمختصين بالاضطرابات السياسية، لكنَّ أحداً لم يحذّرهم من الخطر الذي يمثّله الاسلاميون بالنسبة للعرش. كان السافاكيون السابقون يرددون قائلين: «إن كل ردات فعلنا وكل تفكيرنا كان مصوّباً منذ عشرين عاماً إلى نقطة واحدة وهي الخطر الأحمر».

لم يعلمهم الخبراء الغربيون ـ ومن بينهم الإسرائيليون الذين هم على احتكاك مباشر بالمسلمين ـ بأن الدين يمكن أن يقود إلى ثورة. كان موظفو السافاك الرسميون، الذين يبلغ عددهم حوالى خمسة آلاف شخص، يستفيدون من خدمات مئات الآلاف من المخبرين، الذين يُدعون «المصادر». بما أن هؤلاء الموظفين لم يكن مسموحاً لهم معاشرة سوى عدد قليل من الأشخاص، ومن بينهم أقاربهم، كانوا يجدون أنفسهم إذاً معزولين، لا سيّما وأن السمعة الرهيبة للبوليس السرّي جعلت منهم أناساً لا يمكن معاشرتهم ومشبوهين حتى داخل عائلاتهم.

وأوضح لي زملائي السجناء أن الناس الأكثر قرباً منهم، أي حتى أهلهم، كانوا يتجنبون التحدث، في حضور السافاكيين، عن أي موضوع يتعلق بالسياسة. وهذه العزلة كانت تجعل موظفي السافاك أكثر خضوعاً لمخبريهم الذين لم يكونوا معروفين من قبل الشعب. منذ صيف ١٩٧٨، أي منذ كانت البلاد غارقة في الأزمة، أخذ المخبرون وخصوصاً المتطوعين منهم، يبتعدون عن موظّفي السافاك. وبما أن هؤلاء الموظفين كانوا يجرون تقاريرهم استناداً إلى المعطيات التي تجمعها «مصادرهم»، وجدوا أنفسهم دفعةً واحدة متروكين ومنقطعين عن كل شيء. لقد أصبح السافاك غير مجدٍ، ووُضع خارج اللعبة قبل رحيل الشاه... وتجدر الإشارة إلى أنَّ ناصري، مدير السافاك، خلال ثلاثة عشر عاماً، قد أقاله الشاه من منصبه بداية عام ١٩٧٨ وعيّنه سفيراً في باكستان لإبعاده. فيما بعد استدعاه من جديد وأعاده إلى منصبه على أمل

تهدئة الخواطر، عندها أحسّ عملاء كثيرون أن الشاه قد تخلى عنهم.

لا أحد يجهل السبب الحقيقيّ لهذا التغيير. منذ وصول جيمي كارتر إلى البيت الأبيض في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧ والإدارة الديمقراطية تنتظر من طهران دلائل محسوسة عن تقدم النظام نحو الليبرالية، والشاه، الذي لم يكن يجهل أن السافاك يشكل قبلة المعارضين، أراد أن يعطي الأميركيين شهادة على حسن نواياه.

استطاع السافاك أن يحقق فيما يتعلق بالتجسس ومكافحة التجسس تقدماً ملحوظاً. لأن إيران كانت فعلاً قليلة الخبرة في هذا المجال. مُذْ أنشأ الشاه رضا في الثلاثينات جيشاً معاصراً بمعونة الضباط الفرنسيين، لم تكن الشعبة الثانية تهتم في الواقع إلا بالمعلومات التي تتعلق بأنظمة الدفاع في البلدان المختلفة. مع إنشاء السافاك، وبفضل إسهام الخبراء الأميركيين والإنكليز والإسرائيليين هذه المرّة، تمَّ تأسيس جهاز يسمح ليس فقط بجمع المعلومات العسكرية وإنّما السياسية والاقتصادية أيضاً، بالإضافة إلى إعداد كوادر متمرسة بالوسائل المعاصرة لمكافحة التجسس.

خلال السنوات الأولى من إنشائه، اهتمَّ السافاك بشكل أساسي بالبلدان الشيوعية والعربية، وخصوصاً من زاوية تطور علاقاتها بإيران. خلال الستينات، كان هدفه الرئيسي مصر وعبد الناصر الذي كان الشاه يمقته. ثم جاء دور ليبيا وسوريا وأخيراً العراق الذي كان الشاه دائم الحذر منه.

وقد فتح السافاك ثغرة جدية مع بلدان الخليج الفارسي، لأن سياسة الشاه في هذا المجال كانت تعتمد على اكتساب ود الشيوخ ومنحهم حماية ترتدي طابعاً أقل أبوية من حماية العربية السعودية.

لكن المجال الذي أدت فيه الدبلوماسية الرسمية ووسائل تجسس السافاك الخدمات الجلّى للشاه هو ميدان منظمة الدول المصدرة للنفط. كان الشاه في الواقع يدير شخصياً السياسية الإيرانية في قلب هذه المنظمة ويمكنه استعمال المعلومات المتعلقة بالسياسة النفطية للبلدان العربية الواقعة في الخليج الفارسي، بشكل مباشر وفعّال. بما أنّ أكثرية أعضاء هذه المنظمة مجاورة للخليج، فإن الشاه وجد نفسه يكد ويتعب لمصلحة غيره.

وقد نظم السافاك بخصوص أفغانستان شبكة تعمل كما يجب، حتى أنه استطاع أن ينبّه الأميركيين منذ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ - أي قبل ثلاثة عشر شهراً من

اجتياح الجيوش السوفياتية البلاد - إلى تدخل محتمل للسوفيات. ولكن الأميركيين لم يأخذوا الأمر على محمل الجد طالما لم تؤكده الـ «سي أي إيه».

شاي صيني

أخبرني زملائي السجناء أنَّه في الحرب الشرسة التي كانت تخوضها منظمات المخابرات فيما بينها، ظلّت الـ «ك. جي. بي» تشكّل المنافس الرئيسي الذي يضاهي السافاك والذي كان يحدّ في أكثر الأحيان من نشاطات البوليس السرّي. كان دبلوماسيّو البلدان الشرقية يتلقون، حسبما روى لي زملائي في الزنزانة، تدريباً منظماً على مكافحة التجسس قبل رحيلهم إلى طهران. وقد تأكّد موظفو السافاك المكلّفون بمراقبتهم من هذا الأمر، إما عن طريق مراقبة تنقلاتهم وإما من خلال تفتيش بيوتهم (أثناء النهار حين يكون الأمر متعلقاً بغير المتزوجين، وأثناء عطلات نهاية الأسبوع حين يكونون خارج طهران) وإما بالاستماع إلى أجهزة التنصت الموضوعة في غرفهم. من كل ذلك، استطاع موظفو السافاك أن يدركوا أنَّ الدبلوماسيين المذكورين قد اتخذوا كل التدابير اللازمة في مسألة مكافحة التجسس.

وأخبروني أيضاً قصصاً على قدر من الأهمية في هذا المجال. مثلاً، حين افتتحت أول سفارة للصين الشعبية في طهران، اكتشفوا، عبر أجهزة التنصت، أن الدبلوماسيين الصينيين تسلّموا في بكين لائحة بالضباط الإيرانيين الذين يجب الاتصال بهم. وهكذا استطاع موظفو السافاك بسهولة تامة اكتشاف المتعاملين الإيرانيين قبل أن يحاول الدبلوماسيون القيام بأي مسعى. واكتشف السافاك أن الأمر يتعلق بأحفاد لزارعي الشاي الصينيين جاء بهم متعهّد إيراني (كاشف) إلى إيران من أجل إدخال زراعة الشاي إليها. كانت المخابرات الصينية تأمل دون شك أن تكون روابط الدم من القوة بحيث تدفع هؤلاء الضباط الإيرانيين ليصبحوا عملاءً لهم.

كل ذلك يظهر نهم وكالات المخابرات الأجنبية واتساع نشاطاتها في آن. ولكن من المناسب الإشارة إلى أن عملاء البلدان الشيوعية لم يكونوا مهتمين إجمالاً بالنشاطات السياسية للمنظمات الإيرانية، بل كانوا يفتشون بالأحرى عن الحصول على معلومات اقتصادية وتقنية وحربية. كانت هذه هي الحال منذ قرر نيكسون أنَّ بمقدور إيران الحصول ابتداء من عام ١٩٧٢ على كل نماذج الأسلحة الأميركية الأكثر تعقيداً، ومن دون شروط.

وبالمقابل، كانت المخابرات الغربية وأفضلها جهاز المخابرات الإنكليزية، تهتم قبل كل شيء بالمعاهدات التجارية التي يعقدها الإيرانيون مع صناعيين أجانب، ولم تكن تسعى إلّا إلى مساعدة شركاتها الصناعية هي بالذات.

أما بالنسبة لفعاليّة مختلف أنظمة المخابرات، كان موظفو السافاك يضعون في المرتبة الأولى الـ ك. جي. ب. ثم تأتي تباعاً وكالة المخابرات الإنكليزية فالموساد الإسرائيلي فـ السي. أي. إيه التي كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنشاطات السافاك. منذ عام ١٩٧٢، وهو العام الذي كانت فيه العلاقات الإيرانية ـ الأميركية في أحسن أحوالها، أوضح الشاه للأميركيين أن بإمكانهم، فيما يتعلق بالحيلة السياسية الإيرانية، وخصوصاً بتحركات الجماعات اليسارية المتطرفة سواء كانت على علاقة بالاتحاد السوفياتي أو بسواه، الاعتماد على السافاك. وطمأن نيكسون، بالمقابل، الشاه بأن الـ سي. أي. إيه أوقفت تجنيد عملاء لها إلى إيران. وهذا الإجراء أرضى الشاه: فرعاياه (وخصوصاً كوادر الجيش) لم يعودوا يخشون أن يصيروا «جواسيس دولة كبرى أجنبية»، حتى ولو كانت الحليف الأكبر لهم.

أما بالنسبة لنوعية التدريب الذي تلقاه السجناء السافاك من معلميهم الثلاثة الإنكليز والأميركيين والإسرائيليين، فقد لاحظ موظفو السافاك أن الإنكليز والأميركيين لم يعلّموهم إلّا جزءاً مما يعرفونه. لكن الإسرائيليين، بخلاف ذلك، لم يُظهروا التحفظ نفسه وأبدوا انفتاحاً وصراحة أكبر.

المخابرات الفرنسية، من جهتها، لم تكن تتعامل مع السافاك إلا في مجال تبادل المعلومات بخصوص البلدان الشيوعية، بهدف حماية عملائها في هذه البلدان، كما كانت تتعامل في رومانيا. وخارج هذا التعاون، كانت المخابرات الفرنسية تهتم بترسيخ الاقتصاد الفرنسي في إيران، وتسعى للدفاع عن مشاريعها السداسية في مواجهة الهيمنة الأميركية. كما كانت مهتمة جداً بالإبقاء على الفرانكوفونية هناك[١٢].

كان موظفو السافاك يخبروننا دون كلل عن مآثرهم حيال مختلف أجهزة المخابرات الأجنبية. في فترة ما، كان هناك في إيران، حسب قولهم، أكثر من عشرة آلاف سوفياتي يعملون مثلاً في مصنع للفولاذ في أصفهان، أو في مستشفى مشهور حيث كانوا يتولون إدارته بشكل كامل. يضاف إلى هذا العدد جماعة من الخبراء الوافدين من مختلف بلدان أوروبا الشرقية. كان موظفو السافاك يفتخرون بأنَّ ضباط المخابرات

الغربية الـذين دربوهم خـلال السنوات الأولى من إنشـاء السافـاك ، أخذوا يتجهـون إليهم للحصول على معلومات لم يستطيعوا تدبرها من مكان آخر.

أثنـاء إصغائي لأحـاديثهم، اكتشفت نماذج من الـرجال الـذين لم أكن أعرفهم من قبـل. لاحظت أن الخيـال يحتل في أخبـارهم الحيز ذاتـه الذي يحتله الـواقـع. كـانـوا يذكرونني بهؤلاء الفلاحين الذين يهوون صيد الحمام والذين صادفناهم في طفولتنا حين كنا نذهب لقضاء الصيف في الجبل. كنّا، حين نسمعهم يروون قصصهم الجميلة عن الصيد، نُذهـل بشكل خـاص، أمام هـذا التحول المفـاجىء للخيال إلى حقيقـة. إن ذلك الذي لم يستطع بعد سـاعات طـويلة من السعي أن يصطاد حمـامة واحـدة، كان يسمح لنفسه أن يخبرنا عند المساء في ساحة القرية أنه استطاع أن يقتل خمسين واحدة. من زاوية ما للأمور، لم يكن ما يقوله كذباً في الواقـع لأنه قـد حدث لـه ذات يوم أن قتـل خمسين حمـامة، وهـو يحتفظ دائماً بـأمل تكـرار هذه المـأثرة. صحيـح أنَّ في الأمر اختـلاقاً ولكنـه غير بعيـد كثيراً من الحقيقـة، لأنَّه كـان يبـدو لي امتـداداً نفسيـاً عنـد الصيادين لمغامراتهم السابقة، خصوصاً وأن الصيد لم يكن بالنسبة لهم رياضة فقط بل رمزاً للغنى والنفوذ.

استعدت عند كثير من عملاء المخابرات هذا النزوع الطبيعي نفسه إلى الاستسـلام للخيال. الأمر الذي كان يقودهم في أكثر الأحيان إلى فهم كل ظاهرة سياسية ـ حربية من زاوية مخابراتية فقط والسعي إلى إعطاء معنى خفي لكل الأحداث البديهيـة. كانت فكرة التآمر تجول في رؤوسهم حتى ولو تعلَّق الأمر بحلفائهم أو بأصدقائهم.

كائن غريب

من اللائق هنا الكلام عن شخصية هـامة من شخصيـات النظام السـابق التي تمثل وجهاً غامضاً: الجنرال حسين فردوست. حسبما رواه لي الزمـلاء في السجن انه عمـل بحماسة لتأسيس منظمة السافـاك في أول عهدهـا وخصوصـاً في أجهزة المكتب الثـامن (الخاص بمكافحـة التجسس). كان زميـل الشاه في الـدراسة وصـديقاً حميماً له. تقلَّد لسنوات عديدة منصب المدير العام المساعد للسافاك وواصل اهتمامـه بالمخـابرات، حتى بعد تركه منصبه. أخبروني أن الشاه سـأل، أثناء جـولة قـام بها إلى المملكـة المتحدة، ملكة إنكلترا عما تفعله بخصوص التقارير التي تردها من مختلف الأجهزة. فأجابتـه أنه يـوجد في مكتب أمـانة السر عنـدها قسمٌ يهتم فقط بهـذه الوثـائق ويقدم لهـا كل يـوم

خلاصة عنها. قرر الشاه أن يحذو حذوها فأنشأ مكتباً خاصاً ووضع على رأسه الجنرال فردوست[١٣].

ولكن، ابتداء من عام ١٩٧٣، فقد هذا المكتب الكثير من أهميته لأنه كما رأينا آنفاً، كان الشاه يفضّل استلام التقارير التي تعنيه شخصياً من مختلف الأجهزة المختصة. إذاً مهمة التنسيق والتأليف التي عُهِدَ بها إلى المكتب الثامن في البداية، لم يعد لها ما يبرّر وجودها.

عينَّ الشاه، خلال السنوات الأخيرة من حكمه، الجنرال فردوست رئيساً لهيئة التفتيش الإمبراطوري. ولكن التقارير التي وضعتها الهيئة عن الفساد والتبذير ومساوىء البيروقراطية ودوائر الدولة لم تحث الشاه إطلاقاً على اتخاذ التدابير اللازمة لإصلاح الوضع. وأحسَّ الشاه بخيبة أليمة جداً عندما قبل فردوست التعامل مع سلطات الجمهورية الإسلامية ووضع في تصرفها جملة من المعلومات الهامَّة جداً من أجل إنشاء «مخابراتها» هي بالذات وضمان سير المحاكم الثورية كما يجب.

في الحقيقة، لا نعرف إلا القليل عن الدور الذي لعبه الجنرال في بدايات الثورة الإسلامية. يؤكد البعض أنَّ الجنرال حاول، عندما كانت الجماعات اليسارية المتطرفة تشن حملة عنيفة على الجيش والسافاك بهدف تفكيكهما، كما كان يحصل مع جميع المؤسسات التابعة للدفاع والأمن، حاول الجنرال أن يحمي العناصر المهمة في النظام السابق. . معرفته بالموظفين ساعدت دون شك قادة الثورة الإسلامية على أن يتحسبوا للطوارىء حين يتعلق الأمر بمحاكمة الرجال. ربما ساهم في إرسال البعض إلى الإعدام، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون المعلومات التي في حوزته قد سمحت لأناس آخرين من الإفلات من عقوبة الإعدام أو السجن.

كل ذلك يبقى حتى الساعة مكتنفاً بالغموض. فالشخصية الحقيقية والدور الحقيقي لهذا الرجل الذي ينتمي إلى الحلقة الأكثر إحكاماً من أصدقاء الشاه، بقيا هما أيضاً مجهولين.

نسر ضائع على الأرض

مع أنني تحدثت عن الجيش إجمالاً، إلاَّ أنني أود هنا أن أتحدث قليلاً عن القوات الجوية، لأني أجريت أحاديث طويلة مع قائدها الأخير: الجنرال مهديون البالغ من

العمر خمسين عاماً. كان مهديون طويل القامة ذا لياقة بدنية عالية. أضحى لعدة سنوات قائد العمليات الجوية قبل أن يعينّ غداة الثورة قائداً للقوات الجوية.

كان السجناء يتحدثون عنه في إڤين بصفته طيّاراً بارعاً قام بأربعة آلاف ساعة طيران. تدرّب في المعاهد الأميركية الكبرى وأنجز فيها بعد عدة دورات في الولايات المتحدة مع ظهور كل طائرة مقاتلة جديدة. شرح لي نظام إعداد الطيّارين المحاربين الإيرانيين. بعد قبولهم في الجيش، كان الطيّارون الشبان يتلقون تدريبهم في إيران، ثم يبعثون إلى أميركا ليتلقوا تدريباً أكثر تركيزاً لعشرين شهراً. خلال كل هذه المدة، كان عليهم أن يقوموا بمئتي وخمسين ساعة طيران على متن طائرة مطاردة. بما أن ثمن الساعة الواحدة يبلغ أربعة آلاف دولار، فإن هذا التدريب كانت تصل كلفته إلى مليون دولار. وإذا أضيفت النفقات الأخرى، يمكن أن نتخيل بسهولة العبء الذي يمثله هذا الأمر للجيش، خصوصاً وأن برنامج التدريب كان سيضم في سنة ١٩٨٥ حوالى خمسة آلاف طيار. عشية الثورة، كان الجيش يضم ألفي وخمسمائة طيار للطائرات المطاردة ذات المقعد الواحد، كانوا يضطلعون وحدهم بمسؤولية جميع العمليات التي تتطلبها الطلعات الجوية. وأخبرني مهديون بفخر أن الطيران الإيراني كان يمثل لجهة السرعة المرتبة الثالثة عالمياً بعد الولايات المتحدة وإسرائيل. وكان ثمانون بالمئة من الطيارين يطيرون يومياً مغطين أيضاً سماء البلدان المجاورة ويقومون بحوالى سبعين إلى ثمانين طلعة جوية في اليوم، عبر الأجواء الإيرانية العراقية مثلاً وحتى الحدود السورية. كانت بغداد تعرف ذلك ولكنها تعلم جيداً أن رفع الشكاوى غير مجدٍ لأن طهران لن تعبأ بهذا الأمر إطلاقاً.

خلال الجولات الطويلة التي قمت بها مع مهديون في باحة السجن حيث كانت مناقشاتنا تدوم أحياناً ساعتين أو ثلاثاً، أدركت حقيقتين أساسيتين.

أولاً، التبعية التكنولوجية واللوجستية للطيران الإيراني، بحيث أن قواعده في إيران كانت مدمجة مع القواعد الأميركية. كانت آلاف قطع الغيار مثلاً تُجلب مباشرة من الولايات المتحدة عبر جسر جوي، ويشرف على استعمالها خبراء أميركيون. وكان التموين يؤمَّن عبر جهاز كومبيوتر، يعمل آلياً دون تدخل إنساني. قبل أن تنفد الذخيرة في قاعدة جوية إيرانية، كانت القطع المطلوبة يوصى عليها من قاعدة في تكساس متناغمة مع إيران. كان شراء الطائرات وأجهزة الاتصال والكشف الأكثر تعقيداً على الأرض وفي الجو (أواكس) من ضمن البرنامج. كان لدى الشاه هاجس

الحصول في الواقع على النماذج الأكثر تطوراً حتى ولو بلغ ثمنها مليارات الدولارت، وكان الإيرانيون يظهرون أحياناً مهارات تكنولوجية أكثر تقدماً من الجيش الأميركي.

من جهة أخرى، سمحت لي أحاديثي مع الطيّار المحنَّك الجنرال مهديون أن أكتشف أي نوع جديد من الرجال ظهر في إيران. في واقع الأمر كان إقدامهم وحيويتهم الفكرية ولياقتهم البدنية العالية وصلابتهم في القتال الجوي، تجعلهم أقل قدرة على الاتصال بالناس ما أن يرجعوا إلى الأرض. العبادة التي كانوا يظهرونها لهذه التقنيات العالية والمتطورة بازدياد، ومجاورتهم الدائمة للخطر والموت؛ كل ذلك كان يجعل منهم رجالاً من عالم آخر، كي لا نقول أناساً متفوقين. كانوا يظهرون حيال سائر الفانين شعوراً بالتفوق والتعجرف ساهم إلى حدّ كبير في عدم تكيفهم الاجتماعي ـ النفسي. كانوا بالرغم من حساسيتهم العالية تجاه التقنية، يبدون مصفحين تجاه الإحساسات الثقافية والمدنية والسياسية ـ الاجتماعية لمواطنيهم. لم يكونوا قادرين إذاً على فهم دوافع هؤلاء المواطنين أو أسباب ثورة أتت لتطيح بالقيم التي تعلَّقوا بها. كانوا يشعرون بحنين عميق إلى نظام الشاه الذي قدّم دائماً دعمه إلى القوات الجوية خلال خمس وعشرين سنة، وإلى الولايات المتحدة التي بفضل تكنولوجيتها، كانوا أسياد الجو. وهكذا كانوا يظهرون سذاجة سياسية كبيرة. وليس مدهشاً أن يشارك الجنرال ـ الطيّار، مباشرة بعد أن عفت عنه المحكمة وأطلق سراحه، بمحاولة انقلاب. لقد ظنَّ بعض السياسيين الإيرانيين الطموحين انه بإمكانهم استغلال مقام الجنرال وجرّوا معه مئة وخمسين طيَّاراً في مؤامرة تهدف للإطاحة بالنظام الإسلامي بمساندة الطيران. لكنهم لم ينجحوا إلا في الوقوع في الشرك وقد أحيل عدد منهم إلى الإعدام رمياً بالرصاص، ومن بينهم الجنرال مهديون، في آب (أغسطس) ١٩٨٠.

إذا فكَّرنا بهيجان الجماهير الإيرانية خلال سنة ١٩٧٩، السنة الثانية للثورة، وبالشعبية الاستثنائية التي كان يحظى بها الخميني، نحتار أمام اتساع الجهل السياسي لهؤلاء الضباط وأمام الطيش غير المعقول لخطتهم التي كان اسم شيفرتها، اسم قاعدة جوية تدعى نوجي تقع قرب همذان.

حين نُقل إلى الإمام الخميني خبر محاولة الانقلاب هذه، قال بالنبرة الرصينة ذاتها التي عُرف بها: «هؤلاء الناس الذين قصفوا منزلي ومقر الجمهورية والمؤسسات الرسمية الأخرى، كيف لم يتصوروا أنه يُفترض بهم في وقت ما النزول على الأرض من جديد إذا كانوا يريدون الاستيلاء على السلطة؟». لأن الخميني كان يعرف جيداً

أن عليهم في النهاية مواجهة شعب أغلبيته الساحقة تؤيده تماماً.

المصادفة المفارقة، أنه بعد أسابيع قليلة فقط من إعدام منفذي الانقلاب العسكري الفاشل، في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠، هاجمت العراق إيران. وبدأ أحد أطول النزاعات وأشدها إجراماً منذ الحرب العالمية الثانية. غداة الهجوم العراقي، فاجأ الرد الخاطف للطيران الإيراني مجلس القيادة العراقي الذي كان يعتقد أنه مفكك. كانت السرية المؤلفة من ١٤٠ طائرة أف ٥ التي قصفت المواقع الاستراتيجية العراقية هي ما تبقى في الواقع من القوات الجوية الإمبراطورية. للقيام بهذا العمل، استعان الطيارون بالصور والتعليمات التي جمّعها الطيران الإيراني من قبل في ظل إدارة الشاه. والخميني ذاته أصدر على وجه السرعة عفواً خاصاً عن الناجين من مؤامرة نوجي، وأنذروا على الفور بالذهاب للدفاع عن الوطن وراء مقود طائراتهم المطاردة والقاذفة. ولم يتخلف الطيارون عن القيام بأعمالهم وقُتل كثير منهم أثناء القتال الجوي. وكان قادة الجمهورية الإسلامية الذين تجاسروا على طلب العفو لهم من الخميني قد ربحوا رهانهم إذاً. كان رجال الحرس الثوري الإسلامي الذين يظهرون تجاه هؤلاء الضباط المتغربين تماماً أكبر قدر من النفور، قد انتهى بهم الأمر إلى الانحناء بعد بضعة أسابيع أمام شجاعتهم وكفاءاتهم العالية كطيارين مقاتلين، وإلى إبداء الإعجاب والاحترام نحوهم. لقد أيقظ صدّام حسين عند هؤلاء «الخونة» إحساساً وطنياً تجاهله القادة الإيرانيون الإسلاميون أو قلّلوا من اعتباره. إن ظاهرة أخرى مماثلة حدثت في القوات البحرية.

ماسونيو فارس

وسنحت لي الفرصة في إفين التعرف على عالم آخر سريّ وهو العالم الماسوني. الماسونية الإيرانية كانت تشكل، لأسباب سنعرفها لاحقاً، الفريسة الممتازة للثوريين الإسلاميين الذين كانوا يستطيعون من خلالها توجيه صفعة للنظام القديم والتقليل من اعتباره على الصعيد المعنوي والروحي. منذ قيام الثورة، أُبعد الماسونيون عن الوظائف العامة. كانت المحاكم في مرافعاتها ضد قادة النظام الملكي توجّه اتهاماً إلى الماسونية يقوم على سعيها إلى ترسيخ نظام عائلة بهلوي والتواطؤ مع الأجنبي، إلخ. كان هناك سجناء في إفين وجهت إليهم هذه التهم.

الماسونية المنتشرة في جميع أصقاع الأرض لحمتها منظمة سرية يقرن أعضاؤها مثال

الاخوة والتضامن بممارسة بعض طقوس تُلقن للأعضاء الجدد.

في البداية، كانت المنظمات الماسونية مؤلَّفة من البنّائين. كان الماسونيون الحقيقيون المسمون بالعملانيين يسافرون إلى أوروبا منذ القرن السابع ويبنون فيها الكنائس بشكل أساسي. ولكنهم كانوا يبقون تقنيات بنائهم سرية وينقلونها فقط إلى تلاميذهم وفق قواعد تلقين خاصة. (لهذا تحتفظ المنظمات الماسونية، على سبيل الذكرى، حتى الآن بالمريول والبيكار والبوصلة كرموز أساسية). ابتداءً من القرن السابع عشر، انتشرت في بريطانيا وخصوصاً في اسكوتلندا الماسونية الحديثة التي دُعيت بالنظرية وهي تنشر الأفكار الليبرالية ولكنها تحترم في الوقت نفسه السلطات القائمة وتتعلق بالتقاليد أي بالكنيسة والنظام الملكي. محفل الشرق الأعظم الذي أُنشىء في فرنسا في القرن الثامن عشر، نشر في القرن التالي أفكاراً جمهورية وديموقراطية تستند إلى فلسفة وضعية معينة. على امتداد القرن التاسع عشر، انتشرت المحافل الماسونية الفرنسية المناصرة لأفكار الثورة الفرنسية، في أوروبا وفي الشرق الأوسط وبالتحديد في مصر وتركيا (الإمبراطورية العثمانية آنذاك) وفي إيران في ظل أسرة الكدجر.. وهكذا، في بداية هذا القرن، لعب عدد لا يستهان به من الرجال السياسيين الإيرانيين المستنيرين الذين كانوا أعضاء في المحافل الماسونية أو يستهلمون أفكارها، دوراً هاماً في النضال ضد الطغيان، وخصوصاً في ثورة ١٩٠٦[١٤] التي أدت إلى قيام نظام ملكي دستوري[١٥]. في تلك المرحلة البطولية حيث كانتْ الماسونية تتصرف كنصيرة الأفكار التقدمية والبرلمانية، توصَّلت الماسونية الإيرانية، تحت شعار علمنة الدولة، إلى كسر النفوذ الطاغي لرجال الدين وخصوصاً في مجالي القضاء والتعليم. من هنا احتفظ رجال الدين بحقد يخبو تجاه الماسونية.

ابتداءً من الحرب العالمية الأولى، أخلت الماسونية الآتية من فرنسا ذات الطابع الفكري والديمقراطي، المكان للماسونية البريطانية التي ازدهرت في جميع أنحاء الإمبراطورية وامتدت إلى البلدان المتاخمة لها، حتى صارت تُعتبر شكلاً من أشكال النفوذ البريطاني. تجدر الإشارة إلى أن هذا التحزب للإنكليز في أوساط السياسيين الإيرانيين كان مبرّراً في نظر المواطنين على انه ردة فعل تجاه اتساع النفوذ الروسي الذي بدأ يظهر في نهاية عهد القياصرة. ولكن مع وصول لينين إلى الحكم وتصريحاته عن وجوب تحرير الشعوب المستعمَرة، لم يعد التحزب للإنكليز مبرراً إلا لإرضاء مطامح شخصية. واستمرار نفوذ الماسونيين حتى وصول مصدق ـ الذي لم يلق الدعم منهم

على أية حال ـ إلى رئاسة الوزراء وتأميمه البترول في عام ١٩٥١. مع سقوط مصدق عام ١٩٥٣ ورجوع الإنكليز والأميركيين القوي إلى الحياة السياسية الإيرانية، ظهر الماسونيون على الحلبة بشكل متألق. لقد شغلوا عدة مقاعد في المجلسين ومناصب هامة جداً في جهاز الدولة، ولكنهم هذه المرة تخلوا تماماً عن المثل الديمقراطية لأسلافهم.

قرار الشاه بفرض شريف ـ إمامي، أحد رجاله المؤتمنين، زعيماً للماسونية الإيرانية وجّه ضربة قاضية لمبادىء الماسونيين الأساسية.

هذا التعيين الآتي من فوق لم يسمح بانتخاب حر خلافاً لما كان يتوقعه نظام الماسونيين[١٦].

وهكذا وجدت الماسونية نفسها في المرحلة الثانية من النظام (بين ١٩٥٣ و١٩٧٨) في خدمة هذا النظام وحصلت، كتعويض لها، على إمكانية الوصول إلى كل المناصب الهامة.

مع ارتفاع سعر النفط وانطلاقة المشاريع الاستثمارية الواسعة، أقبل رجال الأعمال الإيرانيون على المحافل الماسونية يضاعفون من مآدب العشاء الشهرية والسرية في صحبة الوزراء والمسؤولين الحكوميين الذين يدعونهم بـ «الاخوان».

أكثر من ثلاثة آلاف «ماسوني جديد» علّمتهم مبادىء الماسونية الأصلية التزام السرية التامة والتحفظ التام، أصبحوا الخدام الأكيدين والطائعين لنظام أوتوقراطيّ يحتاج إلى تكنوقراطيين غير فضوليين ومنصاعين. منذ وصولهم إلى الحكم عام ١٩٧٩، وجد رجال الدين الفرصة المثالية أمامهم لحسم النزاع القائم منذ بداية القرن بينهم وبين هؤلاء الماسونيين الذين نصّبوا أنفسهم حماة علمنة الدولة.

وهكذا تضاءل رصيد الماسونيين الإيرانيين المهتمين بخدمة السياسة الإنكليزية أمام الرأي العام. وأساء إليهم خضوعهم لإرادة حاكم أوتوقراطي تمت الإطاحة به، وجميع التخمينات التي يمكن أن يثيرها الطابع السري لنشاطاتهم. بعد أن اضطُهد رجال الدين وأذلوا من قبل أنتلجنسيا مغربة تجسّدها الماسونية، بات في استطاعتهم الانتقام بسهولة، إذ ليس في وسعهم أن يحلموا بفرصة أفضل لإبعاد الماسونيين من كل وظيفة عامة.

قد يكون بليغاً ألا يثير هذا الانتهاك لحقوق الإنسان أي احتجاج، لأنه في ظل المناخ السائد، كانت الشبهات التي تحوم فوق الماسونيين والأسرار التي تلف نشاطاتهم، تجعل مهمة المدافعين اللاماسونيين صعبة للغاية.

هل كان الماسونيون المتهمون مذنبين حقاً أم أبرياء؟ هل كانوا خونة للوطن أم خدماً له؟ الشك يبقى حتى الساعة سيد الموقف، ولكن الاستجوابات والاعترافات التي قام بها عدد كبير من الماسونيين وسجّلتها المحكمة الثورية وسوف تسمح يوماً ما بنشرها، ربما تجلو هذا اللغز.

رواق القلق
(الاعتقال الثالث)

(تموز ١٩٨١ ـ أيلول ١٩٨٣)

بعد إطلاق سراحي في نيسان (أبريل) ١٩٨٠، اتخذت حذري من الجامعة ودوائر الدولة استباقاً مني لكل سوء تفاهم محتمل مع النظام الجديد. كانت تجربة السجن قد علّمتني في الحقيقة أن القطاعات الراديكالية لهذا النظام لا تحتمل إطلاقاً المثقفين المستقلين وأن هؤلاء لن يكونوا إلا آخر من يستعيد حقوق المواطنية مهما يكن المنحى الحتمي الذي سيتخذه النظام في اتجاه الاعتدال. لذلك قبلت العروض التي قدمتها لي دور النشر لأعمل فيها كمدير لاختيار المؤلفات.. هذا النشاط كان يلائمني تماماً واستطعت خلال عام أن أشرف على خمسين عملاً (وهي ترجمات في أغلبها) تعالج مواضيع العالم المعاصر.

أربعة عشر شهراً كانت قد مرّت قبل أن يؤدي النزاع بين الرئيس بني صدر وبين رجال الدين المقربين من الإمام الخميني إلى قطيعة نهائية، أي إلى إقالة الرئيس الجديد. هذا القرار أثار نقاشاً في البرلمان وأدّى إلى تصويت يؤكد عدم كفاءة رئيس الدولة. خلال هذا النقاش الذي جرى في ٢٠ و٢١ حزيران (يونيو) عام ١٩٨١، رأينا للمرة الأولى أصدقاء الأمس يتنازعون علناً. يبدو أن بني صدر لم يدرك أنه، قبل سنة من انتخابه حاكماً أعلى، لم يكن معروفاً من قِبَل الشعب، وأن دعم الخميني ورجال الدين الشيعة سمح له في شباط (فبراير) ١٩٨٠ بإحراز اثني عشر مليون صوت. كان الرئيس الأول للجمهورية في بلدٍ لا يستطيع الملوك حكمه إلا «بمباركة ممثلي الله». كان بني صدر منذهلاً من هذا النجاح الذي يعود بشكل خاص إلى نفوذ

رجال الدين، فتصوّر بسذاجة أنه يستمد سلطته من الشعب، وأراد أن يمارسها على هواه. لكنه ما لبث أن اصطدم سريعاً بهم، هم الذين أقصوه في النهاية عن السلطة، كما يُصرف موظف من الخدمة.

خلال المناقشات التي جرت في البرلمان، طرح بعض النواب اسمي مرتين بحثاً عن أسباب تزيد في الهجمة الموجهة ضد بني صدر، واقتنصوا الفرصة ليلمّحوا إلى علاقتي به.. كان يعرفون مع ذلك تماماً أني ساعدت مناضلاً وطنياً شاباً قبل عشرين سنة لمغادرة إيران من أجل متابعة دروسه في أوروبا، وأني تصرفت معاكساً التيار السياسي السائد في ذلك الوقت. ثم أن إقامة هذا الطالب في الخارج كانت مثمرة جداً للقضية الثورية، لأنه، إذا كان قد تخلى عن مواصلة أبحاثه مع الأستاذ جورج بالانديه، فقد استطاع بالمقابل العمل خلال خمسة عشر عاماً على توحيد المعارضين لنظام عائلة بهلوي خارج إيران وإقامة جسر بين الطلاب الإيرانيين في أوروبا والولايات المتحدة وبين آية الله الخميني في منفاه في النجف آنذاك. هذا التقرب أتاح للخميني الخروج من عالمه التقليدي واعتناق أفكار أكثر عصرية وغالية على قلوب الشبان الجامعيين الإيرانيين.

النواب الذين أتكلم عنهم لا يستطيعون أن يتجاهلوا أنني تصرفت، في ما يتعلق بقضية بني صدر، بوحي من ضميري محترماً آراء الشباب السياسية، كما فعلت على الدوام. ولكن، نظراً لأن الصراع السياسي يميل حتى في أعرق الديموقراطيات إلى جعل السياسيين عمي البصيرة، لم يتردد هؤلاء النواب إذاً، بسبب الشهرة التي كنت أتمتع بها في أيام الشاه، من استغلال اسمي ظلماً لمهاجمة بني صدر وإظهاره كعنصر ألقى به النظام السابق في حضن الثورة.

في ١٩ حزيران، كنت أتناول طعام الغداء مع بعض الأصدقاء مستمعين إلى المناقشة البرلمانية عبر الإذاعة والتي كانت تجري في جو متشنج جداً. حين لُفظ اسمي، اقترح عليّ أحد الأصدقاء، وكان يقيم على مسافة عشرين كيلومتراً من طهران، أن أنزل بضيافته لبضعة أيام. بالرغم من تحفظات زوجتي التي لم تدع نفسها تتأثر بعنف الأحاديث الجارية في البرلمان، والتي كانت تعتقد أن المحكمة الثورية قد سبق لها واعتقلتني وتعرف جيداً ماضيّ، لن تعيد اعتقالي من جديد، إلا أني وجدت من الحكمة، في ظل مناخ الريبة السائد، أن أغادر المنزل.

بعد أن أمضيت بضعة أيام بعيداً عن العاصمة، دفعتني رغبة جامحة لرؤية ابني الأصغر البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، أن أعود للسكن قرب طهران عند إحدى بنات أختي. خلال أيام هذه الحرب الأهلية التي شنّها المجاهدون، انفجرت قنبلة في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٨١ في مقر حزب الجمهورية الإسلامية وقتلت أكثر من ثمانين من رجال الدين بينهم آية الله بهشتي رئيس محكمة التمييز والقائد السياسي الديني الأكثر نفوذاً بعد الإمام الخميني، وعدة وزراء ونواب. بعد أيام قليلة، في أول تموز (يوليو) بالضبط، تم اعتقالي.

كان حراس الثورة قد اقتفوا أثري خطوة خطوة. بعد أقل من نصف ساعة على وصولي إلى قريبتي في أعالي طهران حيث وجدت أخيراً ملجأ. حاصرت المنزل والحديقة فرقة من الرجال المسلحين، سدّوا كل المنافذ من القبو إلى السطح.

كنت موجوداً في المطبخ مع قريبتي التي كانت تعد أحد أطباقها المفضلة: القريدس على الطريقة الشيرازية المقلية مع شرائح البصل. الشعور الغامض بوجود غريب في البيت أدار رأسي باتجاه الصالون. وفجأة وقع نظري على رجل كان يراقبني بصمت وابتسامة غريبة تعلو وجهه. ورأيت في اللحظة نفسها عشرة رجال مسلحين متمركزين حول البيت. كنت طريدتهم.

تصنّع الرجل ودّاً معيناً ثم أخذني بلطف من ذراعي قائلاً لي:

«تعال، نريد فقط طرح بعض الأسئلة».

ثم، بنفس اللطف المتصنع قادني حتى الباب حيث كان حراس آخرون في انتظاري وسيارة مرسيدس.

لم أسمح لنفسي أن أقع في الأوهام من جديد: «الحديث» الذي دُعيت إليه سيكون طويلاً. طويلاً جداً حتى. من الأفضل إذاً التهيؤ له. طلبت من رئيس حراس الثورة السماح لي بإحضار حقيبتي لأضع فيها بعض الأغراض والحاجيات الضرورية: بيجاما وكتاب وقلم وفرشاة أسنان. وافق دون أن يحاول إقناعي بالعكس، كاشفاً بذلك عن الهدف الحقيقي لمهمته: لم يأت لحديث بسيط كما كان يدعي، بل لإلقائي في السجن.

خلال الدقائق العشر لانتظاري في السيارة، يحيط بي حرّاس، كان فكري نهباً لنشاط هائل. أفكار مضطربة وذكريات مقلقة أخذت تتدافع في رأسي بشكل فوضوي. أخذت أتذكر على وجه الخصوص المحاكمة التي رواها لي أصدقاء مقربون

والمتعلقة بالرئيس الهنغاري لازلو راجك، وأخذت أستعيد الطريقة التي أجبرته الشرطة والحزب من خلالها على الاعتراف بجرائم لم يقترفها قط: في الرابعة عشرة من عمره كان عميلاً للمخابرات الإنكليزية وبطلب منها اندس في أوساط الشباب الشيوعيين. وهو خان الفرق الأممية خلال حرب إسبانيا. لأنه خلال الحرب العالمية الثانية، كان عميلاً للغستابو في هنغاريا بدل أن يلجأ إلى الاتحاد السوفياتي. وبسبب كل هذه الجرائم الوهمية، حُكم عليه بالموت ونُفّذ حكم الإعدام في عام ١٩٤٩. ولم يُبرأ من كل هذه التهم الموجهة ضده إلا بعد سبع سنوات... بعد وفاته.

كنت مرتعباً من فكرة أن ألقى المصير نفسه: أن تلوّثني اتهامات لا صحة لها لإتمام دلائل قضية ما. أن تطحنني الآلة المجنونة لحكم أعمى يسعى إلى إلغاء الفرد. وكل ذلك لتنصيب دولة تستطيع أن ترصف حججاً جيدة إلى ما لا نهاية. وبكلمة واحدة، إن ما كنت أخشاه، بالرغم من كل شيء، أن أخضع لمحاكمة ستالينية بنسخة إيرانية.

هل تم اختياري في مكان ما كبش محرقة؟ حين رجع رئيس الحرس مع حقيبتي، سارعت إلى سؤاله عن أسباب اعتقالي. كانوا يأخذون عليَّ، كما قال لي، انني مستشار بني صدر. اعترضت بقوة قائلاً إنني لم أرَ بني صدر منذ توليه رئاسة الجمهورية، أي منذ سنتين. «حسناً، قال لي، ستقدّم إثباتاً على ذلك ويطلق سراحك على الفور!».

هل عليَّ أن أصدقه؟ بالطبع لا. لكن جوابه أراحني على كل حال. وشعرت للمرة الأولى أن لديَّ أسبابي للاعتقاد أن اعتقالي لا يشكل جزءاً من خطة سابقة التصور.

بعد خمسة أيام من الاعتقال المؤقت، أحالوني في النهاية إلى سجن إڤين الذي تصورت أنني أعرفه جيداً، فقد اعتقلت فيه مدة أربعة أشهر من نهاية ١٩٧٩ وحتى مطلع ١٩٨٠. وهناك في إڤين، التقيت بعدد كبير من المسؤولين في النظام السابق وقضيت معهم معظم أوقاتي نتبادل الأفكار متجولين في الباحة. لسذاجتي، كنت أتوقع أن أستعيد إحدى هذه العادات، لا بل إن فكرة لقاءات جديدة ثمينة أعجبتني في الحقيقة.

لكني سرعان ما فهمت أن تلك المرحلة ولّت إلى غير رجعة. خلال أقل من عام، أصبح إڤين عالماً مختلفاً تماماً، معتقلاً سمته الأساسية التعسف والقلق والعنف. كُلّف أحد الحراس الذين عرفتهم خلال اعتقالي السابق «باستقبالي». ولكي يخفف من وزن الأوامر التي يتوجب عليه تنفيذها، اعتذر لأنه مُلزم بوضع عصابة على عيني. ثم قادني

إلى المبنى المركزي حيث يوجد صحن المحكمة الثورية.

تلقيت وأنا معصوب العينين الأمر بالجلوس على الأرض. مستفيداً من الابتعاد المؤقت للحارس، رفعت خفية جانباً من العصبة. منظر مرعب: كان هناك حوالى خمسين شاباً وشابة رؤوسهم محاطة بعُصَب تجعلهم عمياناً، جالسين جنباً إلى جنب على طول الرواق. صورة العجز المطلق، الخضوع المطلق. دوار الانتظار الطويل، القلق المجرد الذي أصبح أكثر إيلاماً بسبب الليل الذي كان يغرق فيه المعتقلون. على فترات منتظمة، كان هناك حارس يقف أمامنا زاعقاً:

«اخفضوا عصبكم إلى الأسفل وألصقوا ركبكم بصدوركم!».

ما تستطيعه الصلاة...

من وقت لآخر، كان يأتي أحد حراس الثورة ليصطحب سجيناً إلى مكتب القاضي. عند الظهر، قُطع الصمت اللامتناهي تماماً. أعلن أحد حراس الثورة «كل هؤلاء الذين يريدون القيام بالصلاة، يستطيعون أن يأتوا للوضوء!».

اتجه عشرون متهماً كنت من بينهم إلى المغاسل. فكَّ الحارس عصبنا ووزّع علينا أوراقاً صغيرة - هي تجسيد رمزي لمكة المكرمة - يجب أن نلصق بها جباهنا أثناء الركوع.

من البديهي أن الصلاة كان لها تأثير حسن على حرّاسنا الذين خففوا لبعض الوقت من ضغطهم. وأصبح الجو أقل ثقلاً وأقل تشنجاً. للمرة الأولى، وبفضل طقس ديني، تقاسم الحراس والمعتقلون شيئاً ما معاً، وتواصلوا إذا جاز القول، فيما بينهم.

اقتدت بعد ذلك إلى قاضي التحقيق الذي كان قد استجوبني من قبل، أثناء أول اعتقال لي. سمحوا لي بإزالة العصبة فيما أجبر المعتقلون المجاهدون على الاحتفاظ بها. بدا قاضي التحقيق مندهشاً لرؤيتي من جديد. من خلال حركاته وكلماته، رأيت أنه لم يكن يفهم لماذا لم أسعَ، حين أطلق سراحي منذ أربعة عشر شهراً، للذهاب إلى الخارج، بالرغم من مناخ اللااستقرار السائد في البلاد، كما فعل غيري من شخصيات العهد الامبراطوري.

دخل القاضي في صلب الموضوع. وطلب مني الإجابة على أسئلة ثلاثة: ما هي

ظروف اعتقالي؟ ماذا كانت نشاطاتي منذ إطلاق سراحي، ولأية منظمة سياسية أنتمي. الطريقة التي سار فيها الاستجواب طمأنتني. من الواضح أولاً أن المبادرة لاعتقالي لم تتخذها السلطات القضائية في سجن إڤين. وثانياً، لم يكن يبدو أن القاضي يسعى إلى دفع التحقيق في اتجاه تشكيل جديد وهمي لماضيّ السياسي، وتحديداً فيما يتعلق ببني صدر، وهذا ما كنت أخشاه بوجه خاص. وأخيراً، كانت معرفة القاضي لملفي تحثني أكثر على التفاؤل قليلاً. ذلك أن مناخ الهياج العام لا بل الذعر الذي يسود البلاد يجعلك تخشى الأسوأ: أحكام سريعة واعتباطية، تصفية حسابات وربما أحكام إعدام مقتضبة...

كان مُطَمْئِناً إذاً أن أستعيد مكاني وسط السجناء الآخرين، الذين لا يزالون جالسين أرضاً وجنباً إلى جنب في رواق القلق هذا. بعد ساعة، أمرنا الحارس بأن نصطف بالتتابع لكي نذهب إلى الزنزانات. وهكذا تجوّلنا معصوبي الرؤوس مصطفين الواحد تلو الآخر في أنحاء السجن. في فترة ما، أدخل الحارس صف المعتقلين في درج ضيق لولبي. كنت في المقدمة، وحين وصلت إلى أعلى الدرج رفعت عصبتي بخفة لأرى ماذا يجري. وما رأيته عندئذ لن يُمحى أبداً من ذاكرتي: صورة رمزية، مُصغّر مؤثّر عن عالم الاعتقال الذي عرفته في إڤين؛ كان هناك أربعون رجلاً معصوبو الأعين يتسلقون وسط صمت قاتل أدراجاً معلقة في الهواء مثل لولب لا نهاية له.

لولب جهنمي، كالذي يملأ الصور ذات الأضواء الخافتة لمنازل بيرانيز الخيالية. هذا هو السجن. عالم يلتف حول نفسه إلى ما لا نهاية! في الظلمة أو في الظلّ، كنا محكومين كلنا بالدوران في الحلقة. لكم من الوقت؟

اقتادوني إلى إحدى الزنزانات وأقفلوا الباب ورائي. مرة أخرى، فهمت أن الأمور لم تعد، في هذا السجن، مماثلة لمعرفتي بها قبل عام، حيث كانت لدينا الحرية المطلقة في التجول طيلة النهار داخل الأقسام المختلفة. الآن، يأتي الحارس ليتفقدنا أربع مرات في النهار ويصطحبنا إلى المراحيض ودائماً على عجلة كبيرة من أمره.

في المساء الأول، كنا حوالى ثلاثين معتقلاً في الزنزانة، ولكن هذا العدد ما لبث أن ارتفع لاحقاً إلى خمسين وستين ليصل في النهاية إلى سبعين معتقلاً.

أول أمر لاحظته هو الفتوة البديهية لزملائي السجناء. لم تكن أعمارهم تتعدى العشرين من العمر، باستثناء مهندسين كانا في الثلاثين. خلال ساعة من التحدث

إليهم، تحققت من أن هؤلاء الشبان يمثلون الجيل الجديد المتحدر من الصفوف الدنيا للطبقة الوسطى. بفضل الجهود التعليمية التي أنجزت في ظل الشاه وبعض البحبوحة الاجتماعية، استطاعوا الذهاب إلى المدرسة حتى صف البكالوريا فيما كان أهاليهم أميين. كانوا متحمسين بسذاجة للأفكار الثورية ذات المنحى الإسلامي أو الماركسي، ويعارضون بشدة النظام الامبراطوري آملين في تحقيق دكتاتورية البروليتاريا.

استنتجت أموراً ثلاثة:

الأمر الأول هو أن جهود التطور الاقتصادي التي قام بها الشاه والبنية التحتية الاجتماعية ـ التربوية التي أنشأها سمحت بتطور اجتماعي للطبقات المحرومة. كان هذا كسباً لا جدال فيه ولكن، وبموازاة ذلك، اقتصر طموح هؤلاء الشبان على إطارٍ إيديولوجي، ومثالٍ قادرٍ على إعطاء معنى ما لحياتهم. البحبوحة المادية والاجتماعية لم تستطع أن تقدم لهم رضى أخلاقياً أو فكرياً. كان واضحاً أن كل الأفكار المتطرفة تنطوي على مثالية عميقة لا يمكنها الاكتفاء بأهداف مادية بحتة.

ثانياً، كنت أرى تحديداً، عبر هذه الأزمة السياسية التي أدت إلى مواجهة مسلَّحة بين المجاهدين والمتطرفين الآخرين وبين النظام الجديد، نتيجة الزيادة الديموغرافية المرتفعة بفضل انخفاض نسبة الوفيات بين الأطفال، مِمّا سمح بتجدد خارق لشباب المجتمع.

وأخيراً، إذا كان باستطاعة نظام سلطوي أن يخلق مناخاً مجدياً في الظاهر، بفضل سياسته القمعية، إلا أنَّ التيارات الفكرية الأكثر راديكالية تنبثق ما أن تظهر إمكانية التعبير عن الرأي. لأن الجهل السياسي يدفع الشباب حتماً إلى اتخاذ مواقف متطرفة.

مهندس النوم

ابتدأت الحياة المشتركة مع هؤلاء الشبان الذين أثَّرت بي مثاليتهم وبراءتهم وطهرهم، وبالأخص انجذابهم إلى الأفكارِ المتطرفة في الوقت الذي كانت علاقاتهم على الصعيد الإنساني دافئة وعفوية. وما أن تخطّوا الحذر تجاه مركزي الاجتماعي أو عمري وشهرتي، حتى أقاموا معي علاقات تَسِمُها الصداقة والمرح.

كان الحراس يجلبون لنا الطعام ويصطحبون السجناء الجدد أو يأتون لأخذ البعض إلى الاستجواب أو حتى ليطلق سبيلهم، وهذا كان نادراً في تلك الفترة. ولتنظيم

حياتنا في السجن، وزّعنا المسؤوليات بين المعتقلين.

في باديء الأمر، كان هناك مأمور الطعام الذي يلعب دوراً هاماً، خصوصاً وأن توزيع الطعام يجب أن يتم بشكل عادل. كانت هناك بعض الأطباق التي تُقسَّم إلى حصص، وأطباق أخرى تُقدّم بلا تنظيم في طناجر كبيرة وتتطلب توزيعاً عادلاً. مثلاً، حين يكون الطبق اليومي أرزاً بالدجاج فهذا يعني دجاجة واحدة لستين شخصاً. كنا ننظر بمتعة إلى المسؤول عن الطعام يقطّع «الحصص» مهتماً بتوزيعها بإنصاف ودقّة ملحوظين. كان المسؤول عن الطعام يهتم، كما تهتم أم صالحة بأولادها، آخذاً بعين الاعتبار البنية الجسدية لكل واحد منا أو عمره أو حالته الصحية أو درجة إرهاقه. كان يضع جانباً بعض المآكل، الخبز إجمالاً والجبنة والبلح للوافدين الجدد الذين خضعوا للتو لاستجوابات طويلة مضنية في محكمة السجن، ولا يزالون دون طعام. كان في حوزتنا مطرة ماء تسع حوالى عشرين ليتراً في كل غرفة. في الصيف، كان ينبغي الحدّ من استهلاك الماء. وبشكل عام، كان من الأفضل ألا نشرب كثيراً لئلا نضغط على مثاناتنا.

كان هناك أيضاً مسؤول النوم الذي يُخصص لكل واحد مكاناً لينام. ومهمته لم تكن سهلة أيضاً. كان يحدّد لنا أمكنتنا كل مساء. حين يكون هناك خمسة وأربعون شخصاً يشغلون المكان في غرفة ستة لستة أمتار، يمكن للمعتقلين أن يناموا ممددين موزعين على ثلاثة صفوف. ولكن حين يتعدى العدد الخمسة والأربعين، يقتضي الأمر أن يناموا واضعين أقدامهم بعضها فوق بعض. لذلك، كان على «مأمور المرقد» أن يُعنى بطول كل سجين ويعيد تنظيم المرقد كل يوم تبعاً للسجناء المغادرين أو الوافدين. وهذا يستغرق أحياناً ساعتين. . لهذا السبب، لقّبته «مهندس النوم».

أثناء الصيف، لم نكن بحاجة إلى أغطية، ولكن الطقس يصير بارداً مع أيام الخريف الأولى. لم يكن في حوزتنا سوى بضع وسائد صغيرة وأغطية عددها غير كافٍ نستعملها بالتناوب. في غرفتنا، كانت هناك وسادة واحدة مصنوعة من ريش الأوز - أحد آثار سجن إڤين حين كان يعمل في ظل الشاه - منحوها لي احتراماً لسني، ولكني كنت أحفظها لهؤلاء الذين أسيئت معاملتهم خلال الاستجوابات.

في الساعة الحادية عشرة مساء، كانت المحطة تقطع الكهرباء. وفي الساعة السابعة صباحاً، كان حارس السجن يوقظنا حاملاً إلينا الخبز والجبنة. لخمسة أشهر، لم يكن

لنا الحق في أي شراب ساخن. وهذا كان راجعاً إلى النقص في الوسائل الذي يعاني منه نظام السجن. كان سجن إڤين في الواقع قد بُني في ظل الشاه ليستقبل ألفين أو ثلاثة آلاف معتقل. ولم يكن يحوي حين غادرته في عام ١٩٨٠ إثر اعتقالي الأخير إلا ألف معتقل. أما في العام ١٩٨١ فإنه ضم حوالى اثني عشر ألف معتقل. والسبب هو أنه إثر انتفاضة المجاهدين وهروب بني صدر إلى فرنسا، جرى توقيف حوالى ثلاثمائة شخص كل يوم خلال سنة. في سجن مكتظ كهذا، لا يمكن للإدارة متابعة أعمالها. كنا نفتقر إلى كل شيء. ليس فقط إلى الأغطية والوسائد والأطباق والصحون (خلال الأشهر الأولى، أكلنا أربعة في طبق واحد) بل أيضاً إلى الأدوات الصحية والزنزانات.

كنا نتصرف بالحدّ الأدنى الموجود، وكان لدينا الشعور بأن مسؤولي السجن ليسوا ميّالين إلى أن يؤمّنوا لنا راحة نسبية. هذا ناتج دون شك عن ردة الفعل تجاه بني صدر، الذي، حين تولّى رئاسة الجمهورية، اتخذ موقفاً معادياً للنظام الإسلامي وندّد بالمعاملة التي يخضع لها السجناء وخصوصاً المجاهدين الذين تحالف معهم.

بناءً على ذلك، كانت العلاقات بين المجاهدين والسجّانين متشنجة جداً وشاقة جداً داخل السجن. أما في ظل رئاسة بني صدر (١٩٨٠ - ١٩٨١)، فقد أقضّ المجاهدون عيش الحرّاس: كانوا يغنون أناشيد ثورية ويغطون الجدران بكتابات معادية للمسؤولين عن السجن ويذهبون حتى إلى حدّ التحرش بهؤلاء جسدياً. منذ إقالة رئيس الدولة، وبعد أن دعا المجاهدون إلى الانتفاضة المسلّحة، وجدوا أنفسهم بفعل الواقع خارجين عن القانون. نتيجة ذلك، ساءت ظروف حياتهم في السجن بشكل مرعب: إقفال أبواب الزنزانات بالمفاتيح، تحظير التجول بحرية، منع الزيارات، الأعصبة فوق الأعين، إلخ. وهذه الإجراءات كانت تزداد صرامة خصوصاً لأننا عرفنا أن الحرّاس أثناء انتقالهم بين إڤين والمدينة كانوا يُغتالون على الطريق. هذه المواجهة بين المجاهدين والحرّاس جعلت نظام السجن صارماً بشكل لا يطاق.

كان المجاهدون يعلنون انتماءهم الإسلامي مستندين إلى القرآن ومستلهمين أعمال الإمام علي وسيرته إبّان نضاله ضد أعداء الإسلام. وهكذا كانوا يطالبون بدين مجرّد من كل الأحكام القضائية والاجتهادات الفقهية، مفتشين مع ذلك في هذا الإسلام الأصولي عن وسيلة للنضال السياسي. في الوقت نفسه كانوا يدعون أنهم ماركسيون فيما يخص النهج الذي يجب تطبيقه. كان التحليل الماديّ يبدو لهم أداة قادرة على تفسير

الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن شأنها أن تسمح لهم ببلوغ غايتهم المتمثلة ببناء «مجتمع إسلامي عادل». وبكلام آخر، اعتبر المجاهدون الماركسية علماً قوانينه حتمية ويمكن الاستناد إليها لتنظيم الصراعات السياسية. كنا نلاحظ عندهم تجاوراً لايديولوجيتينْ. إذا كان الإسلام يقدم لهم قاعدة عقائدية وأُخروية، فإن الماركسية ترتدي بالنسبة لهم الطابع نفسه والقيمة نفسها. في الواقع، يمكننا القول، وهنا المفارقة، إنهم كانوا يتجهون ناحية الإسلام لاستخلاص لازمة سياسية، وناحية الماركسية بصفتها عقيدة دينية...

منذ حزيران (يونيو) ١٩٨١، كان المجاهدون مقتنعين بأن النظام سينهار تحت الضربات التي توجهها إليه اعتداءاتهم. كل الشبان المسلَّحين الذين أوقفوا كانوا واثقين من أن النظام الإسلامي لن يدوم إلا لبضعة أسابيع. حين سألناهم من أين يأتون بهذا اليقين، كانوا يجيبون: «من تحليلنا العلمي».

حين تحدثت عن سعيد الذي التقيته خلال اعتقالي الثاني شرحت أصل حركة المجاهدين. ولكن، نظراً للدور فائق الأهمية الذي لعبته في دفع النظام الإسلامي إلى اتخاذ مواقف متطرفة في بدايته، قد يكون نافعاً ربما رؤيتها عن كثب إذا أردنا أن نفهم الطابع الانتحاري لأعضائها، وهذا لم تشهد إيران مثيلاً إلا مع الحركة البهائية في القرن التاسع عشر حيث بإمكاننا ملاحظة التفاني نفسه والسير الأعمى باتجاه الموت. امتزجت الرومنطيقية الثورية عند المجاهدين بحب المخاطر، بالإضافة إلى عبادة مطلقة للمنظمة. لقد قاموا بالقطيعة مع القيم المهيمنة في المجتمع والتاريخ والعائلة حتى، وتشبّثوا بحركتهم. كان كل قرار وكل توجيه يصدر عن المنظمة يرتدي بالنسبة لهم قيمة مقدسة فيتصرفون حياله كما المؤمن الأكثر تعبّداً. ولكن حين نقول منظمة فهذا يعني نظاماً هرمياً. وهكذا كان كل عضو في المنظمة يتبع لمسؤول تابع هو نفسه لمسؤول آخر، وهلمّ جرّا. كانت السياسة المقررة في الأعلى بالتالي والتعليمات التي يجب تنفيذها، تنتقل من مسؤول إلى آخر.

كان هناك عنصر إضافي ذو أهمية قصوى يوحّد هذه السلسلة المتراتبة بشكل دقيق، وهو تعلقهم بالأسلحة التي يحتفظون بها. يجدر التذكير هنا أن المجاهدين لم يشاؤوا تنفيذ الأمر حين دعا الإمام الخميني والسلطات الإسلامية الشعب لتسليم جميع الأسلحة. لقد جُمع القسم الأكبر من السلاح في المرحلة الأولى من حكم الثورة. في ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩، حين انفصل الجيش الإيراني عن حكومة شهبور بختيار

وأعلن وقوفه على الحياد من النزاع القائم بين النظام الملكي والمعارضة، أخليت الثكنات. خلال الأيام القليلة التي سبقت الانتقال من النظام الملكي إلى النظام الإسلامي، أفرغت المنظمات المقاتلة وأهمها منظمة المجاهدين مستودعات الأسلحة في طهران. ومنذ ذلك التاريخ، وبالرغم من العلاقات الممتازة التي ربطتها بقادة الجمهورية الإسلامية خلال الأسابيع الأولى، لم تقبل المنظمة أبداً بتسليم الأسلحة.

هذا الأمر كان بالنسبة لي غامضاً. لم أكن أفهم لماذا ترفض منظمة مثل المجاهدين، تحظى، مع أنها لم تلعب دوراً حاسماً إبّان الثورة، باعتبار كبير في نظر الطبقة السياسية والرأي العام، ولا تريد أن تلعب دوراً شرعياً في الحياة السياسية لنظام يوطّد أقدامه. لم يتسنّ لي أن أفهم ذلك إلا بعد اعتقالي الثالث في سجن إڤين، حين كان صراع المجاهدين مع النظام الإسلامي يبلغ ذروته، بسبب احتفاظهم بالأسلحة. وتبيّن لي أن اعتقالهم، والأخطار الناتجة عنه، يزيد في إيثارهم للأسرار. بحسب الذكريات التي يروونها عن مرحلتهم المجيدة - أي مواجهاتهم مع السافاك - كانوا يقيسون درجة إخلاص وتفاني الأعضاء تبعاً لعدد الرشاشات والقنابل والمسدسات التي تمكنوا من الاحتفاظ بها. كانت مخابىء الأسلحة تُشكّل كنزهم الأخلاقي والماديّ.

لأنهم طوّروا ثقافتهم السياسية ضمن نطاق سريّ في ظل الشاه، ثم في ظل نظام ثوري لا يرضيهم، قرّروا عدم التفريط في هذا الكنز. إن تعلقهم بالأسلحة كان العمود الفقري لمنظمتهم والمستند الأساسي لمعتقدهم السياسي. إذا كانوا يُقتلون بالمئات في عمليات انتحارية نهايتها الحتمية لا تخفى على أحد، فهذا و«أسلحتهم المقدسة» في يدهم على غرار الصليبيين الذين كانوا يشهرون قديماً الصليب وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة في ساحات الوغى. لم يكن العمل السياسي مفهوماً بالنسبة للمجاهدين إلا عملاً قتالياً وعنيفاً ومشهدياً.

حطام حرب أهلية

حتى ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٨١، أي خلال أول سنتين من الثورة، مارسوا لعبة «الغميضة» مع النظام، لكنهم لم يستخدموا أسلحتهم ولم يطرحوا أنفسهم علانية متمردين. قال لي السجناء ان شعارهم كان عندئذٍ عدم مواجهة أعضاء حزب الله - الحزب الإسلامي - والحرس الثوري، والبقاء على العكس هادئين ومسالمين في حال تعرضوا لهجومات أو لتعنيف منهم. هذا التكتيك الذي كان هدفه كسب تعاطف

الشعب، بدا مربحاً جداً. نظراً لأن الشعب يعتبرهم حزباً منتظماً ومحترماً لقوانين المجتمع والدولة، كسب المجاهدون المسالمون فعلياً آلاف المتعاطفين مع قضيتهم. وأخذوا يفتشون عن اجتذاب الشباب إليهم وتدريبهم سياسياً وعسكرياً. قال لي السجناء إن شعارهم في تلك المرحلة كان: التسلّل إلى الدوائر وخصوصاً إلى المؤسسات الجديدة التي يشيدها النظام.

كل هؤلاء الشبان الذين انضموا بشكل عفوي إلى منظمة هدفها إقامة مجتمع إسلامي عادل، وناضلوا بكل حماس للوصول إلى هذا الهدف، وجدوا أنفسهم داخل منظمة من نوعية أخرى حين أعلنت قيادة المجاهدين الانتفاضة المسلّحة ضد رجال الدين. من البديهي أن غالبية أعضاء ومؤيّدي هذه المنظمة، الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشرة واثنين وعشرين عاماً لم تكن لديهم من قبل تجربة النضال المسلح وهم أُسروا كالطرائد منذ الأيام الأولى للانتفاضة.

في شهر تموز (يوليو) ذاك من عام ١٩٨٠، وحين كانت المواجهة المسلّحة تزداد عنفاً، اقتاد حراس الثورة إلى زنزانتي ذات مساء شاباً من سكان سيرجان (جنوب - شرقي إيران). في اليوم التالي، أخذت هذا الشاب على حدة وطرحت عليه بعض الأسئلة التي تتعلق بحياته وبالأسباب التي دفعته للتورط في الأحداث الراهنة. قال لي إنه أستاذ في مدرسة ابتدائية وإن المجاهدين العشرة الذين أوقفوا معه كانوا أساتذة أيضاً. حين سألته كيف توصل حراس الثورة إلى الإمساك بهم، أجابني:

«أمر ولا أسهل. كانت المدينة كلها تعرف أننا مناضلون في الحركة. وكنا نجهل تماماً، نحن، أن نداءً وُجّه للانتفاضة المسلّحة. كان يكفي أن تعلن الراديو موعد التظاهرة في ٢٠ حزيران (يوليو) في طهران وأن تشدّد على الرغبة الواضحة لمنظمتنا بالمواجهة العنيفة للنظام، لكي يتم توقيفنا في نفس اليوم في سيرجان. وبما انه لا توجد في قريتنا الصغيرة محكمة ثورية نُقلنا في باص صغير متوجه إلى طهران. استغرقت رحلتنا يومين وليلة. ووضع أربعة حراس ثورة من قريتنا نعرفهم جيداً لحراستنا».

تابع الشاب حديثه راوياً لي مشهداً مؤثراً:

«أثناء الليل، لاحظت في وقت ما أن الحارس الثوري الجالس بقربي قد استسلم للنوم وأن رشّاشه مسند إلى ساقه. التفتّ واكتشفت أن الثلاثة الآخرين قد استسلموا بدورهم للنوم. التقت عيناي بعيني أحد أصدقائي الذي بقي هو الآخر مستيقظاً،

واستطعت أن أقرأ في نظراته فكرتي نفسها: الاستيلاء على رشاشات الحراس الأربعة، التحكم بهم أو قتلهم، والهرب عبر البريّة بدل أن نقبع في السجن ونمثل أمام محكمة يمكنها فعلاً أن تحكم علينا بالموت. ولكن ما أن لامست هذه الفكرة عقولنا حتى أخفضنا أعيننا خجلاً. فنحن كنا نعرف هؤلاء منذ الطفولة ولم يكن في مقدورنا قتلهم هكذا متذرعين بمواجهة مسلّحة لا نعرف أسبابها. من جهتهم، لم يكن الحراس يعتبروننا سجناء أعداء يجب قتلهم. خلال انتقالنا إلى طهران، عهد الحارس الجالس إلى جانبي إليّ برشّاشه حين أراد الذهاب لقضاء حاجته».

هذه الحكاية تظهر جيداً عبثية الحرب بين الاخوة التي أعلنها المجاهدون. كان الحرس الثوري والمجاهدون المتواجهون فيما بينهم شباناً ينتمون إلى الجيل ذاته والأصول الشعبية عينها ومن نفس الطينة الدينية والثقافية. كان بعضهم، بسبب التربية التقليدية، يتبعون رجال الدين وزعيمهم الإمام الخميني، فيما ينتمي البعض الآخر إلى منظمة ماركسية تريد أن تكون إسلامية في الوقت نفسه. من جهتهم، كان المجاهدون يفجرون القنابل ويقتلون دون تمييز كل الأشخاص المدافعين عن النظام. ولكن حيال سلطة منبثقة من ثورة دينية وشعبية قامت منذ سنتين، كيف بالإمكان التمييز بين من هم مع النظام ومن هم ضده. لقد اتصف هذا التمييز بالاعتباطية البحتة. من ضمن الفريقين كان هناك العديد من الأشخاص ذوي السرائر الصافية. لكن قادتهم في الواقع، وبفضل تعنتهم بدوا غير قادرين على تجنيب الشعب الإيراني سفك الدماء. كان أعضاء منظمة المجاهدين والجماعات الماركسية التي التحقت بهم خلال هذه الحرب الأهلية يتصرفون في بلادهم بالذات وحيال شعب من نفس الثقافة والدين كأنهم أمام محتل أجنبي، تماماً كما تصرف الفيتناميون حيال الأميركيين، أو فلسطينيو الأراضي العربية المحتلة حيال الإسرائيليين.

وهاك مثلاً آخر عن الضياع الذي كان هؤلاء الشباب ضحيته خلال الحرب الأهلية العبثية التي مزّقت إيران. ذات ليلة، أسرَّ لي أحد العائدين من الاستجواب حوالى الساعة الثانية صباحاً، وهو فتى في العشرين من العمر ممتلىء شجاعة وعنفواناً، حين كان نائماً قربي:

«إذا أتوا غداً لأخذي، فسوف أُعدَم».

دُهشْتُ من لهجته الواثقة، فأوضح:

«إنها المرة الأولى التي يطرح عليَّ المحققون الأسئلة من دون العصبة التي أضعها. فاستنتجت أنهم لا يخشون من أن أعرفهم».

كانت هذه الليلة فعلاً ليلة هذا الفتى الأخيرة. أمضاها يروي لي قصة حياته ويشرح لي أسباب التزامه السياسي. وطلب مني في حال خرجْتُ حيّاً من السجن أن أعطي لأخيه الكنزة الصفراء التي يلبسها كذكرى أخيرة منه. ابتداءً من هذا اليوم، بدأت حملات الإعدام الكثيفة يتم تنفيذها إجمالاً بعد منتصف الليل. رشقات الرشاشات المتبوعة بالطعنات القاضية كانت توقظنا فنبدأ بعدّها منتصبين في جلستنا وملتقطين أنفاسنا. كان يُنفذ في كل ليلة حوالي ثمانين حكماً بالإعدام. وهكذا، كان كل واحد يحس نفسه في زنزانته أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

بسبب الاغتيالات التي جرت، في صيف ١٩٨١ ذاك، في الشوارع وفي الأماكن العامة، تصاعد التشنج في إڤين بشكل خطير.

خلال الأسابيع الأولى لاعتقالي، بدا السجناء متفائلين نسبياً لأنهم اعتقدوا أن النظام الإسلامي، كما قلت آنفاً، سينهار بسرعة كبيرة. ولكن، حين علموا أن مسعود رجوي، نجح في ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٨١ في الفرار بصحبة بني صدر على متن طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للجيش، واتجها إلى فرنسا حيث طلبا اللجوء السياسي، تلاشى أملهم بانتصار سريع. إذا كان هروب بني صدر ورفيقه على متن طائرة يقودها كولونيل كان فيما مضى طيّار الشاه الخاص، يبدو برهاناً قاطعاً، فإنه كان يعني أيضاً أن الإطاحة بالنظام الإسلامي ليست وشيكة الوقوع كما اعتقد المجاهدون مؤكدين عبر نشراتهم الداخلية الموجهة إلى الأعضاء، على أنَّ بضع انفجارات واعتداءات كافية لينتفض الشعب ويسقط النظام.

أحاديث حسن ـ غستابو

منذ أن أُعلن فرار بني صدر عبر الإذاعة، أصبحت أتعرض للضرب. والسبب أن حراس الثورة كانوا يمنحونني لقباً مورّطاً جداً آنذاك «أستاذ بني صدر» وأنه كان هناك حارس أميّ ساذج يغتبط لضرب المعتقلين. كان يدعى حسن ويحب التظاهر بأنه رئيس ظاناً نفسه يستطيع تأكيد تفوقه من خلال توزيع اللطمات. كان السجناء قد أعطوه سريعاً لقب «حسن ـ غستابو» لأنَّ شعره القصير جداً يشبه الفرشاة.

في كل مرة يفتح لنا باب السجن لاصطحابنا إلى المراحيض،كان يُملي علينا، قبل دخولنا أو بعده، خطاباً يهدف إلى «هدينا» وتخليصنا من سمّ «أفكارنا الغربية الرأسمالية الماركسية الصهيونية الماسونية». كان زملائي يستمعون إلى «الأحاديث الواعظة» لحسن - غستابو بلذة كبيرة، لا سيّما وأن هذا الأمر يسمح لهم بالبقاء طويلاً في المراحيض، فيما الوقت المخصَّص لستين أو سبعين معتقلاً لا يملكون إلاّ خمسة مراحيض، لا يتجاوز عادة ثماني أو عشر دقائق. . . كانوا يستمعون إليه أيضاً، لأنه يخبرهم، دون قصد منه، عمّا يجري في الخارج. كانت أحاديث حسن - غستابو بالنسبة لسجناء منقطعين تماماً عن العالم يُحظّر عليهم تبادل أية معلومات تتعلق مثلاً بوفود المعتقلين أو وضع المحاكم أو تحرك الشخصيات، تكشف عن أشياء كثيرة، حتى وإن كانت أحياناً هاذية.

مفتخراً بأنه أحد التلاميذ المتحمسين للإمام الخميني، كان يقول بأنه صديق لأحد حراس الثورة يعمل لدى الإمام الخميني مدعياً أنه بذلك يستطيع سماع صوت آية الله كل مساء عبر الباب حين يختلي هذا الأخير في غرفة الصلاة متحدثاً إلى الإمام المنتظر الذي يوحي له بكل أسرار العالم ويرشده إلى ما يجب فعله. وهكذا، كان حسن - غستابو يكشف لنا بهذه الطريقة عن المعلومات التي يملكها وإن كانت من نسج خياله بالذات. لذلك، كان المعتقلون الشبان يسرون لاستماعهم إليه بالرغم من قساوته، لأنه يمدّهم بمواضيع جديدة للنقاش والتسلية حين يقفل عليهم باب الزنزانة. أما حراس الثورة الآخرون الأكثر نظاماً واتزاناً وأقل سادية منه، فلم يكونوا يسمحون له بالتحدث طويلاً أمام الزنزانات ويذكرونه دائماً باتباع النظام صارخين به:

«حسن، أنت تثرثر كثيراً، عُدْ إلى عملك!».

ليبراليّ مقاوم

على أية حال، حسن مَنْ أتى ليعلمنا بخبر رحيل بني صدر. التعليقات التي عقّب بها على هذا الموضوع، كانت تعكس المزاج السيِّء لقادة السجن إثر تلقيهم هذا النبأ. كان حسن، الذي يرى فيَّ «المعلّم الفكري» لبني صدر، يحملني مسؤولية كبيرة في تحركات الرئيس السابق للجمهورية. اعتبر في الواقع أنه كان بمقدوري إعداد بني صدر الذي انضمَّ إلى معهدي وهو في الثانية والعشرين من عمره بطريقة مختلفة. لكنه كان يتجنَّب الاعتراف بأني لم أوجّه إطلاقاً عمله السياسي. في كل أحاديث حسن،

كان هناك دائماً انعكاس لما يقال في الخارج. في ذلك اليوم، وبعد أن أدلى بحديثه المعتاد، تظاهر بالرحيل، لكنه عاد بعد لحظات ليعاقبنا متذرعاً بأن الشبان الموجودين معي في الزنزانة قد أنشدوا أغنية، تافهة على كل حال. قال لنا حسن عبر قفل الباب:

«تنشدون أغنية؟ حسناً، سترون ما بإمكاني فعله!».

بالنسبة له، كل أغنية تُعتبر ظاهرة تمرد على النظام. دخل إلى الزنزانة وسألنا:

ـ «مَنْ الذي بدأ الغناء؟».

وبما أن أحداً لم يُجب، أشار إليَّ بإصبعه وأمرني قائلاً:

«أنت، أستاذ بني صدر أخرجْ».

نهضت وخرجت إلى الرواق.

أمرني قائلاً: «قل لي مَنْ الذي بدأ الغناء».

أجبته: «لا أعرف».

عندها أخذ ينهال عليَّ ضرباً. ولكنَّ حارساً آخر يُدعى سابزي علي، عرفته منذ اعتقالي السابق فتى لطيفاً كنت أعطيه دروساً في اللغة الإنكليزية، رآنا من بعيد واتجه نحونا. طلب من حسن ـ غستابو وبلهجة حازمة جداً أن يتوقف عن ضربي، ثم أعادني إلى زنزانتي. سمعت عندئذ حسن يدمدم بلهجة غاضبة:

«لم تنته عقوبتك بعد!».

في ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالي، كان حسن يقوم بخدمته. فتح باب الزنزانة وأخرجني إلى الرواق. عصب عينيَّ ووضع كمامة على فمي كان لديَّ الوقت فقط لأسأله عن معنى هذا كله ولكنّه لم يُجبني. (فيما بعد، سيعترف لي على أية حال، انه من بين التقنيات الحاذقة التي تعلّمها من السجّانين هناك ثلاثون حيلة لإيهام المعتقلين بأن لحظة إعدامهم قد دنت، وإحدى هذه الحيل تقوم تحديداً على عدم الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها السجناء أو القول إلى أي مكان يأخذونهم).

في ذلك اليوم، وبعد أن سار بي لبعض الوقت، وأنا معصوب العينين، أوثقني إلى باب حديديّ وضربني بعنف على رأسي وصدري وبطني. ثمَّ نزع العصبة عن عيني

وقال لي: «الآن، انتهت عقوبتك». بعدها قادني وأنا مترنح وفي حال سيئة جداً[1] حتى باب الزنزانة.

حين رجعت إلى الزنزانة، لاحظت الوجوم والقلق باديين على رفاقي الذين حدّثتهم قلوبهم بالعذابات التي عانيتها، ولكنهم تأكّدوا لدى رؤيتي أنه، بالرغم من تغيبي الطويل، لم أفشِ بأحد منهم. استقبلوني بانفعال ودي وقدّموا لي كوب ماء وقطعة سكر. تلك طريقتهم في إظهار تعاطفهم.

وكما قلت آنفاً، غالبية الشبان الذين تعرفت إليهم في إڤين كانوا موسومين بالعقيدة الماركسية. لأية جهة انتموا - سواء كانوا ماركسيين إسلاميين (أي مجاهدين) أو شيوعيين مناصرين للاتحاد السوفياتي أو معادين للاتحاد السوفياتي أو ماويين أو تروتسكيين، إلخ - كانوا يتميزون بخاصية ستالينية وبسرعة تصديق عجيبة وبجهل سياسي صارخ، هذا اليسار على الطريقة الستالينية كان ينعت رجال الدين «بالكتائبيين» والعلمانيين «بالليبراليين». وكانت بطاقة الليبرالي تلازم أيضاً النخبة التي نالت علومها في الغرب أو في الجامعات الوطنية، أي تلازم في الواقع جميع الكادرات العليا في الدولة. وهكذا كان اليسار الستاليني يرمي بكل المعارف والتقنيات التي اكتسبتها إيران خلال المئة والخمسين سنة الفائتة، في «مزابل التاريخ»، بسبب علاقتها بالغرب. هذه الحملة «المناهضة لليبرالية» خلقت فراغاً من الصعب ملؤه في أوساط الجامعة والهيئات الإدارية والمصانع والمصارف والدوائر الدبلوماسية والثقافية، إلخ...

أكثر خداعاً من هذا اليسار الساذج وعديم التجربة، هو الحزب الشيوعي تودة المؤيد للاتحاد السوفياتي، قادته رجعوا إلى إيران عام ١٩٧٩ بعد سبع وعشرين سنة من النفي في الاتحاد السوفياتي. هذا الحزب عجّل في التعويض عن الوقت الضائع ومارس تكتيكاً انتهازياً ويقوم على تأكيد الفكرة التي تقول إنه كان خلال السنوات الثلاث السابقة مدافعاً غير مشروط عن الثورة والجمهورية الإسلاميتين. وضع قادة هذا الحزب الذي فقد اعتباره في نظر الشعب «خبرته» في خدمة نظام حديث العهد لا يملك أية فكرة عن كيفية تنظيم ثورة ومجتمع معاصر. مطاردة الليبراليين التي خطط لها حزب تودة بمهارة، التزمها مختلف الفرقاء المنتمين إلى اليسار المتطرف. وهذا الشعار سيناسب بدوره فريقاً في النظام الإسلامي كان يخشى أن يطغى عليه اليسار المتطرف.

فيما بعد، وإثر وفاة الخميني بشكل خاص عام ١٩٨٩، سيستخدم أعضاء هذا

الفريق الإسلامي بصفتهم راديكاليين إسلاميين، هذا الشعار من جديد ليزاحموا رجال الـدين المعتدلـين على السلطة. من جهتي، حـين وصلت إلى إڤين، ألصق زمـلائي بي بطاقة «المثقف الليبراليّ»، مع كل المفاهيم التي أتيت على ذكرها.

ذات يوم، بعد أن أوسعني حسن غستابو ضرباً، وفيما كنت أضـطجع عـلى الأرض وكـل جزء في جسمي يؤلمني، سمعت فـريقاً من خمسـة أو ستة فتيـان من المـاركسيـين المؤيدين للاتحاد السوفياتي (مع أنهم ليسوا أعضاء في حزب تودة)، يتحـدثون بصـوت منخفض. وسألتهم عما يتحـدثون. فـابتسم الناطق بلسـانهم وأجابني بلهجـة مفخمة جداً:

«كنا ندعوك حتى هذا اليوم «الليبرالي»، ولكننا قررنا أن ندعـوك من الآن فصاعـداً بـ «الليبرالي المقاوم».

استويت بالرغم من ألمي في جلستي وناديت رفاقي الستين قائلاً:

«أريد أن أطرح عليكم هذا السؤال: أيهما أفضـل، أن يكون المـرء ليبراليـاً مقاومـاً مثلي أو ثورياً مخصياً؟ أنتم الذين كنتم تغنون. ولكن هل جرؤ أحـدكم على أن يقـول لحسن بأني لست المذنب؟».

فهتفوا عندئذ معاً:

«نعم، أنت على حق. كلنا مذنبون ونطلب منك أن تسامحنا».

ومنذ ذلك اليوم، وبالرغم من اختلاف وجهـات نظرنـا السياسيـة، لم أعد أشكـل محوراً لجدال بين زملائي السجناء. وكلّما كانت الإدارة تطلب محاور للتحـدث بشؤون السجن، كانوا يعيِّنوني ممثلاً عن الزنزانة. وهكذا أزيلت عني لعنة الليبرالي.

معجزة الأطباء

صبيحة اليوم التالي، جاء أحد حراس الثورة ليعلمنا أن الـطبيب سيمر في السـاعة التاسعة إلى قسمنا ويمكنه معاينة أربعة أو خمسة معتقلين. كان ينبغي إذاً اختيار الأكـثر حـاجة إلى العنـاية، ونـظراً لحـالتي كنت أول من اختـاروه. حـين اقتـادونـا إلى آخـر الرواق، كنت أجهل كل شيء عن هوية الطبيب. لكن ما أن رأيته جالساً على بطانيـة قربـم طاولة متنقلة مكتظة بالأدوية، حتى عرفت فيه صديقاً قديماً، البروفسور مُفيدي.

كان هذا الباحث الكبير قد أدار لعدة سنوات معهد علم الملاريا والطب الاستوائي في الجامعة. بخلاف الأطباء الآخرين البارزين في طهران، تخلّى عن عيادته الخاصة ليكرّس كل وقته لأبحاثه. . كان على علم بكل ما يجري في العالم وكان أحد الخبراء النافذين في منظمة الصحة العالمية. خلال عشرين سنة من الحياة الجامعية، عملنا معاً بشكل وثيق من أجل رفع مستوى البحث العلمي وإصلاح التعليم العالي في إيران. كنت أكنّ احتراماً كبيراً لمفيدي كونه رجلاً متواضعاً ومستعداً دائماً للتعاون. اشتركنا عام ١٩٦٨ و١٩٦٩ في إعداد مشروع قانون يتناول نشاط الجامعات ومهنة المعلمين والبحّاثة. وبقي هذا القانون سارياً مدة ثلاثة عشر عاماً وهو لا يزال سارياً حتى الآن.

إن وجود البروفسور مفيدي في إڤين راجع إلى أنه اضطر تحت ضغط زملائه وأصدقائه، للقبول خلال فترة متأزمة من حكم الشاه، باستلام منصب أزهري وزير التعليم العالي في الحكومة الذي لم يدم سوى ثلاثة أشهر. خلال هذه الفترة القصيرة، حاصر مئة أستاذ مبنى الوزارة مطالبين بإعادة فتح الجامعات، وهذا حصل في الواقع من أجل إطلاق الحركة الثورية. بالرغم من كل التفهم الذي أبداه مفيدي شخصياً حيال هؤلاء المطالبين المزعجين، منعت الحكومة العسكرية كل تجمع فوق سطح الوزارة.

لم يحترم بعض المضربين هذا التحظير، فأطلق الجنود الموجودون في الشارع النار على سطح الطابق السادس فأصيب أحد المتظاهرين بجروح مميتة. بعد الثورة، وبالرغم من أن مفيدي لا شأن له بهذه القضية، أوقف مرتين وحُكم عليه بثلاث سنوات في السجن. خلال المحاكمة، حاولت حثّ المتظاهرين السابقين إلى أن يأتوا ليشهدوا على براءته أمام المحكمة، ولكننا لم نلتق منذ قيام الثورة. هذا لأقول كم أن لقاءنا المفاجىء في إڤين كان مشحوناً بالانفعال والذكريات التي حاولنا إخفاءها عن الحارسين اللذين كانا يراقباننا عن كثب. اغرورقت أعيننا بالدموع وجفّت حلوقنا. أحد الحارسين وهو فلاح شاب اشتبه في النهاية بأن واحدنا يعرف الآخر، بالرغم من صمتنا. توجّه إلى الطبيب وسأله:

«هذا الشخص، هل تعرفه؟».

أجاب الطبيب مخفضاً رأسه:

«سمعت عنه».

فحصني البروفسور مُفيدي ولاحظ ضغطي المرتفع وضربات قلبي غير المنتظمة. بما انني لم أكن أستطيع أن أقول له شيئاً عن المعاملة السيئة التي تلقيتها، بحضور الحرّاس، لم يكن يفهم سبب هذا الاختلال. خلال الإجابة على أسئلته مرَّرت سريعاً بضع كلمات بالإنكليزية لأفهمه بأني ضُربت، ولأتيح له القيام بالتشخيص الملائم. أعطاني بعض الأدوية وحبوب الفيتامين وقال للحارس:

«هذا السجين يشكو من مرض في القلب. يجب أن أراه حين آتي إلى هنا، كلّ نهار ثلاثاء».

رأيته إذاً كل ثلاثاء، واستطعت بفضله أن أنشىء «صيدلية» في زنزانتي.. لم أكن ميّالاً شخصياً إلى تناول الأدوية، ولكنني لاحظت أن الجيل الإيراني الجديد يستهلك الكثير منها وبخاصة كل أنواع الأدوية المقوية. لذلك كان عليّ أن أحفظ غيباً صباح كل زيارة، لائحة بخمسة عشر دواء لزملائي السجناء وكان عليّ أن أقول أمام الجنود الذين يقومون بحراستنا أنها من ضمن علاجي الطبيّ... كان الدكتور الطبيب يدخل في اللعبة، وحين يتعجب الجنود من رؤيته يعطيني مثل هذه الوصفة، كان يؤكّد لهم أنني مريض جداً بالفعل. على أية حال، أسهمت هذه الخدعة في زيادة شعبية «المقاوم الليبرالي» الذي صرته.

أمضى البروفسور مفيدي سنة في إڤين قبل أن يطلق سراحه. وطيلة فترة احتجازه قدّم خدمات هائلة للسجناء، لأنه كان منذ الساعة السابعة صباحاً وحتى ساعة متأخرة من الليل، يجوب الأقسام بعربته المتنقلة ليعتني يومياً بمئات السجناء.

أما بالنسبة للطبيب (شيخ)، الوزير السابق في حكومة هويدا الذي تحدّثت عنه حين رويْتُ وقائع اعتقالي الثاني في إڤين، فقد علمت أن دوره اتخذ أهمية خلال الأشهر الثمانية عشرة التي مرّت وأنه يدير الآن القسم الطبي كله. بصفته جرّاح عظم، قام بكثير من العمليات وبلغ في هذا المجال شهرة إلى حدّ أن جنود الثورة أتوا لإحضاره، حين أصيب آية الله قدوسي المدعي العام للمحكمة الثورية إثر انفجار قنبلة موضوعة في مكتبه، إلى سرير الضحية ـ ولكن بعد فوات الأوان. غداة الثورة، نجا الطبيب شيخ مرتين مع مسؤولين آخرين في النظام السابق من حكم الإعدام الأكيد كما كان ظاهراً. المجاهدون الذين كانوا يلعبون آنذاك ـ أي خلال الأشهر الأولى لعام ١٩٧٩ ـ دوراً لا يستهان به في أوساط الطبقة السياسية، أخذوا علانية

على القضاء الإسلامي أنّه عفا عَنْ الطبيب وعن اناس آخرين وحافظ على حياتهم سليمة. كان العمل الذي ينجزه الأطباء يشكّل مرحلة أولى في إعادة الاعتبار لشخصيات النظام السابق الذين كانوا يُسمون بالطواغيت[٢].

كان قبول الأطباء في عالمهم يشكّل لجنود الثورة المتصلبين أول ثغرة في جدار رؤيتهم التمامية التي تقضي بأن يكتفوا بأنفسهم. قناعتهم اهتزّت بشكل خاص خلال الحرب حين أدّى الأطباء خدمات جلّى كغيرهم من جماعات الطواغيت: ضباط الجيش والطيارون المحاربون الذين ضحّوا بحياتهم. وهكذا أُرغم الأصوليون على التسليم بأن كل ما هو طاغوتي ليس سيئاً بالضرورة.

لكن، فلنعد إلى حياة السجن. في الساعة السابعة، كان أحد الجنود يفتح الباب الذي يبقى مغلقاً بالمفتاح طيلة الليل، ويأتي لنا بالخبز وقطعة جبنة بيضاء. كان مأمور الطعام، بدقته المعتادة، يقطع الجبنة بواسطة القطّاعة إلى حصص متساوية. وحين يحضر لنا الجندي بلحاً، كان يوزعه بإنصاف علينا.

عند الظهر، يأتي جندي آخر مصحوباً بطنجرة أرز كبيرة أمام بابنا ويسكب المسؤول عن زنزانتنا مقدار مغرفة لكل سجين.

كان طعام العشاء يحتوي عادة بطاطا وبعض الخضار ومرةً واحدة في الأسبوع بيضتين مسلوقتين لكل شخص. كان الأمر عندئذ يُعدّ وليمة حقيقية. لم تقدم لنا اللحمة إلا نادراً لكن الطعام في الإجمال كان كافياً.

ما كان ينقصنا على وجه الأخص إمكانية الاغتسال. لا يحق لنا بحمام ساخن إلاَّ مرة كل خمسة عشر يوماً. بعد مجيئي إلى سجن إفين استمعنا مرتين عبر الإذاعة إلى خطب تندّد بمنظمة العفو الدولية. وهذا يعني، كما شرحت لزملائي، أن هذه المنظمة الإنسانية قدّمت اعتراضات بخصوص ظروف الاعتقال في السجون الإيرانية. بعد الظهر، مرَّ المدعي العام لازوردي للمرة الأولى أمام الزنزانات ليتحقق مما ينقصنا. بما أن رفاقي اختاروني ناطقاً بلسانهم، طلبتُ منه أن يقدم لنا خبزاً من نوعية أفضل وأن يسمح لنا بأخذ حمامات ساخنة باستمرار. في المساء نفسه ـ وهذا أمر لم يحدث من قبل ـ اصطحبنا حراس الثورة لنأخذ حماماً فاتراً واستطعنا أن نبقى هناك قدر ما نشاء.

إن الانعزال الذي كنا نحياه في إفين، يؤدي على الصعيد النفسي إلى ظهور أعراض مرضية مذهلة ويدفعنا تحديداً إلى التفتيش عن أي اتصال كان مع العالم الخارجي.

من كوة زنزانتنا، كنا نستطيع رؤية تلة قبالتنا وأغصان شجرة. ذات يوم، خطرت لأحد السجناء فكرة التسلق على أكتاف سجين آخر لرؤية الشجرة كلها. حين نزل من جديد، أعلن بلهجة منتصرة أنه استطاع أن يرى أيضاً كلباً عند أسفل الشجرة. عندها، أراد نصف المعتقلين أن ينظروا أيضاً عبر الكوة، لأنَّ رؤية شجرة وكلب كانت تشكل لهم حدثاً هاماً جداً لا يقطع رتابة حياتهم اليومية فحسب بل يضعهم على اتصال بعالم قطعوا عنه تماماً.

كذلك كان الحال حين يأتي معتقلون جدد ويخبروننا عما يحدث خارج السجن. كان بعض الشبان الذين تستولي عليهم مختلف الإيديولوجيات الماركسية الثورية، لا يزالون يتوقعون في كل لحظة الإطاحة بالنظام الإسلامي. المجاهدون الشبان الذين أُسروا وأسلحتهم في أيديهم خلال المظاهرات أو فضح أصدقاؤهم المعتقلين مثلاً أمرَهم، مقتنعين بأن مسعود رجوي (الموجود في باريس آنذاك) سيرجع ليقود انتفاضة مسلّحة مترامية الأطراف. كانوا متأكدين أنَّ المتمردين سيخلعون أبواب السجن ويحررون آلاف السجناء. المجاهدون التعساء الذين رفضوا التوبة بانتظار التحرير، وقلوبهم مفعمة إيماناً بالغد المشرق، أرسلوا إلى فصيلة الإعدام. ضمن هذه المسيرة المحتمة نحو الموت، كانوا يفاخرون بسبب الدعاية التي أعمت بصائرهم. لقد قُتل منهم فقط مئتا شخص في حين أن المنظمة توقعت سقوط أكثر من خمسمائة. لذا نجا ثلاثمائة منهم من الموت.

هنا بالذات، كنت أرى بالفعل مقدار الأذى الذي تسببه «الإيديولوجيات الثورية» التي صدّرها الغرب خلال العقود الأخيرة إلى أميركا اللاتينية أولاً ثم إلى أفريقيا فآسيا. وكما فعل الشاه على الصعيد الاقتصادي والطغاة الذين يحكمون هذه الأصقاع متذرعين بالتطور المقدس ليقلّدوا الغرب، كذلك تصرفت الطلائع الثورية على الصعيد الإيديولوجي. فقد سعت، على غرار التكنوقراطيين، إلى تطبيق نماذج ثورية وضعت في الغرب ـ مع انها لم تطبق أبداً ـ كما هي، من دون أنْ تأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات التاريخية والاجتماعية لكل أمة.

أرواح هنري دونان

في إڤين، أمر آخر شغل السجناء وهو النقص في العناية الطبية بالأسنان. في ذلك الصيف من عام ١٩٨١ حيث كان عدد السجناء يزداد كل يوم بالمئات، كان بين

الجهاز الطبي طبيب أسنان واحد يعتني صباحاً بالمعتقلين وبعد الظهر بجنود الثورة. لذلك تلقّى هذا الطبيب في السنة الأولى تعليمات تقضي بعدم إصلاح الأسنان بل باقتلاعها. . . من جهتي، وبعد أن أمضيت عدة ليالي ساهراً بسبب أوجاع هائلة في أسناني، سمح لي الجندي أخيراً بالذهاب إلى طبيب الأسنان. سأتذكر دائماً هذه اللحظة المميزة التي استمتعت بها حين أخذت مكاني على الكرسي وتأملت عبر النافذة الهرم المكسو بالثلج لجبل دمواند المنتصب نحو السماء. وحين أنعشتني الابتسامة المطمئنة للطبيب الشاب ـ الذي أنهى لتوّه دراسته وحُكم عليه بصفته مجاهداً تائباً لعشر سنوات في السجن ـ أحسست أن الحياة الحقيقية لا تزال هنا وأن الأخلاق والحضارة لا تزال ترعانا.

خلال جلسة الأسنان هذه، تذكرت الأحاديث التي جرت في جنيف عام ١٩٥٠ بيني وبين صديقة في الجامعة. كنت أتهيأ آنذاك لامتحاني في تاريخ الفلسفة برفقة حفيدة هنري دونان، مؤسس الصليب الأحمر. مثل جميع المواطنين، كانت فخورة هي أيضاً بهذه المنظمة. من جهتي، وبما أنني قدمت من بلاد هي عرضة لأطماع الدول الكبرى الاستعمارية وجشعها (وتحديداً إنكلترا وروسيا)، كنت أضع جذرياً في تلك الفترة كل النظام العالمي موضع اتهام. كنت أطمح إلى سلام مثالي ولا يهمني إطلاقاً ما يمكن القيام به لتضميد الجراح الناتجة عن الحروب. كانت مبادرة هنري دونان في نظري مجرّد وسيلة وقتية هدفها إراحة ضمائر بورجوازيي جنيف. كانت زميلتي في الدراسة التي نشأت في وسط يرتاب بالجنس البشري، يتجاهر بأن الإنسان تحركه أنانيته وأنه لا يحترم غيره إطلاقاً، وأن الحروب وانتهاك حقوق الإنسان هي من طبيعة الأشياء. الأفضل إذاً أن يكون الإنسان واقعياً ويأتي لمساعدة الضحايا مخففاً من آلامهم.

هذا ما فكرت فيه عند طبيب الأسنان: «فيما لو خرجت يوماً من هنا سأذهب للتفتيش عن هذه الصديقة وأقرّ بذنبي وأعمل بدوري لكي تُدعم منظمات التضامن العالمية هذه كالصليب الأحمر». لأن وجود قوانين تُرغم الدول على عدم ترك السجناء لمصيرهم يرتدي لوحده معنى إنسانياً كبيراً. بالنسبة لي، كان هذا الحلم يصبح حقيقة لأن طبيب الأسنان الودود، بعد أن أولاني عنايته الفائقة، قال لي: «لن تشعر بالألم بعد الآن». بدا لي هذا الأمر غير معقول إبّان ليالي الأرق الأخيرة، أمر استطاعتي العيش من جديد دون ألم.

بعد انتهاء الجلسة، عصب الجندي عيني ثانية وأجلسني في الرواق مع معتقلين آخرين معصوبي الأعين بدورهم. كان علينا أن ننتظر جميع المعتقلين الآخرين، لكي يتم إرجاعنا من جديد الواحد تلو الآخر إلى القسم الخاص بنا.. في وقت ما، شعرت بوجود أحد ما يلمس شعري ولحيتي ويقول لي:

«لا تزال هنا. ما هذه القصة!».

وحتى لا يفهم الجندي، أضاف بالإنكليزية بلهجة عطوفة:

«لا تزال في صف الخاسرين».

تعرّفت إلى صوت الدكتور شيخ. لا شك في أنه كان يعني بكلامه أنني أمضيت منذ ثمانية عشر شهراً أكثر من أربعة أشهر في إڤين، وذلك لاتهامي بأني في جانب الشاه، وأنني واقع في مصيبة جديدة الآن لاشتباههم بأنني ساعدت بني صدر. بالرغم من أنّ هذين الاتهامين لا أساس لهما من الصحة. أغرقتني ملاحظة الدكتور شيخ في تفكير عميق. جالساً في رواق إڤين وأنا معصوب العينين، كان لدي الوقت الكافي لأتمعن في هذه الملاحظة. وتبيّن لي في الواقع أنه، بمعزل عن قضيتي الشاه وبني صدر اللتين لم أشارك فيهما أبداً، كان مصير الخاسرين يهمني دائماً أكثر من مصير الرابحين. قلت في نفسي: أليس الخاسرون بعد كل حساب أناساً تخلّوا عن المجد ـ أو عن وهم المجد ـ عندما كان في متناول أيديهم؟ ولكن حين يتخطون مرارة الفشل، أليسوا قادرين أكثر من غيرهم على فهم كل ما يصنع عظمة الإنسان ودناءته في الوقت نفسه؟

بالرغم من أن وضعنا يدعو للشفقة، إلا أننا كنا مشغولي البال على عائلاتنا التي فقدنا كل اتصال بها. كنا واثقين من أن الناس الذين يخصوننا يعيشون في قلق دائم عند قراءتهم في الصحف عن الإعدامات الكثيرة التي تجري في إڤين. كنا نبحث عن كل الوسائل الممكنة لطمأنتهم مستغلين إطلاق سراح بعض السجناء لنعهد إليهم برسائل إلى أهالينا. ولكن الأمر لم يكن سهلاً، لأنهم يخضعون لحظة خروجهم من السجن إلى تفتيش جسدي دقيق[٣] من قبل الجنود المتنبهين دائماً إلى كشف كل رقم هاتف يمكن أن يكون في حوزتهم. لذلك، حاولنا أن نرسم بالإبرة أرقام التلفون على أوراق النقد ونخفيها في ثنيات سراويل السجناء المطلق سراحهم أو في أحزمتهم. كان علينا التحسب مسبقاً فكنا نفتقها بصبر وأناة وخفية عن حراس السجن. أجرينا هذه العملية على ثياب السجناء الذين كنا نحسب أنّ سراحهم سيطلق قريباً. أحياناً كنا

نخطىء ولكن في أكثر الأوقات تصح توقعاتنا فعلاً. وبالرغم من المخاطر التي تواجههم، كان الرسل يفعلون كل ما في وسعهم لإيصال أخبارنا إلى عائلاتنا، لكن في ظل المناخ المتوتر للحرب الأهلية، كانت المخابرات الهاتفية الغريبة التي يمكن أن تبدو مشبوهة، لا تكفي لطمأنة أهلنا كثيراً. لذلك، كان يسعى أهلنا للحصول عبر كل الوسائل على أخبار أكيدة.

بعد ثلاثة أشهر من اعتقالي، أي في بداية خريف ١٩٨١، وافقت إدارة سجن إڤين على أن تبعث لنا عائلاتنا ملابس شتوية لأننا أوقفنا جميعاً في عز الصيف فقط مع قميص تسترنا. مجرد تلقّي الملابس وعند الاقتضاء بعض المال كان ذلك كافياً لإقناع أهلنا اننا موجودون في إڤين. لكن أهالينا لم يطمئنوا إلاّ حين كانوا يسمعون صوتنا بالذات. من جهتي، استطعت الاتصال للمرة الأولى بزوجتي بعد خمسة أشهر من اعتقالي. في اليوم الذي استجوبت فيه لأول مرة، سمح لي القاضي ـ الشيخ بالاتصال بزوجتي لأقول لها انني في إڤين وانني حيّ أرزق. الانفعال القوي الذي أبدته زوجتي كان يظهر القلق العميق لكل أفراد العائلة. نجحت على أية حال، خلال حوارنا القصير، أن أطلب منها إحضار أحد كتبي إلى القاضي ليقتنع بنفسه، خلافاً لما يدعيه قاضٍ شاب متحمس جاهل، أنني لست منظّراً للنظام السابق. وبما أن رجل الدين بدا لي متزناً ومعتدلاً، قلت له بعد أن هدأ انفعالي إثر المكالمة الهاتفية:

- «سيدي القاضي، أنت تعرف أجدادي. كانوا جميعاً رجال فقه».
- صحيح!
- يمكنك إذاً أن تتصور بسهولة أن مبادىء العدالة الإسلامية مألوفة جداً لدي.
- بديهيّ!
- يمكنك أن تستنتج بنفسك من أحد كتبي الذي يحمل عنوان «حرية وأخلاق وحق» أنني أثنيت على القانون الإسلامي مقارنة بالقانون الأوروبي. بيد أن الطريقة التي يمارس فيها هذا القانون اليوم لا تتفق إطلاقاً مع المبادىء التي يستند إليها. حتى ولو سلّمنا بأنكم تواجهون زمراً تحركها إيديولوجيا عدمية وانتحارية ـ وأعرفها جيداً لأنني أعيش معها منذ خمسة أشهر ـ لكن هذا لا يبرر صرامة المحاكم. إذا كنتم قد أصبحتم بهذه القساوة، فهذا لأن خصومكم نجحوا في اجتذابكم إلى ساحتهم وسوف تستنتج لاحقاً يا سيدي القاضي، أن اعتقالي ليس مبرراً ولا يفيد في شيء النظام الإسلامي. وقد استنتجت، بمعزل عن حالتي، أن هناك عدداً من المعتقلين في الزنزانة معي أوقفوا لأسباب واهية، وأعتقد أنّ تحققاً بسيطاً يكفي لإطلاق

سراحهم. المبدأ الإسلامي للعدالة يقتضي قبل كل شيء تحفظاً كبيراً وحداً أقصى من التعقل. إن الخطر الحقيقي الذي يحدق بكم هو أن الأعمال العبثية لخصومكم تجعلكم تفقدون هذا التحفظ وهذا الهدوء.

فردّ عليٌّ القاضي ـ الشيخ قائلاً:

«أنت محق تماماً، لكن عليك أن تدرك أن العدالة الإسلامية لا تملك التجربة الكافية لتواجه الظواهر الغريبة التي تطالعنا اليوم. المشكلة هي أن جهازنا القضائي الحديث العهد لا يملك العدد الكافي من الموظفين. والعنف الذي يبديه خصومنا يرغمنا على توقيف جميع المشبوهين، ولا نملك العدد الكافي من المحققين والقضاة للتحكم بهذا العدد الهائل من المعتقلين. لذلك، يظل الكثير من السجناء معتقلين في إڤين، ضمن وضع محيّر».

تجدر الإشارة هنا إلى أن المحكمة الثورية كانت تعيش نوعاً من الازدواجية. في ذات يوم، مثلاً، أتى أحد حرّاسنا، ويدعى علي، وكان عادةً قاسياً وغير مهذّب يوبخنا دائماً ويهددنا بالعقاب، توقف أمام زنزانتنا وأعلن بلهجة مرتبكة التصريح الآتي: «بعد إقالة بني صدر، نظّمت السلطات انتخابات رئاسية. هناك أربعة مرشحين اعتمدهم مجلس الرقابة. حزب تودة وفدائيو الشعب أعلنوا رغبتهم في التصويت لرجائي، رئيس الوزراء الحالي ومرشح رجال الدين. الاقتراع سيجري بعد غد، وستحضر صندوقة اقتراع إلى هنا. تستطيعون التصويت لِمَنْ تشاؤون».

بعد أن تفوّه بهذه العبارات الديمقراطية والمؤدبة جداً، استعاد على الفور نبرته المتعجرفة قائلاً: «أولاً، يجب أن تعرفوا أنكم لستم ملزمين بالتصويت، ثانياً، الجمهورية الإسلامية بغنى عن تصويتكم. افعلوا ما تريدون!».

ثم صفق الباب بعنف وراءه. هذا الخطاب الذي نصفه الأول معسول ونصفه الآخر مليء بعرض العضلات تركنا جميعاً حائرين، خصوصاً وانه كان في زنزانتنا بعض الممثلين عن هؤلاء الفدائيين (الشيوعيين المناصرين للاتحاد السوفياتي) الذي كان يتحدث عنهم لتوه.

فلسفة الشمس

نشاط آخر كانت تمارسه الإدارة وهو تنظيم دروس «للهداية». كان هذا النشاط

يقوم على المجيء برجال الدين المنتمين في غالبيتهم إلى مدرسة التعليم الديني في قُم، وتقتصر مهمتهم على التحدث إلى المعتقلين بهدف وضعهم، حسب العبارة القرآنية، على «الصراط المستقيم». في المرة الأولى، جاء إلى زنزانتنا رجل في الثلاثين من العمر واجتهد خلال ساعة لإقناعنا بشكل إنشائي بفضائل العدالة الإسلامية. بقي زملائي جامدين وغارقين في خرس كامل. اخترقت فجأة هذا الصمت وتوجهت إلى زائرنا ـ المحاضر قائلاً:

«تتكلم عن العدالة ولكنك قلت لنا في الوقت نفسه إنك أتيت إلى هنا لا لتستمع إلى شكاوينا المتعلقة بظروف اعتقالنا، بل فقط لتعرض لنا مبادىء العدالة الإسلامية. لكن الأشخاص الذين يجب التحدث إليهم في هذا الشأن ليسوا السجناء بل هؤلاء الذين يحكمون في قضاياهم. ولكي أجسِّد لك فكرتي، سأقول لك هذه الخرافة التي رواها لي أبي عندما كنت صغيراً. ذات يوم، حصل خلاف بين الشمس وغيمة بعد ادعاء كل منهما أنها أقوى من الأخرى. أمام ادعاءات الغيمة التي كانت تتباهى بقدراتها الرؤيوية والتدميرية، اقترحت الشمس أن تجريا اختباراً لقوتيهما المتبادلتين. قبلت الغيمة فأشارت لها الشمس إلى رجل يتنزه في الغابة وهو يرتدي معطفاً، قائلة: بما أنك قوية إلى هذا الحدّ، حاولي أن تجبري هذا الرجل على نزع معطفه». فأطلقت الغيمة لتوّها عاصفة هائلة، ولكن الرجل كان يشد أكثر على معطفه كلّما ازداد عصف الريح وهطول المطر. وعندما استنفدت الغيمة كل قوة تملكها، كان الرجل قد ازداد تشبثاً بمعطفه. عندئذٍ قالت الشمس للغيمة: «الآن، وقد خبرت بنفسك أن عنفك لم ينجح، دعيني أريك طريقتي». . وهكذا حصل، وبدأ الرجل يحس شيئاً فشيئاً بالحرارة تنفذ إليه، بحيث انه بعد مرور بضع لحظات نزع معطفه من تلقاء نفسه.

وأضفت متوجهاً إلى محاضرنا:

«لكي تقهر العنف، عليك أن تعظ المحكمة بفلسفة الشمس».

شكرني وذهب. وعلى الفور خاصمني أصدقائي:

«يجب ألا تتحدث إلى هذا النوع من الرجال. في عهد الشاه، كان أصدقاؤنا الموجودون في السجن يلزمون الحذر دائماً من رجال السافاك».

استوجب الأمر أن أتجادل معهم طيلة يومين لأجعلهم يفهمون أن رجال النظام

الحالي كانوا مختلفين عن مستخدمي السافاك وأنه بالرغم من عنفهم وجهلهم ليسوا مرتزقة.

«لا تنسوا، قلت لهم، أنهم يذهبون طوعاً إلى الحرب ويقبلون الموت ليدفعوا مهاجمينا. وبما أن النظام يرسل لنا مبعوثين للتحاور معهم، يجب على العكس استقبالهم بكل مودة من أجل فتح الثغرة في جدار العنف».

هل استطعت إقناعهم؟

ألم الإرهاب

بعد أقل من شهر على انتخاب محمد رجائي رئيساً للجمهورية، وحين أتى علي في وقت مبكر من الصباح، أعلمنا باكياً أن رجائي ورئيس الوزراء باهونار وعدداً من رجال الدين قد قتلوا إثر انفجار قنبلة. أوضحت الصحف، أنه بعد افتتاح جلسة المجلس الأعلى للدفاع، انفجرت قنبلة وضعها السكرتير التنفيذي في محفظة الوثائق التي تخص رئيس الجمهورية، لقد أوقعت عدداً كبيراً من القتلى وأصابت آخرين بجروح خطيرة. إن هجوماً من هذا النوع ينظّمه المجاهدون ضدّ أعلى المسؤولين في البلاد وفي وقت كان هؤلاء ينظمون الدفاع الوطني لمواجهة الهجوم العراقي، أثار استنكاراً كبيراً في أوساط الشعب. خصوصاً وأن زعيماً دينياً كبيراً كالخميني الذي كان على رأس البلاد، اهتم شخصياً بالمسائل العسكرية.

ذكّر الإمام الخميني بالواجب الديني داعياً الشعب إلى الكشف عن المجاهدين والمتعاطفين معهم. الظروف التي وضعت فيها القنبلة، أظهرت إلى أي حدّ نجح هؤلاء المجاهدون في التسلل إلى الحكم وكم ينتج عن هذا العمل من شعور بعدم الأمان على جميع المستويات. توصلت منظمة المجاهدين لأن ترسخ في أذهان الشبان حباً بالتضحية لم تشهد له إيران مثيلاً. إلى حدّ أنها كانت تدفع بفتيات في السادسة عشرة من العمر إلى اغتنام الفرصة أثناء صلوات الجمعة لكي يرتمين بين أذرعة آيات الله مزنرات بقنابل يمزّق انفجارها المعتدين والمعتدى عليهم على حد سواء. الإجراءات المناهضة للإرهاب المطبقة حتى ذلك التاريخ أثبتت لا جدواها لأن الأمر كان يتعلق بعمليات انتحارية حقيقية. لكن الخميني وضباطه لم يتراجعوا أمام هؤلاء الأعداء المخيفين.

خلال صيف وخريف وشتاء ١٩٨١، لاحظنا أنا والسجناء، انه كان أسهل على النظام أن يواجه الهجوم العراقي من أن يواجه هؤلاء الخصوم لأنهم منذ رجوع الخميني في شباط (فبراير) ١٩٧٩ لم يتوقفوا عن بسط تأثيرهم ونجحوا في ظل راية إسلام ملتبس لا يصرح بميله الماركسي في السيطرة على شباب بقوا إبان النظام السابق غير مسيّسين، ووجدوا أنفسهم غداة الثورة ضائعين تماماً. كانوا يستميلون إليهم العائلات الدينية ولم يكن من النادر أن يكتشف قادة إسلاميون فجأة أن أبناءهم أو بناتهم قد انضموا إلى صفوف المجاهدين. ضمن الجرائد التي وضعت في تصرفنا ابتداء من آب (أغسطس) ١٩٨٠، كنا نسجّل كل يوم، على لائحة الأشخاص الذين نفّذ بحقهم حكم الإعدام، أسماء بعض أبناء رجال الدين.

إلا أنَّ نفوذ الخميني وانتشار رجال الدين في المدن كما في الأرياف، نجحا في اجتذاب الجماهير إلى مطاردة المجاهدين. هؤلاء المجاهدون الذين اختاروا أن يعيشوا بشكل سرّي وألا يقوموا إلا بظهور خاطف ليضربوا دون تمييز كل أنصار النظام، لم يستطيعوا مع ذلك الإفلات من تيقظ الشعب الذي كان في مجموعه موالياً للنظام. إن درجة الإخلاص الشعبي حيال الخميني كانت كبيرة بحيث أن بعض العائلات نفسها قد لجأت إلى لجان الحرس الثوري الموجودة في المدن والأرياف لتشي بأبنائها. المجاهدون الذين طبّقوا في إيران طرق التوباماروس المنتشرة في أميركا اللاتينية والفدائيين الفلسطينيين، أساؤوا تقدير نفور المجتمع من الايديولوجية الغريبة عن الثقافة الشعبية الإيرانية. إن تقزز الشعب هذا حيال الطريقة التي تتصرف بها جماعات اليسار المتطرف أتاح للحكم إمكانية قمعها بسهولة دون أن يقيم لها أي حساب.

الحرية المنسية

ذات مساء، لاحظنا بين المعتقلين الجدد رجلاً في الأربعين من العمر اتهم بانتمائه إلى إحدى الجماعات اليسارية المتطرفة التي ساهمت في الانتفاضة المسلحة ضد النظام. كان مهندساً إلكترونياً أمضى عشرين عاماً في الولايات المتحدة حيث ناضل بحماس، بصفته معارضاً عنيفاً للشاه، وسط تجمع الطلاب الإيرانيين في الخارج. ورجع، مثل كل معارضي النظام السابق الذين توافدوا بكثرة إلى إيران منذ صيف ١٩٧٨، إلى بلاده لتعزيز الصفوف الثورية. لقد أعطانا إيضاحات مدهشة عن تعددية الأحزاب الصغيرة الماركسية ـ اللينينية وتنوعها التي تستلهم كلها التقاليد السياسية الغربية. وقام

بالنقد الذاتي أمامنا معترفاً بأن وسائل التخويف والوشاية والنميمة التي مارستها الأحزاب اليسارية المتطرفة خلال سنتي ١٩٧٨ و١٩٧٩ أثرت بشكل سلبيّ للغاية على المناخ السياسي للبلاد، ممّا دفع الأحزاب الإسلامية إلى تبني هذه الوسائل بدورها خوفاً من أن يتم تخطيها. كان يقول لمعتقلينا الشبان إن كل أحزاب التحالف التي انضمت إلى الثورة، عدا بازركان وأصدقائه السياسيين، سارت حتماً إلى الراديكالية. والحالة هذه لم يكن متعجباً من أن يعامل النظام الإسلامي بدوره خصومه دون مراعاة أو تساهل لأن هذا بالضبط ما كانت تدعو إليه أحزاب اليسار المتطرف. ولكننا لم نأخذ الإسلاميين على محمل الجد. ومن جهتنا، كنا مقتنعين ان الحكم سوف يعود لنا تلقائياً. لقد بشّرنا بثورة شعبية من غير أن نفكر للحظة واحدة أن «شعبية» تعني في إيران «دينية». من جهة أخرى، بما أن مفاهيم الحرية الفردية واحترام حقوق الإنسان كانت غائبة عن قاموس الثوار العلمانيين، فإننا في وضع سيّىء اليوم للمطالبة بها، خصوصاً وأننا سعينا للإطاحة بالنظام القائم من خلال أعمال إرهابية.

إن حديث الوافد الجديد دفع بالكثيرين من الرفاق الشبان إلى التفكير العميق وأغرقهم في حيرة جدية.

خلال الأشهر الخمسة التي قضيتها في هذه الزنزانة، التقيت سجناء من نوعية مختلفة عن الشبان الإسلاميين ـ الماركسيين، أوقفوا بتهم مختلفة (جرائم اقتصادية أو التعاون مع النظام السابق) وينتمون إلى جيل أكثر قدماً ومعتقداتهم مختلفة تماماً. كانوا مطبوعين بقيم العهد الملكيّ وأفكاره وتصرفاته، ولم يكن في إمكانهم التكيّف مع روح أو إيقاع حياة جماعية كحياتنا. كانوا مستعدين لانتهاك كل قوانين حياة السجن المشتركة للحصول على زيادة صغيرة كبعض البلح أو حبّة فيتامين، حتى ولو كادوا يفقدون كل مصداقية لدى الشبان المأخوذين بحس العدالة.

توائم سيامية

ذات يوم، انتحيت زاوية مع بعض المعتقلين المنتمين إلى هذه الفئة قائلاً لهم:

«إذا لم تغيّروا تصرفاتكم، ستجدون أنفسكم معزولين تماماً عن المعتقلين الآخرين وستشعرون بعبء السجن بشكل مضاعف. هنا، في هذه الزنزانة الضيقة، تربطنا ببعضنا بعضاً علاقة وثيقة إلى حدّ أنه من المستحيل أن يكون لأحد منا وجود فردي، فنحن في الحقيقة مثل توائم سيامية».

استشهدت، على سبيل المثال، بالقراءة الجماعية للجرائد، ولكن عدم تفهمهم للوضع كان يحول دون إرجاعهم إلى الصواب.

حين كنا نقوم في زنزانتنا بمناقشات مشتركة، كنت ألاحظ أن هاوية عميقة تفصل بين جيليْ المعتقلين. كان واضحاً أن الاهتمام بالمصلحة الشخصية والفردية التي تحرّك نفوس الأكبر سناً لا يمكن أن تتصالح مع اندفاعة العطاء والمثالية لدى الشبان الذين وضعوا كل آمالهم في الثورة. فالشبان انجذبوا إلى هذه المبادرات الانتحارية غالباً لأن الجيل السابق لا يصلح بالضبط أن يكون مثالاً لهم.

بالمقابل، كنا نرى، ما أن يخف التوتر قليلاً ـ كأن لا نعود نسمع مثلاً لبضعة أيام أخباراً عن مقتل أشخاص من حزب الله في الشوارع أو عن تنفيذ أحكام بالإعدام في إڤين ـ تعاطفاً معيناً يجمع بين المعتقلين الشبان وبين حرّاس الثورة أترابهم، فنحس أن الشبان منسجمون مع سجّانهم أكثر منهم مع السجناء الأكبر سناً. والسبب أن هؤلاء الجنود كانوا إجمالاً إمّا فلّاحين وإما من سكان جنوبي طهران، وبالتالي تحرّكهم، كما الشبان المنتمون إلى أوساط أكثر يسراً، النار المتأججة نفسها التي اضطرمت في تلك السنوات في نفس الشباب الإيراني.

لم أكن أستطيع الامتناع عن التفكير بأن نظام الشاه، بالرغم من الإنجازات المتقدمة جداً التي قام بها على الصعيد الاقتصادي والتكنولوجي، فقد محبة الشباب، وهنا يكمن سبب فشله. لكن، لسوء الحظ، هذا الشباب المستعد لبذل كل التضحيات ـ وقد أثبت ذلك بوضوح منقطع النظير ـ وقع في أيدي سياسيين استغلوا مثاليته وتفانيه. كم من المرّات حدث لي أن أفقت في منتصف الليل متبيّناً في الظلام بعض الشبان المعتقلين واقفين لكي يستطيع الآخرون أن يناموا بشكل أكثر راحة.

إن جميع هؤلاء الفتيان قد شكلوا لي منجماً ثميناً للمعلومات حول سلوكية الشباب الإيراني وعالمه الذهني، لكني من جهتي، وضعت نفسي بشكل كامل تحت تصرفهم منظّماً مناقشات ودروساً في اللغة بالطرق المتوافرة لدينا على أية حال لأنه لم يكن مسموحاً لنا الحصول على ورق وأقلام. كذلك استعنت، من أجل تدوين ملاحظاتي، بمسبحة تركها لي معتقل عند اطلاق سراحه. كل صباح، كنت أستيقظ باكراً قبل الساعة السابعة فأجيل في رأسي المواضيع التي أريد معالجتها وأنا أكر حبّات المسبحة. في غضون خمسة أشهر، وصلت إلى الحبة الثامنة والتسعين (أي ثمانية وتسعين

موضوعاً)، ولكن تقرّر عندئذ نقل المعتقلين ممن هم فوق الأربعين عاماً إلى قسم آخر من السجن، حيث سُمِحَ باستخدام الورق والأقلام.

القسم السادس

كان هذا القسم يحمل الرقم ٦. كان أشبه «بفيللا» مؤلفة من أربع غرف في الطابق الأرضي وثلاث غرف في الطابق الأول وغرفة للحمّام وبضع مرشّات. كان في كلٍّ من هذه الغرف في ذاك الشتاء حوالى ثمانية وعشرين أو ثلاثين شخصاً. وكان بعض المعتقلين ينامون حتى في الأروقة. كنا نملك حظ التمتع بباحة مزروعة بأشجار صفصاف قليلة حيث يجري جدول، كما كانت توجد بركة صغيرة أيضاً حتى ليخال المرء نفسه في حديقة صيفية في إحدى أحياء طهران الجميلة. بالنسبة لي، أنا الآتي من زنزانة مغلقة، كانت حرية التجول في هذه الباحة وسط الأشجار لا تُقدَّر بثمن. خصوصاً وأنَّ لا أحد من حراس الثورة كان يراقب داخل الفيللا. السجناء كانوا ينظّمون حياتهم اليومية بأنفسهم. غالبية المعتقلين بها كانوا من ذوي المناصب الهامة في ظل النظام السابق. عسكريين ورجال أعمال، ومعظمهم متهمون بالقيام بنشاطات معادية للإسلاميين.

كنت ألتقي من بين المئتي معتقل في «الفيللا»، بعدد من معارفي القدامى. الحديث معهم كان هاماً وشيّقاً. في الليلة الأولى، بعد أن عشت طويلاً محبوساً. كنت مثاراً جداً لوجودي، كما بضربة ساحر، في فيللا «أحلام»، إلى حد أنني لم أستطع النوم. الشعور بأنني أستشرف نهاية الكابوس كان أقوى من الشعور الذي تملكني بعد ثلاثة وعشرين شهراً حين أطلق سراحي.

الأمر الذي كان يشكل تقدماً هاماً في القسم ٦، هو خاصة إمكانية التنزه كلّما شعرنا بالرغبة في ذلك، وأيضاً ـ ولِمَ الخجل من القول ـ إمكانية الذهاب إلى المراحيض ساعة نشاء ومن دون تحديد للوقت. هذه الأمور البسيطة لم تكن تقدر بثمن بالنسبة لنا، حتى ولو لم يتغير وضعنا كمعتقلين على الأصعدة الأخرى. هناك عاملان يلعبان دوراً أساسياً في حالة السجين النفسية: من جهة أولى استجوابه اليومي عن أسباب اعتقاله وعن الحجج التي يملكها للدفاع عن نفسه، ومن جهة أخرى، انشغال باله الدائم على أهله. شخصياً، لم أكن أعرف دائماً لماذا أُوقفت ولم أستطع، باستثناء المكالمة الصغيرة التي تلقيتها من زوجتي، الاتصال بعائلتي إطلاقاً.

كـان القلق والتوتـر داخل قسمنـا يزدادان احتـداماً، لا سيَّما وأن فئات كثـيرة من المعتقلين كان حكم الإعدام مُسلَّطاً عليها. تلك كانت حال أحد رجال السافاك الكبار عندما كـان يديـر لجنة مكـافحة الإرهـاب، والمتهم بالإسـاءة إلى المجاهـدين وأعضاء منـظمات إرهابيـة أخرى هي عـلى صراع عنيف الآن مـع قـاهـري عـائلة بهلوي. . . كذلك الحال بالنسبة لمجموعات أخرى كثيرة من المعتقلين والمتهمين أيضـاً بصفتهم من أنصار الملكية بتنظيم محاولات عسكرية ضد النظام الإسـلامي. هذه الفئـات المختلفة من السجنـاء كانت تجـد نفسها مجتمعـة كيفما اتفق. تجـاور كـادرات الجبهـة الـوطنيـة عسكـريين من جيش الشـاه ورجالاً من السـاڤاك وأصـدقاء بني صـدر وثـوار آخـرين إسلاميين أو ماركسيين ناضلوا لأعوام عدة ضد الشاه.

المناقشات وتبادل الآراء بين هذه المجموعات المتباينة جداً لم تكن تنقصها لا الأهمية ولا الإثارة. كان يحدث لبعض المعتقلين أن يذكّروا المواجهـات المسلَّحة التي تـواجهوا فيها أيام الشـاه، معقبين عليهـا بتعليقات شتى استـطعت أن استنتج، خـلال السنتين اللتين أمضيتهما في القسم ٦، أنَّ سلَّم قيم جديداً نشأ تدريجيـاً من المواجهـة بين هـذه الايديولوجيات المختلفة لا بل المتعارضة. ومع مرور الوقت، لم يعد المعتقلون يقاضون بعضهم من خلال انتماءاتهم السياسية أو ماضيهم، بل تبعاً لمزايـاهم الإنسانيـة. الأمر الذي كان يشغل اهتمامنـا في السجن هو قبـل كل شيء الـطريقة التي يتصرف بهـا كل واحد حيال الآخرين من جهة، ومعرفة إذا كان سيثبت كرامته وشجاعته أو جبنه أمـام المحكمة.

في غرفتنا، كان هناك جنـرال سابق في جيش الشـاه شغل منصبـاً هامـاً في تراتبيـة النظام، ولكن كان يُظهر في السجن رزانة ولطفاً واضحين. كـان يشرف كل صبـاح، بصفته رياضياً كبيراً، من الساعة السادسة إلى السـاعة السـابعة، عـلى تمارين ريَـاضية يشارك فيها خمسون معتقلاً.

كان فريق المعتقلين الأربعة الذين كان يتقاسم معهم الغـرفة يضم معـارضاً شهيـراً لنظام الشاه ومهندساً شيوعياً. قـال لي المهندس ذات يـوم، وقد صُدِم بأدب الجنـرال وعـطفه عـلى الآخرين، إنـه لم يتصوّر قط أن يكـون أمثال هـذا الجنرال مـوجودين في صفوف جيش الشاه.

بالمقابل، كان هناك جنرال سابق آخر في غرفة ثانية يتصرف بشكـل مختلف تمامـاً، بعد مرور عـدة أشهر عـلى نقلنا إلى القسم ٦، أخـذوا يوزعـون علينا السجـائر يـومياً

وكان يحق لكل واحد منا بسيجارة ثم بسيجارتين ثم بثلاث. ولكي نستفيد إلى أقصى حد من هذه الحصّة الهزيلة، كان المدخنون يتشكلون في جماعات من خمسة أو ستة أشخاص وكنت أدعوهم «مناوبات التدخين»، بدلَ أن يدخن كل واحد سجائره الخاصة به، كان أعضاء «المناوبات» يجعلون اللذة تدوم وقتاً أطول نافخين كل واحد بدوره السيجارة نفسها، عدة مرات في النهار، حين تُقدَّم لهم بعض السجائر خارج التوزيع «الرسمي»، كانوا يفرقونها بالتساوي على بعضهم، ولكن أفراد «المناوبة» في غرفة الجنرال الذي كنت أتحدثُ بشأنه، لاحظوا ذات يوم أنه يستفيد من هذه النعمة غير المتوقعة فيدخّن سراً في المراحيض فتمَّ إبعاده عن جميع المناوبات.

طريقة التصرف أكثر أهمية من مضمون الكائن. إذا كان الاعتقال الطويل يخلق نتائج سلبية على الإنسان، فإن له بالمقابل نتائج إيجابية لأنه يلغي عدداً من اللياقات الاجتماعية فيظهر الإنسان على حقيقته أمام نفسه وأمام الآخرين. إذ أن المعتقل يدرك في النهاية مقدار قوته وضعفه. لذلك، ليس هناك أكثر صوابية من حكم يصدره سجين في حق سجين آخر.

إذا كانت حياة «الفيللا» توفِّر حسناتٍ، نسبية، فإن لها بالمقابل سيِّئةً كبيرة وهي الوجود الدائم لمسؤول عن الفريق («كابو») الذي كان يعيِّنه حراس الثورة من بين السجناء. كان تنظيم حياتنا اليومية يعود لنا، وكان حراس الثورة يطلون علينا من وقت لآخر فقط. هذا «الكابو» كان في شكلٍ ما «خادمنا». كان المسؤول عنا مجرماً عادياً أوقف في غربي البلاد حين ضبط متلبساً بالسرقة والسلاح في يده. أصبح بفضل تواطؤ بعض حراس الثورة المتحدرين من أصل ريفي، الفظين وشبه الأميين، طاغية بداية، استولى على إحدى الغرف الأربع في الطابق الأرضي بحجة أنه يريد أن يحوِّلها إلى تعاونية. كان يبيعنا الحاجيات بأسعار باهظة على كل حال. وأخذ يزرع الإرهاب في القسم كُله محاطاً ببعض المعتقلين ذوي الأخلاق المشبوهة. من جهتي، وخلافاً لرأي غالبية المعتقلين، كنت مقتنعاً أن هذا الوضع غير صادر عن المحكمة الثورية، بل، كما سيؤكد تسلسل الأحداث، عن ظروف محلية خاصة.

المدرسة في السجن

بعد أيام من وصولنا، نُقل إلى «فيللتنا»، تكميل ـ هومايون أحد طلابي القدامى. كان على علاقة ببني صدر، وساعده على الاختباء قبل هربه إلى فرنسا. قضى ستة

أشهر في زنزانة إفرادية. خلال هذه الأشهر الستة، كان سجّانه، وهو من حراس الثورة المتقدمين في العمر يأتي إلى زنزانته كل مساء ليدرس القرآن، فنشأت علاقة صداقة بينهما. كان هذا الحارس أكبر سناً من الحراس الآخرين، وقد فقد ابنه خلال الحرب، لذلك كان محترماً ويطيعه كل زملائه الأصغر سناً. وحين نُقل تكميل إلى القيللا عندنا، تبعه هذا الحارس كملاكه. أفهمناه عبر صديقه أن «كابو» في قسمنا ليس رجلاً مهماً وأنه يجب نقله إلى قسم مخصص للسجناء الذين ارتكبوا جرائم عادية. لم يمتثل فقط لرغبتنا بل طلب منا أيضاً التعديلات التي نتمنى أن تجري لكي نحقق السلام في ساحتنا. وافق على اقتراحنا بتعيين مسؤول من اختيارنا، فانتقينا أحد عمال المطابع ويُدعى داود كان مهذباً مع الجميع[٤]. واقترحنا عليه أيضاً أن يحوّل غرفة المسؤول إلى صف حيث تُعطى، بالإضافة إلى التعليم الإسلامي، محاضرات عن مسائل عامة وبشكل خاص، دروس في اللغات، عُيّنت مسؤولاً عن التدريس وامتثالاً لنصائح ذلك الذي سميناه «حارسنا الثوري اللطيف»، حرصنا جيداً على ألا تأخذ محاضراتنا منحى سياسياً، لأن حراس الثورة الذين لا يحتملون أدنى حماقة، حظروا علينا أي نقاش أو تأويل للقرآن[٥]. لم أتوان بطبيعة الحال عن طمأنتهم تماماً فيما يخص هذه النقطة.

كان هناك بين الرجال المنتمين إلى الفئات المهنية المتنوعة جداً في «فيللتنا»، عالم جيولوجي من طراز رفيع عمل لأكثر من عشرين سنة على احتياط المناجم في إيران. طلبت منه أن يحدّثنا عن الغاز والبترول والحديد والرصاص والفضة، إلخ. في غضون يومين، وحين استنتج حراس الثورة أن محاضرنا يحصر حديثه في الكلام عن بنية القشرة الأرضية ومختلف العصور الجليدية، أحضروا لنا لوحاً أسود وطباشير ملونة.

وهكذا مرّت عشرة أيام دون أن يتدخل حرّاس الثورة. وحين استنفد العالم الجيولوجي موضوعه، طلبت من أحد الجغرافيين أن يقدّم لنا بياناً عن النبات والمناخ في إيران - وهذه مواضيع لم تتناول السياسة حتى الآن، بعد أن انتهينا من الجيومورفولوجيا والجغرافيا، طلبت من مؤرخ أن يحدّثنا عن الشعوب الأوائل التي هربت من البرد في سهوب الشمال (في روسيا) وأتت لتقيم في النجد الإيراني. خلال شهر من المحاضرات اليومية، اقنعنا حرّاس الثورة (الذين كانوا يقطبون عيونهم من وقت لآخر حين تمر عبارات تقنية غير معتادة)، بأننا لا نقوم بمجادلات سياسية أو حزبية فتركونا بسلام. حين أنهى مؤرخنا حديثه عن عصور ما قبل التاريخ وبدأ

يتطرق إلى تاريخ إيران منذ العهود الأكثر قدماً حتى أيامنا هذه، لم يتدخل حرّاس الثورة بأدنى ملاحظة، خلال هذه الحلقة من المحاضرات التي دامت حوالى سنة، استعرضنا كل جوانب الحياة التاريخية والفنية والاقتصادية والسياسية في البلاد. ولأن السكرتير العام لنادي الصيد كان بيننا، أقيمت محاضرات عن أنواع الطرائد في إيران، وأجرينا عدة محاضرات أيضاً عن الطرقات لأن أحد زملائنا كان عقيداً سابقاً في الشرطة، وقد درس المسألة، خلال مهنته، في مختلف المناطق، من سان فرانسيسكو إلى طوكيو. خلال الشهر الأخير، دعوت ناشراً لأن يعالج مسألة الرقابة في ظل نظام الشاه وفي ظل النظام الإسلامي، فقام بذلك دون أن يقلقنا شيء.

في نهاية حلقة الدروس، كتب أحد المعتقلين وكان خطّه جميلاً جداً، تقريراً من عشرين صفحة وجهّه إلى المدعي العام للمحكمة الثورية في إڤين، حين أعطيت هذا التقرير إلى الحارس المسؤول حاجي رضى - وهو شاب في الثلاثين من عمره أنهى دروسه الثانوية - رجوته أن يعطيه إلى رؤسائه، فقرأ بضعة مقاطع باهتمام واضح وقال لي بلهجة صادقة تماماً:

«تقريرك يظهر أن الاحتفاظ بأناس كلَّفت ثقافتهم البلاد غالياً في سجن إڤين جنون مطبق، خصوصاً من أجل أسباب قابلة للنقاش. كنت محقاً تماماً حين قمت بهذا العمل. وهذا سيرغم رؤسائي على التفكير، فليحميكم الله!».

يجب الاعتراف بأن مشاعر حاجي رضى لم تكن مشتركة مع إدارة السجن، وإلّا لما كان بقي سجناء «الڤيللا» عدة أشهر أخرى، إن لم يكن عدة سنوات في سجن إڤين.

سحر التقنية

وإن لم يشارك القضاة ومساعدو القضاة وحرّاس إڤين إعجاب حاجي رضى بمعلومات معتقلي القسم ٦ وثقافتهم، إلّا أنهم كانوا يعترفون بقيمة وحسن التصرف الذي يبديه هؤلاء حين تسنح لهم الفرصة بذلك. إضافة إلى الأمثلة التي ذكرت، أريد أن أقول شيئاً:

إبّان اعتقالي الأول، أخبرني طاهٍ كبير أنه منذ وصوله إلى إڤين، قدّم بعض الاقتراحات لتحسين نوعية الغذاء. بما أن مدير السجن كتشوي أجاز له كل حقوق التصرف، أخذ على عاتقه الاهتمام بكل ما يتعلق بالغذاء من شراء الحبوب إلى الطبخ

مروراً بتوزيع الأطباق وتنظيفها. وهكذا أصبح المستشار الرئيسي للمدير. وتعرّفت أيضاً إلى مهندس كبير للأعمال العامة، سباماك فرزاد المحكوم عليه بالسجن المؤبد لقاء تُهمٍ مختلفة منها انتماؤه الماسوني أو الرشاوي التي دفعها من أجل بناء الإنشاءات الضخمة للجيش. إبان اعتقاله الأول في سجن سورخي ـ هسّار، لاحظ الوضع المزري لمستشفى المعتقل، فعهد إليه تاجر بازار ذو عقل راجح القيام بأعمال ترميم ضرورية، شرط أن تُنفذ بالمساهمة التقنية والمالية للمعتقلين، عندئذٍ أنشأ مهندسنا ورشة حقيقية استغرقت سنتين وتطلب إنجاز العيادة عدة تنقلات بين السجن وطهران، بعدها، مُنِح فرزاد العفو وأُطلق سراحه.

في «فيللتنا» في إڤين، مع أنَّ قساوة نظام المعتقل وصلت إلى ذروتها، كان المسؤولون يقدّرون كفاءات المعتقلين التقنية. كان هناك مهندس بناء في الخمسين من عمره يدعى نِيشات متخرج من الولايات المتحدة. لم تكن تعجبه إلّا التكنولوجيا العالية ولا يُجِلُّ حقيقة إلّا الإنجازات الأميركية. لذا كان من الطبيعي ألا يرتاح إطلاقاً للشعارات المعادية لأميركا التي يطلقها حراس الثورة، ولم يكن يخفي نيته في الرجوع إلى أميركا حين يخرج من إڤين، لملاقاة زوجته وأولاده، وحتى لو اضطره ذلك إلى عبور الحدود سرّاً.

كان يروي كل ذلك للحرّاس بصراحة مدهشة: فهو لا يملك أية رؤية سياسية في وسط حيث كل شيء مسيّس. إلّا أنَّ نيشات كان يعتبر بمثابة «جنّي التقنية»، مع أنه لا يوجد بتصرفه إلّا الحد الأدنى من الوسائل والأدوات، كان يستطيع إصلاح كل شيء، بدءاً بالنظارات والساعات وحتى السخّانات التي كانت تغذي الغرف بالماء، ما أن اكتشف حرّاس الثورة مواهبه حتى أحاطوه بكثير من الرعاية، وكانوا يأتون لاصطحابه دون أن يضعوا عصابة على عينيه ـ وهذا دليل ثقة كاملة في تلك الفترة ـ وهو عبر السجن كلّه لكي يُصلح كل ما هو معطّل، مقابل ذلك، استطاع الحصول على مطرقة وملاقط كان يستعملها بمهارة فائقة ليعالج مشاكلنا اليومية. وكان بمقدوره أيضاً صناعة رفوف إضافية لحفظ أطعمتنا ومشابك وأسلاك نعلّق عليها غسيلنا ليجف، كان يعمل ليلاً ونهاراً، واعتبره الحرّاس «الرجل الخارق» وأصبح في الواقع المهندس الأبرز في إڤين، أُطلق سراحه بعد عام، وغادر مباشرة إلى الولايات المتحدة بعد أن صرح بذلك إلى المحكمة الثورية، دون أن يخشى شيئاً.

وبين معتقلي «الڤيللا»، الآخرين رسام ينتمي إلى المدرسة التقليدية لم يعتقل

لأسباب سياسية. كان جريئاً بطبعه ويدّعي الإباحية ويسخر علانية من كل ما يتعلق بالحياة السياسية، ولكنه كان، على غرار الفرسان المعروفين جداً في إيران، شهماً جداً يُجل الصداقة، ربطته علاقة صداقة قوية جداً بجنرال سابق في الجيش كان معاوناً لوزير الدفاع والتسلّح تعرَّف إليه في السجن، كان الجنرال عسكرياً مثقفاً لا شائبة فيه، لكنه منطوٍ ومرهف الإحساس جداً. حاول عدة مرّات الانتحار في السجن، ولم يكن يتحدث إلّا مع الرسام. كانت للرسام موهبة كبيرة في «البورتريه»، وقد طلب منه الحرّاس مراراً أن يرسم «بورتريهات» لزعماء إسلاميين ومنهم الإمام الخميني نفسه، استناداً إلى صور فوتوغرافية، كانت هذه الرسوم مخصصة لتزيين جدران غرفة الرياضة في إڤين التي أصبحت أيضاً مُصلًّى وصالة للمحاضرات.

من جهتهم، كان المعتقلون ينظرون بعين الدهشة ومستمتعين برؤية هؤلاء الحرّاس للمرة الأول بشكل مختلف، يُدجّنهم نوعاً ما سحر الرسام الفنان، كان الحرّاس معجبين جداً بموهبة رسّامنا إلى حدّ أنهم أعطوه كل ما يحتاجه لممارسة فنّه، وأبدوا استعدادهم للقيام بكل الخدمات التي يطلبها. في تلك المرحلة التي تتسم بالتوتر الخطير وسط السجن وحيث اشتباه الحرّاس بالمعتقلين وصل إلى ذروته، كان أمراً استثنائياً أن يستطيع سجين استمالة عطف حارس. ولكن رسّامنا غير المبالي إطلاقاً بأن يجني من الوضع منفعة شخصية، كان يطلب فقط من الحرّاس أن يلطفوا من مصير صديقه الجنرال.

بالنسبة لمثولنا أمام المحكمة، كنا عارفين أنه طالما قضايا المعتقلين المتهمين بالمشاركة في الهجومات المسلَّحة لم ترفع أمام القضاة، فإن الحال سيكون كذلك للقضايا التي ترتدي أهمية أقل. في الواقع، هذا التأخير لم يكن يغيظني لأن استجوابي أو مقاضاتي وسط جو متوتر ومستثار ينطوي بذاته على أخطار خصوصاً في مثل وضعي حيث كل شيء يستند إلى شهرتي وإلى الصورة التي رسمها الناس عني، أي المحققون والقضاة. شعرت منذ اليوم الأول أن قاضي التحقيق الذي كان مجازاً في القانون (وهذا الأمر شبه نادر في إڤين آنذاك)، حاول أن يرسُلني إلى قسم منزوٍ من السجن لكي أصبح منسياً، ويجب التشديد في أية حال على أن هذا القاضي وقضاة آخرين من المستوى نفسه، لم يحتملوا مناخ التوتر والرغبة القمعية السائدة في المحكمة ابتداءً من ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٨١، أي في بداية الانتفاضة المسلَّحة للمجاهدين. وقد أوجدوا لأنفسهم مناصب أخرى تاركين مهمة الاستجوابات غير الساطعة إلى حرّاس الثورة

الذين «تمرّسوا» بذلك، إذا جاز التعبير، خلال المواجهات الدامية مع الجماعات المسلّحة.

مع احترامي لشجاعة كل هؤلاء العاملين وسط منظمات كمنظمة العفو الدولية أو لهؤلاء الذين وقعوا بيانات ضد القمع في العالم، أود أن أذكّر بهذا الأمر: لا يمكن إدانة عنف السلطات العامة ضد الذين يلجأون إلى الإرهاب الأعمى من دون إدانة الإرهاب نفسه ـ أياً تكن مصادره، لأن الإرهاب لا يمكنه إلّا أن يؤدي إلى قيام نظام قضائي يلجأ بدوره إلى استخدام وسائل قمعية استثنائية من أجل بعثرة الجماعات المسلّحة. ويجب أن ندين دائماً العنف الأعمى. في إيران اختبرنا هذه التجربة المؤلمة في ظل حكم الشاه والحكم الإسلامي على حدّ سواء، الحركات المسلحة دفعت السافاك لأن يكون قمعياً أكثر من أي وقت مضى، والمسار ذاته تكرر في ظل الإسلاميين. مهما تكن دوامة الإرهاب هذه مثيرة للسخط، هل بالإمكان التعجب من تصرف قاضي التحقيق الذي لا يجهل أبداً في حضرة متهم يعرف مخابىء السلاح، وعليه بالتالي أن يعترف، لأنه إذا لم يفعل ذلك، فسوف يُقتَل عدد آخر من الأشخاص ومن بينهم أناس أبرياء في أيام لاحقة، إن لم يكن في بضع ساعات أحياناً. في هذا الجو المشحون، مثل معتقلوا إڤين أمام المحققين في صيف وخريف وشتاء ١٩٨١.

كل صباح، كان مكبّر الصوت يعلن أسماء سبعة أو ثمانية معتقلين عليهم الحضور إلى باب المخرج في مبنانا. كان يأتي أحد حرّاس الثورة لاصطحابهم معصوبي الأعين إلى المحكمة. عندما يصلون إلى المكان المحدد، يجب عليهم الانتظار جلوساً على طول الجدار حتى يأتي مُساعد القاضي لمرافقتهم إلى أحد المكاتب المكلفة إما للتحقيق في سجلهم وإما لإعلان الحكم المُتعلق بقضيتهم في حضور رجل الدين كان القاضي ـ الشيخ، كما أشرت سابقاً، يُظهر تسامحاً أكثر من مساعد القاضي. ولكن في فترة التوتر، كان مساعدو القضاة يسيطرون على قضاتهم لا بل يلقون الذعر في نفوسهم، مما جعل الأحكام شديدة دائماً. يجب الاعتراف من جهة أخرى أن مساعدي القضاة كانوا سريعاً ما يجعلون المتهمين مذنبين إما بإجبارهم على الكلام وإما بمواجهتهم، معصوبي الأعين، مع أحد الشهود الذي هو في أغلب الأحيان رفيق قتال مرتد.

كان في استطاعة المعتقلين المحكومين بسجن مؤبّد أن يروا هذه الأحكام مخفضة إلى عقوبات أخف ـ الحكم بالسجن المؤبّد يمكن أن يخفض مثلاً إلى خمس سنوات ـ بفضل العفو الذي يمنحه الخميني بانتظام في بعض المناسبات كعيد الثورة في ١١ شباط

(فبراير) أو السنة الجديدة الفارسية في ٢١ آذار (مارس). ولكن في حالة الحكم بالإعدام، كان الأمر يجري بشكل مختلف تماماً حيث كل خلاص ميؤوس منه.

كان رجال أمثال بزركان ووزرائه وبعض رجال الدين المعتدلين مثل بهشتي وموتاهاري (المقربين من الخميني) قد توصلوا خلال أول شهرين من الثورة إلى السيطرة على المحاكم الثورية والحد قدر الإمكان من أحكام الإعدام. ولكن، بعد الانتفاضة المسلّحة للمجاهدين، دارت العجلة من جديد. من هنا، فإن أصدقائي كانوا يعرفون تماماً أنهم سيتعرضون للموت فيما لو اكتشف تورطهم في أعمال إرهابية. بطبيعة الحال، كان القضاة يعللون الأمل بإنقاذ حياتهم لقاء الحصول على معلومات، وكانت تصرفات المحكمة محاطة بأكبر قدر من السرية.

مأمور النفايات

ذات يوم بعد الظهر، بعد شهرين من وصولي إلى «الفيللا»، أعلن مكبّر الصوت أسماء خمسة عشر معتقلاً يفترض بهم «أن يتأهبوا مع كامل أمتعتهم[٦]»، كان بعضهم متفائلاً جداً بإمكانية إطلاق سراحه. بعد أن قمنا بتوديعهم، بقينا ثلاثة أيام قلقين على مصيرهم، إلى أن أعلنت الجرائد نبأ إعدامهم، وهذا يظهر جيداً أن لا أحد في قسمنا، بالرغم من النزهات والرياضة البدنية والشاي بعد الظهر والزيارات التي كنا نقوم بها من غرفة إلى أخرى بعد العشاء والمحاضرات، شعر حقاً أنه في أمان.

كانت رائحة الموت تحوم دائماً حولنا. فبالإضافة إلى معتقلي إڤين المحكوم عليهم بالإعدام، كان هناك سجناء آخرون يمضون إجبارياً بضعة أيام عندنا، لأن كل أحكام الإعدام كانت تنفذ في إڤين. وهكذا عرفنا كيف تجري مختلف المحاكمات السرية واكتشفنا وجود سجون أخرى عديدة آنذاك في طهران وأهمها سجن جمشيدية، حيث المحكمة العسكرية تقاضي العسكريين والمدنيين المتورطين في محاولات انقلابية تهدف إلى الإطاحة بالنظام.

نظراً للتعتيم المطلق السائد في إڤين وفي السجون الأخرى، كان كل اتصال بالآخرين يشكّل بالنسبة لنا مصدراً هاماً للمعلومات. وحالة الرضى الكبرى التي يمكن أن يشعر بها معتقل سياسي هي في أن يتمكن من إعادة تشكيل الحقيقة عبر شذرات من المعلومات المبعثرة الملتقطة من هنا وهناك لأنه كان يستطيع عندئذٍ أن يحكم بشكل

أفضل، هو المقطوع عن العالم، على الوضع بشكل عام وبالتالي على وضعه بشكل خاص.

هاجس الاستعلام استولى على زملائي في السجن ودفعهم إلى التطوع للقيام بكل أعمال السخرة التي تسمح لهم بالتجول عبر أرجاء السجن، كان الأمر يتعلق مثلاً بالذهاب للإتيان بالطنجرة الكبيرة مع المسؤول أو بإفراغ النفايات. كان هناك معتقل مكلّف خصيصاً بإفراغ أكياس النفايات مرتين في النهار. في الواقع، لم يكن مسموحاً إلّا لثلاثة معتقلين فقط بالخروج من «الفيللا» بانتظام: المسؤول والطبيب (الذي هو منا) و«مأمور النفايات». مثل هذا الإذن كان يعتبر امتيازاً بحيث أن المتمتعين به لم يصبحوا فقط معروفين للمسؤولين عن إڤين الذين اعتبروهم تابعين للكادرات الموضوعة في خدمة الجماعة، بل استطاعوا أيضاً أن يعرفوا عند كل خروج لهم أشياء جديدة. على كل حال، إن أحد المواضيع المفضلة التي تناقشت فيها مع زملائي وحاولت أن أشرحها لهم، هو نظريتي عن الإعلام. كنت أقول لهم إن إڤين تشكل فيما يتعلق بالإعلام، عالماً مصغراً عن مجتمع اليوم، وأن الإعلام هو السلطة الحقيقية في عصرنا. كان الشاه في أوج عهده يتلقى ما لا يقل عن عشرين تقريراً خاصاً كل يوم، عدا التقارير التي يبعثها له مراسلوه العالميون، من هنا، فإن أميركا فقدت عظمتها ومصداقيتها حين لم تعلم «السي. أي. إيه» بكل ما كان يجري في طهران. ونلاحظ فضلاً عن ذلك الظاهرة نفسها في المجتمعات الصناعية حيث المواطنون، وبالرغم من انتشار الأخبار الجاهزة والحرية الظاهرة في الإعلام، ليسوا مطّلعين بشكل كافٍ على آليات القرار المتعلقة بالحياة الاقتصادية والسياسية. لذلك ترتدي بعض النُتَف العامة والخاصة عن أخبار الطبقة السياسية حين تظهر فجأة طابعاً بالغ الأهمية.

ذات يوم، سمع «مأمور النفايات» خلال إحدى جولاته، حرّاس الثورة يتحدثون عن مجيء المدعي العام إلى إڤين. حين علم المعتقلون بهذا الخبر، ردّوه إلى التصريح الذي قام به الإمام الخميني منذ فترة قريبة، والذي طالب فيه المدعي العام عدم إبقاء الأشخاص غير المتورطين في محاولات تهدف إلى الإطاحة بالنظام، لفترة طويلة في السجن. من جهتي حين وصلت إلى «الڤيللا»، قيل لي إن إدارة السجن طلبت من المعتقلين الأصغر سناً الذهاب لمدة ساعتين في اليوم، لتقديم المعونة إلى العمال الذين يعملون في البناء المجاور لبنائنا، تهدف إلى جعل سجن إڤين يستوعب أعداداً أكبر من المعتقلين، كان عدد كبير من السجناء يتوجه كل يوم طوعاً إلى أعمال السخرة هذه،

ليس فقط بسبب الأهمية التي يمثلها أي خروج بل لأن العمل الجسدي كان نعمة مفاجئة لرجال أرغموا على البطالة. أمام هذا الإقبال، اضطر الحرّاس إلى القيام بالفرز. ذات يوم قررت الذهاب أنا أيضاً كمتطوع، فيما كنت أدفع عربة مليئة بالقرميد، جاء مدير السجن (وهو أحد تجار البازار الذي كان، استناداً إلى صاحبي حاجي رضى، قد قرأ كتبي ويبدي نحوي احتراماً كبيراً) لموافاتي وهتف قائلاً: «أستاذي العزيز، لماذا تجر هذه العربة؟ كنا قد أمرنا الحراس بأن يختاروا فقط الشبان. من جهة أخرى، أنت لا تستطيع أن تتصور كم سيكون الأمر مخجلاً فيما لو عرف المسؤولون أننا أرغمنا مفكراً مثلك على العمل كأحد المحكومين بالأشغال الشاقة...».

أجبته:

«عزيزي، يجب أن أقول لك في البداية إنني جئت من تلقاء نفسي، لأن الجهد الجسدي في هذا العمل المشرف وفي هواء الجبل العليل، ليس بالأمر الكريه، بل هو صحّي تماماً. ثم، هناك مثل شعبي يقول: «زرعوا فأكلنا، فلنزرع ليأكل الآخرون»، أليس كذلك؟ ألا تقدّر عمل هؤلاء الذين تركوا لك هذا البناء الكبير مع حديقته الجميلة؟ لولا عملهم لكُنّا التقينا أنا وأنت في كوخ لا في معتقل مجهز بشكل جيد. ذلك أن الأنظمة تزول والسجون تبقى. لذلك، من الأفضل العمل قدر الإمكان لرفاهية السجناء المعتقلين».

أجابني المدير:

«أعرف أنك تمزح يا سيد نراغي. لكنك تعرف جيداً أن لا سجن في الإسلام، في بداية الثورة، كان هناك متحمسون أرادوا حتى هدم إڤين. لكننا منعناهم. ولو لم يقم المجاهدون بانتفاضتهم المسلّحة السخيفة لما كنّا، لا أنا ولا أنت هنا اليوم».

لا شك أن مدير السجن كان صادقاً، لأنه بعد انقضاء أشهر قليلة عاد إلى عمله التجاري في بازار طهران.

أخلاق «جاحد»

خارج المحاضرات اليومية ودروس اللغة التي كنت أديرها، تابعت الاهتمام بمصير رفاقي عن كثب، حين كنا نتمشى سوية في باحة القسم، كنت أستمع إلى شكاوى

الجميع واعترافاتهم وحاولت أن أساعدهم في حلّ مشاكلهم. أتذكر مثلاً أنني مشيت لأكثر من ساعة يومياً لمدة شهر مع أحد القصابين الشبان الذين ينتمون إلى منطقة ساوه في أواسط إيران، وقد أدخل السجن لأنه حمى أحد أصدقائه المتورطين في قضية مخدرات. كان هذا الفتى ودوداً وجريئاً وذا خيال واسع ويملك في الوقت نفسه حس الدعابة. لقد كان متعلقاً بالحياة بطريقة غريزية ومستعداً لمواجهة الأوضاع الأكثر خطورة. كان بالنسبة لي يشكل نموذج الإنسان الفارسي كما وصفه الكونت دوغوبينو قبل مئة وخمسين عاماً، أي حصيلة حضارة قديمة مرهفة جداً، لا يخدع بالخطب الرنانة، والشاهد على ذلك روح السخرية التي لا تفارقه إطلاقاً، لم يسبق له أن قرأ الخيّام أو حافظ أو شعراءنا الآخرين، ولكنه كان يفهم جيداً مقاصدهم. كنت أرى فيه نموذجاً لنتاج التطور الاجتماعي على صعيد فن العيش والتوجه الإنساني وفلسفة الحياة، أفضل بكثير ممّا قدّمته المدارس المعاصرة، لم أكن أملّ من رفقته إطلاقاً، واستطعت أن أعرف منه الكثير عن حياة مدننا الصغيرة في الأقاليم وبخاصة عن المشاكل المتعلقة بالشبان الذين لجأوا إلى المخدرات والتي منع التزمت الرسمي نشرها كلياً.

في زاوية الباحة، قرب البركة، هناك جذع شجرة يستعمل كمقعد، كان يجلس عليه المعتقلون المتوحدون الذين تصدمهم كلياً إمكانية مثولهم أمام المحكمة، والقلق الذي يمكن أن يسببه اعتقالهم لعائلاتهم أو أي سبب آخر، كانوا يأتون إلى هنا وهم على حافة اليأس، شاعرين بانزعاج من وجودهم مع الآخرين. كان هذا «مقعد المحبطين»، في أغلب الأحيان، حين يأتي أحد المعتقلين للجلوس عليه يأتي إليّ المعتقلون الآخرون ليطلبوا مني الذهاب للتحدث إليه. ولم أكن أتهرب قط لمعرفتي التامة أن هذا الحديث سيخفف أقلّه في الوقت الحاضر، من وطأة حالته المحبطة.

التخفيف عن معتقل يشعر بالكرب كان يقوم بشكل أساسي على الاستماع إليه ودفعه إلى تصوّر حلول لمشاكل لا نملك عليها لا أنا ولا هو أدنى تأثير. كنا نحاول فقط أن نتخيل مثلاً ما يمكن أن تكونه عقلية القاضي الإسلامي الذي كان تميزه مجهولاً بالنسبة لغالبية المعتقلين. في النهاية، كنا مرذولين من العالم عملياً ولا نملك أي تأثير فيه، وكان من مصلحتنا السعي لتصوّر أفضل شكل ممكن لمصيرنا في هذه الدنيا. في الواقع، سواء كان الأمر متعلقاً بدراسة مرافعات المحكمة أو بالقلق الذي تغرق فيه عائلاتنا، أظهرت التجربة أن عامل الوقت كان بحدّ ذاته إيجابياً على الدوام،

وخصوصاً بالنسبة للعائلات، لأن وضعهم في الحالة تلك سيكون أقل مأساوية ما تصوّره المعتقلون على الصعيد الماديّ. في الواقع، هنا تظهر إحدى سمات تفوُّق المجتمع التقليدي على المجتمع الصناعي، لأنه يوفّر إمكانيات تضامن أكثر كما يشهد على ذلك الدعم الذي لقيه المعتقلون من الخارج، في أشكال متعددة.

كانت ظروف الحياة قد تحسَّنت كثيراً داخل السجن خلال الأشهر الأخيرة. كان حاجي رضى رئيس الحراس يعطيني عشر سجائر أسبوعياً ليشكرني على جهودي في تعليم المعتقلين والمساعدة التي أقدمها للمجموعة. لدى عنايتي بسجين مدمن على التدخين يعاني من الإحباط، كانت مهمتي أسهل لأنني لم أكن أُدخِّن، وأستطيع أن أقدم له سيجارة كاملة تزيل عنه انقباضه.

خارج الدعم المعنوي للسجناء، قررت لكي أشغل تفكيرهم، إعطاء سيجارة لكل واحد يذكر ثلاثة تعابير أو كلمات جديدة في الخُطب الثورية الإسلامية التي يبثها الراديو يومياً. حين تركت إڤين، كنت قد جمعت آلاف التعابير القرآنية المصدر ذات المحتوى الثوري التي صيغت انطلاقاً من المصطلحات المتمركسة الغربية. وهذا شكّل بذاته مادة ألسنية واجتماعية غنية يمكن الاستفادة منها لاحقاً، إذا أردنا أن نرفع من معنويات المعتقلين، بإمكان الكلمة المِعْلَم أن تثير اهتمامهم دائماً حتى ولو بدت هذه غير ذات قيمة عند خروجهم.

لكن، وبالرغم من كل الحيل التي استخدمناها «لتزجية الوقت» منذ صيف ١٩٨١ إلى شتاء ١٩٨٢، تملّكنا القلق من ما يمكن أن يشعر به أهلنا حيالنا. علمت لاحقاً أن زوجتي خلال هذه الفترة، كانت تنكب وابني الأصغر البالغ من العمر أربعة عشر عاماً على جريدتي المساء، يقرآن بانتباه وبصمت يكتنفه القلق أسماء المعتقلين الذي أعدموا، السيناريو نفسه كان يجري مع أبي وأمي اللذين بعد أن يتأكدا من أن اسمي لم يرد على هذه اللائحة الجنائزية، يتصلان بزوجتي ليعبّرا عن فرحتهما، دون أن يلمّحا إلى الجرائد. لقد ظلّت عائلتي لمدة خمسة عشر شهراً لا تعرف شيئاً عن ملفي، مع العلم أن أهلي لم يكونوا يعرفون شيئاً عن مآخذ المحكمة عليّ، النظام الإسلامي المهدّد مباشرة من المجاهدين الذين بدوا شرسين جداً في مواجهتهم معه أخذه الذعر فوقع حتماً في فخ خصومه واعتبر أنه يجب ان يرد على العنف بعنف مضاد. وهكذا عامل كل الذين وقعوا بين أيديه دون تمييز بصفتهم خصوماً خطرين. إن خطر إعدامي في تلك السنة ١٩٨١، كان شعوراً معذّباً تتقاسمه عائلتي مع غالبية أصدقائي.

وهكذا فإن مارك كرافتر، الصحافي في جريدة «الليبراسيون»، اعتبرني في كتابه «إيرانو نوكس» في عداد «المفقودين»، ومن جهته، والتر غلهوف، السكرتير العام لوزارة الخارجية في بون، الذي ربطتني به علاقة صداقة متينة منذ عشرين عاماً حين كان دبلوماسياً مبتدئاً في طهران، قام لدى السلطات الإيرانية، عبر سفارته، بمساع لم تؤد إلى نتيجة. لذلك اعتبر هذا الفشل مرادفاً لجمود الموت. من نافل القول كم تفاجأ بي حين التقاني حيّاً في باريس ربيع ١٩٨٦ حين كان عضواً في المجلس التنفيذي في الأونيسكو. في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨٧، وخلال المداخلة التي قام بها في جلسة الاحتفال الختامية لانتهاء توكيل المدير العام للمنظمة السنغالي آمادو ـ مهتارمبو، شكره والتر غلهوف على المساعي الخفية والمتابعة التي قام بها لدى سلطات «دولة هي عضو في الأونيسكو، من أجل الحصول على إطلاق سراح أحد الأصدقاء السجناء»، من جهتهم، اعترف لي زملاء لاحقاً بعد إطلاق سراحي أنهم أدرجوني في عداد السجناء الذين سينفذ بحقهم حكم الإعدام في شتاء ١٩٨١. لقد مالوا كلياً إلى هذا الاعتقاد بعد الزيارة التي قام بها إلى قسمنا المدعي العام للمحكمة الثورية موسوي تبريزي خاصة وأنه كان يظهر صرامة كبيرة تجاه المعتقلين، حين كنت أحاول أن أشرح له أنني أوقفت بسبب تخمينات مفترضة عن تعاوني مع بني صدر (الذي لم ألتقِ به إطلاقاً بعد انتخابه رئيساً للجمهورية)، توجّه إليّ موسوي تبريزي، والحرج بادٍ على وجهه، بهذه الكلمات «أنت جاحد»! حسب رأيي، كان مغتاظاً جداً لأنه لم يستطع تبرير احتجازي، ولكن ابتداءً من هذا اليوم، تيقّن أصدقائي من أن أيامي باتت معدومة.

خلال ذلك الشتاء من عام ١٩٨١، حين قدّم مير ـ حسين موسوي رئيس الوزراء آنذاك موازنة السنة المقبلة، القى خطاباً سياسياً نقلته وسائل الإعلام حرص فيه على إظهار التفرد الاجتماعي الاقتصادي لهذه الموازنة. بهذه المناسبة، قال: «موازنتنا لا تشبه في شيء تلك التي كان يحضّرها في السابق منظرون ينتمون إلى نظام الشاه أمثال نراغي»، مع أنني لم يسبق لي قط أن اشتركتُ في تحضير موازنة! إن ادعاء رئيس الحكومة لا يمكنه إلّا أن يثبت مدى جهل أثار دائماً تهكم قضاة إڤين ـ كما تبيّن لي لاحقاً[٧].

الزملاء ـ الفرسان

رغم كل شيء، لم تتوصل الأخطار المباشرة أو غير المباشرة التي تهددني إلى تعكير

هدوئي. ولم أتنازل طيلة فترة اعتقالي عن هـذا التفاؤل «العضـوي» الذي كنتُ أتحلى به، ذلك أنني، وللأسباب التي ذكرت أعلاه، لم أكن أعتقـد أن المحكمة تفكـر جديـاً في إعدامي. منذ اليـوم الأول لتوقيفي الثـالث وحتى خروجي من السجن بعـد ثمانيـة وعشرين شهـراً، لم أكف عن التفكير في قـرارة نفسي ـ لأنني من المؤمنـين بحتميـة القـدر ـ أن إعـدامي هو من بـين الأشياء المحتملة التي يفـترض بكل إنسـان أن يكون متـأهبـاً لمواجهتها. كنت أعتـبر أن الموت، مؤجـلاً كان أم مفـاجئاً، يشكّـل إحدى معـطيات الوجود. ثمة فكرة للصوفيين الإيرانيين عـاودت ذهني دائماً: «الحيـاة أمانـة يُعهَد لـك بها. لا يحق لك يوم تُسترد منك أن تحتج لأنها في الحقيقـة ليست ملكك». هـذا المبدأ كان يلهم الرفاق ـ الفرسان الذين عقّب على نصوصهم المتخصص بالشؤون الإيرانيـة الفرنسي الكبير هنري كوربان في كتاب وجدته عن طـريق الصدفـة العجيبة في مكتبـة إڤين، وشرعت في ترجمته إلى اللغة الفارسية لأنشره بعد خروجي من السجن.

باختصار، كانت حالتي النفسية في السجن تتلخص على الشكل الآتي: زدت قناعة بـأن احتجـازي حـدث محتّم وتنـاقص شعـوري بـالمـرارة لأني لم أتفـاجـأ بـالثـورة ولا بمصائبها. كنت أستـطيع بهـدوء أن أذكّر قـادة النظام السـابق بانتقـاداتي لهم في أمرين هامين: التغرّب غير المحدود، والإثراء الفاضح للمجتمع الراقي. أما حيال الثـوريين لأي جهة انتموا (ماركسيين كانو أو وطنيين، أو إسلاميـين) والذين تعـاونوا مـع رجال الدين من أجل الإطاحة بالشاه، ثم حاولوا بعد الوصول إلى الحكم إبعاد رجال الدين ليحكموا على طـريقتهم، فكنت استعرض الفكـرة التاليـة: «استخدمتم القـوة الكبيرة لرجال الـدين من أجل تحـريك الجـماهير ضـد الشاه. لكن كيف تـأملون إدارة الثورة وحكم البـلاد دونهم؟ هل تعتقـدون حقاً أن رجـال الدين سيعـودون إلى مسـاجـدهم تاركين لكم الاستئثار بالحكم؟ حسناً! رجال الدين أقوى منكم. لم يُخدعوا، لذلك لا يحق لكم اليوم أن تستنكروا».

بما أنني لم أتبع الطريق الثوري، وفعلت كل ما بوسعي للرجوع إلى دستـور ١٩٠٦ دون نجـاح يُذكـر، لم أستطع أن أشعـر بالخيبـة، لأنني كنت أعـرف جيـداً أن الشـاه وجماعته، لا رجال الدين، هم الذين فشّلوا الدستـور، لا أستطيـع إلقاء مسؤوليـة ما يجري على رجال الدين، بل شهدت على رغبة النظام الإسلامي في الوقوف ضد محاولة تفكيك البلاد، فيما اليسار المتطرف يغذي الحساسية الإقليميـة والتقسيمية. بـالإضافـة إلى ذلك، كان رجال الدين يدافعون عن استقلال البلاد ووحـدة أراضيها ويتصرفـون

بوطنية صادقة. لم أشاطر أصدقائي بتحقيرهم الجذري للنظام، كنت أطالبهم دائماً بأن يكونوا أكثر إنصافاً: «إذا كنا اليوم في السجن، فالذنب يقع على الشاه أولاً، وعلى كل الذين تغنوا مثلكم بالثورة».

في الواقع، إن سَجْني لم يكن لذنب اقترفته بقدر ما هو نتيجة وضع معقد يعاني المسؤولون من تأثيراته السلبية. إذا كان التوتر يتصاعد بازدياد في الوقت الحاضر، فالسبب راجع إلى الانتفاضة العبثية للمجاهدين الذين كنا ضحاياهم الأوائل. كنت أعتقد أنه عند زوال التوتر، فيما لو بقينا أحياء، فسوف تكون لدينا حظوظ أكبر بالخروج من هنا.

في تلك الفترة، كانت زيارة أفراد العائلة تشكل بالنسبة للمعتقلين لحظة حاسمة. الاتصال الوحيد الذي أجريته بعائلتي هو المكالمة الهاتفية الصغيرة مع زوجتي في حزيران (يونيو) ١٩٨١. آلاف المعتقلين كانوا إذاً يتلهفون لها بالقلق نفسه. الزيارة الأولى أعلنت في شباط (فبراير) ١٩٨٢، كان حراس الثورة يعدوننا بها قائلين إن إدارة السجن منصرفة الآن إلى بناء صالات لهذه الغاية، نظراً لتزايد عدد المعتقلين (الذي أرتفع إلى ١٢٠٠٠).

أخيراً، ها قد أتى يوم الزيارات العظيم! ارتدى المعتقلون ثيابهم منذ الفجر وأخذوا يتجولون في الباحة منتظرين أن يتم استدعاؤهم عبر مكبّر الصوت. ابتداء من الساعة الثامنة، استدعي أول فريق مؤلف من ٢٠ سجيناً، اجتمعت عائلاتهم في صالة الزيارة. ثم جرى نقلهم في باص صغيرة معصوبي الأعين إلى المبنى الذي أُنشيء حديثاً قرب المدخل الرئيسي لإيفين. قبل الدخول إلى الصالة المقسومة إلى شطرين بواسطة حاجز زجاجي طويل سُمح للمعتقلين بنزع العصبة عن عيونهم. خلال الأشهر الأولى، لم يستطع المعتقلون فعل شيء سوى المكوث وراء الزجاج دون التحدث إلى زوارهم، وجب الانتظار حتى أيار (مايو) ١٩٨٢ كي توضع السمّاعات التي تسمح بالتحدث.

حين أتى دوري، رأيت زوجتي وأمي واثنين من أولادي. الأصغر سناً كان في الخامسة من عمره، اندفع نحوي بشكل عفوي لكنه فهم سريعاً أن الزجاج يفصلنا، مع أنه شعر بخيبة عميقة لعدم قدرته على الارتماء بين ذراعي، تمالك نفسه على الفور وحاول أن يكلمني عبر ابتسامته. حين عدت إلى القسم، حكيت لأصدقائي ردة فعل ابني ومعنى ابتسامته، فكتب أحدهم قصيدة وقدّمها إليّ خلال بضع ساعات.

استطعنا بعد أشهر قليلة أن نحصل من إدارة السجن على موافقتها برؤية أطفالنا دون السابعة من العمر لكي نتمكن من ضمّهم. قام الحرّاس بهذه المهمة بكثير من اللطف والود. كانت الزيارات تجري مرة كل ثلاثة أسابيع، ومدتها تستغرق عشر دقائق كحد أقصى، تبدو لنا طبعاً أقصر بكثير مما هي وتجبرنا على التصرف بدقّة متناهية. بما أنه كان محظّراً علينا استعمال الورق، كان المعتقلون يكتبون على راحاتهم بعض الملاحظات الوجيزة لكي لا ينسوا الأشياء الهامة، شخصياً، كنت خلال الدقائق الأولى، أقوم بتعداد الأشياء الضرورية لكي أتمكن بعدها من التحدث إلى زوجتي بهدوء أكثر. أمر هام جداً بالنسبة لسجين سياسي هو أن يستطيع زائره إعلامه بالمستجدات السياسية المؤثرة على وضعه كمعتقل، بيد أن زوجتي لم تكن تتابع فقط تطور الأحداث عن كثب، بل كانت قادرة أيضاً بفضل ثقافتها الإسلامية على فكّ كثير من أحاجي السياسة وطلاسمها. كانت زياراتها مشجعة بشكل خاص، لأن إمكانية القيام بتحليل للمناخ السياسي في إيران من الزاوية النفسية تمثل للمعتقلين أمراً بالغ الأهمية لا تستطيع أن تفهمه نخبة متغربة منقطعة عن هذه الثقافة الإسلامية التي ما زالت تحيّر هذه النخبة حتى الآن.

أحياناً، كنت أرى زملائي في السجن يرجعون من غرفة الانتظار مضطربين جراء أحاديثهم مع زوجاتهم لسبب بسيط وهو أن الزوجات كنّ غير قادرات على الخروج من ذهنية بيئتهن، وعاجزات بالتالي عن فهم أوضاع أزواجهن. في الواقع، حين لا تجري «البرمجة» المسبقة لهذه المقابلات ذات العشر دقائق، في الجانبين، فإنها كانت تترك إجمالاً نتائج سلبية، لأن المعتقل، المحتبس في قفص سجنه ينتهي به الأمر إلى التصرف مثل معتاد على إيقاع حياة محدودة جداً في عالم خاص به. كل تغيير آتٍ من الخارج يُربك فعلاً هذا الإيقاع اليومي ولا يمكن إلّا أن يؤذي صاحبه. لذلك، لم يكن نادراً في أيام الزيارات أن نجد المعتقلين الذين رأيناهم في الصباح، حسني الهندام وسعداء لإمكانية مشاهدة عائلاتهم، يصيرون في المساء خائبين ومصدومين. ذلك أن رؤية أهلهم لفترة وجيزة كانت تزيد في احباطاتهم. هذا بخلاف الثوريين الذين يجهلون هذا النوع من الاحباط، لأنهم عاشوا عدة سنوات في السجن أيام النظام السابق. لقد كانوا مرّوضين بشكل كامل، وعائلاتهم أيضاً. فاستطاعوا بالتالي أن يفيدوا في هذه الزيارات إلى أقصى حد ممكن.

على كل حال، كانت الزيارات تشكل للمعتقلين جميعاً الحدث الأهم في حياتهم.

بعد ظهر ومساء هذا النهار المبارك، كنا نتبادل بدقة جميع المعلومات التي تجمعت لدى زوارنا المشتركين لمحاولة فهم ما كان يدبّر في الخارج محاولين إعادة تشكيل «البازل النفسي - السياسي» للنظام والذي لا يزال غير مفهوم للكثيرين. كانت المعلومات الأكثر ضحالة التي يعفرها كل واحد هنا وهناك حسب حساسيته السياسية، تشكل لنا مادة دسمة لكشف مستقبلنا القريب.

نظراً لأنهم يعتبرونني مُعلِّقاً ذا فأل خيِّر، كان أصدقائي يبلغونني فوراً كل خبر يمكن تأويله إيجابياً، أي يفسح المجال لإخلاء سبيل قريب. وكنت في صباح اليوم التالي أعد افتراضاً من شأنه دعم تفاؤلهم.

من المهم التشديد في هذا المجال على أن زملائي الأكثر تشاؤماً؛ بالرغم من عدائيتهم الشديدة للنظام، غالباً ما كانوا ينضمون إلى رأيي. في قرارة أنفسهم، كانوا يقولون إنه بدل التكرار دائماً من أنهم سيعدمون جميعاً أو سيقضون حياتهم في السجن، من الأفضل التشبث بكل ما يدعو، في تحليلي، للتفكير بأن إطلاق سراحنا ليس ببعيد جداً بالرغم من أحاديثهم المتحررة من الأوهام والمتشائمة.

أود، بهدف اظهار القيمة التي كانت ترتديها الزيارات للمعتقلين، أن أقول هذا: بعد أن سمحت لهم إدارة السجن بتقبيل أطفالهم، تحوّل الكثير منهم إلى نحاتي حجارة... سأشرح قولي: لعدة أيام، كانوا يصقلون حجارة الغرانيت، على حافة البيسين ليصنعوا منها قلادات يحفرون عليها من جهة إسم طفلهم ومن جهة أخرى وردة. ذات صباح، قدموا لي مفاجأة لذيذة فأهدوني في يوم الزيارة قلادة تحمل اسم ابني الصغير، ولاحقاً، عند اقتراب رحيلي، أهدوني مسبحة صنعوا حباتها من نوى البلح، ما زلت أحملها دائماً منذ ذلك الحين.

من جهة أخرى، كان الاحتفال بالأعياد الدينية أو الوطنية يسهم كثيراً في تحسين الجو عندنا في القسم. بالإضافة إلى مواهب صديقنا المؤرخ تكميل - هومايون، كان وجود شعراء ومغنين وفنانين آخرين بيننا يجعل هذه الاحتفالات متنوعة للغاية بحيث أن حراس الثورة كانوا يفضلون حضورها أكثر مما يفضلون الذهاب إلى الصالة الكبيرة في إڤين حيث تنظم إدارة السجن على طريقتها وبحضور آلاف المعتقلين، احتفالات أكثر رسمية موقعة بخطب الواعظين المتحدرين من تراتبية الجمهورية الإسلامية.

في هذه الصالة أيضاً، التي أُعدت في البداية لتكون مركزاً رياضياً، كانت تجري

منذ خريف ١٩٨١ (قبل أن يجري نقلي إلى الفيللا) سهرات أود التحدث بشأنها. في بعض أيام الخميس مساءً، عشية يوم العطلة، كان حرّاس الثورة يلمّحون لنا أنه بإمكاننا حضور هذه السهرات بعد أن يتم نقلنا تحت حراسة مشددة إلى مدخل الصالة. في أول مرة ذهبت إليها، أثّرت فيّ كثيراً. كان المدعي العام للمحكمة والرئيس المُخيف لإڤين لازوردي بشخصه، يستقبل جماعات المعتقلين ويجلسهم واحداً واحداً على المقاعد. كان يقوم بهذا العمل بلباقة وبتودد مميزين، وكان الأمر يتعلق باحتفال تقليدي كان يجري احياؤه سابقاً في أحياء طهران الجنوبية. كان مظهر لازوردي المحتشم والمتواضع يغرق المعتقلين في حيرة عظيمة.

في مثل هذه الظروف، يصعب على المرء أن يتصور أن الرجل نفسه نفّذ لبضع ساعات خلت حكم الإعدام بعشرين أو أربعين أو بثمانين معتقلاً أحياناً. كان مثل كل قادة النظام، يستمد من الدين الإسلامي وتاريخ الاستشهاد الشيعي سلاحاً ماضياً يسمح له بقهر أعدائه في الخارج (العراقيين الذين هم في حالة حرب مع إيران) وفي الداخل (المجاهدين والجماعات اليسارية الأخرى المتطرفة). كان القادة الإسلاميون يربطون الزمني باللازمني في خطبهم، ويتوصلون إلى قهر كل مقاومة ويجتذبون المعارضين الشبان إلى صفوفهم. كان يلعبون بإتقان ورقة الإسلام من أجل فتح ثغرة في جدار أعدائهم. وكان يسهل عليهم الارتكاز على رموز دينية متجذرة منذ أجيال في الذاكرة الشعبية لم تستطع القشرة الرقيقة للتمذهب الماركسي حجبها إلاّ مؤقتاً. كانوا يؤكدون في خطبهم على أهمية التجمع الشيعي، وهم استطاعوا الذهاب إلى أبعد من عنفوان هذه الشعبية واعتزازها، حتى إنهم كانوا يستعطفونها مستعملين لغة ودودة كان القادة الإسلاميون بدءاً بالإمام الخميني قد مهدوا الطريق، خلال صلوات الجمعة، لاستخدام أكثر فعالية لتاريخ الاستشهاد الشيعي القديم يهدف إلى جعل المعارضين الأكثر ضراوة أنصاراً منافحين عن الجمهورية الإسلامية.

التقوى للشهيد نفسه

خلال السهرة التي حضرتها، لاحظت كم أن الجو كان آسراً حين وقف آلاف المعتقلين (ثلث من الصبايا وثلثان من الفتيان) ومئات الحرس المبعثرين بين الحضور ولازوردي نفسه يرافقه أحد الذين انشدوا في الصف الأول لإحياء ذكرى استشهاد الحسين. أخذوا كلهم يقرعون صدورهم بأيديهم ويعيدون معاً اللازمة: «حسين! حسين!».

كان السجين والسُجّان يحتفلان بالشهيد نفسه: الحرس الثوري الذي فقد لتوه هذا الصباح أخاً أو قريباً اغتاله في وسط الشارع أحد المجاهدين، وسجين إڤين الذي فقد هو أيضاً أخاً أو قريباً أُعدم بالرصاص بعد الظهر على مقربة مئتي متر من هنا. مع ذلك فإن هذين الرجلين كانا يذكران معاً استشهاد الحسين بصفته رمزاً لكل مظالم هذا العالم. وهكذا فإن الاحتفال الحسيني كان يعزّي ويصالح خصوماً يجمعهم الحداد نفسه.

هذا ما يفسّر سبب الارتداد السريع الصادق والظاهري للمجاهدين. ما كادوا يصلون إلى إڤين، حتى أخذوا ينضمون إلى صفوف «التائبين» الذين بدأوا يطرحون أنفسهم من الآن فصاعداً انصاراً متحمسين للنظام. لذلك لم اتفاجأ إطلاقاً حين رأيت الشبان أعداء الأمس يدافعون بضراوة كبيرة عن النظام ويصلّون من أجل صحة الخميني.

ربما سيعترض القارىء عليّ قائلاً إن ارتداد المجاهدين كان بالأحرى خدعة تكتيكية لإنقاذ رؤوسهم أكثر منه انضماماً صادقاً! وبإمكاني أن أردّ عليه قائلاً انه كانت هناك «انقلابات» من هذا النوع، ولكن هناك أيضاً ارتدادات صادقة لأنني التقيت شخصياً بعدد كبير من المرتدين الجدد. حتى ولو افترضنا أن هؤلاء المرتدين لا يشكّلون إلاّ قلة، فمن المناسب أيضاً أن نكبّ على دراسة أوضاعهم. ها إن شباناً انجذبوا، باسم الايديولوجية الثورية الماركسية ـ الإسلامية، للخضوع كلياً إلى منظمة سياسية أرادت أن تكون كلية القدرة. لكن في اليوم الذي وجدوا أنفسهم منقطعين عنها، خضعوا لمنظمة أخرى كلية الوجود دون شك، ولكن أكثر أسلمة وتحظى بدعم رجال الدين.

استطعت أن اكتشف أمراً جديداً آخر قوامه الرجال الذين ندعوهم «التائبين» والذين تضاعف عددهم وظهروا بمظهر المدافع عن النظام بحماسة تفوق كثيراً حماسة الحرس الثوري نفسه. في نظري، إن انتقال الشبان المجاهدين من تعنت إلى آخر يمكن أن يفسّر نفسياً على النحو التالي: إن منظمتهم، بعد أن عالجتهم بطريقة سريعة ومصطنعة، وجدت نفسها في إڤين في مواجهة تناقضات عقيدتها وفي وضع جعلها تتخلى عن كل شيء لتعتنق إيديولوجية الفريق الخصم. ومثالاً على ذلك، حين كانت حركة المجاهدين تتهم النظام الإسلامي بأنه عميل للخارج، كان قضاة إڤين يبرهنون بمهارة لمشايعيها الشبان أن حركتهم هي التي انعطفت، بفضل دعم غربي قوي، إلى بلد هو في حالة حرب مع إيران، العراق. وهكذا كان هؤلاء الشبان يرون أن

الأرضية التي بنيت على أساسها شعارات منظمتهم تنهار تماماً. إن الشعور بالذنب الذي اعتراهم قد قادهم بطبيعة الحال إلى تبعية مفرطة لعدو الأمس. إلى حدّ أن «التائبين» التعساء الذين يعدون بالآلاف، بات يُنظر إليهم شيئاً فشيئاً كرجال يعتبرهم الجميع، ومن بينهم حرس الثورة، أناساً شبه مختلفين عن الآخرين، ويجب تجنب أي نقاش معهم لأنهم كانوا على استعداد للتشهير بكل من لا يشاركهم أفكارهم. كان المعتقلون الذين لا يزالون يشكّون بالضياع الإيديولوجي للمجاهدين، يتأكدون من عبثية عقيدتهم، في خلال هذيان «تائبي» إڤين. كنا نتساءل من أعماق سجننا جميعاً وبدهشة كبيرة كيف أمكن لمنظمة تتلاعب بكلية غير مألوفة بقناعات أنصارها وحيواتهم وأن ترمي بهم إلى فوهة الخطر حين ترى ذلك مناسباً، واستطاعت في الوقت نفسه أن تحظى لسنوات بدعم ومؤازرة الديمقراطيات الغربية[8].

شاغل آخر توفر لعدد من المعتقلين حين جُهّز قسمنا بمكتبة صغيرة، بفضل إسهام طبيبنا الذي كان يدخل بحرية إلى المبنى حيث المكتبة الرئيسية. كلفت أنا بطلب من حاجي رضى إدارة المسألة يساعدني شابان من السجناء. كانت الكتب في المكتبة مختارة بعناية فائقة. كان هنا بالإضافة إلى المؤلفات التي تتناول القرآن والفقه الشيعي التي تحتل مركز الصدارة، نصوص فلسفية وسياسية يعتبرها النظام الإسلامي مقبولة، ومن بينها، لدهشتي، كتبي التي وجهت فيها انتقادات للتغرب الذي مارسه الشاه في جميع الاتجاهات. كنت أشجع زملائي على قراءة كتب الفقه بحيث يستطيعون التعرّف إلى عالم أبعدتهم عنه كثيراً طريقة العيش العلمانية جداً في عهد الشاه، والتهيّؤ أيضاً لمواجهة القضاة الإسلاميين. إضافة إلى الكتب الدينية كان هناك صور عن بعض الوثائق التي أخذها الطلاب الخمينيون من السفارة الأميركية في طهران في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩، حين احتلوها وأخذوا ديبلوماسييها رهائن. هذه الوثائق التي تضم تقارير موزعة على عقدين من الزمن تعكس السياسة التي اتبعها الأميركيون في إيران والمنطقة، وتكشف في الوقت نفسه عن طبيعة العلاقات التي أقامها رجال النظام السابق معهم. ويستنتج من قراءة هذه الوثائق، تحديداً، أن الذكاء السياسي «لحماة» الشاه لم يكن يتجاوز ذكاء النظام نفسه، ويبدو في الواقع أن مستشاري السفارة الأميركية الذين اكتفوا غالباً بإقامة علاقات صداقة مع رجالات النظام، كأن يصادفوهم في العشاءات برفقة زوجاتهم أو يكتفوا بذكر اسمائهم دون ألقاب، اعتقدوا أنفسهم واثقين من إلمامهم بالتطورات السياسية في البلاد عن كثب. وباستثناء وثيقة أو اثنتين، من النادر العثور في تلك التقارير على تحليل متعمق للمجتمع الإيراني.

لا دور الدين ولا أهلية الإسلام الشيعي في تحريك شعب بكامله لصالح قضية ما كانا يثيران اهتمام محلّلي السفارة ولا أيضاً اهتمام العملاء السريين الإيرانيين الذين لم يعتبروا رجال الدين قادرين على القيام بثورة. السفارة الأميركية كما السافاك، لم يريا في رجال الدين إلّا قوة مساعدة تقطع الطريق على الشيوعية. إحدى الجوانب المتميّزة للتقارير التي كانت تهتم مع ذلك ببعض تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إيران هي أنها نادراً ما تشير إلى الفساد، مع أن الفساد كان في السنوات الأخيرة للنظام السابق في طلب الأحاديث الاجتماعية للطبقة الراقية.

بعد حوالى سنة من انتقالي إلى القسم في إڤين، وفيما كان خطر المجاهدين يتناقص والتوتر يخف، استطعنا أن نتحرك بحرية أكبر. أعطاني هذا إمكانية تجميع مبلغ من المال، بمساعدة حاجي رضى وبعض الحرس الثوري، من أجل شراء بعض الكتب. استطعنا الحصول على «الموسوعة التاريخية الكبيرة» لويل ديورانت، المؤرخ الأميركي الذي كانت تعكس رؤيته الإنسانية التفاؤل التقدمي للعهد الروزفلتي. كان هذا العمل الذي يضم عشرين مجلداً، قد ترجم إلى الفارسية في عهد الشاه، وهو يشكل في الواقع تأريخاً للحضارات كرّس الكاتب وزوجته له حياتهما. إن وصول هذه الموسوعة إلى قسمنا أدخل السعادة إلى قلب عدد كبير من المعتقلين الذين بدأوا يصطفون منذ اليوم التالي أمام المكتبة الموضوعة على رفوف في نهاية رواق الطابق الأرضي، ليحصلوا على أحد المجلدات ويذهبوا لقراءته في إحدى زوايا الباحة في ظل الأشجار.

هذا الشغف الذي أظهره معتقلو النظام الثوري للتاريخ يرجع في نظري لسببين: من جهة، وفي مواجهة الخطب الرسمية التي غزت وسائل الإعلام وحيث يظهر اليقين شاملاً، كانت شهادات الماضي تسهم في جعل وضعنا الحاضر أكثر نسبية. من جهة أخرى جعلتنا هذه الاقتحامات للزمن نخرج من عزلتنا المحبطة لتسرد لنا النضال الأبدي الذي قام به الناس ضد الاضطهاد والظلم، والذي بالرغم من المحن التي مرّ بها، انتهى دائماً إلى النصر. يشكل التاريخ من وجهة النظر هذه لرجل آل مصيره إلى العجز، انتقاماً لا بل تعزية. لأنه بمقدوره الاستنتاج أن مصيره ليس من دون صلة بمعاناة الناس في كل الأزمنة.

حين قرأت في الموسوعة القسم المتعلق بالثورة الفرنسية، صدمتني فكرتان أساسيتان: بالدرجة الأولى، حيث يحلل ويل ديورانت أفكار روسو وڤولتير اللذين لعبا

دوراً أساسياً في إطلاق هذه الثورة، يثبت المؤرّخ أنه بين قوة الأهواء وقوة العقل وجدت الثورة نفسها تنجر وراء الأهواء. فبين مُثل روسو التي استعادها روبسبيير ومُثل ڤولتير التي رمّز إليها كوندورسيه، كانت الغلبة للمُثل الأولى. حتى لاحقاً، وبمقدار ما كانت الأهواء تخف وتنتصر مُثل ڤولتير، فالغلبة بداية كانت لروسو. من جهة ثانية، فكرة أخرى بدت لي هامة ضمن هذا التحليل للثورة الفرنسية وهي أن المؤسسات في الغرب حين ظهرت المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية، تابعت عملها بالرغم من اضطراب القيم الروحية التي بقيت جامدة فيها المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية تحوّلت. أما فيما يخص الثورة الفرنسية، فلقد انقضّت الثورة في الوقت نفسه على القيم (من خلال مناهضتها لرجال الدين) وعلى المؤسسات (من خلال معاداتها للملكية والإقطاعية). هذا هو السبب في كون فرنسا قد فقدت رأسها، في رأي ويل ديورانت، لعدة عقود. كانت الثورة الإيرانية في جوهرها منبثقة من الروحية نفسها، بمعنى أنها وضعت موضع الشك، باسم الدين، الروحية العلمانية التي كانت في أساس الإصلاحات التي بوشر بها منذ بداية القرن، وأنها أطاحت بالملكية وبنظامها الإداري معاً. لذلك لم يكن مستغرباً أن تجد إيران صعوبة كبيرة في استعادة توازنها.

وشم التاج

منذ ربيع ١٩٨٢، شكلت الهدنة النسبية في أحكام الإعدام تعزية معيّنة لنا، وفيما كنا سعداء مع كتب التاريخ، وفدت إلينا ذات يوم، بين المعتقلين الجدد، شخصية فريدة جداً. كان الرجل خمسينياً، ذا لحية سوداء كثة وبياض عينيه يلتهم رموشه السوداء. كانت نظراته القاتمة والمشككة تعطيه مظهراً صموتاً غير مألوف. حين علم المعتقلون بأن هذا الرجل الذي يحمل اسماً غير عادي، شورجه، كان قد أشرف، حسب قوله، على فصائل تنفيذ الإعدام، ويعتز بأنه قام بتصفية خمسمائة جاحد مثلنا، تعاظمت الخشية التي كان يلقيها في نفوس سامعيه. كان يدّعي بأنه مساعد آية الله خلخالي، ويتبجج بأنه أعدم خلال الأشهر الأولى للثورة رجالاً من النظام السابق وتجار مخدرات. تحت أعين الحرس الثوري، أطلق رصاصة في رأس رجل من البازار كان قد طلب منه، بأمر من المحكمة، إخلاء بيته. وأودع السجن بقرار من آية الله غيلاني. قاضي إڤين الكبير، بالرغم من التهمة الموجهة إليه، لم يكن يريد إطلاقاً تغيير موقفه وتابع الظهور بمظهر المدعي العام، من دون أي مراعاات في التصرف. منذ وصوله، كان حاجي رضى يفعل كل ما في وسعه لتجنبه ولا يضع قدميه في قسمنا،

لأنه كان يعتبر أن هذا النوع من الناس يشوه وجه الثورة. في المقابل، كان شورجه الذي يدّعي أنه «صوت الشعب» يوهم الحرس الثوري الأقل ثقافة بأنه يقوم دائماً بإملاء خطب رنانة علينا بصوت هادر تهدف في الحقيقة لجعله يبدو في نظر الحرس خمينياً لا غبار عليه. كان يصب فوق رؤوسنا كل لعنات العالم.

بالرغم من أميّته التي أتقن إخفاءها بحيث أننا استغرقنا وقتاً لاكتشافها، استطاع، بفضل ذكائه وذاكرته المدهشة، أن يتكلم دون توقف لساعتين صباحاً ولساعتين بعد الظهر وبأسلوب ثوري صرف وقاسٍ. كان يفضح في وقت واحد الامبريالية والصهيونية والماسونية والماركسية والقومية، مستهدفاً مباشرة أشخاصاً حاضرين ويهددهم بتنفيذ الاعدام بحقهم. لم يكن يبدي أي احترام للمعتقلين الذين يطالعون بهدوء في إحدى زوايا الباحة، لأنهم بحسب رأيه يتعلمون ليخدموا بشكل أفضل مصالح الامبريالية و«السي. أي. إيه»، وكالعادة، كان المشككون مقتنعين بشكل حازم بأن إدارة السجن بعثته لنا لكي يعذبنا، فيما شعرت من جهتي أن إدارة السجن كانت منزعجة هي نفسها من هذا الشخص ذي الوقاحة الوحشية والذي فضلاً عن ذلك، ينتمي ابنه إلى جهاز الحرس الثوري.

على كل حال، كان المعتقلون مغتاظين من شتائم هذا «الواعظ الإسلامي الثوري». خصوصاً حين علموا من جهة أخرى انه كان منذ سنوات لصاً من لصوص جنوبي طهران. ذات يوم قال لي أحد المعتقلين:

- «راقبه جيداً. إنه روح تيناردييه في جسد جان فالجان».

في الواقع، كان يتميز هذا الزميل المشؤوم بصلابة استثنائية، لم يكن يأكل شيئاً وينام كيفما اتفق. كان المعتقلون الذين تغيظهم خطبه، لا يجدون طريقة إسكاته. أحد أطباء الأسنان وجد مشقة في تحمله، لقد كان ذا جسد رياضي، حاول عدة مرات مواجهته مباشرة ولكني اقنعته بالصبر وانتظار اللحظة المناسبة للتخلص منه. جاء أحد المعتقلين مرة وقال لي إنه رأى على ساعد هذا الرجل الأيسر وشماً لتاج ملكي يحاول إخفاءه جيداً بِكمّ قميصه. أعلمتُ على الفور أصدقائي بأن ساعة الخلاص قد دنت، ما أن نتحقق من وجود الوشم. كانت خطتي التالي: هذا الرجل الذي يلقي دروساً في الطهارة الثورية على الجميع، ومن بينهم القادة الإسلاميون، والذي يدّعي أنه أعدم المئات من رجال النظام السابق المتواطئين مع الشاه، احتفظ مع ذلك، وطيلة سنوات التوهج الثوري، بوشم ذي ماركة ملكية. وهذا يعني أنه لا يملك

الشجاعة لتحمّل الألم لبضعة أيام لينزع الوشم بواسطة حامض الكبريت[٩].

قررت أن أتحقق شخصياً من الأمر مستفيداً من شهر رمضان الذي نقوم خلاله بالوضوء في الساعة الثانية صباحاً. لثلاث ليالٍ متتابعات، خرجت مؤملا النفس باكتشاف الوشم الشهير، وأخيراً نجحت في رؤية التاج الإمبراطوري على ساعد شورجه محاطاً بسيفين. في صباح اليوم التالي، قلت لطبيب الأسنان:

«لا حاجة لأن تتشاجر معه، تستطيع أن تقول له ببساطة: «أنا، مكانك، ومع هذا الوشم، ألزم الصمت».

الطبيب الذي انتظر طويلاً هذه الفرصة السانحة سرعان ما رضخ للأمر. بطبيعة الحال، شرع شورجه على الفور بالزعيق ووصف طبيب الأسنان بكل الصفات الممكنة غير المعقولة، وبأنه معادٍ للثورة، ولكنه كفَّ عن إتحافنا بالخطب. بعد عدة أسابيع نجح حاجي رضى بنقله إلى سجن آخر.

انتصار على صدام حسين

في ٢٤ أيار (مايو) ١٩٨٢، استعادت الفرق الإيرانية خورمشهر، المرفأ الكبير للخليج الفارسي الذي استولى عليه العراقيون خلال هجومهم المفاجىء في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠. أثارت هذه الاستعادة لدى السجناء والسجانين على حد سواء فرحة غامرة في هذا الخصوص، يمكن القول: الجمهورية الإسلامية عرفت من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ إلى أيار (مايو) ١٩٨٢، فترة مجيدة لأن قسماً كبيراً من الشعب الإيراني التف حول الإمام الخميني من أجل إبعاد جيش صدّام حسين الذي احتلَّ قسماً من جنوب غربي إيران[١٠]. إذا كان المعتقلون، بسبب الحرب، يواجهون أخطاراً متزايدة خصوصاً وأنه يمكن اتهامهم باشتراكهم من قريب أو من بعيد بأية حركة ثورية كانت أو أي انقلاب يهدف إلى زعزعة النظام، استطاعوا بالمقابل أن يأملوا، مع ابتعاد مثل هذه الشكوك، بالخروج من السجن بشكل أسهل.

ليس مستغرباً أن تتغلب الروح الوطنية بعد استعادة خورمشهر وأن يؤيد الناس في غالبيتهم سياسة النظام. كنا على قيد أنملة من المصالحة الوطنية لأن الكادرات المدنية أو العسكرية التي كانت تعتبر رجال الدين حركةً انقضى زمانها، ولم تؤمن حقاً بقوتها المتحركة خلال الثورة[١١]، استنتجت الآن أن رجال الدين فعالون بشكل خاص في نضالهم ضد المعتدي. من جهته، كان الحرس الثوري ذو أصل شعبي، والإسلاميين

كلهم، يعون القيمة الأخلاقية للكادرات العلمانية كما يدركون فعاليتها. على كل حال، كان القوميون يحترمون بشكل كلي إخلاص رجال الدين لقضية حرب اعتبرت وطنية: على سبيل المثال، أحد أصدقائنا علي أردلان، وهو وزير مالية سابق في حكومة بازركان الذي أوقف في نفس الفترة التي أوقفت فيها في حزيران (يونيو) ١٩٨١ لأنه اعترض باسم الجبهة الوطنية على بعض الممارسات القمعية للنظام، وافق كلياً على سياسة الدفاع المشروع التي يقوم بها النظام نفسه، وأعلن صراحة وعالياً إنه يجب رد صدام حسين على أعقابه. وأدان بشدة شهبور بختيار رفيقه السابق في الجبهة الوطنية الذي كان يقيم علاقات غامضة مع صدام حسين.

مهما يكن من أمر، فإن الفرح الذي سببه النصر عززته إمكانية السلام التي منحها صدام حسين مقترحاً تراجع فرق جيشه إلى الحدود الدولية المعترف بها. قبل أيام من هذا الاقتراح، في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، اجتاح الجيش الإسرائيلي جنوبي لبنان. كانت شروط وقف النار قد تجمعت وبهذا لاحت إمكانية سلام أمام الشعب الإيراني. من جهتنا توصلنا خلال بضعة أسابيع إلى صياغة اقتراحات وكتابة تقرير من مئة صفحة يتعلق بإعادة بناء المناطق التي هدمتها الحرب. خلال تلك الفترة حيث بدا السلام وشيكاً، أشركنا في دراساتنا مهندسين معماريين ومهندسين زراعيين وعلماء اقتصاد من خوزستان وضباط يعرفون هذه المنطقة، من أجل بناء تصور للحياة المدينية والزراعية الممكنة في المناطق المنكوبة. حين ناديت على حاجي رضى لأسلمه تقريرنا وأسأله إلى من يليق بنا إرساله، قال لي:

«قمتم بعمل يمكن أن يكون مفيداً. ويجب أن يطلع عليه رئيس الجمهورية نفسه، سأتكفل بإيصاله له».

بعد عدة أسابيع، خاب أملنا كلياً. لأن القوات الإيرانية، ولسبب نجهله، تابعت تقدمها في العراق. وقف إطلاق النار المحتمل لم يتم. إذ كانت قد فقدت باستمرارها في الحرب فرصة كبيرة على الصعيد الاقتصادي والمالي لكي تستفيد من مصائب الحرب، فإنها فقدت خصوصاً فرصة تاريخية من أجل إعادة خلق وحدة وطنية شاملة. لأنه منذ اليوم الذي اجتازت فيه القوات الإيرانية الحدود العراقية، تبعثر الإجماع الذي تجلّى، أثناء الحرب الدفاعية، وتلاشت من بين صفوف الشعب الحماسة التي أثارها الأمل بالسلام.

إنها المرة الثانية التي فوّت النظام الإسلامي الفرصة لقيام تفاهم وطني على نطاق

واسع. الفرصة الأولى، غداة اليوم الثوري في ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩ حين اتحد الشعب يداً بيد للإطاحة بملكية كانت دائماً رمز وحدته. آنذاك، أجج تطرّف بعض الأوساط الإسلامية المتأثرة بالماركسية، النزاع على حساب رغبة الشعب الإيراني بالوحدة، غير عابىء بهذه الوحدة. هذا الانشقاق بالذات هو الذي أدى إلى إبعاد الكادرات الكفوءة عن جهاز الدولة، هذا الذي لا يزال النظام يعاني تبعاته حتى اليوم.

حين تناقشت بخصوص مستقبل الحرب مع الحرس الثوري، الذين كانوا كلهم مع النظام، قالوا لي بالإجماع:

«يجب ألا تدوم الحرب أكثر من ستة أشهر، لأنه كلما توغلنا في الأراضي العراقية، تراجعت قوتنا».

ابتداءً من صيف ١٩٨٢، كانت المواقف المعادية لمتابعة الحرب تتسع حتى أن بزركان وأصدقاءه رأوا لزاماً عليهم نشر رسائل مفتوحة للإمام الخميني وانتقادات تطالب بوقف الحرب. اليوم، وبعد مرور تسع سنوات، نستنتج جيداً أن المشاكل التي اصطدم بها النظام الإيراني ناتجة عن إطالة نزاع فُرض علينا بالطبع، ولكن كان بمقدورنا دون شك إيقافه قبل ذلك بكثير.

بعض القادة الإسلاميين، كانوا مقتنعين بأن الشعب المسلم في العراق، وخاصة الشيعة، سينقلبون على صدام حسين، لكنهم كانوا يرتكبون الخطأ نفسه الذي ارتكبه قادة بغداد، حين هاجموا إيران، معتمدين على تفكك الجيش وانتفاضة الشعب العربي في خوزستان (جنوب غربي إيران). وباختصار، إذا كانت وطنية العراقيين صمّت آذانهم عن نداء الإسلاميين الإيرانيين، فإن وطنية الإيرانيين من جهتها وقفت في وجه عروبة العراقيين. اليوم يعتبر بعض المحللين أن إيقاف الحرب في ١٩٨٢ - أي قبل دخول الفرق الإيرانية إلى العراق - كان من شأنه إعلان نهاية النظام العراقي، فيما دخول الفرق الإيرانية الأراضي العراقية منح صدام حسين فرصة كبيرة لإشعال الحس الوطني عند شعبه واحتواء المعارضة. على كل حال، تابع الشعب الإيراني دعم الحرب ولكن من دون الحماسة السابقة التي أظهرها خلال الأعوام الأولى من النزاع.

في ڤيللتنا في إڤين، إلى جانب المعتقلين الذين انتموا إلى المنظمات الهادفة إلى اسقاط النظام بقوة السلاح، استقبلنا أشخاصاً، خلال شتاء ١٩٨١ و١٩٨٢، من مختلف

الفئات الاجتماعية الموصوفة بالليبرالية التي كان يفسِّر سجنها بمجرد القول إن ذلك راجع لصلاحيات المحكمة الثورية. بعد أن أُلغيت نقابة المحامين لعدم اعتراف المحكمة الإسلامية بشرعيتها، اعتقل بعض القضاة في إڤين لأنهم لم يمتثلوا لذلك الإلغاء. مهنة أخرى استهدفت مباشرة وهي مهنة أطباء الأمراض النسائية، لسبب بسيط وهو أن المحكمة الثورية أرادت أن تجعل الإجهاض محرّماً. بين هؤلاء الاختصاصيين المعتقلين في قسمنا، واحد لفت انتباهنا، إذ لاحظنا أنه يقوم بتصرفات غريبة بالنسبة إلى طبيب. كان هذا الطبيب النسائي يفعل كل ما في وسعه ليظهر إسلامياً. مثلاً، منذ وصوله إلى غرفتنا، استفسر عن جهة القبلة لكي يقوم بصلواته الخمس اليومية ـ هذا تصرف غير مألوف ـ بالنسبة لطبيب إيراني أمضى عشرين عاماً في الاتحاد السوفياتي. إجمالاً تظاهر بالخضوع لتعليمات السجن وأعطانا الانطباع بأنه متمرس بهذه الأوضاع.

قبل التمشي معي في الباحة، شرح لي بالمناسبة أنه حفيد مرتضى يزدي أحد قادة الحزب الشيوعي المناصر للاتحاد السوفياتي، وأنه، بفضل هذه القرابة، أُرسل إلى الاتحاد السوفياتي لمتابعة دروسه في الرابعة عشرة من عمره برفقة عشرين مراهقاً آخرين (أي في الفترة حين كان الجيش الأحمر يحتل قسماً من إيران من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦). بادىء الأمر أقام في باكو ثم انتقل إلى موسكو. لخصَّ لي سنواته العشرين في الاتحاد السوفياتي قائلاً لي إنه درس لعشر سنوات وعمل خلال العقد الثاني من أجل هدف وحيد وهو مغادرة الاتحاد السوفياتي في فترة كان الحصول فيها على جواز سفر وعلى إذن بالرحيل حلماً شبه متعذر التحقيق. كان تكتيكه يقوم على عدم فعل شيء أو قول شيء يمكنه إثارة الشكوك. لم يتزوج لئلا يرتبط بأحد. واكتشف في النهاية أن سر الحياة دون تاريخ في الاتحاد السوفياتي يقوم على عدم إيجاد وقت فراغ. شرح لي أن أوقات الفراغ كانت تمثّل في الواقع خطراً خصوصاً وأنها كانت ستحثه على معاشرة أوساط المهاجرين الإيرانيين المليئة بعملاء الـ ك.ج.بي. لذلك تطوّع للعمل في مستشفاه ثماني ساعات في الليل إضافة إلى الساعات الثماني العادية في النهار. بصفته جرّاحاً وطبيباً نسائياً، أمضى وقته في غرفة العمليات حيث كان يشعر ليس فقط بأهميته، بل أيضاً بأمن المكان لاسيّما وأن أطباء التخدير والممرضات كانوا يرتدون قناعاً واقياً، وأن المريض مخدّر وبالتالي لا يتحدث مع أحد.

كان هذا الصمت بالنسبة له مطمئناً كلياً، لأنه بالإضافة إلى عدم تكلمه، لم يكن

معرضاً لسماع أشياء قد تورطه. بفضل هذه السنوات الطويلة من الصمت، نجح طبيبنا النسائي في الرجوع إلى إيران في زمن الشاه، مع أنه كان يعلم أن إقامته في بلد شيوعي ستكلفه سنة سجن في سجون السافاك. حين نزل من المركب في مرفأ انزالي على بحر قزوين، لمح على الرصيف عائلته لكنه لم يقم بأدنى إشارة نحوها، وبدلاً من ذلك، اتجه ناحية عملاء السافاك الذين كانوا في انتظاره، هم أيضاً، لاعتقاله.

بعد يومين من حديثنا، أردت استئناف الحوار بطرحي عليه أسئلة عن تنظيم المستشفيات في روسيا، قال لي:

«حباً بالسماء، البارحة تكلمت كثيراً. لا تطرح عليّ أسئلة. إن هذا يسبب لي كوابيس. أرغب فعلاً في أن أجيبك مرة أخرى لكن شرط أن يكون سؤالك هذا هو الأخير. حسناً، في المستشفى، حين كان مكبّر الصوت ينادينا، كما هو الأمر هنا تماماً. لم نكن نعرف لماذا ينادينا، أمِنْ أجل زيارة بسيطة أو من أجل علاوة أو عقاب أو حتى للذهاب إلى مدينة نريد الذهاب إليها، أو على العكس إلى مدينة لا نريد الذهاب إليها. كل شيء كان ممكناً وفي كل لحظة، ولم يكن أحد واثقاً من الغد. هذا كل ما عندي لأقوله يا عزيزي وأنا واثق من أنك فهمت كل شيء.

بفضل سنواته العشرين التي أمضاها في الاتحاد السوفياتي، تكيّف، منذ دخوله، وعلى نحو تام، مع حياة المعتقل. لم يكن يتذمر إطلاقاً من مصيره وأجاب كما ينبغي استجوابه، لذلك كانت عقوبته بسيطة جداً في تلك الفترة.

حين التقيته بعد خروجي من إفين، أعطاني الانطباع بأنه مواطن ـ طيّب نزيه بشكل كامل. كان قد تزوج من فلاحة تنتمي إلى عائلة تقليدية متدينة جداً، ولم تكن حالته النفسية تشبه بشيء حالة زملائه. بالرغم من الاضطرابات التي هزّت الجسم الطبي الوطني بعد أن استلمته وزارة الصحة، كان طبيبنا النسائي، بخلاف كثير من الأطباء الذين يرفعون الاحتجاج تلو الاحتجاج، يظهر أكبر قدر من الحكمة ويعتبر شكاوي زملائه تافهة.

حزب الخارج

عدا الطبيب النسائي، كان قسمنا يضم معتقلين آخرين من حزب تودة وبالتحديد ضباطاً سابقين في الجيش ممن لجأوا خلال ثلاثين عاماً إلى الاتحاد السوفياتي. إن قسماً

كبيراً من هؤلاء المهاجرين السياسيين قد رجعوا غداة رجوع الخميني إلى طهران في شباط (فبراير) عام ١٩٧٩، معتبرين أنفسهم كادرات طليعية، وإن لم يكونوا مع ذلك بمستوى إدعاءاتهم على الصعيد الفكري ولا على الصعيد السياسي[١٢]. من جهة أخرى، لكونهم عاشوا خلال أكثر من خمس وعشرين سنة في ظل إرهاب الـك.ج.بي، فإن شخصياتهم ضعفت وبات يتآكلها دائماً إحساس بعدم الأمان. في جميع الأحوال، لم يكونوا يشبهون قط المناضلين المتحمسين الذين كانوا سابقاً قبل هجرتهم إلى الاتحاد السوفياتي.

أبصر حزب تودة النور عام ١٩٤١، بعد دخول القوات الحليفة الإنكليزية والسوفياتية إلى إيران، عقب رحيل الشاه رضا إلى الخارج وعودة الحكم البرلماني إلى البلاد. خلال السنوات الأولى من تشكله، جسّد هذا الحزب للعمال والطبقات المتوسطة والمفكرين التقدم والحرية والاستقلال الوطني. خلال سنتي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، صار الحزبَ الشيوعيَّ الأكثر نفوذاً في الشرق الأوسط كله، ليس من دون أي انتقاص من ماركسيته اللينينية.

في نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، بعد توقيع المعاهدة بين إيران والدول الكبرى الثلاث (الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفياتي)، غادرت الفرق الأنكلو ـ ساكسونية البلاد. لكن الجيش الأحمر رفض إخلاء القسم الشمالي من البلاد، وأقام حكماً دمية في أذربيجان وصف بالحكم الديمقراطي. وتحت ضغط السفارة السوفياتية في طهران، اختار حزب تودة دعم هذه الحكومة، فيما كانت هذه الحكومة تشكل، في نظر المواطنين الإيرانيين، حركة انشقاقية تقود إلى تفكك بلاد فارس القديمة.

خرج حزب تودة ضعيفاً من هذه التجربة. ولكن، في مواجهة إقطاعيات الطاعة الإنكليزية، كان يشكل أيضاً قوة قادرة على تحقيق إصلاحات جذرية. في عام ١٩٥١، وفيما كانت حركة واسعة تنتشر لصالح تأميم البترول ومع وصول مصدق إلى الحكم، لم يتوان حزب تودة عن الذمّ بهذه الحركة حتى النهاية، حين مُنِيَتْ بالفشل في تموز عام ١٩٥٣.

هذه التجربة الثانية أنهت كل أمل بأن يكون حزب تودة مدافعاً عن المصالح الوطنية، لأنه بالرغم من المقاومة البطولية التي واجه بها أحياناً بعض أعضائه قمع

النظام المنبثق عن انقلاب ١٩٥٣، اعتبره مجموع الشعب الإيراني في النهاية حزباً تابعاً تماماً للاتحاد السوفياتي وفاقداً بالتالي لكل رصيد.

حين وقعت الثورة في شباط (فبراير) ١٩٧٩، عاد قادة هذا الحزب الذين كانوا يعيشون في الاتحاد السوفياتي، إلى إيران وبادروا إلى التعويض عما فاتهم متظاهرين بأنهم منافحون شرسون عن الانقلاب الإسلامي. وهكذا، فإن هؤلاء الرجال الذين قولبهم المفهوم المادي للتاريخ خلال أربعين عاماً، المطبوعين بروحية ستالينية، اصبحوا بين ليلة وضحاها، بدافع الانتهازية الصرفة، أنصاراً متحمسين للثورة. غير مهتمين للجوانب الثقافية للثورة. شرعوا قبل كل شيء في تحويل رغبة الإسلاميين بناء مجتمع أقل مادية من مجتمع الملكية وسعوا إلى إقامة جو من السخط الدائم على أميركا تبعاً للأوامر السوفياتية. لقد سلموا بالصدارة المطلقة للإمام الخميني، لكنهم نجحوا في إثارة خلافات داخل صفوف الطبقة الجديدة الحاكمة.

لقد اظهروا أنفسهم «كاثوليكيين أكثر من البابا». اتخذوا هدفاً لهجومهم، باسم ثورة إسلامية مطلقة، الجناح المعتدل لرجال الدين، فوصفوهم «بالليبراليين خدام الإمبريالية». وقد لعبوا دوراً حاسماً في القضاء على عمل حكومة بزركان ودفعوا الإسلاميين (الذين كان مثالهم الأعلى إقامة حكم مستقل فعلياً عن الشرق كما عن الغرب) إلى اعتناق موقف معادٍ للغرب تماماً. في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩، وإبان احتلال السفارة الأميركية في طهران واحتجاز الديبلوماسيين الأميركيين كرهائن ـ هذه الأعمال التي نُظمت بمساعدة المجاهدين وكل المتطرفين الماركسيين والإسلاميين ـ استطاعوا أن يفتخروا ليس فقط بإسقاط بزركان بل أيضاً بوضعهم حداً لمرحلة قصيرة من تعددية الأحزاب. كان هدفهم الوحيد إعلان ولادة دكتاتورية ثورية مناصرة للاتحاد السوفياتي، يشكلون هم قاعدتها. خلال سنتي ١٩٨٠ ـ ١٩٨١، قامت استراتيجيتهم على التظاهر بالتأييد الذي لا حدّ له لقيادة الخميني، وعلى صعيد الممارسة الفعلية، كانوا يسعون، بمساعدة الاتحاد السوفياتي، إلى تفويض ماكر وشامل للنظام، على أمل الوصول يوماً إلى الحكم عن طريق انقلاب شبيه بانقلاب أفغانستان.

لكن الإسلاميين ابطلوا حساباتهم، خصوصاً حرّاس الثورة الذين استأثروا بالمناصب الهامة داخل الجمهورية الإسلامية والذين وضعوهم «نصب أعينهم» منذ بداية الأحداث. منذ اليوم الأول الذي زوّد فيه عميل من الـ ك. جي. بي، قُبل طلب

لجوئه إلى المملكة المتحدة، بمعلومات عن العلاقات التي كان يقيمها حزب تودة مع الـ ك. جي. بي، اجتمعت أدلة تجسس فاضحة ضدهم وسمحت بوضعهم في قفص الاتهام. وفي شباط (فبراير) ١٩٨٢، حين وصلت أولى جماعات المناضلين الشيوعيين إلى إڤين لم يعد أحد يشك في الدور الذي لعبه حزبهم لمصلحة الاتحاد السوفياتي. في ذلك اليوم، عصفت رياح التفاؤل في صفوف معتقلي إڤين فرأوا في هذه العملية التي شنت ضد «حزب الخارج» خطوة كبيرة لتنظيف نظام لم يعد يخشى أن يجتاحه نهائياً أعضاء تودة. وقد وُجد في صفوف الليبراليين معتقلون صرّحوا عن استعدادهم للتسامح بشأن اعتقالهم، بالرغم من أنه غير مُبرر، إذا ما أظهر النظام قدرة على إيقاف الشيوعيين الذين ضبطوا بالجرم المشهود.

كان ضباط الجيش الإمبراطوري، لا يخفون إعجابهم بالطريقة التي نجح الحكم من خلالها بإزالة القناع عن حزب يتصرف حسب أوامر سفارة الاتحاد السوفياتي. واعتبروا أن عمل حرّاس الثورة أكثر فعالية من عمل السافاك في نضالهم ضد التسلّل السوفياتي.

عدا الحرب ضد الغازي العراقي، هناك عامل هام آخر قرّب بين المساجين والسجانين وهو النضال ضد التسلّل الأكثر حذقاً للبحّار الشمالي الكبير.

حين كنا نشاهد عبر التلفزيون نقل الاعترافات التي أدلى بها قادة حزب تودة حيث أقروا، من دون تحفظ، ضلوعهم في الخيانة لأربعين سنة، تفاجأنا بالأمر أقل مما تفاجأ به من هم خارج إڤين. لأننا كنا نعلم أن مثل هذه الاعترافات لم تكن عائدة لفعالية الوسائل الاستجوابية، بل أيضاً لوجود ملفات ضد هؤلاء القادة لا يستطيعون شيئاً حيالها.

عجة بالبلح

في إڤين، كانت هناك فئة أخرى من المعتقلين قوامها أشخاص متهمون بانتهاك الأخلاق الإسلامية. هؤلاء أوقفوا خلال احتفالاتهم بأعياد ميلادهم، حيث كان الفتيان والفتيات يرقصون أو يشربون الكحول. بطبيعة الحال، كان أعضاء اللجنة المحافظة على الأخلاق يقتحمون هذه المنازل بوشاية من الجيران فيوقفون المحتفلين ويقتادونهم إلى مركز اللجنة. بعد يومين، يجري إطلاق سراح هؤلاء الأشخاص بعد أن يلتزموا خطياً بعدم المشاركة في هذا النوع من المجون. لكن الذين يكررون الخطأ،

يحتجزون أحياناً في إڤين. وفي عداد هؤلاء ثلاثة من حرّاس السجون الذين عوقبوا بالسجن لسنتين لأنهم نظموا حفلات دعارة مع راقصات ومغنيات. في هذا الخصوص، يجب التذكير أنه غداة الثورة، استدعى المدعي العام للمحكمة الثورية الممثلات والراقصات من كل نوع مشيراً إليهنّ بأنه لم يعد باستطاعتهنّ العمل المسرحي أو السينمائي إلاّ بشرط احترام قواعد «الحشمة الإسلامية»، وأن النساء لا يسمح لهنّ بأي شكل من الأشكال بالغناء أمام الرجال. اتهم الحرّاس الثلاثة بأنهم ضربوا مواعيد خاصة، فيما كانوا موجودين عند مدخل مكتب المدعي العام، مع الممثلات اللواتي استدعتهنّ المحكمة وبأنهم التقوا بهنّ من ثمّ في المدينة. في مثل هذه الحالات، لم يكن القاضي قاسياً جداً. بعد الحصول من الآثمين على فعل ندامة مترافق مع تعهد حازم بعدم الرجوع إلى الخطأ، كان يطلق سراحهم. ولكن نظراً لأن حرّاسنا قاموا بهذا العمل أثناء الخدمة، ونظراً لأن عملهم شكل استغلالاً للسلطة، عوقبوا لسنتين في السجن، من أجل إعطاء العبرة.

كان حاجي رضى، الذي يعرفهم جيداً، يهتم بهم على نحو خاص، ويسعى إلى تقوية معنوياتهم، عينّ اثنين من الذين اعتقلوا في دارتنا مسؤولين عن القسم، كانا خدومين جداً مع السجناء ويفعلان كل ما في وسعهما ليحسّنا من حالنا، في الغرفة الضيقة التي يشغلانها، كان حاجي رضى يأتي من وقت لآخر لتناول الإفطار معهما وغالباً ما يدعوننا للانضمام إليهم من أجل التباحث في قضايا بعض المعتقلين الذين لم تكن التهم الموجهة إليهم خطيرة، حيث يكفي إجراء إداري بسيط لإخلاء سبيلهم. كان حاجي رضى إسلامياً مقتنعاً بضرورة إقامة حكم أكثر عدلاً للمواطنين وأكثر استقلالاً حيال القوى الأجنبية. ويعتقد أنه يجب ألا نرفض بشكل جذري كل إرث الماضي. كنت أشعر أنه مغتاظ من هؤلاء الإسلاميين الذين ينادون بالبدء من الصفر، ولهذا السبب بالطبع، كان لا يتوقف عن توجيه الأسئلة لي. في نهاية الإفطارات التي لم تكن تنتهي، نهض متظاهراً بنبرة صارمة: «هذا يكفي اليوم، وإلا فإنهم سيقولون (ويقصد متصلبي النظام والمحكمة الثورية) أنني أغرق في حبائل المعادين للثورة».

كان حاجي رضى، إلى جانب اللذة التي يجدها في الحوار مع أشخاص لا ينتمون إلى جماعته، والتي تفتح له آفاقاً جديدة، يخشى من أن يُنعت بالمعادي للثورة. وهنا تكمن بالذات الازدواجية الفاضحة لدى كل المسؤولين في الجمهورية الإسلامية على مختلف الأصعدة. في السر، كانوا يفتخرون بعلاقاتهم مع الآخرين، ولكن في العلن

كانوا ينكرونها. حتى اليوم، لا يزال شائعاً أن يطلب المسؤولون، حين يكون عليهم اتخاذ قرار هام على الصعيد الاقتصادي أو التكنولوجي أو الثقافي أو الدبلوماسي، آراء الكادرات الكفوءة دون الاهتمام بولائها الإيديولوجي. هذا الميل أخذ يتأكد بوضوح أكثر فأكثر مع الوقت.

أحد الامتيازات التي خصّنا بها حاجي رضى، والتي لا تقدّر بثمن، هو السماح لنا بعد انقضاء فصل الشتاء بالاحتفاظ بالسخّان لتحضير الشاي وبعض المآكل. احتساء الشاي ساعة يحلو لهم، يعد للإيرانيين شيئاً مباركاً، ولكن تحضير بعض المآكل التي تخرج عن نطاق العادي كان بالنسبة للمعتقلين نعمة. للغداء، كان يقدم لنا الرّز بالصلصة والخضار (طبق محلي)، ولكن من دون لحم أبداً. وفي المساء كانت تقدم لنا الفاصولياء مطهوة بشكل سيىء أو حساء غثّ الطعم.

كانت عشية الجمعة، يوم العطلة الأسبوعية لموظفي السجون، بمثابة عيد لنا. فنظراً لانخفاض عدد الحرّاس، كان في استطاعتنا الحصول على مزيد من البيض. كان كل معتقل يتلقى بيضتين توزعان مقليتين على آلاف السجناء، ولكن البيض كان يسلّم إلى قسمنا طازجاً بفضل مراعاة عظيمة. في كل غرفة، كان عدد المعتقلين يتراوح بين الخمسة والعشرين والثلاثين، يوزعون إلى جماعات من خمسة إلى ثمانية أشخاص يأكلون دائماً حول الشرشف نفسه. كان المسؤولون عن الجماعات يحظون مداورة باستعمال الموقد لطهي البيض. ولكن بما أن هذا الموقد لم يكن قوياً، فإن طهي عجتنا يمتد من الساعة الخامسة (لحظة وصول البيض) إلى الساعة التاسعة مساءً. بصفتي مسؤولاً عن جماعتي المؤلفة من ثمانية أشخاص، كنت استعد لصنع ثلاثة أقراص من الست عشرة بيضة التي هي حصتنا الأسبوعية. كانت تقنيتي تقوم على استعمال أكبر قدر ممكن من المحتويات التي نملكها: البطاطا والبندورة والبصل والتفاح أو البلح حتى. وهكذا كنت أقدّم، من وحي اليوم، عجة «مكسيكية» أو «روسية» أو «إيطالية»، مما جعل أقراص العجة التي أصنعها ذائعة الصيت. كان المبدأ المعمول به هو التالي: استعمال أقل قدر ممكن من البيض لكل قرص عجة، خمس بيضات أو ست لإطعام ثمانية أشخاص. وهناك مبدأ آخر وهو ألا نرفض الأطباق التي تقدمها لنا إدارة السجن، اذ رأينا أنه من الممكن تحسينها. كانوا يقدمون لنا مثلاً مرة في الأسبوع على العشاء نوعاً من اليخنة التي لا يمكن أن تؤكل كما هي، ولكن محتوياتها الفجة وغثة الطعم قد تكون جيدة إن أخذت كلاً على حدة. كنت أسحب الجزر من اليخنة

وأعيد طهيه على الموقد مع البطاطا واللحمة وبضع بصلات وأضيف إلى ذلك صلصة البندورة التي يمكن شراؤها من تعاونيتنا الصغيرة. وأيضاً، بعد أن كان المعتقلون يرفضون تناول الفاصوليا الحمراء المطهوّة ويستعيضون عنها بالجبنة والزبدة، رحت أعيد طهي الفاصولياء على الموقد مع صلصة أسميتها «الصلصة البيضاء» وكان الجميع يأكلها بلذة.

كان أصدقائي يفتخرون بابتكاراتي في مجال الطهي، وحين كانوا يشكرونني عند نهاية الوجبة على جهودي، كنت أقول لهم: «بما أني لست ثورياً مثلكم ولا أطالب إذاً برفض كل شيء دفعة واحدة وإعادة البناء من جديد، أجهد لأحسّن الأطباق انطلاقاً من المحتويات التي في حوزتنا. هذه المقاربة الإصلاحية هي بالضبط ما تنفرون منه».

كان حاجي رضى وبعض الحرّاس الذين يأتون من حين لآخر لتناول العشاء معنا يثنون على فني في الطهي. لهذا السبب، كانوا يغضون الطرف عن مصدر البصل الذي كان يخبئه المسؤول عن الأطباق في جيبه عند الذهاب إلى المطبخ المركزي ليأتي لنا بالطعام في طنجرة محملة على عربة. كان شعاري: «إئتوني بالبصل قدر ما تستطيعون لأطبخ لكم مآكل طيبة».

مع الاهتمامات الغذائية، أدخلت موضوعاً جديداً لتسلية المعتقلين الذين كانوا يشعرون في كل لحظة أنهم على وشك الإحباط.

الاستجواب أخيراً...

بعد سنة ونصف من الاعتقال، استدعيت أخيراً للاستجواب وفق عادة متبعة، كان مكبّر الصوت يعلن صباحاً أسماء الأشخاص الذين يجب أن ينتظروا عند باب الفيللا، حيث يصحبهم من هناك أحد الحرّاس عبر باحة السجن إلى المبنى الرئيسي. من الفيللا إلى مكتب القاضي، كان يفترض بالمعتقلين الاحتفاظ بالعصبة على أعينهم. ثم كان القاضي يقرر وفقاً لطبيعة التهمة، إذا كان يجب الاحتفاظ بالعصبة أو نزعها، وهذا كان يحدد إذاً منذ البداية العلاقة بين المتهم والقاضي. من جهتي، طلب مني القاضي بلهجة صارمة ولكن مهذبة أن أنزع العصبة ثم بدأ في استجوابي: كانت أسئلته تشبه تماماً تلك التي طُرحت عليّ إبان استجوابيّ السابقين في نيسان (ابريل) ١٩٧٩ وفي آذار (مارس) ـ نيسان (ابريل) ١٩٨٠ والتي كانت تتعلق بتقدير شامل لقادة النظامين. حين قلت ان الإجابة عن هذه الأسئلة كلها موجودة في ملفي،

أفهمني أن عليه أن يمتلك في حوزته، من أجل البت في إطلاق سراحي، بضع صفحات من الأسئلة والأجوبة التي تؤكد أنه قام بعمله كما يجب نظراً لأنه، خلال التحقيق مع أصدقاء بني صدر، جعلهم يتكلمون عن علاقاتي به. وبما أنه اقتنع بأني لم ألتقِ بني صدر طيلة الستة عشر شهراً التي كان فيها رئيساً للجمهورية، لم يعد له الحق في الاحتفاظ بي في إڤين. مع تلاحق جلسات الاستجواب، أصبحت علاقتنا أكثر مودة. في ذات مرة اعترف لي بأن آية الله خامنئي، المرشد الحالي للجمهورية الإسلامية الذي كان آنذاك رئيس الجمهورية، سأل المدعي العام مرتين عن أسباب احتجازي الطويل دون سبب. فهمت حينئذٍ أن القاضي كان يريد أن يقدم جواباً عن هذا السؤال لأنه سألني عن السبب الذي يمكن نقله إلى المراجع الأعلى. أجبته: «يمكنك القول إنك كنت مهتماً بتحقيقاتك عن نشاط التجمعات الإرهابية وأن أشخاصاً مثلي تعذبوا من جراء ذلك». بعد بضعة أسابيع، أعلمني بأنهم سيطلقون سراحي في يومين وأنني استطيع الاتصال بزوجتي لتلاقيني في الساعة التاسعة والنصف عند بوابة إڤين الكبيرة.

لكني لم أُستدعَ في ذلك النهار إلاّ عند الساعة الثانية. اقتادني حرّاس إلى المبنى الرئيسي، حيث أتى مساعد قاضي التحقيق لاصطحابي معصوب العينين إلى غرفة أخرى. افهمني أن قضيتي «افلتت من أيديهم». وأن أشخاصاً آخرين لا ينتمون إلى المحكمة الثورية يرغبون في استجوابي. لو أن الأمور في يد قاضيّ، كما أسرَّ لي، لأطلق سراحي على الفور.

أمام القاضي الجديد، المحقق الذي أتى خصيصاً لاستجوابي، والذي مثلت أمامه معصوب العينين (للمرة الأولى منذ بداية الثورة)، شعرت في الحال أنه رجل يملك أحكاماً كثيرة مسبقة حيالي. بالنسبة له، كنت موجِّهاً خفياً في مرحلة الشاه كما في عهد بني صدر. لكن كلّما أوغل في دراسة ملفي ـ الملف الشهير الذي أعدّه السافاك والذي لم يعرف القضاة به من قبل ـ كانت شكوكه تأخذ بالتضاؤل. خلال بضع ساعات عُلّق الاستجواب وأرسلني القاضي إلى القسم ٦ بمواكبة أحد الحرّاس. لم ينوّه إطلاقاً بإمكانية إطلاق سراحي القريبة. يجب الاعتراف بأنني أمضيت عندها بضعة أيام في حالة من الكآبة وتبيّن لي كم أن وعداً بالحرية لم يُستكمل يمكنه أن يكون معذّباً للمعتقل. بما أن أي تفسير لم يُعطَ لي بخصوص الأسباب التي جعلتهم يلغون قرار إخلاء سبيلي، توصلت شيئاً فشيئاً، وبالتحديد من خلال الرسالة التي أبلغني إياها

قاضيٌ القديم عبر زملائي في السجن، إلى أن أفهم بأن تدخلاً من خارج إڤين قد حصل من قبل جيش الحرس الثوري. تحققت عندها أنني كنت مرة أخرى هدفاً للجماعات اليسارية المتطرفة التي نجحت أيضاً في تسميم الحرس الثوري. مثلت أمام القاضي المحقق الجديد مرتين يفصل بين واحدتها والأخرى أسبوع. بعد الاستجواب الثالث، اقتنعت انه لن يعود إلى استجوابي، لأن الهاوية بين ما كان يتصوره بخصوصي وما اكتشفه كانت كبيرة جداً لدرجة أوقعته في حيرة شديدة. خصوصاً وأن كبرياءه الثورية كانت تمنعه من الاعتراف بالخطأ. يبقى أنني مكثت في الڤيللا أكثر من ستة أشهر أخرى أتت في نهايتها زوجتي وأعلمتني خلال زيارة لي أنني سأحال قريباً إلى سجن المحكمة المركزية حيث يُحاكم المعتقلون الذين يعتبرون غير مخربين.

ذات يوم، في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣، طلب مني المثول أمام الباب الخارجي للڤيللا، حيث أوصلني أحد الحراس، دون عصبة فوق عيني، وهذه واقعة استثنائية. في سيارة اجتازت الباحة الداخلية لإڤين اقتدت مسافة بضع كيلومترات إلى سجن المحكمة المركزية حيث كان ينتظر أربعون معتقلاً، كلهم ممن ينبغي إطلاق سراحهم. إن مناخ هذا السجن لم يكن يشبه في شيء مناخ إڤين. كان الطعام، لكي نأخذ المثل الأكثر بلاغة، أفضل بكثير، وللمرة الأولى، رأيت أطباقاً تتضمن لحماً. في اليوم الذي تلا وصولي اقتادوني إلى قاضٍ مثقف حقوقياً، وكانت ثقافته السياسية أرفع مستوى من قضاة التحقيق الذين التقيت بهم من قبل والذين لم يكونوا في الواقع إلّا قضاة ارتجاليين. حين وجدت نفسي قبالته، قال لي، باحترام واضح، وبتواضع كبير: «سيد نراغي، وصلني ملفك منذ شهرين. تفحصته بانتباه ولم أجد فيه أثراً لأي جرم يبرر اعتقالك، أو لتوجيه أية تهمة ضدك. لم أعثر على سبب يفسرٍّ اعتقالاً دام سبعة وعشرين شهراً. كنت أنتظر بفارغ الصبر مجيئك لتستطيع أن تشرح لي بنفسك مغامراتك».

اعتراف القاضي بذنبه

لزمني أكثر من ساعتين لأشرح له مبررات اعتقالي المتعددة ولأبرهن له بطلان الاتهامات الموجهة إليّ. بعد أن استمع إليّ، قال القاضي (الذي كان يُدعى أنصاري) بلهجة منفعلة جداً: «يجب الاعتراف أنه خلال خمس سنوات، كان الإسلاميون المناضلون، مثلي، قد تأثروا بالصيت الذي صنعه لك الشيوعيون المناصرون للاتحاد السوفياتي. من جهتي، حين كنت طالباً، اعترف بأنني استشهدت بك خلال تجمع

سياسي في مشهد كمثال على مفكري النظام السابق. ولكن بعد دراسة ملفك والنصوص التي نشرتها، فهمت كم كنت ظالماً بحقك. لذلك، وبصفتي مُسلماً، أطلب منك شخصياً أن تسامحني وأتمنى أن تقبل إقراري بالذنب». ثم أضاف:

«طلب المغفرة منك لا علاقة له بحالتك كمعتقل، وبصفتي قاضي تحقيق، سأطلب من المدعي العام إطلاق سراحك فوراً وسأجعلك تمر أمام المحكمة لِيُرفع مرة واحدة وإلى الأبد كل التباس بشأنك. ولكن قبل أن يبت المدعي العام بقضيتك، أطلب منك مغفرتك الدينية للأشياء التافهة التي قلتها بشأنك. أما هنا فيكمن خطأ في الحكم اتكفل أنا برده على نحو تام».

قلت له بطبيعة الحال أني لا استطيع إلاّ الامتثال لرغبته، وعلى طريقة الفرس نهضت لمعانقته.

هذا الحديث مع قاضي التحقيق الذي كفَّ عن أن يكون استجواباً اشعرني برضى كبير. فإلى جانب تواضع القاضي وطلبه المغفرة طمأنتني بشكل خاص معرفته المفصلة بملفي. أسرّ لي انه تقصّى مراحل حياتي منذ شبابي الأول وأنه درس بانتباه أعمالي كلها. خلال الشهرين اللذين سبقا نقلي من إڤين إلى المحكمة المركزية - وهذا إجراء يُتخذ دائماً لأوقات تطول - لم يضيّع لحظة واحدة في سعيه جمع المعلومات عني. مثلاً، في المجلد السابع عشر من التقارير التي نشرها الإسلاميون الذين أخلوا السفارة الأميركية في طهران عام ١٩٨٠، وجد، فيما يخصني، تقريراً يعود لسنة ١٩٧٦ وقّعه الوزير المستشار مارتن هرتز. كان التقرير في شكل شهادة سياسية وجهها الوزير المستشار إلى خَلَفِه قبل أن يغادر طهران نهائياً.

كانت تحتوي هذه الوثيقة، أحكاماً يقيّم فيها هذا الديبلوماسي الأميركي ثلاثين شخصية سياسية وفكرية إيرانية كنت أنا من بينها. وفي الوقت الذي كان يشير إلى إخلاص غالبية هذه النخبة الإيرانية للأميركيين، تكلّم عني كشخص جدير بالاهتمام ولكن لا يُظهر أي ولاء للولايات المتحدة.

يجب التوضيح أنه في عام ١٩٦٦، وفيما عُيّنت في الأمم المتحدة، بمبادرة من بول مارك هنري الموظف الفرنسي الديناميكي لأكون أحد خبراء الأمم المتحدة المكلفين بدراسة مسألة «هجرة الأدمغة من بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية باتجاه أوروبا والولايات المتحدة». كنت مقتنعاً بأن أفضل وسيلة لمعالجة هذا النزف هي إدراك

المسؤولين عن بلدان الجنوب لفداحة الخسائر التي تكابدها بلدانهم بسبب فقدان كادراتها. كنت اتفقت مع النيويورك تايمز لكي تنشر مقتطفات من تقريري ما أن أسلّمه إلى منظمة الأمم المتحدة في نيويورك. بعض الموظفين في قسم الدولة ومنهم شارل فرانكل الذي كان استاذاً لمادة فلسفة الحقوق في جامعة هارفرد الذي عيّنه كنيدي سكرتيراً مساعداً للشؤون الثقافية، ساعدوني كثيراً في إتمام مهمتي، خصوصاً خلال إقامتي في واشنطن[١٣]. إلّا أن هناك موظفين أقل خيالاً لم يعجبهم نشر دراستي. أن تكون الولايات المتحدة، بدلاً من أن تساعد علمياً بلدان العالم الثالث، تجتذب عن قصد أو عن غير قصد أعداداً من الأشخاص الأكفاء جداً في هذه البلدان، فمسألة كانت جديدة آنذاك وقد صدمت بعض الرسميين الأميركيين. وهكذا حين رفضت أن أُسلم المستشار الثقافي الأميركي في طهران نسخة عن القسم من تقريري، انزعجت السفارة من هذا الرفض لأنها لم تكن معتادة على هذا النوع من ردات الفعل داخل الدوائر الإيرانية[١٤].

لذلك، حين دلّني القاضي أنصاري على الصفحة التي نشرت فيها هذه القضية، اعترف لي انه، بالنسبة للإسلاميين، كل شخص يرتاد سفارات الدول الأجنبية الكبرى يعتبر مؤيداً لسياسة هذه الدول. لكن، أضاف، دراسة الملفات أظهرت له أن هذا الأمر ليس صحيحاً وأنه بإمكان المرء أن يكون مواطناً إيرانياً حقيقياً حتى ولو ارتاد السفارات الأجنبية.

أجهزة التنصت

وثيقة أخرى، في الملف الذي رتّبه السافاك بخصوصي، ساهمت لا بدّ في إظهار براءتي، هي نقل الحوارات الهاتفية التي أجريتها مع علي أميني. منذ بداية الأزمة، اعتدت في الواقع أن اتصل بعلي أميني (رئيس وزراء سابق) وبعبدالله انتظام (وزير سابق للخارجية). كان أميني وانتظام قد فقدا الحظوة منذ خمس عشرة سنة، ومع ذلك جعل الشاه يصغي إلى نصائحهم عند اشتداد الأزمة، وكان يستقبلهم بانتظام. حين اتصلت بهم، كنت أسعى في البداية لمعرفة ما إذا كان ما يدلي به الشاه لهما متطابقاً مع ما كان يقوله لي. ثم أن هذا أيضاً كان يتيح لي أن أُدوزن وجهات نظري الخاصة مع وجهات نظر هذين الرجلين اللذين لم تكن لديهما طموحات شخصية وبمقدورهما المساهمة في إنهاء الأزمة.

ذات يوم، وبعد أن طلب مني الشاه أن أتكلم بصراحة عن مسألة ثروته الشخصية (التي كان يتم الجدل بشأنها في الساحات العامة)، أجبت دون مراوغة إنه من الأفضل أن يتخذ قراراً بتحويل ثروته إلى الأمة، بشكل واضح تماماً، لا لشيء إلّا لوضع حدّ لجدال يسيء إليه بشكل خاص. حين نقلت هذا الحديث إلى أميني، قمت في بادىء الأمر، ساخراً، بإبداء انطباع لاحظته دائماً خلال أحاديثي مع الشاه. كان حين يجلس، يشبك ساقيه بطريقة آلية ويبقى طويلاً في هذا الوضع المريح واللائق. ولكن كلما أزعجته أسئلتي يقوم بتغيير مفاجىء لجلسته فيبدل شبك ساقيه. اتضح لي شيئاً فشيئاً أن هذه العادة المميزة تظهر لدى الشاه كردة فعل لا إرادية حين لا يريد مواجهة الحقيقة أو يحاول تجنبها. هذا بالضبط ما حصل حين أجابني على ما اقترحته عليه بخصوص ثروته الشخصية، فأكد لي أنه أعطاها إلى مؤسسة بهلوي.

خلال الاستجواب، أعلمني قاضي المحكمة الإسلامية أن السافاك، من خلال أجهزة التنصت، نقل إلى السلطات العليا تقارير مزوّدة بالمستندات الكافية ليتمكن الشاه من الإحاطة بكل التعليقات التي تناولت بها شؤون البلاد. كان القاضي الإسلامي قد تفاجأ بشكل واضح مما اكتشفه في ملفي، لكنه لم يفهم لماذا أقلع الشاه عن إنزال عقوبة بي فيما تعني تحليلاتي انتقاداً مفتوحاً لآرائه السياسية، حتى أنني سمحت لنفسي بإبداء بعض الملاحظات الساخرة عن الطريقة التي يشبك بها رجليه أو يفكهما حين يريد التهرب من الحقيقة. نزولاً عند طلب القاضي، ذكرت كيف أنه لم يكن لدى الشاه أي خيار آخر، لأنه، نظراً للمنحى الذي أخذته الأحداث، رأى نفسه مجبراً على التحدث إلى أناس كان قد وضعهم دائماً على الحياد في الماضي. أضفت، أن الشاه كان يملك قدرة هائلة على إخفاء مشاعره من جهة وأن حواراتي الهاتفية مع أميني وانتظام أكّدت فحوى الأحاديث التي أجريتها مع الشاه، حتى وإن كنتُ بطبيعة الحال قد راعيت الأصول حين كنت أقولها في حضرة الشاه.

مهما يكن، فإن تسجيلات السافاك لحواراتنا شكلت وثيقة هامة لصالحي حين مثلت أمام المحكمة الثورية. استطاع القضاة أن يستنتجوا في الواقع أنه في ظل النظام السابق، صنت دائماً استقلالية أفكاري، وأنني، وإن أجريت أحاديث متلاحقة مع البلاط، لم أكن في أية لحظة موالياً لسياسة النظام.

في نهاية الاستجواب، اعترف قاضي التحقيق أن احتجازي لم يكن مبرراً. ولا يمكن تفسيره إلّا من خلال النضال المسلّح الذي أطلقه المجاهدون، والذي تسبب

باعتقال عدد كبير من المشبوهين مما جعل مسؤولي إڤين عاجزين عن معالجة قضايا المحتجزين في المهل المطلوبة. أكّد لي أنه سيطلب من المدعي العام إطلاق سراحي فوراً. في اليوم الذي استأذنته بالانصراف، كنت سعيداً جداً لكوني التقيت قاضي تحقيق كفوءاً وعادلاً. بعد أيام قليلة، ناداني ليقول لي إن مدة احتجازي انتهت وأنني صرت حراً وعليّ تحضير مرافعة تنزع عني كل الاتهامات الواضحة أو غير الواضحة، التي وجهت إليّ. وهكذا كان يلمّح إلى الشائعات التي استهدفتني وإلى الادعاءات التي ظهرت في الصحف. نصحني بكتابة نوع من السيرة الذاتية لأنه رأى مفيداً، أن تظهر أيضاً تعليقاتي الخاصة في الملف الثقيل جداً الذي كتبه السافاك في شأني، بعد عدة أشهر، أُطلق سراحي في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣، ومثلت (في آذار (مارس) ١٩٨٤) أمام القسم التاسع للمحكمة التي بتّت أخيراً بقضيتي.

استناداً لنتائج التحقيق الذي قاده قاضي التحقيق، برّأتني المحكمة - التي يرأسها رجل دين يدعى ناظم زاده - من كل التهم الموجهة ضدي، وبالتحديد من تواطئي المزعوم مع النظام السابق ومن كل كسب مادي حصلت عليه من هذا النظام، ومن كل علاقة سياسية ببني صدر. بالإضافة إلى ذلك، رفعت المحكمة كل حظر على رجوعي إلى الجامعة واعترفت لي أيضاً بحقي في تحصيل رواتبي عن الخمس سنوات الفائتة، هذه التي كانت جمدتها اللجان الثورية.

فيما بعد، كنت أشاهد من وقت لآخر قاضي التحقيق الذي كان يحضّر إجازة في الحقوق، وكان يطلب دائماً مشورتي بالنسبة لاختيار الكُتب التي ينبغي عليه قراءتها. حين حملت له كُتباً أمست نادرة في السوق، تأثر كثيراً وشدّد دائماً على أن يردها لي. فقط حين تعلق الأمر بكتبي الخاصة، وافق على أن يأخذها كهدية.

هناك مسألة تشغل بال المعتقلين حين يستعيدون الحرية وهي معرفة الأشخاص الذين عملوا، بمعزل عن عائلته، على إطلاق سراحه. حين خرجت من السجن، علمت شيئاً فشيئاً أنه داخل البلاد وخارجها، وجد رجال ونساء - لم يكونوا قلة - اهتموا بمصيري وتدخلوا لصالحي لدى السلطات الإيرانية. أذكر منهم تجمّع موظفي الأونيسكو، ألفرد سوفي، كلود بورديه وزوجته، وكنت أعرفهما منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأيضاً جاك أتالي الذي قيّمت قدراته العالية حين عهدت إليه عام ١٩٧١، لدى تخرجه من المعاهد الكبرى، القيام بدراسات معينة بصفته مستشاراً للأونيسكو. مطالب هؤلاء الأصدقاء، بناءً على نصائح زوجتي، جمّعها أمادو - مهتارمبو المدير العام

للأونيسكو الذي عرف كيف يتصرف بكثير من المهارة والحزم.

الشجاعة الهادئة للناس البسطاء

بين التدخلات التي أُجريت لصالحي، لا يمكنني أن أنسى هذا التدخل الذي مسّني في العمق. أقصد بقولي تدخل رسولي وهو السائق الذي كان في خدمتي قبل الثورة. علمت في الواقع أنه أصبح أحد الأنصار المتحمسين للثورة الإسلامية في وزارة التعليم العالي، ولم يتردد في إرسال عريضة إلى المحكمة الثورية يطالب فيها بإطلاق سراحي، وقد وقّعها أعضاء آخرون من الموظفين؛ السائقون والحرّاس والحجّاب وأُمناء السر.

في عريضتهم ذكّر الموقعون بتصرفي حيال الموظفين المعدمين وشددوا على أنني عملت دائماً من أجل مصالحهم، لدرجة أنني تجاوزت أحياناً التعليمات الإدارية. وقالوا إنهم لا يفهمون كيف أن نظاماً يدّعي نفسه إسلامياً وشعبياً يمكنه أن يبقيني وراء القضبان.

بعد عدة أشهر من إرسال هذه العريضة، وفيما كان البلد فريسة التوترات الكبرى والإعدامات تنفذ كل يوم في إڤين، تلقّى رسولي في وقت متأخر من السهرة مكالمة هاتفية غريبة ومقلقة.

«هنا سجن إڤين. هل أنت رسولي؟

- أجل يا سيدي.
- هل أنت الذي بعثت بالعريضة لصالح نراغي اللعين؟
- أجل يا سيدي. أجاب بصوت غير مرتعش.
- افترض أنك تعرف أن من يضمن خائناً خائن هو أيضاً؟
- أجل يا سيدي.
- إذا كنت تعرف ذلك، لماذا نصّبت نفسك ضامناً لنراغي؟
- لأنه لا أنا ولا الذين وقّعوا العريضة يعتبرون أن سجينكم خائن.
- في هذه الحال، هل أنت مستعد لتشهد أمام المحكمة؟
- أجل، سيدي.
- والموقعون الآخرون أيضاً؟
- أجل سيدي، هم أيضاً؟

فجأة، وخلافاً لكل ما هو متوقع، أخذ الرجل الذي هو على الجانب الآخر من

الخط يضحك وقال لرسولي المندهش:

«أطمئن لا أحد منكم سيمثل أمام المحكمة، لأننا توصلنا إلى نفس النتيجة التي توصلتهم إليها. إن محميكم هو ضحية أعمال أناس سيِّئي النية. نعتبره الآن بريئاً وسوف نطلق سراحه قريباً. يمكنكم طمأنة أصدقائكم. ليلة سعيدة».

لم أعلم إلّا بعد سنتين من إطلاق سراحي، وعن طريق الصدفة فقط، بالمسعى الشجاع والجسور لسائقي السابق، مع أنه أتى بنفسه غداة إطلاق سراحي حاملاً إليّ الزهور.

ملحق

منقذ وحيد: الدستور

إحسان نراغي

(مقالة ظهرت في جريدة «لوموند» في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨)

مسيرة التحديث، التي بدأها منذ نصف قرن مؤسس عائلة بهلوي والتي حرّكها الشاه، هدفها رفع إيران إلى مستوى البلدان التي تملك طاقات اقتصادية قادرة على لعب دور بين الأمم.

من الواضح اليوم أن إيران وضعت نصب عينيها، في سبيل تصنيعها وتحديثها وقوتها العسكرية، أهدافاً لم تكن منسجمة مع مقدراتها الاقتصادية وتحديداً الزراعية ومع حقائقها الإنسانية وهويتها الثقافية.

إن الطبقة السياسية التي أحاطت بالشاه ولم تكف عن تشجيعه في مخططاته السياسية والاقتصادية، تتألف في قسم كبير منها من التكنوقراطيين وأعضاء حزب تودة (الشيوعيين السابقين). البعض من هؤلاء يحتقر مشاركة الشعب ويلجأ إلى وسائل سلطوية في الإعلام والرقابة، والبعض الآخر يشجع الطبيعة المركزية والبيروقراطية للنظام.

وجد هذان الفريقان حلفاءهما بين الحلقات المتغربة (وخصوصاً الماسونية)، أقرب إلى السلطة منهم إلى الشعب. كانا يعطيان معاً النظام وهم الحداثة. وعلى مذبح الفعالية ضحيا بالاعتبارات الإنسانية والثقافية والأخلاقية وحتى الدينية.

ومع ذلك، فإن التقاليد الإيرانية أعطت الدين دائماً دوراً رئيسياً وإن كان بشكل

ضمانة شرعية شفوية. إن رجال الدين الذين دعمهم المفكرون المتغربون والتجار هم الذي اطلقوا الحركة الليبرالية التي أدت إلى إقرار دستور ١٩٠٦ الذي يؤسس برلماناً والذي استكمل بقانون ينص عام ١٩٠٧ على حقوق الشعب والملك والعلماء. المرسوم الثاني من ملحق دستور عام ١٩٠٧ يؤكد أن البرلمان الذي أسس بمباركة الإمام الثاني عشر وعطفه وبفضل الشاهنشاه تحت رعاية العلماء، لا تتناقض قوانينه في أية فترة مع التشريعات الإسلامية والأحكام التي دعا إليها النبي. المادة الثانية تنص على أن يقدّم العلماء عشرين ممثلاً عنهم إلى مجلس النواب ويختار هذا المجلس خمسة من بينهم. هذه الجماعة المؤلفة من خمسة أشخاص تمثّل مجلس شورى عليها أن تستبعد كل الاقتراحات المتعارضة مع الشرائع المقدّسة للإسلام «وتحرص على ألا تمس من قوة القانون».

باستثناء فترة التشريع الأول، لم يُعمل بموجب هذا الدستور، إلاّ أنه كان هناك تفاهم ضمني بين الحكم والعلماء الشيعة بالنسبة لكل القوانين المتعلقة بالدين.

عُدّل الدستور عام ١٩٢٥ ليضمن انتقال الحكم من سلالة الكاجار إلى سلالة بهلوي، كان الدستور يرتكز على مبادىء ثلاثة:

الانتخاب المباشر؛ فيتو المرجع الشيعي على القوانين التي من شأنها أن تتعارض مع الإسلام؛ والملك، الضامن الأكبر للوحدة والاستقلال وأمن البلاد.

في بداية عهده، كانت علاقات الشاه بالزعماء الدينيين لا تطرح أي مشاكل. لكن ابتداءً من عام ١٩٦٠ اعترى هذه العلاقات فساد كبير.

القطيعة بدأت عام ١٩٦٣ حين أُعلنت حقوق المرأة وجرى الإصلاح الزراعي الذي قام به ارسنجاني. على صورة هذا الوزير، تعدّى النظام وبعجرفة لا مثيل لها على الزعماء الدينيين ووصفهم بالرجعيين، مجبراً بعض المسؤولين السياسيين على التنصل من هذه النعوت. اندفع الزعماء الدينيون بطبيعة الحال للشروع في عمل سياسي لتبرير أنفسهم والرد على هذه الاتهامات ووجدوا في التقاليد الشيعية الداعية إلى العدل والمساواة رموزاً تتيح لهم الظهور بمظهر التقدميين.

هناك عدة عوامل لعبت دوراً في هذه النهضة والنفوذ الجديد للدين.

أخذت الدولة تراقب تدريجياً المؤسسات الدينية التي تدعم العلماء بالمال، هؤلاء لم يعودوا يحظون إلاّ بالدعم المباشر للمؤمنين وتحديداً التجار. وهكذا قام تضامن أمر

واقع قاد التجار وأناس البازار الذين ازاحهم التحديث أكثر فأكثر، على تشجيع رجال الدين في حركتهم.

كانت الإيديولوجيات الغربية والماركسية قد أثرت كما رأينا في عدد من المسؤولين السياسيين وأدّت إلى فقدان مصداقية الزعماء الدينيين. إن ضعف هذه الإيديولوجيات، وتحديداً الأزمة الأخلاقية والثقافية في الغرب، قلبت هذه الحركة وأعادت للمفاهيم الدينية مصداقية جديدة.

الإيديولوجيا المهنية للنظام دفعت التكنوقراطيين الذين تخدمهم بيروقراطية مركزية إلى التدخل في جميع جوانب حياة الإيرانيين من دون الأخذ بعين الاعتبار طموحات الشعب الحقيقية. هذه السياسة أوصلت إلى التمدين الفوضوي والانسلاخ الاجتماعي والتضخم المالي، وإلى الاضطرابات التي خلقتها المشاريع الكبيرة، وإلى هدر عائدات البترول وإثراء قلة قليلة وتصاعد الاستياء في صفوف الأكثرية.

الأزمة الحالية يمكنها أن تكون مفيدة لو عرف كل واحد كيف يستخلص النتائج النافعة دون أن يتخلى عن مكاسبه. على النظام الاعتراف بأخطائه وأولها احتقاره لحرية الرأي. وضع رجال الدين الآن يضع على عاتقهم مسؤولية أساسية. السؤال الكبير الذي تجدر معرفته إذا كان رجال الدين، بعد خطأ النظام، سيرتكبون بدورهم خطأً يقوم على رغبتهم بتعطيل الدستور القائم على توازن السلطات.

كل التجمعات مثل الجبهة الوطنية التي يرجع إليها الفضل في المطالبة منذ البداية بالرجوع إلى الشرعية الدستورية، بمقدورها وعليها أن تمارس دورها الشرعي في الانتقاد والاقتراح، ولديها دور أساسي تلعبه.

المنقذ الوحيد لإيران هو الرجوع إلى الدستور، الذي بالرغم من مرور سبعين سنة من الانتهاكات المتلاحقة، يبقى الوسيلة الوحيدة للتوازن والتفاهم بين الإيرانيين. دستورنا يعبّر عن قيم تمسك بها الشعب الإيراني طيلة تاريخه تمسكاً كبيراً: الأخلاق والأخوة والعدالة والتضامن.

الدستور، مفسراً في كل أبعاده، يرسم حدود حكم الملكية ويعطي الزعماء الدينيين ضمانة عدم تناقض القوانين مع الإسلام، ويسمح بقيام التشكيلات السياسية ويعطي الإيرانيين الحق بأن يشتركوا في تقرير حياة البلاد، ويطبق ذلك بشكل فعلي.

دون جهد الالتفاف حول مؤسسة كبيرة، التحولات التي طرأت منذ عشرين سنة والتي حققت تبدلات لا رجوع عنها، ستكون موجهة بشكل سيِّىء وستكون إمكانيات الانفتاح على العالم بلا فائدة. خارج إرادة الحكمة هذه لن يتوانى الاضطراب والعنف عن الحلول مكان قمع الأمس.

الشعب الإيراني يظهر أنه لا ينوي أن يترك قادته، باسم التطور الداخلي والنفوذ الخارجي، أن يحكموا البلد من دونه. لكن الشعب الإيراني في كل الأزمنة كان نموذجاً للتسامح أمام العالم الإسلامي.

هل بإمكانه إثبات ذلك اليوم أيضاً، شرط أن يثبت النظام أنه فهم المغزى الأساسي: لقد حان الوقت ليترك للقوى الوطنية إمكانية التعبير عن نفسها، هذه القوى التي تحركت كلما كان مصير الأمة الإيرانية معرضاً للخطر.

تسلسل الأحداث

(١٩٠١ - ١٩٨٣)

١٩٠١ . أول احتكـار للنفط منحه الملك كـاجار إلى دراسي وهـو ممـوّل إنكليـزي، لاستثمار النفط الإيراني ومدته ست وستين سنة.

١٩٠٦ . قـيام النظام الملكي الدستوري.

١٩٢٦ . نهاية حكم سلالة كاجار وصعود الشاه رضـا بهلوي إلى الحكم.

١٩٥٣ . بواسطة مرسوم ملكي أصبح اسم بلاد فـارس إيران في جميـع المعامـلات الوطنية والدولية.

٢٥ آب (اغسطس) ١٩٤١ . اجتياح الفرق الإنكليزية والسوفياتية لإيران.

١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ . الشاه محمد رضا يصبح شاه إيران.

٧ شبـاط (فبرايـر) ١٩٥١ . اغتال المنـاضلون الإسلاميـون الجنرال رازمـارا رئيـس الوزراء.

٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٥١ . مصدق يصبح رئيساً للوزراء ويؤمم البترول.

١٦ ت[١] (اكتوبر) ١٩٥٢ . قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا.

١٩ آب (اغسطس) ١٩٥٣ . انقلاب أنكلو ـ أميركي ضد مصدق، أعاد الشاه إلى البلاد وبعد أن كان قد غادرها لمدة ثلاثة أيام.

١٩٦٥ . اغتيل رئيس الوزراء حسن علي منصور على يد الحركة الإسلامية نفسها التي قتلت رازمارا في ١٩٥١ .

٦ آب (اغسطس) ١٩٧٧ . استقال أمير عباس هويدا من منصبه كرئيس للوزراء بعد أن أمضى ستة عشر عاماً في الحكم تاركاً المنصب إلى جمشيد أموزغار.

٢٣ ت[١] (اكتوبر) ١٩٧٧ . مصطفى خميني ابن آية الله روح الله الخميني مات في النجف (العراق) حيث عاش والده في المنفى . هذه الوفاة أحدثت تظاهرات عديدة من قبل المتعاطفين مع آية الله في إيران.

٣١ ك[١] (ديسمبر) ١٩٧٧ . استقبل الشاه والإمبراطورة فرح الرئيس جيمي كارتر برفقة زوجته في قصر فياڤاران في طهران. وصف جيمي كارتر إيران «بأنها جزيرة استقرار وسط محيط هائج».

٨ ك[٢] (يناير) ١٩٧٨ . إحدى الصحف في طهران كتبت مقالاً يذم آية الله الخميني ويصفه بالخائن.

٩ ك[٢] (يناير) ١٩٧٨ . طلاب المدرسة الدينية في قم احتجوا على نشر هذا المقال ونظموا تظاهرة انتهت بسقوط عدة قتلى.

١٨ شباط (فبراير) ١٩٧٨ . الاحتفال بمرور أربعين يوماً على سقوط المتظاهرين في قم. أُقيمت تظاهرات دينية عنيفة في تبريز. رجال الدين الإصلاحيون الذين يرأسهم شريعة ـ مداري (أصله من تبريز) دخلوا الساحة وعارضوا النظام القائم. القنصل الأميركي في تبريز استنتج بأن المتظاهرين كانوا أساساً شباناً عاطلين عن العمل وأن عنفهم نتيجة مجتمع لاديني.

آذار (مارس) ـ نيسان (ابريل) ١٩٧٨ . الجبهة الوطنية جرى اعتبارها أكثر فأكثر المعارضة التي يمكنها الوصول إلى الحكم.

٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٨ . صرّح الشاه: «لا أحد يمكنه الإطاحة بي. تدعمني غالبية الشعب وكل العمال وسبعمائة ألف جُندي». وأشار الشاه إلى أنه لا يوجد بين المتظاهرين عمال أو جنود.

١٩ آب (أغسطس) ١٩٧٨ . سينما «ركس» في مدينة عبران أُحرقت وسقط أربعمائة قتيلٍ. المعارضون اتهموا عملاء النظام بأنهم تسببوا بهذه الجريمة وكان هذا بداية

المرحلة الجديدة الراديكالية العنيفة. فيما بعد، يجري التحقق من أن هذا العمل كان من صنع المناضلين الإسلاميين.

آب (اغسطس) ١٩٧٨. أكّدت الـ «سي. أي. إي» للرئيس كارتر بأن إيران «ليست في وضع ثوري ولا حتى في وضع ما قبل ثوري».

٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨. اجتمع بضعة آلاف من الأشخاص في ساحة جاله في طهران. مُنعت التظاهرة وأطلق الجنود الرصاص وسقط عشرات القتلى. كان هذا التاريخ حاسماً في قطع الحوار بين المعارضين والنظام. وبدءاً من هذا التاريخ أيضاً أخذت الجماهير تدخل إلى الساحة (كانت الساحة واقعة في الأحياء الشعبية الجنوبية من طهران). أكّدت القيادة الدينية أنها تسيطر على الحركة.

٦ ت[١] (اكتوبر) ١٩٧٨. الخميني يغادر بغداد ويسافر إلى باريس. من الآن فصاعداً، سيصبح رمزاً وزعيماً للحركة، وسيقود المتمردين من مقره في باريس.

١ ت[١] (اكتوبر) ١٩٧٨. تظاهرات في أكثر من أربعين مدينة. إضراب ٣٠ ألف عامل في مصنع الفولاذ في أصفهان وإضرابات في تبريز وسارتش شمه. خلال شهر، أخذت الأحداث تصبح سياسية أكثر فأكثر (المطالبة بإلغاء القانون العرفي وإطلاق سراح السجناء السياسيين وحلّ السافاك).

١١ ت[١] (اكتوبر) ١٩٧٨. الرئيس كارتر يجدد ثقته بالشاه خلال مؤتمر صحافي في واشنطن.

١٨ ت[١] (أكتوبر) ١٩٧٨. توقف شبه كامل لأكبر المصافي الإيرانية في عبدان. في نهاية الشهر، انخفض الإنتاج النفطي إلى مليون ونصف المليون برميل في اليوم، أي أكثر بقليل من ربع الإنتاج الداخلي قبل الأحداث.

٣٠ ت[١] (أكتوبر) ١٩٧٨. اعتداء على رئيس الشرطة في مشهد. قتل بأيدي الفدائيين.

٥ ـ ٦ ت[٢] (نوفمبر) ١٩٧٨. حكومة شرف إمامي المستقيلة استبدلت بحكومة تضم عدداً من العسكريين برئاسة الجنرال أزهري. إغلاق المدارس والجامعات وتعليق الحريات وتوقيف أمير عباس هويدا والجنرال ناصري المدير السابق للسافاك.

١١ ت[٢] (نوفمبر) ١٩٧٨. الرئيس كارتر ينتقد بشدة الـ سي. أي. إي. على

التقارير الخاطئة التي زودته بها عن شعبية الشاه.

٦ ـ ٧ ـ ١٢ ك١ (ديسمبر) ١٩٧٨. كارتر يشكك علانية للمرة الأولى بقدرة الشاه على البقاء في الحكم.

٢٩ ك١ (ديسمبر) ـ ٦ ك٢ (يناير) ١٩٧٩. عُين شهبور بختيار رئيساً للوزراء في حكومة دستورية بعد أن أعلن الشاه رحيله لمهلة غير محدودة وإنشاء مجلس وصاية.

٦ ك٢ (يناير) ١٩٧٩. وصول الجنرال هويسر إلى إيران وهو نائب قائد القوات الأميركية في أوروبا. كُلّف بكتابة تقرير عن حالة القوات المسلحة بمهمة تهدف إلى إعادة توحيد الجيش والتأكد من وفاء القادة العسكريين لحكومة بختيار.

١٦ ك٢ (يناير) ١٩٧٩. الرحيل النهائي للشاه إلى مصر ثم إلى المغرب والباهاماس والمكسيك ونيويورك وباناما ومن ثم إلى القاهرة حيث توفي بمرض السرطان في ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٨٠.

٥ شباط (فبراير) ١٩٧٩. الخميني يعيّن بزركان (صديق مقرب جداً من بختيار) رئيساً للحكومة الثورية.

١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩. الجيش يعلن حياده متخلياً عن حكومة بختيار ويوافق على استلام الثوريين السلطة بزعامة الخميني.

١٢ شباط (فبراير) ١٩٧٩. شهبور بختيار يتنحى من رئاسة الحكومة. نداء من آية الله يطلب فيه من الشعب احترام النظام العام. جيمي كارتر اعترف بالنظام الإيراني الجديد واقترح تعاوناً سلمياً مع القادة الجدد.

١٩ شباط (فبراير) ١٩٧٩. إعدام الجنرالات الأربعة ومن بينهم الزعيم السابق للسافاك الجنرال ناصري بعد محاكمة سرية. الفدائيون يتجمعون في جامعة طهران ويتظاهرون ضد الرقابة والتلفزيون الإسلامي وضد حكومة تجار البازار التي لا تستجيب لرغبات العمال.

١٨ شباط (فبراير) ١٩٧٩. قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل وزيارة ياسر عرفات لطهران.

١٩ شباط (فبراير) ١٩٧٩. إنشاء حزب الجمهورية الإسلامية من قبل شخصيات

مقربة من الخميني: محمد جواد باهونار، محمد بهشتي، سيد عبد الكريم موسوي وهاشمي رفسنجاني.

٢٣ شباط (فبراير) ١٩٧٩. تظاهرة من ١٠٠ ألف شخص في جامعة طهران استجابة لنداء الفدائيين تقترح برنامجاً ضد الإمبريالية في إيران واستلام العمال الحكم.

٣٠ ـ ٣١ آذار (مارس) ـ أول نيسان (أبريل) ١٩٧٩. في الثلاثين والواحد والثلاثين من آذار، استفتاء حول شكل النظام، ٩٨٪ من الأصوات توافق على إلغاء الملكية، وإنشاء الجمهورية الإسلامية. إعلان الجمهورية الإسلامية في أول نيسان.

٩ نيسان (أبريل) ١٩٧٩. إعدام أمير عباس هويدا رئيس الوزراء السابق للشاه بعد محاكمة سرية.

١٩ تموز (يوليو) ١٩٧٩. إعلان انصهار جزئي بين مجلس الثورة والحكومة يميزه دخول عدة رجال دين ودخول أبو الحسن بني صدر إلى الحكومة.

٤ ت٢ (نوفمبر) ١٩٧٩. احتلال السفارة الأميركية في طهران واحتجاز ستين رهينة أميركية على يد طلاب مسلحين يطالبون بطرد الشاه من الولايات المتحدة. أطلق سراح خمسة رهائن سود في ٢٢ ت٢ (نوفمبر).

٦ ـ ١٨ ت٢ (نوفمبر) ١٩٧٩. موافقة الإمام على استقالة مهدي بزركان واستلام مجلس الثورة إدارة البلاد.

١٣ ـ ١٤ ت٢ (نوفمبر) ١٩٧٩. طلبت إيران في ١٣ ت٢ اجتماع مجلس الأمن في الأمم المتحدة واقترحت إطلاق الرهائن مقابل إدانة الشاه من قبل لجنة تحقيق عالمية. في ١٤ ت٢، أعلن أعضاء مجلس الأمن أن مثل هذا الاجتماع غير مجد.

١٤ ت٢ (نوفمبر) ١٩٧٩. قررت الولايات المتحدة تجميد الثروات الرسمية الإيرانية بعد أن أعلنت إيران سحب الودائع الإيرانية من البنوك الأميركية.

٢٥ ك٢ (يناير) ١٩٨٠. انتخاب بني صدر رئيساً للجمهورية.

١٩ نيسان (أبريل) ١٩٨٠. إعدام آية الله باقر الصدر رئيس الجماعة الشيعية وأخته وثمانية من رجال الدين في العراق.

أول أيار (مايو) ١٩٨٠. تظاهرات متفرقة: استجابة لنداء السلطات أمام سفارة

الولايات المتحدة، انضمت إليها مواكب تودة وبيكار (اليسار المتطرف) والفدائيين وتجمع المجاهدين الذين تلقوا عذابات حزب الله.

٢٢ ـ ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠. في ٢٢ نشوب الحرب بين العراق وإيران. الغارة الجوية العراقية ضد القواعد العسكرية الإيرانية. في ٢٣ الفرق العراقية تدخل الأراضي الإيرانية.

١١ ـ ٢٣ ت٢ (نوفمبر) ١٩٨٠. في ١١، كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة يكلف أولوف بالمه بمهمة المساعي الحميدة في النزاع العراقي ـ الإيراني. بعد جولة في طهران وبغداد أعلن أولوف بالمه في ٢٣ أن الإجراءات السريعة مستبعدة.

١٩ ك٢ (يناير) ١٩٨١. في الجزائر، م. كريستوفر مساعد أمين سر الدولة الأميركية يوقع على نقاط الاتفاق بين الولايات المتحدة وإيران للعودة إلى أوضاع ما قبل ت٢ (نوفمبر) ١٩٧٩: الالتزام بعدم التدخل واسترداد الثروات الإيرانية المجمدة وثروة الشاه وإلغاء الملاحقات القضائية. البنك الجزائري هو المؤتمن على مبلغ الضمانة المجمّدة ومبلغ الكفالات. ويجب تعيين محكمة تبت في النزاعات الإيرانية/ الأميركية خلال ثلاثة أشهر لحلّ الخصومات العالقة.

٢٠ ك٢ (يناير) ١٩٨١. إطلاق سراح الاثنين وخمسين رهينة ورحيلهم إلى الجزائر ثم إلى فيسبادن فالولايات المتحدة. إعلان وزراء الخارجية للسوق الأوروبية المشتركة عن رفع العقوبات حيال إيران واتخاذ كل بلد الإجراءات الخاصة بذلك.

٥ شباط (فبراير) ١٩٨١. إعلان عن عملية هدفها وضع حدّ نهائي للانتفاضة المسلحة في الكردستان حيث تجري مواجهات عنيفة.

١٢ شباط (فبراير) ١٩٨١. درست المحاكم الإسلامية، حسب قول المدعي العام حجة الإسلام علي قدوسي ١١٥٦٥ ملفاً وحكمت على ٢٦٠٠ شخص من بينهم ٤٠٦ بالإعدام. لم تستعمل أساليب التعذيب بل عقوبات إسلامية شرعية.

٢١ حزيران (يونيو) ١٩٨١. بعد يومين من المناقشات أعلن البرلمان سقوط الرئيس بني صدر بغالبية مئة وسبعة وسبعين صوتاً ضد واحد، ممتنع واحد.

٢٥ تموز (يوليو) ١٩٨١. انتخاب رجائي رئيساً للجمهورية.

٥ آب (أغسطس) ١٩٨١ . الرئيس ميتران يدعو الفرنسيين المقيمين في إيران إلى مغادرة البلاد.

٣٠ آب (أغسطس) ١٩٨١ . اعتداء على مقر مجلس الوزراء يسبب موت الرئيس رجائي ورئيس الوزراء بَنُهار. خلال هذه الفترة تكثفت الاعتداءات والإعدامات خصوصاً في صفوف المجاهدين.

٩ ـ ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٨١ . المواجهات بين الحرس الثوري والمجاهدين توقع العديد من القتلى في طهران.

٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨١ . حادث طائرة يتسبب في مقتل القادة الرئيسيين للجيش أثناء عودتهم من الجبهة.

٢ ت[١] (أكتوبر) ١٩٨١ . انتخاب حجة الإسلام علي خامنئي رئيساً لجمهورية إيران الإسلامية، المرشح الوحيد لحزب الجمهورية بعد انسحاب ثلاثة أعضاء آخرين. انتخب بأكثرية ٩٦٪ من الأصوات.

٨ ت[٢] (نوفمبر) ١٩٨١ . مواجهات عنيفة في بوكان بين القوات النظامية والحرس الثوري وبين الانفصاليين الأكراد.

٨ شباط (فبراير) ١٩٨٢ . اثنان وعشرون قيادياً من المجاهدين من بينهم قياباني القائد العسكري للحركة لقوا مصرعهم في عملية نفذها الحرس الثوري.

٢٤ أيار (مايو) ١٩٨٢ . الفرق الإيرانية تحرر خورمشهر.

٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ . وقف إطلاق نار شامل أعلنته العراق على طول الجبهة.

١٠ ك[١] (ديسمبر) ١٩٨٣ . انتخاب ثلاثة وثمانين عضواً من جمعية المحلفين واستدعاؤهم لتعيين واحد أو أكثر لخلافة آية الله الخميني. سوف تجتمع الجمعية مرتين في السنة، لكنها لن تقرر إلا بعد وفاة الإمام.

شباط (فبراير) ١٩٨٣ . توقيف الزعماء الرئيسيين للحزب الشيوعي تودة وطرد ثمانية عشر دبلوماسياً سوفياتياً. النظام الإسلامي لم يعد لديه أعداء داخليون.

* * *

الهوامش

القسم الأول

الحديث الأول

(١) كلمة شاهنشاه أي ملك الملوك أو الامبراطور هي بدعة من الحاكم الايراني الأخير. لكن رعيته استمرت في مناداته الشاه، أي الملك. (المؤلف).

(٢) في تلك الفترة، كانت شكوك السافاك وعدائية مديرها حيال المعهد الذي كنت أشرف عليه، تتعاظم. لذلك قبلت عرض رينيه ماهو، المدير العام للأونيسكو، بالقدوم إلى باريس والعمل فيها مديراً لقسم الشباب في هذه المنظمة. (المؤلف).

(٣) وزير الزراعة، صاحب الأفكار الراديكالية التي كانت في أصل الإصلاح الزراعي الكبير. (المؤلف).

(٤) سلسلة من الاصلاحات أجراها الشاه في ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ وأهمها الإصلاح الزراعي. من خلال هذه الصورة البيضاء، كان الشاه يسعى وراء المواجهة مع رجال الدين الشيعة، لأنه كان يريد أن يبرهن لإدارة كينيدي الأميركية وللنخب الإيرانية المُحبة للتجديد بأن أعداءه الحقيقيين كانوا رجال الدين الرجعيين. (المؤلف).

(٥) الإمام المنتظر أو المهدي عند الشيعة هو الإمام الثاني عشر من سلالة الإمام علي (٦٠٠ ـ ٦٦١) ابن عم النبي محمد وصهره. هذا المهدي الذي اختفى وهو حديث السن منذ اثني عشر قرناً في سامراء (العراق حالياً)، اشتهر منذ ذلك الحين على أنه «محتجب» ولكنه حي، في انتظار أن يعاود ذات يوم ظهوره ويملأ الأرض عدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً.

(٦) علي شريعتي، منظّر سياسي ايراني توفي في لندن سنة ١٩٧٧ عشية الثورة الاسلامية. حاول أن يقيم جسراً بين الاسلام التقليدي ونظرية العالمثالثية المتأصلة.

(٧) فرانز فانون (١٩٢٥ ـ ١٩٦١) زنجيٌّ من جزر المارتينيك، انضم إلى صفوف القوميين الجزائريين، وهو أحد المنظرين الكبار للعالمثالثية. (المؤلف).

(٨) الصفوية: سلالة حكمت إيران من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، وقد جعلت من المذهب الشيعي دين الدولة. المذهب العلوي ينتسب إلى الامام علي. شريعتي ينسب كل ما هو نظيف وصادق إلى العلويين، وكل ما هو ملفّق إلى الصفويين. هذه الحجة لا تصمد أمام التحليل التاريخي،

خاصة فيما يتعلق بصمود الصفويين في وجه الغزوات العثمانية. ومع ذلك فإن كلام شريعتي كان يثير حماس الشباب. (المؤلف).

(٩) آية الله حسين بورودجردي، توفي في قم سنة ١٩٦١.

(١٠) محمد مصدق (١٨٨١ ـ ١٩٦٧) رئيس الحكومة الامبراطورية من سنة ١٩٥١ إلى ١٩٥٣. حاول تأميم البترول الايراني، فاصطدم بالمصالح البريطانية وأطاح به انقلاب أنجلو ـ أميركي.

(١١) قضى الخميني الفترة الأطول من منفاه الذي امتد من سنة ١٩٦٤ حتى سنة ١٩٧٩، في العراق.

(١٢) تجار البازار في طهران يمثلون التجارة الكبيرة التقليدية التي ارتبطت طويلاً بالعقيدة الشيعية وبالنظام الملكي معاً.

(١٣) اقليم خوزستان الذي يتكلم قسم من سكانه العربية، يقع على مقربة من العراق. يُسمى أحياناً خارج العراق بإقليم «عربستان». (المؤلف).

(١٤) كان الشاه يريد أن يجعل شاه باهار الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي لإيران، أكبر مرفأ جوي بحري في المحيط الهندي.

(١٥) أول تظاهرة شعبية ضخمة هزّت الطبقة الحاكمة، جرت إبان عيد الفطر، في العام ١٩٧٨، أي قبل أيام قليلة من اجراء هذا الحديث.

(١٦) أي ما يساوي ألفي فرنك فرنسي.

(١٧) كانت تربطني بهويدا، رئيس الحكومة آنذاك، أواصر صداقة قديمة منذ كنت طالباً في جنيف وكان هو موظفاً شاباً في المفوضية العليا للاجئين. في بداية الخمسينات.

(١٨) في الحقيقة، كان الشاه يرغب في أن يقوم هو نفسه بتأميم النفط، لكنه كان يعتقد أن هذا الأمر مستحيل بسبب جبروت البريطانيين.

(١٩) عُرف هذان السياسيان الفارسيان في القرن التاسع عشر بمشاريعهما الاصلاحية الكبيرة وخصوصاً باستقامتهما. كانا ضحية مؤامرات البلاط واغتيلا بأمر من الملك.

(٢٠) بسبب الرزانة التي أبديها حيال الشاه، لم أشأ التوغل أكثر في الحديث وتذكيره ببقية تفاصيل القصة التي أخبرني إياها هويدا بالرغم من تحفظاته: «الشاه يغذي دائماً الشكوك بخصوص الآخرين. أتساءل في حال اقترحت عليه اجراء مأتم لمصدق، عما إذا كان سيفسّر الأمر كما فسّرته أنت. لذلك، أقترح عليك الذهاب لرؤية اردشير زاهدي [صهر الشاه ووزير الشؤون الخارجية آنذاك]. الشاه يتصرف معه بارتياح أكثر مني، خصوصاً أنهما تضامنا مع والد زاهدي أثناء سقوط مصدق. عملت بنصيحته، وكانت ردة فعل زاهدي ايجابية جداً، كان يجد اقتراحي عبقرياً وملائماً على الصعيد السياسي، مضيفاً أنه هو والشاه كانا قد أعجبا دائماً لا بل أطريا على الفترة الأولى لحكومة مصدق حين أمم البترول. لكنه تابع قائلاً: «معرفتي الجيدة بجلالة الملك تجعلني أخشى ألا يوافق على اقتراحك. على أية حال، ولكي أكون صادقاً معك، سأراه غداً عند الساعة الحادية عشرة كما في كل يوم وأبلغه مشروعك. عد لرؤيتي غداً عند الساعة الواحدة. في اليوم التالي، حين رآني متوجهاً نحوه، هتف قائلاً: «يا حضرة الأستاذ، إن خدمتي لك كرسول كلفتني بعض الشتائم والسباب. لكن لا تتراجع بل تابع جهودك للمصالحة. لك تأييدي الكامل» واقتصر الأمر على هذا الحد.

(٢١) أحد المناضلين المصدقيّين المتحمسين، الذي قضى أكثر من اثنتي عشرة سنة في سجون السافاك. كان أحد الإيرانيين الثلاثة الذين وقّعوا في حزيران ١٩٧٧ على رسالة مفتوحة إلى الشاه يطالبونه فيها باحترام الشرعية الدستورية وحماية الحريات السياسية. (المؤلف).

(٢٢) في خطابه الذي وجهه بعد عشرة أيام إلى البرلمان، ألمح إلى النظام الدستوري ولكن بطريقة لا ترضي اطلاقاً ما كان يتوقعه منه فوروهار وأصدقاؤه.

الحديث الثاني

(١) الحكومة التي عيّنها الشاه في نهاية آب (اغسطس) ١٩٧٨ لكي يواجه الاستياء الشعبي المتعاظم ولكي يظهر رغبته في جعل النظام أكثر حرية.

(٢) تم التوقيع على اتفاقية تعاون تقنية وعلمية وثقافية بين البلدين سنة ١٩٧٤. علاوة على ذلك، بدأت ايران تسهم في تصدير المنتوجات النفطية المكررة إلى السنغال وتستعد لبناء مصفاة فيها.

(٣) شارل هيوغ دوبوربون ـ بارم كان حينذاك رئيس الحركة الكرلية، وكان يطالب بعرش اسبانيا. خلال حكم فرانكو، نفي إلى باريس، وبدأت حركته تميل تدريجياً إلى الاشتراكية. بعد موت فرانكو وتولي خوان كارلوس العرش، تخلّى عن مطالبته إقراراً منه بالجميل نحو الدور الديمقراطي الذي لعبه خوان كارلوس، وعاد إلى اسبانيا. كان هو وزوجته (ابنة جوليانا ملكة هولندا) مهتمين جداً بالوضع الايراني وأمضيا السهرة بطولها يتكلمان عن الأحداث الجارية في ايران.

(٤) كان الشاه يلمّح إلى حضور بودغورني السوفياتي وتيتو اليوغوسلافي وتشاوشسكو الروماني وإلى بعض الرؤساء الآخرين الذين وفدوا من البلدان الشيوعية.

(٥) قورش الثاني الكبير (المتوفي في سنة ٥٢٨ ق. م.) ابن قمبيز الأول ومندان. غزا مملكة الليديين وآسيا الصغرى وشبه الجزيرة العربية وأخيراً بلاد الكلدانيين، مستولياً على بابل ومحرّراً الأسرى اليهود. عند موته، كانت الامبراطورية الفارسية هي الأكثر اتساعاً في العصور القديمة.

(٦) مثلاً، المستشاران المذكوران في الحديث السابق. كان الشعب يفضلها على الأمراء الكدجريين السبعة الذين حكموا من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٩٢٥.

(٧) تجدر الإشارة هنا إلى أن فرنسا بعثت قبل أسابيع من اجراء الاحتفال، مدير البروتوكول في وزارة الخارجية الفرنسية، السيد جاك سيزار. وكانت مهمته الذهاب إلى طهران للبحث في المسائل المتعلقة بسفر بومبيدو المحتمل ونمط الرعاية التي كانوا سيخصونه بها. حين سأل محدثيه عن خطة جلوس رؤساء الدول إلى طاولة برسيبوليس، قيل له بأن رئيسه سيأخذ مكانه في آخر الطاولة، تعجّب من هذه الإجراءات وتساءل عن السبب. فقال له الايرانيون انهم يتبعون بدقة الأصول الموضوعة في مؤتمر فينا في ١٨١٥. يرجع حق تصدر الطاولة، حسب هذه الأصول، إلى الرئيس الذي بقي أطول مدة في الحكم. وبما أن فترة رئاسة بومبيدو كانت الأقصر بين أكثرية الرؤساء الوافدين إلى برسيبوليس، فهو لا يحق له الجلوس إلا خلفهم. أراد المبعوث الفرنسي عندئذ أن يظهر أهمية لقب الرئيس كزعيم «للوحدة الفرنكو ـ افريقية». لأن هذا اللقب كان ينصّب الرئيس قائداً لمجموعة من الرؤساء، ولكن محدثيه الايرانيين رفضوا هذه الحجة قائلين بأنهم قد دعوه بصفته رئيساً للجمهورية الفرنسية. هل إن خطة وزارة الخارجية هي التي ساعدت بومبيدو على الاعتذار عن حضور الاحتفال؟ ربما، على كل حال، مثّله السيد جاك شابان دلماس الذي لم يكن مستاء قط من جلوسه إلى طاولة رؤساء الدول أو من نزوله (مع زوجته الجديدة)، بخلاف سائر رؤساء الحكومة، في إحدى الخيام المخصصة لرؤساء الدول.

(٨) كنت أعرف منذ زمن بعيد أن فرنسوا ميتران لم يكن يُبدي أي تعاطف تجاه الشاه. وقد تيقنت من هذا الأمر في بداية السبعينات، حين كنت مقيماً في باريس. كنت قد تعرفت عند المحامي الباريسي الكبير فرنسوا ساردا إلى ادغار بيزاني وجاك دولور اللذين تركا عندي أثراً كبيراً. حين رجعت عام ١٩٧٥ إلى ايران، اقترحت عليهما بصفتي مديراً لمعهد الأبحاث والتخطيط التربوي والعلمي، المجيء إلى طهران لبضعة أسابيع بصفتهما مستشارين. وبما أنني كنت على معرفة بشخصية هذين الرجلين وبصراحتهما، كنت آمل بأن يتوصلا إلى قول بعض الحقائق للشاه. بعض الحقائق التي لم تسنح الفرصة ليسمعها من رعاياه أو حتى من الأجانب الذين كانوا بدافع المصلحة يمتدحونه. حصلت على موافقتهما المبدئية.

وحين كان السيد بيزان يستعد للقيام بمهمته، تدخّل فرنسوا ميتران لكي ينصحه بعدم السفر إلى ايران لاعتقاده بأن هذا المسعى مع الشاه عديم الفائدة.

(٩) جاك ورل، معاون الأمين العام في الإليزيه، اتصل بالسيد بهرامي، سفير ايران ليقول له إن الرئيس حاول الاتصال بالشاه من البرازيل ولكن دون جدوى. الرسالة التي وجهها إلى جلالته هي التالية: «علمت عبر وسائل الإعلام أن آية الله الخميني وصل إلى باريس بجواز مرور إيراني صالح (في تلك الفترة لم يكن هناك تأشيرة بين فرنسا وإيران)، إذاً كان في استطاعته المكوث في فرنسا كسائح لمدة ثلاثة أشهر من دون فيزا. من البديهي أنه قد حُظّر عليه أي نشاط سياسي. نرجو ايصال هذا التأكيد إلى طهران».

(١٠) سفير إيران في كابول محمد داوودي أخبرني أن سفير فرنسا في أفغانستان جاء لكي ينقل له الرسالة نفسها. حين سأله عن سبب إبلاغه هذه الرسالة، قال له بأن باريس تريد أن تستعمل كل الوسائل لتكون أكيدة من وصول هذه الرسالة إلى الشاه.

(١١) الجنرال كاراباخي، «حقيقة حول الأزمة الايرانية»، منشورات «الفكر العالمي» سنة ١٩٨٥ (ص ٤٢).

(١٢) من جهة أخرى، طلبت ايران سراً من السلطات العراقية في نهاية صيف ١٩٧٨، أي مع تعاظم الاضطرابات في إيران، طرد الخميني من العراق.

(١٣) الاتفاقيات الإيرانية ـ العراقية التي جرت برعاية الجزائر، عالجت مسألة الحدود في شط العرب. في سنة ١٩٨٠، أعلنت بغداد أنها ألغت هذه الاتفاقيات من جانب واحد. بعد اجتياح الكويت في آب (اغسطس) ١٩٩٠ رجعت عن قرارها وأعلنت أنها ستحترم من جديد اتفاق الجزائر.

(١٤) استطاع آيات الله الذين يعيشون في النجف أن يوجّهوا من هناك الثورة الديمقراطية التي اشتعلت في إيران سنة ١٩٠٦. ومن ثم الانتفاضة الشعبية ضد استبداد عائلة كرجر المالكة، كما وأنهم نجحوا في إرغام الملك محمد علي ـ شاه على الاستقالة ومغادرة البلاد.

(١٥) في ١١ تشرين الأول (اكتوبر)، بعد أيام قليلة من وصول آية الله إلى باريس، طلب السيد علي ياسين، سفير العراق في إيران أن يقابل على وجه السرعة وزير الخارجية في طهران. استقبله السيد زالي، المساعد السياسي للوزير: كان السفير قد أتى للاحتجاج لدى السلطات الإيرانية على المعلومات التي سرّبتها الصحف الإيرانية ومفادها أن الدولة العراقية هي التي طردت الخميني من العراق بمبادرة شخصية منها. بينما يدعي العراقيون أنهم كانوا يستجيبون بطردهم آية الله إلى طلب إيراني. حاول مساعد الوزير أن يهدىء خاطر السفير قائلاً له إنه في ظل هذا الاضطراب العام، ليس للحكم أية سلطة على الصحافة، وإن طرد الخميني هو في جميع الأحوال لمصلحة البلدين. لكن السفير شدّد على أن هذه الشائعات تحركها رغبة سياسية في جعل بغداد مسؤولة عن طرد آية الله وهذا مزعج للغاية، لأن هذه الشائعات يمكن أن تكون لها انعكاسات خطيرة على الشعب العراقي الذي يشكل الشيعة غالبيته.

(١٦) أخبرني أسلان أشرف، رئيس البروتوكول، الذي رافق الشاه إلى المغرب سنة ١٩٧٩، بأن الهاتف قد رنّ ذات يوم ظهراً في قصر الضيافة: كانت المخابرة من الرئيس جيسكار، طلب التحدّث إلى الشاه. لكن الشاه الذي كان يتنزه في الحديقة رفض مكالمته بحجة أن التلفون كان بعيداً جداً عن متناوله.

(١٧) الأمر يتعلق بأبي الحسن بني صدر (الذي سوف يصبح أول رئيس للجمهورية الإسلامية في عام ١٩٨٠) وبحسان حبيبي، أول نائب رئيس للجمهورية الإسلامية أثناء كتابة هذا الكتاب.

(١٨) عدد كبير من مناضليها يشكل حالياً قادة الجمهورية الاسلامية في إيران.

(١٩) مهدي بزركان، خريج المدرسة المركزية، من رفاق مصدق، تماماً كما سنجابي، لكنه أكثر عنفاً بعد سقوط مصدق، أسس حزب الحرية مستنداً إلى دعم الموظفين الكبار ذوي الميول الدينية. أمضى في ظل

حكم الشاه خمس سنوات في السجن قبل أن يصبح أول رئيس حكومة للجمهورية الاسلامية ليختلف من ثم مع آيات الله.

(٢٠) كان سنجابي قد وقّع مع الخميني بياناً يشكّك بشرعية النظام الامبراطوري ويتهم الشاه بالاعتداء على الدستور.

(٢١) أمير عباس هويدا رئيس الحكومة الامبراطورية من عام ١٩٦٥ إلى ١٩٧٧. كان رجلاً ذا مرونة فكرية ومنفتحاً على قضايا العالم المعاصر. كان يتكلم عدة لغات ويجيد الفرنسية باتقان. أما ضعفه وتراجع رصيده الشعبي فسببهما خضوعه غير المشروط لسياسة الشاه. إن كشف الحساب لسنواته الثلاث عشرة في الحكومة تميّز بتحقيق انجازات كبيرة لإيران المعاصرة من جهة وباستسلام أمام تجاوزات الحكم والقمع السياسي والتبذير من جهة أخرى. لكن عباس هويدا، وخلافاً للمحيطين بالشاه، لم يسع إلى زيادة ثروته الخاصة.

(٢٢) حين قال لي الشاه: «طُلب مني مراراً»، كان يقصد بذلك شريف إمامي رئيس الحكومة أو الجنرال عويس، الحاكم العسكري لطهران، اللذين، بالمقارنة مع فسادهما، يبدو هويدا وكأنه «صبيّ المذبح».

(٢٣) الجنرال خادمي، المدير العام للخطوط الجوية الإيرانية. كان، دون شك، كفوء جداً في ادارة المشاريع، إلى جانب تورطه في قضايا الرشوة من كل نوع وخصوصاً فيما يتعلق بشراء الطائرات. كان في الوقت نفسه من اتباع الديانة البهائية التي يدينها الاسلام، ويقال إنه أنفق من أجلها أموالاً لا يستهان بها.

(٢٤) يفترض بالملك أن يكون قائد المسلمين. من هنا، لا توجد شتيمة أسوأ من أن يحتفظ ملك برئيس حكومة بهائي طيلة ثلاثة عشر عاماً خصوصاً في خضم فوران ديني ظاهر.

(٢٥) علي أميني، رئيس حكومة سابق وصل إلى الحكم سنة ١٩٦١ تحت ضغط الرئيس كينيدي، لكي يقوم بإصلاحات. لكن الشاه أقاله بعد أربعة أشهر من ترؤسه الحكومة. إزالة الحظوة هذه التي دامت خمسة عشر عاماً منحته بعض الشعبية بمواجهة الأزمة، استنجد به الشاه كمستشار مميّز.

(٢٦) كنت أقصد بكلمة «حكماء»، علي أميني، رئيس الوزراء السابق الذي جاء منذ عشرين يوماً لزيارة الشاه يرافقه عبد الله انتظام وزير الخارجية. كان الاثنان مُبعدين عن الحياة السياسية خلال خمس عشرة سنة. قالا لي إنهما، بسبب علاقاتهما القديمة جداً بالشاه والتي تشوبها المآخذ العديدة المتبادلة، غير مرتاحين لمعالجة هذه المسألة معه، وإنه من السهل عليّ رفعها إليه لعدم وجود منازعات بيني وبينه.

(٢٧) علي ـ غولي أردلان الذي خلف هويدا هو دبلوماسي مخضرم. عاش شبه محروم من حظوة الشاه لأن هذا الأخير حقد عليه لعدم تمكنه، حين كان سفيراً في واشنطن، من الحؤول دون تناول الصحافة الأميركية لتصرفات العائلة المالكة في نهاية الخمسينات. كان أردلان بعيداً إذاً عن الشؤون المالية لآل بهلوي.

(٢٨) في معرض الحديث عن سلطة الأميرة أشرف على الشاه ونفور الشاه من شقيقته التوأم، من المناسب القول إنه حين وجودي في سجن إفين بعد سنة، التقيت بأحد ضبّاط السافاك وحدثني عن الصعوبة التي كان يلاقيها زملاؤه في مهماتهم. استدعاه ذات مرة مدير السافاك ليقول له إن الشاه يريد معرفة كل شيء عن الأحاديث التي كانت تجري خلال مآدب الغداء الأسبوعية بين الأميرة أشرف وأموزغار.

(٢٩) غلام ـ حسين صديقي، أستاذ جامعي نافذ، مؤرخ وعالم اجتماع. عُيّن وزيراً للداخلية في حكومة مصدق حين أطاح انقلاب عام ١٩٥٣ بهذا الأخير. قضى أكثر من سنتين في السجن وعاش منذ ذلك الحين، منسحباً من الحياة السياسية يتابع وظيفته في الجامعة. كان «عرّاب» دخولي إلى الجامعة كأستاذ سنة ١٩٥٧ وبقينا أصدقاء على الدوام. مات سنة ١٩٩٠.

(٣٠) «غير مستسلمة أبداً»، منشورات «لاتابل روند»، عام ١٩٨٣.

(٣١) الجنرال نورمان، والد القائد العام لقوات التدخل المسلحة في حرب الكويت ١٩٩١، عُرف بنشاطه الحثيث ضد المافيا، حين كان رئيس للشرطة في نيوجرسي. من بعدها تطوّع لخدمة النظام الايراني منذ عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٤٨ وترأس فريقاً من الخبراء مؤلفاً من ٢٤ شرطياً مهمته إصلاح جهاز الأمن الوطني: عاد إلى طهران في أول آب (اغسطس) عام ١٩٥٣، تماماً بعد سفر الأميرة السري إلى طهران، وقابل الشاه سراً ليصدّق على الخطة التي رسمتها أخته. هذا السفر أثار فضيحة في الصحافة الموالية لمصدق مما عجّل في سفر الجنرال شوارزكوف. الانقلاب في وجهه العسكري البحت حدث ليلة ١٥ و١٦ آب ١٩٥٣. ولكن أتباع مصدق أجهضوا المحاولة في غضون ساعات قليلة. كان يفترض بالشاه، حسب الخطة المرسومة أن يكون متواجداً مع زوجته ثريا على شاطىء بحر قزوين. ما أن علم بإخفاق المحاولة التي تجعله يستأثر بالحكم وحده غادر البلاد على متن طائرته الخاصة متوجهاً إلى روما. وفي ١٩ آب، نشر محرّكوا الانقلاب رواية أخرى للأحداث تنوّه بمشاركة زعيم ديني: آية الله بيبهاني. من ثم شهدنا تعاظم المظاهرات المؤيدة للشاه والتي بفضلها نجح أخصام مصدق في الإطاحة به، وتعيين الجنرال زاهدي مكانه. في اليوم التالي لمحاولة الانقلاب، دعا الجنرال زاهدي الشاه للرجوع إلى طهران، حيث فُتحت صفحة جديد للحكم الذي سيصبح فردياً أكثر فأكثر.

(٣٢) فرشني رضوي، طبيبة وأستاذة في الجامعة وإحدى قريبات هويدا التي كان يُسمح لها بزيارته، اتصلت به عشية لقائي مع الملكة وقالت لي إن هويدا محتجز في غرفة مسدلة الستائر وممنوع عليه التنزه في الهواء الطلق.

الحديث الثالث

(١) بناء طائرات الهيليكوبتر كان سيُجرى في أصفهان. كانت الشركة الأميركية المعنية تضم في عدادها عدداً كبيراً من المحاربين القدامى في فيتنام والمتقاعدين من الجيش.

(٢) هدايات متين دفتري، حفيد مصدق لجهة أمه، كان قد انتخب نائباً لرئيس نقابة المحامين في طهران، وكان يلعب دوراً هاماً في صفوف المعارضة.

(٣) كان الشاه يعني بالمسؤولين مساعدي المدير العام المسؤول الجنرال أنصاري، الذين كانوا يقدّمون كل مساء إلى مدير البروتوكول أفشر، تقريراً عن أرقام حمولة النفط الخام، لكنهم ما كانوا يشيرون إطلاقاً إلى المشاكل الخطيرة التي تتعرض لها الصناعة النفطية بشكل عام، لأنهم هم أيضاً كانوا يشعرون بالإحراج. كان أنصاري، إلى جانب وظائفه الرسمية، موضع ثقة الشاه فيما يخص توظيف أمواله وكل ممتلكاته الايرانية العامة في الخارج. ولكنه كان يقيم في أوروبا منذ عدة أشهر، متذرعاً بالمرض، مما سبّب أزمة عميقة في الصناعة النفطية، لأن كل المستخدمين كانوا يعرفون أن لا أحد سيحل مكانه نظراً للدعم غير المشروط الذي يبديه الشاه نحوه.

(٤) انتظام الذي تحدّثنا عنه من قبل كان حتى سنة ١٩٦٣ المدير العام المسؤول عن شركات النفط، إلى أن فقد الحظوة، في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨. وفي مواجهة الإضراب المعمّم لعمال النفط، أجبر الشاه على استدعائه من جديد. الخطوة الأولى التي قام بها هي مقابلة بزركان ورفسنجاني (الرئيس المقبل للجمهورية الاسلامية)، من أجل التسيير الجزئي للصناعة النفطية.

(٥) كل هذه المفاوضات كانت قد هيّأت الظروف للمهمة التي سوف يعهد بها آية الله الخميني، بناء على اقتراح موتاهاري، إلى بزركان ورفسنجاني بعد ستة أسابيع. كانت هذه المهمة تقضي بأن يتخذا على عاتقهما اعادة تسيير صناعة النفط من أجل تأمين الحاجات الداخلية الملحّة. كان الأمر شاقاً لهذين الرجلين لأنه توجب عليهما تعليق الإضراب الجزئي الذي امتد لبضعة أشهر ومواجهة تصلب اليساريين المتطرفين الذين كانوا يتهمونهما بالتواطؤ مع النظام.

الحديث الرابع

(١) بعد الحرب العالمية الأولى، شجّع الانكليز الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال رضا خان ضد عائلة كاجار. وهذا الانقلاب أدى بعد خمس سنوات إلى عزل السلالة القديمة وحلول آل بهلوي محلها.

(٢) كان يعني بذلك وصول الفرق الروسية ـ الانكليزية إلى ايران، ورحيل أبيه إلى المنفى في افريقيا الجنوبية وتوليه العرش ـ ثلاثة أحداث ترافقت مع تفكك سياسي واجتماعي في البلاد.

(٣) منذ الانتخابات الأميركية سنة ١٩٦٠ حيث تغلب المرشح الديمقراطي كينيدي على الجمهوري نيكسون، والشاه يدعم علناً الجمهوريين مقدّماً لهم دعماً مالياً. هذا الدعم لم يكن يخفى على الرئيسين الديمقراطيين كينيدي وكارتر.

(٤) هذا التعاطف يرقى إلى الانقلاب الذي دُبّر ضد مصدق عام ١٩٥٣، بإدارة ايزنهاور. لم يكن الشاه يخفي اعجابه بنيكسون. أما كارتر فقد كان بنظره يملك أفكاراً محدودة جداً، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الانسان.

(٥) سألتني كينيزيه مراد في الـ «نوفل أوبسرفاتور» عمّا إذا كان لدى النظام حظ بالصمود، أجبتها بنعم شرط أن يظهر قدرته على «إزالة التماهي» واستعادة الشرعية الدستورية.

(٦) التماهي: هي تلك الظاهرة حيث طبع الشاه كل شيء في ايران بطابعه الشخصي. (المترجم).

(٧) الأمر يتعلق بالجامع الأكثر قداسة وإجلالاً في ايران. سبب هذا الإجلال راجع إلى أن الإمام الرضى، إلى جانب مصيره المأساوي، هو الإمام الوحيد، بين الأئمة الإثني عشر، الموجود ضريحه في ايران. (المؤلف).

(٨) الجنرال عويسي، الحاكم العسكري لطهران منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨، كان قائد القوات البرية.

(٩) الجنرال عويسي، بصفته قائداً للحرس الامبراطوري، هو الذي سحق في حزيران (يونيو) ١٩٦٣ ظاهرة تمرّد الخميني الأولى، وأسال الدماء.

(١٠) يوم الجمعة ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ سجّل أول مواجهة مسلّحة بين الجيش وبين المشاركين في تظاهرة كبيرة نظّمها زعماء الدين بعد عيد الفطر أو رمضان. دعا الثوريون هذا اليوم بيوم «الجمعة الأسود». وقد تداولت الصحافة العالمية هذه العبارة على الفور.

(١١) كان مخاتير القرى يُقدّمون وفق هذا النظام وبموافقة الشعب، عدداً معيناً من المجندين حين يطلب الجيش ذلك.

(١٢) هذا السياسي هو كافام سلطنه قام في اليوم نفسه الذي انتخب به رئيساً للحكومة من قبل البرلمان، وقبل تشكيله الحكومة، بزيارة إلى موسكو للتفاوض مع ستالين بشأن جلاء قواته عن أذربيجان. ووعد ستالين، على سبيل التعويض، بمنحه حق امتياز البترول في شمالي ايران (وقد ألغاه البرلمان لاحقاً). قبل ستالين بعدئذ بجلاء قواته، مما أدى إلى تسلّم الفرق الايرانية الأمن واختفاء الجمهورية الديمقراطية المزيفة. من المناسب أن نضيف أن رئيس الوزراء السابق كان قد قدّم شكوى ضد الاتحاد السوفياتي أمام مجلس الأمن (وهذه أول قضية نزاع يعالجها المجلس عام ١٩٤٦، منذ تأسيس منظمة الأمم المتحدة). هذه الشكوى أخذتها الولايات المتحدة على عاتقها فيما بعد.

(١٣) كان المسؤولون المدنيون والعسكريون الكبار يحسبون الحساب لهذا الجانب من شخصيته الذي لا يخفى على أحد.

(١٤) بات الضعف المعنوي للجيش جلياً مع تفاقم الأزمة. والشاهد على ذلك الفرار المكثف للجنود.

(١٥) علمت لاحقاً من فوروهار، أن فكرة الالتقاء بالشاه خلال اعتقاله كانت بإيعاز من سنجابي نفسه، لأنه

كان يستطيع بهذه الطريقة الالتقاء بالشاه وتبرير نفسه أمام الخميني قائلاً إنه اقتيد اقتياداً إلى الشاه بصفته سجيناً.

(١٦) هذه إحدى مسائل الحرب النفسية التي صعّدتها المعارضة اليسارية المتطرفة والتي كان لها وقع الصاعقة. كان الأمر يتعلق بلائحة من ١٢٠ شخصاً تضم في عدادها مسؤولين مدنيين وعسكريين في النظام، هرّبوا إلى خارج البلاد، وبالتواطؤ مع المصرف المركزي، أموالاً تتعدى الخمسة عشر مليار فرنك فرنسي. بعد الثورة اعترف قادة الجمهورية الاسلامية أن هذه اللائحة غير صحيحة.

(١٧) مدركاً المصالح المتداخلة للأشخاص النافذين، لم أكن آخذ على محمل الجد مثل هذا الإعلان.

الحديث الخامس

(١) برقية فلورا لڤيس التي مُنعت في ايران والتي نشرتها من ثم جريدة «النيويورك تايمز» كانت تحمل العنوان التالي: «شاه ايران يحظّر على العائلة المالكة تحقيق أرباح من الصفقات التجارية». «ايران، طهران، ٣ تموز، اتخذ شاه ايران قرارات سرية تقضي بمنع أفراد العائلة الملكية من تحقيق أية أرباح من الصفقات التجارية. إن «نظام سلوك» خاص سوف يُفرض عليهم. أعلن الشاه محمد رضى بهلوي عن قراره هذا خلال حديث قائلاً إن هذا الأمر لم ينشر في ايران: «سوف يعرفه الناس على مرّ الأيام وسيفهمونه شيئاً فشيئاً. إذا طُبّق هذا القرار فعلاً، فسوف يكون له حتماً تأثير كبير لدى الشعب الايراني. الفساد منتشر وكثير من الناس مقتنعون بأن البلاط الملكي هو السبب في هذه الظاهرة. لا أحد يعرف كم من الأموال جمّع أفراد العائلة المالكة الذين يتجاوز عددهم الستين شخصاً، عدا المحيطين بهم. لكن الشائعات في ايران تلمّح إلى «مليارات الدولارات». حين يعلم الايرانيون مضمون قرار الشاه، سوف يظهرون ربما شكوكاً، إلى أن يتحققوا من التغيرات الحقيقية في آلية النظام».

(٢) حين كان الشاه يتكلّم عن الأجانب، كان يقصد الأميركيين. أخبرني السيد ميناتشي، وهو محام انكليزي الثقافة، وصديق سياسي لبزركان ووزير الإعلام في حكومة هذا الأخير، عن زيارة سياسية قام بها هو وشركاؤه إلى الولايات المتحدة خلال صيف ١٩٧٨. هناك استقبلوا بحرارة ونصحهم محدثوهم، في حال قام الشاه بأدنى انتهاك لحقوق الانسان في ايران، بإبلاغهم عن ذلك، كي يسارعوا للتأثير على الشاه من خلال سفير الولايات المتحدة. وقد اتفقوا بهذا الخصوص أن يكون الملحق المهتم بهذه القضايا في السفارة الأميركية في طهران بتصرف الجمعيات المعنية فيجمع شكاويهم المكتوبة أو الشفوية.

(٣) معاهدة دفاع وقعتها دول ثلاث في سنة ١٩٥٨ وهي الباكستان وتركيا وايران. ثم انضمت إليها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لاحقاً.

(٤) كان الشاه يلمّح إلى الحروب الكبرى الإيرانية ـ الروسية في بداية القرن التاسع عشر التي كانت عاقبتها اقتطاع أقاليم القوقاز وأذربيجان الشمالية وأدت إلى معاهدة ١٨٢٨ التي تقر بهزيمة ايران.

(٥) حركة فدائيي الاسلام التي نشأت عام ١٩٤٦ إثر مقتل الكاتب المعروف كاسرافي المتهم بترك تعاليم الاسلام، الذي هزّ الحياة السياسية في ايران حتى عام ١٩٥٣. تُنسب لهذه الحركة أيضاً محاولات اغتيالات مروّعة كتلك التي كلّفت وزير البلاط حياته في عام ١٩٥٠ والجنرال رازمارا رئيس الوزراء في عام ١٩٥١. عام ١٩٥٦، تشتتت هذه الحركة بعد اعدام قادتها، لكنها استمرت في الاستحواذ على ذاكرة الايرانيين حتى الثورة الاسلامية.

(٦) توجد في جميع المدن الايرانية، جمعيات دينية يقوم نشاطها الرئيسي على تنظيم المآتم والأعياد الدينية في المساجد والأماكن العامة كما في البيوت. هذه الجمعيات التي كانت تجتذب الشباب بخاصة وتهيئهم للعب دور في التظاهرات، كانت في أيدي رجال الدين الشيعة أداة جاهزة خلال فترة مخاض الثورة. لا سيما وأن السافاك الذي يشغل باله فقط العدو الشيوعي المجسّد في حزب تودة، لم يكن يملك أية فكرة

عن دور هذه الجمعيات. وهذه، خلال الثورة وبعدها، لعبت دوراً رئيسياً في تأطير الجماهير.

(٧) هما ناطق وزوجها كانا أستاذين جامعيين مقربين من الأوساط اليسارية المتطرفة.

(٨) حاج سيد جوادي كاتب ايراني موهوب وجّه قبل سنتين رسالة مفتوحة إلى الشاه يفضح فيها مخالفات النظام.

(٩) الجنرال توفانيان كان لعدة سنوات نائباً لوزير الدفاع ومكلّفاً بشراء التجهيزات والأسلحة.

(١٠) كان الشاه يُظهر من جديد الغضب الذي تثيره فيه منذ أكثر من عام، النشرات التي تبثها الـ «بي. بي. سي» باللغة الفارسية والتي كانت تسرد باستفاضة نشاطات المعارضة، وتحظى الإذاعة في ايران بنسبة مستمعين منقطعة النظير. كان الشاه قد بعث مرتين وزير الخارجية إلى لندن ليحتج على هذا الوضع، حتى أنه حاول، توسيط الأميركيين من أجل الضغط على الانكليز لكي يوقفوا هذا النوع من النشرات، أو على الأقل، التقليل من عدوانيتها. لكن أيّاً من هذه المساعي لم يفلح.

(١١) رضى قطبي مهندس متخرج من المعهد الوطني للاتصالات في باريس وقريب الشاهبانو، وهو في الوقت نفسه، تقني من مستوى رفيع ومعروف بوطنيته، كرّس نفسه بحماس لتطوير الراديو والتلفزيون في ايران.

الحديث السادس

(١) مقاطعة ايرانية تقع على تخوم الخليج الفارسي، عند حدود العراق.

(٢) مدير سابق للاستخبارات الأميركية، عُين سفيراً في طهران (١٩٧٤ ـ ١٩٧٧). قبل تسلمه هذا المنصب، كان يقيم علاقات حميمة مع الشاه.

(٣) في ١٩٥٧، عقدت ايران معاهدة مع الإيطالي أنريكو مايتي، رئيس الـ Ente E.N.I Nazionale Indrocarburi) مايتي، الذي عُرف عنه عدم خضوعه لضغوطات الشركات البترولية، لقي مصرعه عام ١٩٦٢ خلال حادث طارىء في ايطاليا حين كان على متن طائرته الخاصة. ظروف هذا الحادث بقيت غامضة، خصوصاً وأنه تم في السابق اكتشاف قنبلة موضوعة في الطائرة نفسها. (المؤلف).

(٤) منظمة الدول المصدّرة للبترول أنشئت عام ١٩٦٠، كانت ايران، ولا تزال، عضواً فاعلاً فيها.

(٥) كتبت النيويورك تايمز في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ أن التحليل الخاطىء الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية بخصوص ايران شكل، في حينه، موضوعاً لتحقيق أمر كارتر بإجرائه.

(٦) كان الشاه يحرص بشكل خاص على الإشراف على اتفاقيات التسلح العسكرية. منذ أكثر من عشرين عاماً وهو يدير شخصياً المشتريات في الخارج وصناعة الأسلحة في الداخل، الأمر الذي أتاح له ممارسة موازنة سياسية حكيمة على الصعيد العالمي. الطائرات الحربية مثلاً والغوّاصات والعتاد المتطور للدفاع الجوي تم شراؤها من الولايات المتحدة؛ الدبابات والسفن الحربية من المملكة المتحدة؛ قاذفات الصواريخ من فرنسا؛ الصواريخ المضادة للطائرات ووسائل النقل من الاتحاد السوفياتي. كانت هذه المشتريات تجري عبر وكلاء كان في عدادهم ملوك مخلوعون في أوروبا ـ كملوك ألبانيا وبلغاريا واليونان ـ يحظون بعطف الشاه. فيكتور ـ ايمانويل الثالث، ابن الملك أومبرتو، كان الوسيط الأساسي في شراء طائرات الهيلكوبتر اكوستا ـ بل وبناء مجمعات في أصفهان من أجل تركيبها. (المؤلف).

الحديث السابع

(١) الجنرال دجام، صهر سابق للشاه (الزوج السابق لأخته شمس). دخل في سلك الجيش وصار في عام ١٩٧٠ رئيس الأركان للتنسيق بين الأسلحة. كان ضابطاً متمرساً تماماً بالتقنيات العسكرية الفرنسية والانكليزية، وعُرفت نزاهته وعدم تأييده لتدخل الملك في شؤون الجيش. كلّفه هذا الأمر عزله وإرساله

إلى فرنسا كسفير. عاش لعدة أعوام في لندن، بعيداً عن الحياة السياسية الايرانية. بما أنه كان يتمتع بنفوذ كبير في الجيش وفي الأوساط السياسية، كان تعيينه وزيراً للدفاع في حكومة يرأسها بختيار سيزيد من حظوظها القليلة بالنجاح.

(٢) أوضح دجام لاحقاً أنه سأل الشاه خلال الحديث: «إذا صرتُ وزيراً للدفاع. من سيكون المسؤول عن شؤون الجيش؟» فأجابه الشاه: «كما في السابق!» (وهذا يعني الشاه نفسه).

(٣) كان الشاه يقصد الأميركيين.

(٤) خلال حديث لي مع الملكة فرح، قلت لها: «الدور الذي يمارسه الشاه، بمعانيه ودلالاته المختلفة فريد في العالم. في اللغة الفارسية، كما تعرفين، حين نريد أن نصف شيئاً بالأجمل والأكبر والأكمل نضع أمام الكلمات لفظة التصدير «شاه». ولكي نصف أفضل بيت شعر في قصيدة أو أطول طريق في ايران أو أشهى فاكهة، نستعمل لفظة التصدير «شاه». ألا تدعى أكبر ملحمة أدبية عندنا الشاهنامة أو «كتاب الشاهات» للفردوسي؟ ولكن للأسف، أصبح دور الشاه عقيماً، على صورة الرولز - رويس التي بالرغم من مواصفاتها المذهلة، تجد نفسها دون فائدة وسط الصخور».

(٥) إذا أردنا استعراض المناخ السياسي السائد في تلك الفترة، يمكن قراءة الخبر المستعجل الذي صدر في صحيفة لوموند في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ والذي كتب بقلم المبعوث الخاص إلى مؤتمر الغواطوب، جاك أماريك: «هناك موضوع آخر حساس يعرض للسيد جيسكار ديستان وهو موضوع ايران الذي يريد السيد كارتر التحدث عنه بالتفصيل. إن تصرفات فرنسا، إن لم يكن بمواقفها، مهرطقة في هذا المجال. السيد جيسكار ديستان سيتمكن، دون شك، من الدفاع عن الخطأ الذي ارتكبه قائلاً إنه كان على صواب منذ وقت بعيد: فيما مصير الشاه بات ميؤوساً منه الآن، حتى في الولايات المتحدة، سوف يعتز ديستان بأن له الفضل في إقامة «جسر» مع رجل سيكون له في المستقبل تأثير هام على تطور الوضع وهو آية الله الخميني. والولايات المتحدة من جهتها، أليست في صدد اعلان استعدادها لإقامة علاقات مميزة مع حكومة بختيار؟ أليست في صدد الاعتراف بأنها تنمّي علاقاتها ببعض القوى المعتدلة للمعارضة؟

(٦) حين استقبل الشاه في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ صديقي للمرة الأولى، أسرَّ له أمام علي أميني وعبد الله انتظام برغبته في «تأليف مجلس وصاية والرحيل لبعض الوقت». (المؤلف).

الحديث الثامن

(١) كان يقصد ولتر أننبرغ السفير السابق للولايات المتحدة في لندن، الذي دعاه للنزول في بيته القائم قرب بالم سبرينغز في كاليفورنيا.

(٢) كان يشير إلى دعوة الرئيس المصري أنور السادات الذي لم يكن متأكداً من التلبية.

(٣) ويليم شاوكروس، تُرجم إلى الفرنسية بعنوان: الشاه. منفى وموت شخصية مربكة. منشورات ستوك، ١٩٨٩.

(٤) راجع كتاب الجامعي الأميركي جيمس أ. بيل، النسر والأسد. مأساة العلاقات الأميركية - الايرانية منشورات نيوهافن ولندن ويال يونيفرسيتي الجامعية، ١٩٨٨.

(٥) هناك تقليد ايراني يقضي بأن نلجأ، في مواجهة المصير الغامض، إلى حكمة حافظ لكشف الغيب. نغمض عيوننا ونفتح صدفة ديوان أشعاره فنجد الجواب المتوقّع في القصيدة التي تقع يدنا عليها. (المؤلف).

(٦) أبيات حافظ التي قرأتها في المساء نفسه للملكة فرح عبر الهاتف، كانت تقول الآتي: «مكتوب بأحرف من ذهب. على زرقة السماء: على هذه البسيطة، من الناس وحدها تبقى المآثر». ودعتني الملكة بصوت

متأثر وشكرتني بشكل خاص على صراحتي الدائمة معها حين كنت أحدثها في شؤون البلاد.

القسم الثاني

الاعتقال الأول

(١) مرتضى موتاهاري، رجل فقه منفتح على تيارات الفكر الغربي، وهو في الوقت نفسه أستاذ في جامعة طهران وفي معهد قُم الديني. بما أنه سيحرّك الأفكار الاصلاحية للنظام الديني الشيعي بصفته تلميذاً للخميني، وينعم بثقة الإمام التامة، أصبح المنظّر الأول للثورة الاسلامية. اغتالته في أيار (مايو) ١٩٧٩ زمرة اسلامية معادية لرجال الدين.

(٢) بعد ثورة شباط (فبراير) ١٩٧٩، شُكّلت لجان في المؤسسات والأحياء «للنضال ضد المتواطئين مع النظام والسهر على أمن الثورة».

(٣) كانت منفصلة أثناءها عن المحكمة الثورية التي لم يكن لبزركان أي سلطة عليها.

الاعتقال الثاني

(١) الأمر يتعلق بمصطفى شمران، الذي عاش أكثر من خمس عشرة سنة في الولايات المتحدة ولبنان، كان بخلاف بزركان لا يعرف البلاد ولا الناس.

(٢) من شباط (فبراير) ١٩٧٩ وحتى حزيران (يونيو) ١٩٨١، الفترة التي كان فيها معظم السجناء مسؤولين في النظام الملكي، لم يمارس أي تعذيب أو أي معاملة مذلّة. كان حراس السجون، مثلاً، يحرصون على ألا يكشفوا للمتهمين حكم الإعدام إلاّ في آخر دقيقة. لكن ابتداءً من حزيران ١٩٨١، عندما حاول المجاهدون اسقاط النظام من خلال الانتفاضة المسلحة والاغتيالات والاعتداءات بالقنابل، عندها اعتُبر السجناء الذين يُلقى القبض عليهم إرهابيين وبدأوا يُجلدون لكي يكشفوا عن شبكاتهم.

(٣) تجدر الإشارة هنا إلى أن المعهد الذي كنت أديره منذ ١٩٧٥ وكانت مهمته الشروع في سياسة علمية وطنية. ولكن، حتى تعييني، لم يحصل شيء من هذا القبيل لسبب بسيط وهو أن كل نشاط في هذا المجال كان يتعلق بتخصيصات تمنحها السلطات العليا بطريقة سرية تقريباً، لصالح سياسة شاملة للإنماء الاقتصادي. نظراً لهذه الحالة، شكلت فريق عمل دائم، مؤلّف من خمسة عشر باحثاً علمياً وتقنياً مختارين من بين الجامعيين المشهورين والمسؤولين الحكوميين، بهدف دراسة المسائل المتعلقة بالتطور التكنولوجي في ايران. خلال السنوات الأخيرة من حكم الشاه، أجرينا تحقيقاً عن الاتفاقات المعقودة مع الشركات المتعددة الجنسيات، ولكننا قمنا به بتكتم كبير، لأن وراء كل اتفاقية يرتسم ظل أمير أو أميرة أو قريب من أقرباء للملك. لكننا استطعنا أن نضع في هذا الصدد لائحة واضحة.

(٤) ابراهيم يزدي تخصص في الصيدلة. عاش أكثر من عشرين سنة في الولايات المتحدة ونال الجنسية الأميركية. مثل رفيقه شمران، كان قد فقد كل صلة بإيران.

(٥) في تلك الفترة، أي في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩، كان بني صدر يشغل منصب وزير الخارجية ويستعد للذهاب إلى الولايات المتحدة حيث ستبحث قضية الرهائن أمام مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة. من جهتي، لم أتردد منذ بداية احتلال السفارة، في أن أقول لبني صدر إن على حكومة

الجمهورية الاسلامية اقناع الطلاب بإطلاق الرهائن دون تأخير، بحيث لا تجد الدولة الإيرانية نفسها متورطة في هذه القضية.

(٦) يوم أخلي سبيلي، دعاني إلى تناول فنجان شاي في مكتبه واعترف لي أنه اقتنع ببراءتي منذ قرأ ملفي في الأيام الأولى.

(٧) «ايران، بقيادة الشاه، أضحت جزيرة أمن وثبات في إحدى المناطق الأكثر تقلباً في العالم. هذا يعود إليكم وإلى منجزاتكم يا صاحب الجلالة، وهو نتيجة قيادتكم ونتيجة الاحترام والتقدير والمحبة التي يكنها الشعب لكم» (الرئيس جيمي كارتر، طهران، ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧).

(٨) طلب بكروان استشارة جان ستوتزل والمعهد الفرنسي للرأي العام بهدف إنشاء فريق صغير لدراسة الرأي العام عن طريق الاستقصاء، بمعزل عن السافاك. أسرَّ لي بعد عدة سنوات أنه كان ينوي تعويد الشاه على مثل هذه التحقيقات، حتى وإن كانت نتائجها لن تنشر.

(٩) معهد الدراسات والبحوث الاجتماعية الذي كنت مديره منذ إنشائه في عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٦٩.

(١٠) كتاب «في سرّ الأمراء»، الذي كتبه بالاشتراك مع كريستين أوكران، منشورات سنوك عام ١٩٦٨.

(١١) في خلاصة تقريرهم، يمكن قراءة المقاطع التالية:

«لقد فهمنا أن الزيادة الخيالية للعائدات في إيران عام ١٩٧٣ جعلت النمو غير منسجم وضاعفت من المشاكل».

«الصدمة هائلة: إنها تؤذي الأكبر سناً وتشوّش العائلات وتهزّ المؤسسات وتضع المراتب موضع الشك وتسقط المحرّمات...».

«أزمة هوية، أزمة أخلاق أو أزمة إيمان. كل إمارات المرض ظاهرة في إيران، وبالرغم من كل صعوبات التكيف هذه، يجب على النظام أن يرسّخ قوته مفسحاً المجال أمام حريات جديدة...».

في الواقع، توجد في إيران آليةٌ للرقابة البديهية تقوم على تحظير أي خبر من شأنه إزعاج الشاه. وهذا النوع من القانون غير المكتوب يمكن أن يؤدي إلى أسوأ التجاوزات.

(١٢) النخبة الإيرانية كانت في السابق فرانكوفونية. ولكن منذ ثلاثين عاماً وبفضل التأثير الأميركي، احتلت اللغة الإنكليزية مكانة مرموقة. كان مفهوماً إذاً أن يسعى الفرنسيون للمحافظة على آثار نفوذهم الثقافي في إيران. من جهته، كان الشاه، وبالرغم من افتتانه بالتكنولوجيا والاقتصاد الأميركيين، يكن لفرنسا وداً عميقاً عزّزه مجيء فرح إلى البلاط. كانت الملكة قد استقدمت مربية فرنسية للاهتمام بولي العهد.

(١٣) في «مذكراته» التي صدرت مؤخراً في طهران بعد سنتين من وفاته، يروي الجنرال فردوست. حين لاحظ الإنكليز أنّ الأميركيين قد أصبحوا المستشارين الرئيسيين للإيرانيين منذ إنشاء السافاك (عام ١٩٥٧)، عرضوا خدماتهم لكي يكسبوا رضى الشاه. فنظّموا دورة تدريبية للجنرال فردوست استغرقت ثلاثة أشهر في وكالة المخابرات البريطانية، لكي يتمكن فور عودته إلى إيران من إنشاء مكتب مختص بتحليل المعطيات التي ترفعها أجهزة «المخابرات المختلفة». وأوضح أنه كان يلخّص كل يوم المعلومات في مئتين أو مئتين وخمسين صفحة ليرسلها كل مساء إلى القصر في حقيبة يملك الشاه وحده مفتاحها.

(١٤) المحفل الماسوني الأول أقيم في إيران رسمياً عام ١٩٠٧. منبثقاً من محفل الشرق الأعظم في فرنسا، دُعيَ هذا المحفل بـ «نهضة إيران» وأسّسه أساتذة الحلف الفرنسي، وأقيم مركزه عند أمير تقدمي وهو زاهيرود دوقله. هذا الأمير كان في الوقت نفسه أحد زعماء طائفة صوفية. ليس في الأمر ما يدعو إلى العجب لأن الماسونية بجانبها السراري كانت تجتذب الصوفيين (وهذا بسبب ميولها الباطنية) وبمفهومها لعصرنة تقدمية لا تجافي المعتقدات والتقاليد.

(١٥) ظل هذا الدستور الذي أنشيء آنذاك شكلياً وهو لم يُحترَم فعلاً حتى قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩.
(١٦) أمضيت وأحمد حوماني، نقيب المحامين السابق لطهران، عدة أشهر في السجن خلال اعتقالي الثالث، لخّص لي وجهة نظره على الشكل الآتي: من اللحظة التي أبعد فيها الماسونيون الإيرانيون خلافاً لكل تقاليدهم، المرشح المفضل للمحافل ـ الدكتور لوغهانول ملك ـ ووافقوا على الخضوع لزعيم كبير تفرضه إرادة الشاه من الخارج، تخلّوا عندها عن استقلاليتهم تجاه الحكم القائم وقدّموا الخضوع لسياسة الشاه.

الاعتقال الثالث

(١) بسبب الضربات التي تلقيتها، عانيت لبضعة شهور من آلام في أضلعي.
(٢) طاغوتي صفة مشتقة من طاغوت وهي كلمة قرآنية تعني، كما كلمة فرعون، ذلك الذي لا يريد الخضوع لإرادة الله. في عرف الإسلاميين «طاغوتي» تعني الإنسان «المتغرب» الذي يملك عادات وسلوكيات مختلفة عن الإسلاميين: وجه حليق، لباس على الطريقة الأوروبية، ربطة عنق. النموذج المثالي للطاغوت هو الطبيب. هناك نكتة تجسد جيداً هذا الأمر: بمناسبة التفتيش الذي كان يجريه جنود الثورة على السيارات استباقاً منهم للنشاطات المناهضة للثورة، قال بعضهم لأحد السائقين: «أنت حليق الوجه وترتدي ربطة عنق وتفوح منك رائحة الكحول وتخالف إشارة التوقف؛ اعترف إذاً بأنك طبيب!».
(٣) في تلك الفترة من المواجهات العنيفة، لم يكن خافياً على جنود الثورة أن مجرد الإمساك بإشارة بسيطة أو برقم تلفون يمكن أن يمنع أحياناً عملية تخريب أو اغتيال. (المؤلف).
(٤) كان في إڤين آنذاك عدد كبير من عمال المطابع اتهموا بإصدار جرائد ونشرات معادية للنظام.
(٥) كانوا يخشون من أن نقوم بنفس العمل الذي قام به المجاهدون الذين أصبحوا تحت غطاء إسلامي ذي صبغة ماركسية أشبه بخمير حمر إيرانيين. (المؤلف).
(٦) كانت عبارة «التأهب مع كامل الأمتعة» تعني للسجناء: (١) الانتقال إلى سجن آخر، (٢) إطلاق سراحهم، (٣) أو إعدامهم... حرّاس الثورة كانوا يحرصون دائماً على عدم إعطاء أي توضيح.
(٧) أرادت المحكمة الثورية أن تكون مستقلة عن السلطة التنفيذية، ولم يتورع قضاة إڤين عن إظهار تفوقهم بالنسبة إلى الحكومة خاصة فيما يتعلق بملفات المعتقلين. في الوقت نفسه، كانوا يتباهون بأن المعتقلين يصيرون تحت سلطتهم كلياً ما أن يصلوا إلى إڤين.
(٨) في عام ١٩٨٩، صوّت البرلمان الأوروبي بسذاجة فائقة، بأغلبية ثلثي الأصوات لقرار يطلب من منظمة الأمم المتحدة طرد ممثل الجمهورية الإسلامية والاعتراف بمنظمة المجاهدين كممثل للشعب الإيراني...
(٩) كان هناك في قسمنا معتقل هو أحد رجال الضفادع في ظل النظام السابق. كان جسده من الرأس حتى أخمص قدميه مليئاً بالحروق والجراح لأنه أخفى بواسطة الحمض الكبريتي كل الأوشام التي غطت جسده في السابق: صور نساء عاريات أو كتابات تزعج الجمهورية الإسلامية.
(١٠) لهذا السبب تحديداً، كما أشرنا سابقاً، لم يكن لانتفاضة المجاهدين المسلّحة في حزيران (يونيو) ١٩٨١ أي حظ بالنجاح.
(١١) كانت الحركات الماركسية منها أو القومية والإسلامية تدعي لنفسها الأفكار والدينامية التي أدت إلى الثورة (فيما الأمر تعلّق في الواقع بتداخل كل هذه الاتجاهات).
(١٢) في نظر جيل الشباب الذين كانوا يعتقدون أن نظام الشاه بحجبه المنجزات الشيوعية، قد حرمهم من

امتياز ما، فإن الصفة الفكرية للمتخرجين من الجامعات السوفياتية وجهت ضربة قاضية، خصوصاً في مجال العلوم الإنسانية، إلى أسطورة المعرفة السوفياتية.

(١٣) كانت مهمتي صعبة خصوصاً وأن الإحصاءات الرسمية لم تكن تظهر الأبعاد الحقيقية لهجرة العلماء والكادرات العليا إلى الولايات المتحدة.

(١٤) في التقرير المذكور لمارتن هرتز هامش ورد فيه: بعد تجربتنا معه في موضوع هجرة الأدمغة، خيّب أملنا كثيراً لأنه يحرص بوجه خاص على تحليل المشكلة أكثر مما يحرص على حلها. كان يتلهف كثيراً لنشر كتابه بهذا الخصوص حتى بدا وكأنه يحتفظ بالمسائل المهمة من أجل أن يحدث صدى شعبياً. نراغي رجل تحلو محاورته. مظهره الفوضوي ذو الشعر المنفوش يخفي حساً خيالياً منظماً. برأيي ليس عميلاً للساڤاك بل هو مستقل تماماً وغير مستعد لأن يدلي لنا بأسراره. لا يثق بنا ولا يظهر أي ولاء أو إخلاص تجاهنا رغم انه يتحلى بثقافة عالية.

المحتويات

القسم الأول

في قصور الشاه

القسم الثاني
في سجون الثورة



عدا استثناءات جزئية جداً، لم يستطع أي إيراني ممن عايشوا عن كثب سقوط أمبراطورية آل بهلوي وولادة الثورة الإسلامية، أن يعطي، حتى الآن، شهادة أمينة.

في الساعات الخمسين التي قضاها مع الشاهنشاه خلال الأيام الأخيرة من حكمه، كما في الثلاثة والثلاثين شهراً التي قضاها في سجون الثورة، كان إحسان نراغي ثاقب البصيرة في الحالين. وهو قدّم لنا كتاباً قيّماً وسهل المتناول في آن معاً أثناء تسليطه الضوء على منعطفي الثورة الإيرانية.

الكتاب يعرض لنا، بمشهدية عريضة، زلزالاً سياسياً شبيهاً بثورة ١٧٨٩ الفرنسية أو بثورة ١٩١٧ الروسية. في مشاهده العريضة المتوالية تظهر سحن قاتمة لمتزلفين عديمي الذمة وصعاليك يستحقون الشنق. كما تظهر وجوه مؤثرة مثل الأمبراطورة المستنيرة فرح التي عجزت عن لجم فساد العائلة المالكة، ومثل شبان إسلاميين محكومين بالإعدام طحنتهم الآلة التي ساعدوا في اطلاق دورتها.

إحسان نراغي عالم الاجتماع والمؤرخ ومؤسس معهد الأبحاث الاجتماعية في طهران، والمستشار لدى اليونسكو، وصاحب أعمال عديدة بينها كتاب «الشرق وأزمة الغرب» الصادر عام ١٩٧٧، يقدّم لنا هذا الكتاب عن رؤيته ومشاهداته لتلك المرحلة الحاسمة من تاريخ إيران.

من يعرف السيد نراغي، يدرك إلى أي حد سمحت له رهافته الفكرية شجاعة النقد دون تجريح وتبيان الخطأ دون إظهاره بمظهر الإهانة ووصف الوقائع دون السقوط في الإغواءات الايديولوجية التي تفتقر من غنى النفس البشرية والمهارة السياسية.

«فريدريك مايور»


ISBN 1-85516-755-7
9 781855 167551

